موسوعة العلامة

ابن خلدون

المجلد العاشر

دار الكتاب المصري — القاهرة
دار الكتاب اللبناني — بيروت

دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

١٢ شارع قصر النيل - القاهرة ج. م. ع

تلفون: ٣٩٢٢١٦٨/ ٣٩٣٤٣٠١ - فاكسميلي ٣٩٣٤٦٥٧ (٢٠٢)

ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقياً: كتامصر

FAX (202) 3924657

ATT. MR HASSAN EL ZEIN

دارُ الكتابِ اللبنانيّ

طباعة - نشر - توزيع

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

تلفون: ٧٣٥٧٣١ - ٧٣٥٧٣٢ - فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)

برقياً: داكلبان - ص.ب.: ١١/٨٣٣٠ - بيروت - لبنان

FAX. (9611) 351433

ATT.: MR. HASSAN EL- ZEIN

تاريخ العلامة

ابن خلدون

المجلد العاشر

I.S.B.N. 977 - 238 - 037 - 4

دار الكتاب المصري
٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج. م. ع.
تلفون: ٢٩٢٢١٦٨/ ٢٩٢٤٣٠١ - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقياً: كتامصر
FAX: (202) 3924657
ATT.. MR. HASSAN EL - ZEIN

دار الكتاب اللبناني
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
تلفون: ٧٣٥٧٣١ - ٧٣٥٧٣٢ - فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
برقياً: داكلبان - ص.ب: ١١/٨٣٣٠ - بيروت - لبنان
FAX (9611) 351433
ATT. MR. HASSAN EL- ZEIN

طبعة مزيدة ومنقحة

١٤٢٠ هـ
H. 1420

١٩٩٩ م
A.D. 1999

تاريخ العلامة

ابن خلدون

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوي السلطان الأكبر
وهو تاريخ وحيد عصره

العلامة عبد الرحمن
ابن خلدون المغربي

المجلد العاشر

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلد الخامس

القسم الرابع

من تاريخ العلامة ابن خلدون

حصار العزيز ثانيا دمشق وهزيمته

ولما عاد العزيز الى مصر عاد موالي صلاح الدين الى اغرائه بأخيه الافضل، فتجهز لحصاره بدمشق سنة احدى وتسعين. وسار الافضل من دمشق الى عمه العادل بقلعة جعبر، ثم الى أخيه الظاهر غازي بحلب مستنجداً لهما. وعاد الى دمشق فوجد العادل قد سبقه اليها، واتفقا على ان تكون مصر للأفضل، ودمشق للعادل. ووصل العزيز الى قرب دمشق. وكان الاكراد وموالي

شيركوه منحرفين عنه كما قدّمناه وشيعة للافضل ، ومقدمهم سيف الدين ابو ركوش من الموالي ، وابو الهيجاء السمين من الاكراد فدلسا للافضل بالخروج الى العزيز ، وواعداه الهزيمة عنه فخرجا في العساكر ، وانحاز اليهما الموالي والاكراد ، وانهزم العزيز الى مصر .

وبعث الافضل العادل الى القدس فتسلمه من نائب العزيز ، وساروا في اتباعه الى مصر والعساكر ملتفة على الافضل ، فارتاب العادل وخشي ان لا يفي له الافضل بما اتفقا عليه ، ولا يمكنه من دمشق فراسل العزيز بالثبات وأن ينزل حامية ، ووعد من نفسه المظاهرة على أخيه وتكفل له منعه من مقاتلته بلبيس فترك العزيز بها فخر الدين جهاركس في عسكر من موالي أبيه . وأراد الافضل مناجزتهم فمنعه العادل فاراد الرحيل الى مصر فمنعه ايضاً . وقال له : ان أخذت مصر عنوة انخرقت الهيبة ، وطمع فيها الاعداء والمطاولة أولى . ودسّ الى العزيز بارسال القاضي الفاضل . وكان مطاعاً فيهم لمنزلته عند صلاح الدين فجاء اليهما ، وعقد الصلح بينهم على ان يكون للافضل القدس وفلَسْطين وطَبَرِيّة والاردن مضافة الى دمشق ، ويكون للعادل كما كان القديم . ويقيم بمصر عند العزيز يدبر امره ، وتحالفوا على ذلك ، وعاد الافضل الى دمشق ، وأقام العادل عند العزيز بمصر انتهى ، والله أعلم

استيلاء العادل على دمشق

ثم ان العزيز استمال العادل وأطمعه في دمشق ان يأخذها من اخيه ويسلمها اليه ، وكان الظاهر صاحب حلب يعذل الافضل في موالاة عمه العادل ، ويحرضه على ابعاده فيلجّ في ذلك. ثم ان العادل والعزيز سارا من مصر وحاصرا دمشق . واستمالا من امراء الافضل أبا غالب الحمصي على وثوق الافضل به واحسانه اليه ، ففتح لهما الباب الشرقي عشي السابع والعشرين من رجب سنة اثنتين وتسعين فدخل العادل منه الى دمشق ، ووقف العزيز بالميدان الاخضر ، وخرج اليه أخوه الافضل . ثم دخل الافضل دار شيركوه ، وأظهروا مصالحة الافضل خشية من جموعه . وأعادوه الى القلعة ، واقاموا بظاهر البلد . والافضل يغاديهم كل يوم ويراوحهم حتى استفحل أمرهم فأمروه بالخروج من دمشق ، وتسليم أعمالها وأعطوه قلعة صرخد . وملك العزيز القلعة . ونقل للعادل أن العزيز يريد ان يتردّد الى دمشق فجاء اليه ، وحمله على تسليم القلعة فسلمها ، وخرج الافضل الى رستاق له خارج البلد فأقام به ، وسار منه الى صرخد . وعاد العزيز الى مصر ، وأقام العادل بدمشق ، والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه وأحكم .

فتح العادل يافا من الافرنج واستيلاء الافرنج على بيروت وحصارهم تبنين

ولما توفي صلاح الدين، وملك أولاده بعده، جدّد العزيز المدنة مع الكندهري ملك الافرنج، كما عقد أبوه معه. وكان الامير أسامة يقطع بيروت فكان يبعث الشواني للاغارة على الافرنج. وشكوا ذلك الى العادل بدمشق، والعزيز بمصر فلم يشكياهم فأرسلوا الى ملوكهم وراء البحر يستنجدونهم فأمدوهم بالعساكر، واكثرهم من الالمان. ونزلوا بعكا، واستنجد العادل بالعزيز فبعث اليه بالعساكر، وجاءته عساكر الجزيرة والموصل، واجتمعوا بعين جالوت وأقاموا رمضان وبعض شوّال من سنة اثنتين وتسعين. ثم ساروا الى يافا فلكوا المدينة أولا وخربوها. وامتنع الحامية بالقلعة فحاصروها وفتحوها عنوة واستباحوها.

وجاء الافرنج من عكا لصريخ اخوانهم، وانتهوا الى قيسارية فبلغهم خبر وفادتهم، وخبر وفادة الكندهري ملكهم بعكا فرجعوا ثم اعتزموا على قصد بيروت فسار العادل لتخريبها حذراً عليها من الافرنج فتكفل له أسامة عاملها بحمايتها. وعاد ووصل اليها الافرنج يوم عرفة من السنة، وهرب منها اسامة وملكوها. وفرّق العادل العساكر فخربوا ما كان بقي من صيدا بعد تخريب صلاح الدين، وعاثوا في نواحي صور فعاد الافرنج الى صور، ونزل المسلمون

على قلعة هونين. ثم نازل الافرنج حصن تبنين في صفر سنة أربع وتسعين، وبعث العادل عسكراً لحمايته فلم يغنوا عنه. ونقب الافرنج أسواره فبعث العادل بالصريخ الى العزيز صاحب مصر فاغذّ السير بعساكره، وانتهى الى عسقلان في ربيع من السنة.

وكان المسلمون في تبنين قد بعثوا الى الافرنج من يستأمن لهم، ويسلمون لهم فأنذرهم بعض الافرنج بأنهم يغدرون بهم فعادوا الى حصنهم، وأصرّوا على الامتناع حتى وصل العزيز الى عسقلان فاضطرب الافرنج لوصوله، ولم يكن لهم ملك، وانما كان معهم الجنصكير القسيس[1] من أصحاب ملك الالمان، والمرأة زوجة الكندهري فاستدعوا ملك قبرص واسمه هنري وهو أخ الملك الذي أسر بحطين فجاءهم وزوّجوه بملكتهم. فلما جاء العزيز وسار من عسقلان الى جبل الخليل وأطلّ على الافرنج وناوشهم القتال، رجع الافرنج الى صور ثم الى عكا. ونزلت عساكر المسلمين بالبحور فاضطرب أمراء العزيز، واجتمع جماعة منهم وهم: ميمون القصري وقراسنقر والحجاب وابن المشطوب على الغدر بالعزيز ومدّبر دولته فخر الدين جهاركس، فأغذ السير الى مصر. وتراسل العادل والافرنج في الصلح. وانعقد بينهم في شعبان من السنة، ورجع العادل الى دمشق، وسار منها الى ماردين كما يأتي خبره، والله تعالى أعلم.

---

(١) كذا، وفي الكامل: وكان المرجع إلى القسيس الخنصكير من أصحاب ملك الألمان.

وفاة طغتكين بن ايوب باليمن وملك ابنه اسمعيل ثم سليمان بن تقي الدين شاهنشاه

قد كان تقدم لنا أن سيف الاسلام طغتكين بن أيوب سار الى المدينة سنة ثمان وسبعين بعد وفاة أخيه شمس الدولة توران شاه، واختلاف نوّابه باليمن. واستولى عليها ونزل زبيد وأقام بها الى ان توفي في شوال سنة ثلاث وتسعين، وكان سيء السيرة كثير الظلم للرعية جمّاعاً للاموال. ولما استفحل بها أراد الاستيلاء على مكة فبعث الخليفة الناصر الى أخيه صلاح الدين يمنعه من ذلك فنعه. ولما توفي ملك مكانه ابنه اسمعيل وبلغ المعز وكان أهوج فانتسب في بني أمية، وادعى الخلافة وتلقب بالهادي ولبس الخضرة وبعث اليه عمه العادل بالملامة والتوبيخ فلم يقبل، وأساء السيرة في رعيته وأهل دولته فوثبوا به وقتلوه.

وتولّى ذلك سيف الدين سنقر مولى أبيه، ونصب أخاه الناصر سنة ثمان وتسعين فأقام بأمره. ثم هلك سنقر لاربع سنين من دولته، وقام مكانه غازي بن جبريل من أمرائهم، وتزوّج أمّ الناصر. ثم قتل الناصر مسموماً وثأر العرب منه بغازي المذكور. وبقي أهل اليمن فوضى، واستولى على طغان وبلاد حضرموت محمد بن محمد الحميري، واستبدت امّ الناصر، وملكت زبيد، وبعثت في طلب أحد من بني أيوب تملكه على اليمن. وكان

للمظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ، وقيل لابنه سعد الدين شاهنشاه ابن اسمه سليان ترهب ولبس المسوح ، ولقيه بالموسم بعض غلمانها وجاءته فتزوجته وملكته اليمن ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

مسير العادل الى الجزيرة وحصاره ماردين

كان نور الدين ارسلان شاه مسعود صاحب الموصل قد وقع بينه وبين قطب الدين محمد ابن عمه عماد الدين زنكي ، صاحب نصيبين والخابور والرقة ، وبين أبيه عماد الدين قبله فتنة بسبب الحدود في تخوم أعمالهم . فسار نور الدين اليه في عساكره ، وملك منه نصيبين . ولحق قطب الدين بحرّان والرُها إيالة العادل ابن أيوب . وبعث اليه بالصريخ وهو بدمشق ، وبذل له الاموال في انجاده فسار العادل الى حران ، وارتحل نور الدين من نصيبين الى الموصل . وسار قطب الدين اليها فملكها ، وسار العادل الى ماردين في رمضان من السنة فحاصرها . وكان صاحبها حسام الدين بولو ارسلان بن أبي الغازي بن ألبا بن تمرتاش أبي الغازي بن أرتق ، وهو صبي ، وكافله مولى النظام برتقش مولى أبيه والحكم له . ودام حصاره عليها ، وملك الربض وقطع الميرة عنها . ثم رحل عنها في العام القابل كما تقدّم في أخبار دولة زنكي ، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده .

وفاة العزيز صاحب مصر وولاية اخيه الافضل

ثم توفي العزيز عثمان بن صلاح الدين آخر محرّم سنة خمس وتسعين، وكان فخر الدين اياس جهاركس مولى أبيه مستبداً عليه فأرسل العادل بمكانه من حصار ماردين يستدعيه للملك. وكان جهاركس هذا مقدّم موالي صلاح الدين، وكانوا منحرفين عن الافضل. وكان موالي صلاح الدين شيركوه والاكراد شيعة له. وجمعهم جهاركس لينظر في الولاية، وأشار بتولية ابن العزيز فقال له سيف الدين ايازكوش مقدّم موالي شيركوه: لا يصلح لذلك لصغره إلّا أن يكفله أحد من ولد صلاح الدين. لان رياسة العساكر صنعة. واتفقوا على الافضل. ثم مضوا الى القاضي الفاضل فأشار بذلك أيضاًو أرسل ايازكوش يستدعيه من صرخد فسار آخر صفر من السنة.

ولقيه الخبر في طريقه بطاعة القدس له، وخرج أمراء مصر فلقوه ببلبيس وأضافه أخوه المؤيد مسعود، وفخر الدين جهاركس مدبّر دولة العزيز فقدّم أخاه وارتاب جهاركس، واستأذنه في المسير ليصلح بين طائفتين من العرب اقتتلا فأذنه فسار فخر الدين الى الى القدس وتملكه. ولحقه جماعة من موالي صلاح الدين منهم: قراجا الدكرمس وقراسنقر. وجاءهم ميمون القصري فقويت شوكتهم به، واتفقوا على عصيان الافضل. وأرسلوا الى الملك

العادل يستدعونه فلم يعجل لاجابتهم لطمعه في أخذ ماردين، وارتاب الافضل بموالي صلاح الدين، وهم: شقيرة وانبك مطيش وألبكي. ولحق جماعة منهم بأصحابهم بالقدس، وأرسل الافضل اليهم في العود على ما يختارونه فامتنعوا، وأقام هو بالقاهرة، وقرّر دولته وقدّم فيها سيف الدين اياز كوش والملك لابن أخيه العزيز عثمان، وهو كافل له لصغره. وانتظمت أمورهم على ذلك انتهى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حصار الافضل دمشق وعودته عنها

ولما انتظمت الامور للافضل بعث اليه الظاهر غازي صاحب حلب، وابن عمه شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص يغريانه بملك دمشق لغيبة العادل عنها في حصار ماردين، ويعدانه المظاهرة فسار من منتصف السنة، ووصل الى دمشق منتصف شعبان. وسبقه العادل اليها، وترك العساكر مع ابنه الكامل على ماردين ولما نزل الأفضل على دمشق وكان معه الامير مجد الدين أخو عيسى الهكاري فداخل قوماً من الاجناد في دمشق في أن يفتحوا له باب السلامة. ودخل منه هو والافضل سراً وانتهوا الى باب البريد ففطن عسكر العادل لقلتهم، وانقطاع مددهم فتراجعوا وأخرجوهم. ونزل الافضل بميدان الحصار. وضعف أمره واعصوصب الاكراد من عساكره فارتاب بهم الآخرون، وانحازوا

عنهم في المعسكر. ووصل شيركوه صاحب حمص، ثم الظاهر صاحب حلب آخر شعبان وأوّل رمضان لمظاهرة الافضل. وارسل العادل الى موالي صلاح الدين بالقدس فساروا اليه وقوي بهم، ويئس الافضل وأصحابه، وخرج عساكر دمشق ليبيتوهم فوجدوهم حذرين فرجعوا. وجاء الخبر الى العادل بوصول ابنه محمد الكامل الى حَرّان فاستدعاه، ووصل منتصف صفر سنة ست وتسعين، فعند ذلك رحلت العساكر عن دمشق، وعاد كل منهم الى بلاده انتهى، والله أعلم.

افراج الكامل عن ماردين

قد كان تقدّم لنا مسير العادل الى ماردين، وسار معه صاحب الموصل وغيره من ملوك الجزيرة وديار بكر، وفي نفوسهم غصص من تغلب العادل على ماردين وغلبهم. فلما عاد العادل الى دمشق لمدافعة الافضل، وترك ابنه الكامل على حصار ماردين، واجتمع ملوك الجزيرة وديار بكر على مدافعته عنها. وسار نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل، وابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي صاحب سنجار، وابن عمه قطب الدين سنجار شاه بن غازي صاحب جزيرة ابن عمر، واجتمعُوا كلهم ببدليس حتى قضوا عيد الفطر، وارتحلوا سادس شوّال وقاربوا جبل ماردين. وكان أهل ماردين قد اشتدّ عليهم الحصار، وبعث النظام برتقش صاحبها الى الكامل بتسليم

القلعة على شروط اشترطها الى أجل ضربه . وأذن لهم الكامل في ادخال الاقوات في تلك المدّة .

ثم جاءه الخبر بوصول صاحب الموصل ومن معه فنزل القائم للقائهم ، وترك عسكراً بالربض . وبعث قطب الدين صاحب سنجار الى الكامل ، ووعده بالانهزام فلم يعن . ولما التقى الفريقان حمل صاحب الموصل عليهم مستميتاً فانهزم الكامل ، وصعد الى الربض فوجد أهل ماردين قد غلبوا عسكره الذين هنالك ونهبوا مخلفهم . فارتحل الكامل منتصف شوّال مجفلاً ، ولحق بميافارقين . وانتهب أهل ماردين مخلفه . ونزل صاحبها فلقي صاحب الموصل . وعاد الى قلعته . وارتحل صاحب الموصل الى رأس عين لقصد حُلوان والرُها وبلاد الجزيرة من بلاد العادل فلقيه هنالك رسول الظاهر صاحب حلب يطلبه في السكة والخطبة ، فارتاب لذلك ، وكان عازماً على نصرتهم فقعد عنهم ، وعاد الى الموصل . وأرسل الى الافضل والظاهر يعتذر بمرض طرقه وهما يومئذ عـلى دمشق ، ووصل الكامل من ميافارقين الى حران فاستدعاه أبوه من دمشق وسار اليه في العساكر فأفرج عنه الافضل والظاهر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

استيلاء العادل على مصر

ولما رحل الافضل والظاهر الى بلادهم تجهز العادل الى مصر ،

وأغراه موالي صلاح الدين بذلك، واستحلفوه على أن يكون ابن العزيز ملكاً وهو كافله. وبلغت الاخبار بذلك الى الافضل وهو في بلبيس فسار منها، ولقيهم فانهزم لسبع خلون من ربيع الآخر سنة ست وتسعين. ودخل القاهرة ليلاً، وحضر الصلاة على القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، توفي تلك الليله. وسار العادل لحصار القاهرة، وتخاذل أصحاب الافضل منه فأرسل الى عمه في الصلح وتسليم الديار المصرية له على أن يعوّضه دمشق أو بلاد الجزيرة وهي : حران والرها وسروج فلم يجبه، وعوّضه ميافارقين وجبال نور، وتحالفوا على ذلك. وخرج الافضل من القاهرة ثامن عشر ربيع واجتمع بالعادل، وسار الى بلده صرخد.

ودخل العادل القاهرة من يومه، ولما وصل الافضل صرخد بعث من يتسلم البلاد التي عوّضه العادل، وكان بها ابنه نجم الدين أيوب فامتنع من تسليم ميافارقين، وسلم ما عداها. وردّد الافضل رسله في ذلك الى العادل فزعم أن ابنه عصاه فعلم الافضل انه أمره، واستفحل العادل في مصر، وقطع خطبة المنصور بن العزيز، وخطب لنفسه واعترض الجند وخصهم بالمحو والاثبات فاستوحشوا لذلك. وبعث العادل فخر الدين جهاركس مقدم موالي صلاح الدين في عسكر الى بانياس ليحاصرها، ويملكها لنفسه ففصل من مصر للشام في جماعة الموالي الصلاحية. وكان بها الامير بشارة

من أمراء الترك ، ارتاب العادل بطاعته فبعث العساكر اليه مع جهاركس ، والله تعالى أعلم .

مسير الظاهر والافضل الى حصار دمشق

ولما قطع العادل خطبة المنصور بن العزيز بمصر استوحش الامراء لذلك ، ولما كان منه في اعتراض الجند فراسلوا الظاهر بحلب والافضل بصرخد أن يحاصرا دمشق فيسير اليهما الملك العادل فيتأخرون عنه بمصر ، ويقومون بدعوتهما . ونمي الخبر الى العادل ، وكتب به اليه الامير عز الدين أسامة جاء من الحج ، ومرّ بصرخد فلقيه الافضل ، ودعاه الى أمرهم وأطلعه على ما عنده فكتب به الى العادل . وأرسل العادل الى ابنه المعظم عيسى بدمشق يأمره بحصار الافضل بصرخد . وكتب الى جهاركس بمكانه من حصار بانياس ، والى ميمون القصري صاحب نابلس بالمسير معه الى صرخد ففرّ منها الافضل الى أخيه الظاهر بحلب ، فوجده يتجهز لانه بعث أميراً من أمرائه الى العادل فردّه من طريقه . فسار الى منبج فملكها ، ثم قلعة نجم كذلك ، وذلك سلخ رجب من سنة سبع وتسعين .

وسار المعظم بقصد صرخد ، وانتهى الى بصرى ، وبعث عن جهاركس والذين معه على بانياس فغالطوه ولم يجيبوه فعاد الى دمشق . وبعث اليهم الامير أسامة يستحثهم فأغلظوا له في القول ، وتناوله

البكاء منهم، وثاروا به جميعاً فتذمم لميمون القصري منهم فأمنه، وعاد الى دمشق. ثم ساروا الى الظاهر حضر به صلاح الدين وأنزله من صرخد، واستحثوا الظاهر والافضل للوصول فتباطأ الظاهر عنهم، وسار من مَنْبِجَ إلى حماة فحاصرها حتى صالحه صاحبها ناصر الدين محمد على ثلاثين ألف دينار صورية. فارتحل عنها تاسع رمضان الى حمص ومعه أخوه الافضل، ومنها الى بعلبك والى دمشق. ووافاه هنالك الموالي الصلاحية مع الظاهر خضر بن مولاهم. وكان الوفاق بينهم اذا فتحوا دمشق أن تكون بيد الافضل فاذا ملكوا مصر سار اليها، وبقيت للظاهر. وأقطع الافضل صرخد لمولى أبيه زين الدين قراجا، وأخرجا أهله منها الى حمص عند شيركوه بن محمد بن شيركوه.

وكان العادل قد سار من مصر الى الشام فانتهى الى نابلس، وبعث عسكراً الى دمشق، ووصلوا قبل وصول هذه العساكر فلما وصلوها قاتلوها يوماً وثانيه منتصف ذي القعدة، وأشرفوا على أخذها فبعث الظاهر الى الافضل بأن دمشق تكون له فاعتذر بأنّ أهله في غير مستقرّ، ولعلهم يأوون الى دمشق في خلال ما يملك مصر، فلجّ الظاهر في ذلك. وكان الموالي الصلاحية مشتملين على الافضل وشيعة له فخيرهم بين المقام والانصراف، ولحق فخر الدين جهاركس وقراجا بدمشق فامتنعت عليهم، وعادوا الى تجديد الصلح مع العادل على ان يكون للظاهر منبج وأفامية

وكفرطاب وبعض قرى المعرّة ، والافضل له سميساط وسروج ورأس عين وحملين فتم ذلك بينهم ورحلوا عن دمشق في محرّم سنة ثمان وتسعين .

وسار الظاهر الى حلب والافضل الى حمص فأقام بها عند أهله ، ووصل العادل الى دمشق في تاسوعاء ، وجاءه الافضل فلقيه بظاهر دمشق ، وعاد الى بلاده فتسلمها . وكان الظاهر والافضل لما فصلا من منبج الى دمشق بعثا الى نور الدين صاحب الموصل أن يقصد بلاد العادل بالجزيرة ، وكانت بينه وبينهما وبين صاحب ماردين يمين واتفاق على العادل ، منذ ملك مصر مخافة أن يطرق أعمالهم ، فسار نور الدين عن الموصل في شعبان ومعه ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار وعسكر ماردين ، ونزلوا رأس عين . وكان بحران الفائز بن العادل في عسكر يحفظ أعمالهم بالجزيرة فبعث الى نور الدين في الصلح ، ووصل الخبر بصلح العادل مع الظاهر والافضل فأجابهم نور الدين الى الصلح واستحلفوا ، وبعث ارسلان من عنده الى العادل فاستحلفوه أيضاً وصحت الحال ، والله تعالى ولي التوفيق.

حصار ماردين ثم الصلح بين العادل والاشرف

ثم بعث الملك العادل ابنه الاشرف موسى في العساكر لحصار ماردين فسار اليها ومعه عساكر الموصل وسنجار ، ونزلوا بالحريم تحت ماردين . وسار عسكر من قلعة البازغية من أعمال ماردين

لقطع الميرة عن عسكر الاشرف ، فلقيهم جماعة من عسكر الاشرف وهزموهم. وأفسد التركمان السابلة في تلك النواحي ، وامتنع على الاشرف قصده فتوسط الظاهر غازي في الاصلاح بينهم ، على أن يحمل صاحب ماردين للعادل مائة وخمسين الف دينار ، والدينار أحد عشر قيراطاً من الاميري ، ويخطب له ببلاده ويضرب السكة باسمه ، وتعسكر طائفة من جنده معه متى دعاهم لذلك ، فاجاب العادل وتمّ الصلح بينهما ، ورحل الاشرف عن ماردين ، والله أعلم .

اخذ البلاد من يد الافضل

قد كان تقدم أن الظاهر والافضل لما صالحا العادل سنة سبع وتسعين أخذ الافضل سميساط وسروج ورأس عَيْن وحملين ، وكانت بيده معها قلعة نجم التي ملكها الظاهر بين يدي الحصار قبل الصلح ثم استردّ العادل البلاد من يد الافضل سنة تسع وتسعين ، وأبقى له سميساط وقلعة نجم فطلب الظاهر قلعة نجم على أن يشفع له عند العادل في رد ما أخذ منه فلم يجب فتهدّده . ولم تزل الرسل تتردّد بينهما حتى سلمها اليه في شعبان من السنة ، وبعث الافضل أمّه الى العادل في رد سروج ورأس عين عليهم فلم يشفعها فبعث الافضل الى ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم بطاعته وأن يخطب له فبعث اليه بالخلعة ، وخطب له الافضل في سميساط

سنة ستمائة. وسار من جملة نوابه في أعماله. وفي سنة تسع وتسعين هذه خاف على مصر محمود بن العزيز صاحب مصر بعث العساكر الى الرها، لانه لما قطع خطبته من مصر سنة ست وتسعين خاف على مصر من شيعة أبيه فأخرجه سنة ثمان وتسعين الى دمشق. ثم نقله في هذه السنة الى الرها، ومعه اخواته وأمه وأهله فأقاموا بها، والله أعلم.

واقعة الأشرف مع صاحب الموصل

كانت الفتنة متصلة بين نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل، وبين ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار، واستمال العادل بن أيوب قطب الدين فخطب له بأعماله. وسار اليه نور الدين غيرة من ذلك فحاصر نصيبين في شعبان من سنة ستمائة. وبعث قطب الدين يستمد الاشرف موسى بن العادل وهو بحران فسار الى رأس عين لامداده، ومدافعة نور الدين عنه بعد أن اتفق على ذلك مع مظفر الدين صاحب إربل، وصاحب جزيرة ابن عمر وصاحب كيفا وآمد. ففارق نور الدين نصيبين، وسار اليها الاشرف، وجاءه أخوه نجم الدين صاحب ميافارقين وصاحب كيفا وصاحب الجزيرة، وساروا جميعاً الى بلد البقعا ونور الدين صاحب الموصل قد انصرف من تل أعفر، وقد ملكها الى كفررمان معتزماً على مطاولتهم الى أن يفترقوا. ثم أغراه بعض مواليه كان بعثه عيناً عليهم فقاتلهم

في عينه، وحرضه على معاجلتهم باللقاء فسار الى نوشرا ونزل قريباً منهم. ثم ركب لقتالهم واقتتلوا فانهزم نور الدين ولحق بالموصل ونزل الاشرف وأصحابه كفرزمان وعاثوا في البلاد واكتسحوها. وترددت الرسل بينهم في الصلح على أن يعيد نور الدين على قطب الدين قلعة تل أعفر التي أخذها له فتم ذلك سنة احدى وستمائة وعاد الى بلده، والله تعالى أعلم.

وصول الافرنج الى الشام والصلح معهم

ولما ملك الافرنج القسطنطينية من يد الروم سنة احدى وستمائة تكالبوا على البلاد، ووصل جمع منهم الى الشام وأرسوا بعكا عازمين على ارتجاع القدس من المسلمين. ثم ساروا في نواحي الاردن فاكتسحوها، وكان العادل بدمشق استنفر العساكر من الشام ومصر، وسار فنزل بالطور قريباً من عكا لمدافعتهم وهم قبالته بمرج عكا. وساروا الى كفركنا فاستباحوه. ثم انقضت احدى وستمائة وتراسلوا في المهادنة على أن ينزل لهم العادل عن كثير من مناصف الرملة وغيرها، ويعطيهم (١) وغيرها. وتمّ ذلك بينهم وسار العادل الى مصر فقصد الافرنج حماة، وقاتلهم صاحبها ناصر الدين محمد فهزموه وأقاموا أياماً عليها ثم رجعوا، والله تعالى أعلم.

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٣١٤: وكان الملك العادل أبو بكر بن أيوب بمصر، فسار منها إلى الشام فوصل إلى الرملة ومنها إلى لد، وبرز الفرنج من عكا ليقصدوه.

غارة ابن ليون على اعمال حلب

قد تقدم لنا ذكر ابن ليون ملك الارمن وصاحب الدروب فأغار سنة اثنتين وستمائة على أعمال حلب واكتسحها، واتصل ذلك منه فجمع الظاهر غازي صاحب حلب، ونزل على خمسة فراسخ من حلب وفي مقدمته ميمون القصري من موالي أبيه منسوباً الى قصر الخلفاء بمصر، ومنه كان أبوه. وكان الطريق الى بلاد الارمن متعذراً من حلب لتوعر الجبال وصعوبة المضايق، وكان ابن ليون قد نزل في طرف بلاده لما يلي حلب، ومن ثغورها قلعة دربساك فخشي الظاهر عليها منه، وبعث اليها مدداً، وأمر ميمون القصري ان يشيعه بطائفة من عسكره ففعل، وبقي في خف من الجند. ووصل خبره الى ابن ليون فكبس القصري ونال منه ومن المسلمين، وانهزموا أمامه فظفر بمخلفهم، ورجع فلقي في طريقه المدد الذي بعث الى دربساك فهزمهم وظفر بما كان معهم، وعاد الارمن الى بلادهم فاعتصموا بحصونهم، والله تعالى أعلم.

استيلاء نجم الدين بن العادل على خلاط

كان العادل قد استولى على ميافارقين، وأنزل بها ابنه الاوحد نجم الدين. ثم استولى نجم الدين على حصون من أعمال خلاط، وزحف اليها سنة ثلاث وستمائة، وقد استولى عليها بلبان مولى

شاهرين فقاتله وهزمه، وعاد الى ميافارقين فهزمهم. ثم دخلت سنة أربع وستمائة. وملك مدينة سوس وغيرها، وأمده أبوه العادل بالعساكر فقصد خلاط وسار اليه بليان فهزمه نجم الدين وحاصره بخلاط. وبعث بليان الى مغيث الدين طغرل شاه بن قايج ارسلان صاحب ارزن الروم يستنجده فجاء في عساكره، واجتمع مع بليان، وانهزم نجم الدين ونزلا على مدينة تلبوس فحاصراها. ثم غدر طغرل شاه ببليان وقتله وسار الى خلاط ليملكها فطرده أهلها، فسار الى ملازكرد فامتنعت عليه، فعاد الى بلاده.

وأرسل أهل خلاط الى نجم الدين فملكوه خلاط وأعمالها، وخافه الملوك المجاورون له وملك الكرك، وتابعوا الغارات على بلاده فلم يخرج اليهم خشية على خلاط. واعتزل جماعة من عسكر خلاط فاستولوا على حصن وان من أعظم الحصون وأمنها فعصوا على نجم الدين، واجتمع اليهم جمع كثير، وملكوا مدينة أرجيش واستمدّ نجم الدين على خلاط وأعمالها، وعاد أخوه الاشرف الى أعماله بحران والرها. ثم سار الاوحد نجم الدين الى ملازكرد ليرتب أحوالها فوثب أهل خلاط على عسكره فأخرجوهم وحصروا أصحابه بالقلعة، ونادوا بشعار بني شاهرين. وعاد نجم الدين اليهم وقد وافاه عسكر من الجزيرة فقوي بهم وحاصر خلاط، واختلف أهلها فملكها واستلحم أهلها، وحبس كثيراً من أعيانها كانوا فارّين

وذلّ أهل خلاط لبني أيوب بعْد هذه الوقعَة الى آخر الدولة، والله تعَالى أعلم .

غارات الافرنج بالشام

كان الافرنج بالشام قد أكثروا الغارات سنة أربع وستمائة بحشد ثان[1] ثم ملكوا القسطنطينية واستفحل ملكهم فيها فأغار أهل طرابلس، وحصن الاكراد منهم على حمص وأعمالها . وعجز صاحبها شيركوه بن محمد بن شيركوه عن دفاعهم، واستنجد عليهم فانجده الظاهر صاحب حلب بعَسكر أقاموا عنده للمدافعَة عنه . وأغار أهل قبرص في البحر على اسطول مصر فظفروا منه بعدة قطع، وأسروا من وجدوا فيها وبعَث العَادل الى صاحب عكا يحتج عليه بالصلح فاعتذر بأن أهل قبرص في طاعة الافرنج الذين بالقسطنطينية، وأنه لا حكم له عليهمَ فخرج العَادل في العَساكر الى عكا حتى صالحه صاحبها على اطلاق أسرى من المسلمين . ثم سار الى حمص، ونازل القلعَتين عند بحيرة قَدَس ففتحه[2] وأطلق صاحبه وغنم ما فيه وخربه، وتقدم الى طرابلس فاكتسح نواحيها اثني عشر يوماً، وعاد الى بحيرة قدس . وراسله الافرنج في الصلح فلم يجبهم، وأظله الشتاء

(١) كذا، وفي الكامل ج ٩ ص ٢٩٦ : في هذه السنة (٦٠٤) كثر الفرنج الذين بطرابلس وحصن الأكراد وأكثروا الإغارة على بلد حمص وولاياتها ونازلوا مدينة حمص، وكان جمعهم كثيراً.

(٢) القلعتين : اسم حصن . ولذلك تصبح العبارة : ونازل حصن القلعتين ففتحه .

فأذن لعساكر الجزيرة في العود الى بلادهم وترك عند صاحب حمص عسكراً أنجده بهم، وعاد الى دمشق فشتى بها، والله أعلم.

غارات الكرج على خلاط واعمالها وملكهم ارجيش

ولما ملك الأوحد نجم الدين خلاط كما مرّ ردّد الكرج الغارات على أعمالها وعاثوا فيها، ثم ساروا سنة خمس وستمائة الى مدينة ارجيش فحاصروها وملكوها عنوة واستباحوها وخرّبوها. وخام نجم الدين عن لقائهم ومدافعتهم الى ان انتقض عليه أهل خلاط لما فارقها؛ ووقع بينه وبينهم ما مرّ. ثم سار الكرج سنة تسع الى خلاط وحاصروها، وحاربهم الاوحد وهزمهم وأسر ملكهم، ثم فاداه بمائة ألف دينار وخمسة آلاف أسير، وعلى الهدنة مع المسلمين وأن يزوّج بنته من الاوحد فانعقد ذلك، والله تعالى أعلم بغيبه.

استيلاء العادل على الخابور ونصيبين من عمل سنجار وحصارها

قد تقدم لنا أن قطب الدين زنكي بن محمود بن مودود صاحب سنجار والخابور ونصيبين وما اليها، كانت بينه وبين ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة وفتنة متصلة، وزوّج نور الدين صاحب الموصل بنته من ابن العادل بن أيوب سنة خمس وستمائة. واتصل بها لذلك فزين

له وزراؤه وأهل دولته أن يستنجد بالعادل علی جزيرة ابن عمر واعمالها، التي لابن عمه سنجار شاه ابن غازي ابن مودود فتكون الجزيرة بكمالها مضافة الى الموصل. وملك العادل سنجار وما اليها، وهي ولاية قطب الدين فتكون له، فأجاب العادل الى ذلك، ورآه ذريعة الى ملك الموصل. وأطمع نور الدين في ايالة قطب الدين اذا ملكها تكون لابنه الذي هو صهره على ابنته، وتكون عنده بالموصل.

وسار العادل بعساكره سنة ست وستمائة وقصد الخابور فلكه فتبين لنور الدين صاحب الموصل حينئذ انه لا مانع منه، وندم على ما فرط في رأيه من وفادته، ورجع الى الاستعداد للحصار. وخوّفه الوزراء والحاشية أن ينتقض على العادل فيبدأ به. وسار العادل من الخابور الى نصيبين فلكها، وقام بمدافعته عن قطب الدين، وحماية البلد من الامير أحمد بن برتقش.مولى أبيه. وشرع نور الدين في تجهيز العساكر مع ابنه القاهر مدداً للعادل. وبعث قطب الدين صاحب سنجار ابنه مظفر الدين يستشفع به الى العادل لمكانه منه، وأثره في موالاته فشفع، ولم يشفعه العادل فراسل نور الدين صاحب الموصل في الاتفاق على العادل فأجابه.

وسار بعساكره من الموصل واجتمع مع نور الدين بظاهرها واستنجد بصاحب حلب الظاهر، وصاحب بلاد الروم كنخسرو وتداعوا على الحركة الى بلاد العادل ان امتنع من الصلح،

والابقاء على صاحب سنجار، وبعثوا الى الخليفة الناصر أن يأمر العادل فبعث اليه أستاذ داره أبا نصر هبة الله بن المبارك بن الضحاك، والامير اقباش من خواص مواليه فأجاب الى ذلك. ثم غالطهم وذهب الى المطاولة، ثم صالحهم على سنجار فقط وله ما أخذ وتحالفوا على ذلك، وعاد كل الى بلده. ثم قبض المعظم عيسى سنة عشر وستمائة على الامير اسامة بأمر أبيه العادل، وأخذ منه حِصْنَ كوكب وعجلون وكانا من أعماله فخربهما، وحصن اردن بالكوكب وبنى مكانه حصناً قرب عكا على جبل الطور، وشحنه بالرجال والاقوات، والله تعالى أعلم.

وفاة الظاهر صاحب حلب وولاية ابنه العزيز

لما توفي الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين بن أيوب صاحب حلب ومَنْبِج وغيرهما من بلاد الشام في جمادى الاخيرة سنة ثلاث عشرة، وكان مرهف الحدّ ضابطاً جمّاعة للاموال شديد الانتقام محسناً للقضاة، وعهد بالملك لابنه الصغير محمد بن الظاهر وهو ابن ثلاث سنين، وعدل عن الكبير لان أمه بنت عمه العادل ولقبه العزيز غياث الدين، وجعل أتابكه وكافله وخادمه، طغرلبك، ولقبه شهاب الدين. وكان خيراً صاحب احسان ومعروف فأحسن كفالة الولد، وعدل في سيرته، وضبط الايالة بجميل نظره، والله أعلم.

ولاية مسعود بن الكامل على اليمن

ولما ملك سليمان بن المظفر على اليمن سنة تسع وتسعين وخمسمائة أساء الى زوجته أمّ الناصر التي ملكته، وضارها وأعرض عنها واستبد بملكه، وملأ الدنيا ظلماً. وأقام على ذلك ثلاث عشرة سنة. ثم انتقض على العادل وأساء معاملته، وكتب اليه بعض الاحيان: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فكتب العادل الى ابنه الكامل أن يبعث العساكر الى اليمن مع وال من قبله، فبعث ابنه المسعود يوسف، واسمه بالتركي اقسنس، في العساكر سنة اثنتي عشرة وستمائة فملك اليمن، وقبض على سليمان شاه وبعث به معتقلاً الى مصر. فلم يزل بها الى ان استشهد في حروب دمياط مع الافرنج أعوام تسع وأربعين.

وطالت أيام مسعود باليمن وحج سنة تسع عشرة، وقدم أعلام أبيه على أعلام الخليفة الناصر فكتب الناصر يشكوه الى أبيه فكتب اليه أبوه الكامل: برئت من العادل يا أخس ان لم أقطع يمينك، فقد نبذت وراء ظهرك دنياك ودينك، ولا حول ولا قوة الا بالله، فاستعتب الى أبيه وأعتبه. ثم غلب سنة ست وعشرين على مكة من يد الحسن بن قتادة سيد بني ادريس بن مطاعن من بني حسن وولّى عليها وعاد الى اليمن فهلك بقية السنة؛ وغلب على امر اليمن بعده علي بن رسول أستاذ داره، ونصب للملك ابنه الاشرف موسى

وكفله ثم هلك موسى واستبد ابن رسول باليمن، وأورثه بنيه فكانت لهم دولة اتصلت لهذا العهد، كما نذكره في أخبارها ان شاء الله تعالى.

وصول الافرنج من وراء البحر الى سواحل الشام ومسيرهم الى دمياط وحصارها واستيلاؤهم عليها

كان صاحب رومة أعظم ملوك الافرنج بالعُدْوَة الشمالية من البحر الرومي، وكانوا كلهم يدينون بطاعته، وبلغه اختلاف أحوال الافرنج بساحل الشام وظهور المسلمين عليهم فانتدب الى امدادهم وجهز اليهم العَساكر فامتثلوا أمره من ايالته. وتقدم الى ملوك الافرنج أن يسيروا بأنفسهم او يرسلوا العَساكر فامتثلوا امره، وتوافت الامداد الى عكا من سواحل الشام سنة أربع عشرة. وسار العَادل من مصر الى الرملة وبرز الافرنج من عكا ليصدوه فسار الى نابلس يسابقهم الى اطراف البلاد، ويدافعُهم عنها فسبقوه. ونزل هو على بيسان من الاردن، وزحف الافرنج لحربه في شعْبان من السنة، وكان في خف من العَساكر فخام عن لقائهم. ورجع الى دمشق ونزل مرج الصُفَّر. واستدعى العَساكر ليجمعَها، وانتهب الفرنج مخلفه في بيسان، واكتسحوا ما بينها وبين بانياس.

ونزلوا بانياس ثلاثاً، ثم عادوا الى مرج عكا بعْد أن خربوا تلك الاعمال، وامتلأت أيديهم من نهبها وسباياها. ثم ساروا الى صور ونهبوا صيدا والشقيف على فرسخين من بانياس، وعادوا

الى عكا بعد عيد الفطر. ثم حاصروا حِصْنَ الطور على جبل قريب من عكا، كان العادل اختطها فحاصروها سبعة عشر يوماً، وقتل عليها بعض ملوكهم فرجعوا عنها. وبعث العادل ابنه المعظم عيسى الى حصن الطور فخربها لئلا يملكها الافرنج. ثم سار الافرنج من عكا في البحر الى دمياط وأرسوا بسواحلها في صفر، والنيل بينهم وبينها. وكان على النيل برج حصين تمرّ منه الى سور دمياط سلاسل من حديد محكمة تمنع السفن من البحر الملح أن تصعد في النيل الى مصر. فلما نزل الافرنج بذلك الساحل خندقوا عليهم وبنوا سواراً بينهم وبين الخندق، وشرعوا في حصار دمياط واستكثروا من آلات الحصار.

وبعث العادل الى ابنه الكامل بمصر أن يخرج في العساكر ويقف قبالتهم ففعل، وخرج من مصر في عساكر المسلمين فنزل قريباً من دمياط بالعادلية. وألحّ الافرنج على قتال ذلك البرج أربعة أشهر، حتى ملكوه ووجدوا السبيل الى دخول النيل ليتمكنوا من النزول على دمياط، فبنى الكامل عوض السلاسل جسراً عظيماً يمانع الداخلين الى النيل فقاتلوا عليه قتالاً شديداً حتى قطعوه. فأمر الكامل بمراكب مملوءة بالحجارة وخرقوها وراء الجسر تمنع المراكب من الدخول الى النيل، فعدل الافرنج الى خليج الازرق. وكان النيل يجري فيه قديماً فحفروه فوق الجسر، وأجروا

فيه الماء الى البحر، وأصعدوا مراكبهم الى (1) قبالة معسكر المسلمين ليتمكنوا من قتالهم، لان دمياط كانت حاجزة بينهم فاقتتلوا معهم وهم في مراكبهم فلم يظفروا. والميرة والامداد متصلة الى دمياط، والنيل حاجز بينهم وبين الافرنج فلا يحصل لهم من الحصار ضيق.

ثم بلغ الخبر بموت العادل فاختلف العسكر، وسعى مقدم الامراء عماد الدين أحمد بن سيف الدين علي بن المشطوب الهكاري في خلع الكامل وولاية أخيه الاصغر الفائز. ونمي الخبر الى الكامل فأسرى من ليلته الى اشمون طناح، وتفقده المسلمون من الغد فأجفلوا ولحقوا بالكامل، وخافوا سوادهم بما فيه فاستولى عليه الافرنج، وعبروا النيل الى البرّ المتصل بدمياط، وجالوا بينها وبين أرض مصر. وفسدت السابلة بالاعراب، وانقطعت الميرة عن دمياط، واشتدّ الافرنج في قتالها وهي في قلة من الحامية لاجفال المسلمين عنها بغتة. ولما جهدهم الحصار وتعذر عليهم القوت استأمنوا الى الافرنج فملكوها آخر شعبان سنة ست عشرة، وبنوا سراياهم فيما جاورها فأقفروه ورجعوا الى عمارة دمياط وتحصينها، وأقام الكامل قريباً منهم لحماية البلاد. وبنى المنصورة بقرب مصر عند مفترق البحر من جهة دمياط، والله تعالى أعلم.

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٣١٦: وأصعدوا مراكبهم فيه إلى موضع يقال له بورة على أرض الجيزة أيضاً مقابل المنزلة التي فيها الملك الكامل ليقاتلوه من هناك.

وفاة العادل واقتسام الملك بين بنيه

قد ذكرنا خبر العادل مع الافرنج الذين جاؤا من وراء البحر الى سواحل الشام سنة أربع عشرة، وما وقع بينه وبينهم بعكا وبيسان، وانه عاد الى مرج الصفر قريباً من دمشق فأقام به، فلما سار الافرنج الى دمياط انتقل هو الى خانقين فأقام بها. ثم مرض وتوفي سابع جمادى الاخيرة سنة خمس عشرة وستمائة لثلاث وعشرين سنة من ملكه دمشق، وخمس وسبعين من عمره. وكان ابنه المعظم عيسى بنابلس فجاء ودفنه بدمشق. وقام بملكها واستأثر بمخلفه من المال والسلاح، وكان لا يعبر عنه. يقال: كان المال العين في سترته سبعمائة ألف دينار. وكان ملكاً حليماً صبوراً مسدداً صاحب افادة وخديعة منجمة في أحواله. وكان قد قسم البلاد في حياته بين بنيه: فمصر للكامل، ودمشق والقدس وطبرية والكرك وما اليها للمعظم عيسى، وخلاط وما اليها وبلاد الجزيرة غير الرها ونصيبين وميافارقين للاشرف موسى، والرها وميافارقين لشهاب الدين غازي، وقلعة جعبر للخضر أرسلان شاه.

فلما توفي استقلّ كل منهم بعَمله. وبلغ الخبر بذلك الى الملك الكامل بمكانه قبالة الافرنج بدمياط فاضطرب عسكره، وسعى المشطوب كما تقدم في ولاية أخيه الفائز، ووصل الخبر بذلك الى المعظم عيسى فأغذ السير من دمشق اليه بمصر. وأخرج المشطوب

الى الشام فلحق بأخيها الاشرف، وصار في جملته. واستقام للكامل ملكه بمصر، ورجع المعَظم من مصر فقصد القدس في ذي القعدة من السنة، وخرب أسواره حذراً عليه من الافرنج. وملك الافرنج دمياط كما ذكرناه. وأقام الكامل قبالتهم، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

وفاة المنصور صاحب حماة وولاية ابنه الناصر

قد تقدّم لنا أن صلاح الدين كان قد أقطع تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه مدينة حماة وأعمالها، ثم بعثه الى الجزيرة سنة سبع وثمانين فملك حران والرها وسروج وميافارقين وما اليها من بلاد الجزيرة، فأقطعه اياها صلاح الدين. ثم سار الى بلاد ارمينية وقصد بكتمر صاحب خلاط وحاصرها. ثم انتقل الى حصار ملازكرد. وهلك عليها تلك السنة وتولى ابنه ناصر الدين محمد، ويلقب المنصور على أعماله. ثم انتزع صلاح الدين منه بلاد الجزيرة وأقطعها أخاه العادل، وأبقى حماة وأعمالها بيد ناصر الدين محمد المذكور فلم تزل بيده الى أن توفي سنة سبع عشرة وستمائة لثمان وعشرين سنة من ولايته عليها بعد مهلك عمّ أبيه صلاح الدين والعادل. وكان ابنه ولي عهده المظفر عند العادل بمصر، وابنه الآخر قليج ارسلان عند خاله المعظم عيسى بمكانه من حصاره. فاستدعاه أهل دولته بحماة، واشترط المعظم عليه مالاً يحمله وأطلقه اليهم فملك حماة

وتلقب الناصر. وجاءه أخوه ولي العهد من مصر فدافعه أهل حماة فرجع الى دمشق عند المعظم، وكاتبهم واستمالهم فلم يجيبوه، ورجع الى مصر، والله تعالى أعلم.

مسير صاحب بلاد الروم الى حلب وانهزامه ودخولها في طاعة الاشرف

قد كنا قدمنا وفاة الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ومنبج سنة ثلاث عشرة وولاية ابنه الاصغر محمد العزيز غياث الدين في كفالة طغرل الخادم مولى أبيه الظاهر، وان شهاب الدين هذا الكامل أحسن السيرة وأفاض العدل، وعف عن أموال الرعية. وردّ السعاية فيهم بعضهم على بعض. وكان بحلب رجلان من الاشرار يكثران السعاية عند الظاهر ويغريانه بالناس، ولقي الناس منهما شدة فأبعدهما شهاب الدين فيمن أبعد من أهل الشرّ، وردّ عليهما السعاية فكسدت سوقهما، وتناولهما الناس بالالسنة والوعيد فلحقا ببلاد الروم، وأطمعا صاحبها كيكاوس في ملك حلب وما بعدها. ثم رأى ان ذلك لا يتم الا ان يكون معه بعض بني أيوب لينقاد أهل البلاد اليه.

وكان الافضل بن صلاح الدين بسميساط، وقد دخل في طاعة كيكاوس غضباً من أخيه الظاهر وعمه العادل بما انتزعا من أعماله فاستدعاه كيكاوس، وطلبه في المسير على ان يكون ما يفتحه

من حلب وأعمالها للافضل والخطبة والسكة لكيكاوس. ثم يقصدون بلاد الاشرف بالجزيرة: حران والرها وما اليهما على هذا الحكم، وتحالفوا على ذلك، وجمعوا العساكر وساروا سنة خمس عشرة فملكوا قلعة رَعْبان فتسلمها الافضل. ثم قلعة باشر من صاحبها ابن بدر الدين ارزم الباروقي بعد ان كانوا حاصروها وضيقوا عليها وملكها كيكاوس لنفسه فاستوحش الافضل وأهل البلد ان يفعل مثل ذلك في حلب.

وكان شهاب الدين كافل العزيز بن الظاهر مقيماً بقلعه حلب لا يفارقها خشية عليها فطير الخبر الى الملك الاشرف صاحب الجزيرة وخلاط لتكون طاعتهم وخطبتهم له والسكة باسمه، ويأخذ من أعمال حلب ما اختار فجمع العساكر، وسار اليهم سنة خمس عشرة ومعه (١) وأميرهم نافع من خدمه وغيرهم من العرب. ونزل بظاهر حلب، وتوجّه كيكاوس والافضل من تل باشر الى منبج. وسار الاشرف نحوهم وفي مقدمته العرب فلقوا مقدمة كيكاوس فهزموها. فلما عادوا الى كيكاوس منهزمين أجفل الى بلاده. وسار الاشرف فملك رَعْبان وتل باشر واخذ من كان بها من عساكر كيكاوس، وأطلقهم فلحقوا بكيكاوس فجمعهم في

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٣٢٦: وسار إليهم في عساكره التي عنده وأرسل إلى الباقين يطلبهم إليه، وسره ذلك للمصلحة العامة لجميعهم، وأحضر إليه العرب من طيء وغيرهم، ونزل بظاهر حلب.

دار وأحرقها عليهم فهلكوا . وسلم الاشرف ما ملكه من قلاع حلب لشهاب الدين الخادم كافل العزيز بحلب ، واعتزم على اتباع كيكاوس الى بلاده فأدركه الخبر بوفاة أبيه العادل فرجع . انتهى ، والله تعالى أعلم .

دخول الموصل في طاعة الاشرف وملكه سنجار

قد ذكرنا في دولة بني زنكي ان القاهر عز الدين مسعود صاحب الموصل توفي في ربيع سنة خمس عشرة وستمائة ، وولى ابنه نور الدين ارسلان شاه في كفالة مولى أبيه نور الدين لؤلؤ مولاه ومدبر دولته . وكان أخوه عماد الدين زنكى في قلعة الصفد والسوس من أعمال الموصل بوصية أبيهما اليه بذلك ، وانه بعد وفاة أخيه عز الدين طلب الامر لنفسه وملك العمادية . وظاهره مظفر الدين كوكبري صاحب اربل على شأنه فبعث نور الدين لؤلؤ الى الاشرف موسى بن العادل ، والجزيرة كلها وخلاط وأعمالها في طاعته . فأرسل اليه بالطاعة ، وكان على حلب مدافعاً لكيكاوس صاحب بلاد الروم كما نذكره بعد ، فأجابه الاشرف بالقبول ووعده النصر على أعدائه .

وكتب الى مظفر الدين يقبح عليه ، ما وقع من نكث العهد في اليمين التي كانت بينهم جميعاً ، ويأمره باعادة عماد الدين زنكي ما اخذه من بلاد الموصل ، والا فيسير بنفسه ويسترجعها

ممن أخذها ويدعوه الى ترك الفتنة والاشتغال معَه بما هو فيه من جهاد الافرنج. فصمم مظفر الدين عن ندبته ووافقه صاحب ماردين وصاحب كيفا وآمد، يجهز الى الاشرف عسكراً الى نصيبين للؤلؤ صاحب الموصل. ثم جهز لؤلؤ العَساكر الى عماد الدين فهزموه ولحق باربل عند المظفر، وجاءت الرسل من الخليفة الناصر والملك الاشرف فأصلحوا بينهما وتحالفا.

ثم وثب عماد الدين زنكي الى قلعة كواشي فملكها وبعَث لؤلؤ الى الاشرف، وهو على حلب يستنجده فعبر الفرات الى حران، واستمال مظفر الدين ملوك الاطراف، وحملهم على طاعة كيكاوس والخطبة له، وكان عدو الاشرف ومنازعاً له في منبج كما نذكره. وبعث أيضاً الى الامراء الذين مع الاشرف واستمالهم فأجابه منهم أحمد بن علي المشطوب صاحب القلعة مع الكامل على دمياط، وعز الدين محمد بن نور الدين الحميدي. وفارقوا الاشرف الى دبيس تحت ماردين ليجتمعوا على منع الاشرف من العبور الى الموصل.

ثم استمال الاشرف صاحب كيفا وآمد، وأعطاه مدينة جانين[1] وجبل الجودي، ووعده بدارا اذا ملكها. ولحق به صاحب كيفا وفارق اصحابه الملوك واقتدى به بعضهم في طاعة الاشرف والنزوع اليه فافترق ذلك الجمع، وسار كل ملك الى عمله. وسار ابن

(١) كذا وهي: جنين.

المشطوب الى اربل، ومر بنصيبين فقاتله عساكرها وهزموه، وافترق جمعه، ومضى منهزماً. واجتاز بسنجار وبها فروخ شاه عمر بن زنكي بن مودود فبعث اليه عسكراً فجاؤا به أسيراً، وكان في طاعة الاشرف فحبس له ابن المشطوب ثم رجاه فأطلقه وسار في جماعة من المفسدين الى البقعاء من أعمال الموصل فاكتسحها وعاد الى سنجار.

ثم سار ثانياً للاغارة على اعمال الموصل فأرصد له لؤلؤ عسكراً بتل أعفر من اعمال سنجار. فلما مرّ بهم قاتلوه، وصعد الى تل أعفر منهزماً. وجاء لؤلؤ من الموصل فحاصره بها شهراً او بعضه وملكها منتصف ربيع الآخر من سنة سبع عشرة. وحبس ابن المشطوب بالموصل. ثم بعث به الى الاشرف فحبسه بحران الى ان توفي في ربيع الآخر من سنة سبع عشرة. ولما افترق جمع الملوك سار الاشرف من حران محاصراً لماردين.

ثم صالحه على أن يرد عليه رأس عين، وكان الاشرف اقطعه له. وعلى ان يأخذ منه ثلاثين ألف دينار، وعلى ان يعطي صاحب كيفا وآمد قلعة المورو من بلده. رجع الاشرف من دبيس الى نصيبين يريد الموصل وكان عمر صاحب سنجار لما أخذ منه لؤلؤ تل أعفر تخاذل عنه أصحابه، وساءت ظنونهم بنفسه لما ساء فعله في اخيه وفي غيره فاعتزم على الالقاء باليد للاشرف، وتسليم سنجار له، والاعتياض عنها بالرقه وبعث رسله اليه بذلك فلحقوه في طريقه من دبيس الى نصيبين

فاجاب الى ذلك ، وسلم اليه الرقة ، وسلم سنجار في مستهلّ جمادى الاولى سنة سبعة عشر . وفارقها عمر فروخ شاه واخوته بأهليهم وأموالهم .

وسار الاشرف من سنجار الى الموصل فوصلها تاسع عشر جمادى الاولى من السنة . وجاءته رسل الخليفة ومظفر الدين في الصلح ، وردّ ما أخذه عماد الدين من قلاع الموصل الى لؤلؤ ما عدا العمادية . وطال الحديث في ذلك ورحل الاشرف يريد اربل . ثم شفع عنده صاحب كيفا وغيره من بطانته ، وأنهوا اليه المساكر فأجاب الى هذا الصلح ، وفسح لهم في تسليم القلاع الى مدّة ضربوها . وسار عماد الدين مع الاشرف حتى يتم تسليم الباقي ورحل الاشرف عن الموصل ثاني رمضان ، وبعث لؤلؤ نوابه الى القلاع فامتنع جندها من تسليمها اليهم ، وانقضى الاجل . واستمال عماد الدين زنكي شهاب الدين غازي اخا الاشرف فاستعطف له أخاه فأطلقه ، ورد عليه قلعة العقر وسوس ، وسلم لؤلؤ قلعة تل اعفر كما كانت من أعمال سنجار ، والله تعالى أعلم .

ارتجاع دمياط من يد الافرنج

ولما ملك الافرنج دمياط أقبلوا على تحصينها ، ورجع الكامل الى مصر وعسكر بأطراف الديار المصرية مسلحة عليها منهم . وبنى المنصورة بعد المنزلة ، وأقام كذلك سنين . وبلغ الافرنج وراء

البحر فتحها، واستيلاء اخوانهم عليها فلجوا بذلك. وتوالت امدادهم في كل وقت اليها، والكامل مقيم بمكانه. وتواترت الاخبار بظهور التتر، ووصولهم الى أذربيجان وأرّان، وأصبح المسلمون بمصر والشام على تخوّف من سائر جهاتهم. واستنجد الكامل بأخيه المعظم صاحب دمشق، وأخيه الاشرف صاحب الجزيرة وارمينية. وسار المعظم الى الاشرف يستحثه للوصول فوجده في شغل بالفتنة التي ذكرناها فعاد عنه الى أن انقضت تلك الفتنة.

ثم تقدم الافرنج من دمياط بعساكرهم الى جهة مصر، وأعاد الكامل خطابه اليهما سنة ثماني عشرة يستنجدهما. وسار المعظم الى الاشرف يستحثه، فجاء معه الى دمشق، وسار منها الى مصر، ومعه عساكر حلب، والناصر صاحب حماة وشيركوه صاحب حمص والامجد صاحب بعلبك فوجدوا الكامل على بحر أشمون وقد سار الافرنج من دمياط بجموعهم، ونزلوا قبالته بعدوة النيل، وهم يرمون على معسكره بالمجانيق، والناس قد أشفقوا من الافرنج على الديار المصرية، فسار الكامل وبقي أخوه الاشرف بمصر.

وجاء المعظم بعد الاشرف وقصد دمياط يسابق الافرنج ونزل الكامل والاشرف وظفرت شواني المسلمين بثلاث قطع من شواني الافرنج فغنموها بما فيها. ثم ترددت الرسل بينهم في تسليم دمياط على أن يأخذوا القدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية، وجميع ما فتحه صلاح الدين غير الكرك فاشتطوا واشترطوا اعادة الكرك

والشوبك ، وزيادة ثلمائة ألف دينار لرم أسوار القدس التي خرّبها المعظم والكامل فرجع المسلمون الى قتالهم. وافتقد الافرنج الاقوات لانهم لم يحملوها من دمياط ظناً بأنهم غالبون على السواد وميرته بأيديهم فبدا لهم ما لم يحتسبوا .

ثم فجر المسلمون النيل الى العدوة التي كانوا عليها فركبها الماء ، ولم يبق لهم الا مسلك ضيق . ونصب الكامل الجسور عند أشمون فعبرت العساكر عليها ، وملكوا ذلك المسلك وحالوا بين الافرنج وبين دمياط . ووصل اليهم مركب مشحون بالمدد من الميرة والسلاح ومعه حراقات ، فخرجت عليها شواني المسلمين وهي في تلك الحال فغنموها بما فيها . واشتدّ الحال عليهم في معسكرهم ، وأحاطت بهم عساكر المسلمين وهم في تلك الحال يقاتلونهم ويتخطفونهم من كل جانب ، فأحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأرادوا الاستماتة في العود فرأوا ما حال بينهم وبينها من الرجل فأستأمنوا الى الكامل والاشرف على تسليم دمياط من غير عوض . وبينما هم في ذلك وصل المعظم صاحب دمشق من جهة دمياط كما مرّ فازدادوا وهناً وخذلاناً ، وسلموا دمياط منتصف سنة ثمان عشرة ، وأعطوا عشرين ملكاً منهم رهناً عليها . وأرسلوا الأقسّة والرهبان منهم الى دمياط فسلموها للمسلمين ، وكان يوماً مشهوداً . ووصلهم بعد تسليمها مدد من وراء البحر فلم يغن عنهم ، ودخلها المسلمون

وقد حصنها الافرنج فأصبحت من أمنع حصون الاسلام ، والله تعالى أعلم .

وفاة الاوحد نجم الدين بن العادل صاحب خلاط وولاية اخيه الظاهر غازي عليها

قد تقدم لنا أن الاوحد نجم الدين بن العادل ملك ميافارقين، وبعدها خلاط وارمينية سنة ثلاث وستمائة . ثم توفي سنة سبع فأقطع العادل ما كان بيده من الاعمال لاخيه الاشرف . ثم أقطع العادل ابنه الظاهر غازي سنة ست عشرة سروج والرها وما اليها ولما توفي العادل ، واستقلّ ولده الاشرف بالبلاد الشرقية عقد لاخيه غازي على خلاط وميافارقين مضافاً الى ولايته من أبيه العادل ، وهو سروج والرها . وجعله ولي عهده لانه كان عاقراً لا يولد له . وأقام على ذلك الى أن انتقض على الاشرف عندما حدثت الفتنة بين بني العادل فانتزع أكثر الاعمال منه ، كما نذكره ان شاء الله تعالى .

فتنة المعظم مع اخويه الكامل والاشرف وما دعت اليه من الاحوال

كان بنو العادل الكامل والاشرف والمعظم لما توفي أبوهم قد اشتغل كل واحد منهم بأعماله التي عهد له أبوه ، وكان الاشرف

والمعظم يرجعان الى الكامل وفي طاعته. ثم تغلب المعظم عيسى على صاحب حماة الناصر بن المنصور بن المظفر، وزحف سنة تسع عشرة الى حماة فحاصرها وامتنعت عليه فسار الى سلمية والمعرّة من أعمالها فملكها. وبعث اليه الكامل صاحب مصر بالنكير والافراج عن البلد فامتثل، وأضغن ذلك عليه. وأقطع الكامل سلميّة لنزيله المظفر بن المنصور أخي صاحب حماه، وكشف المعظم قناعه في فتنة أخويه الكامل والاشرف. وأرسل الى ملوك الشرق يدعوهم الى المظاهرة عليهما. وكان جلال الدين منكبري بن علاء الدين خوارزم شاه قد رجع من الهند بعد ما غلبه التتر على خوارزم وخراسان وغزنة وعراق العجم وأجاز الى الهند.

ثم رجع سنة احدى وعشرين وستمائة فاستولى على فارس وغزنة وعراق العجم واذربيجان ونزل توريز، وجاور بني أيوب في أعمالهم فراسله المعظم صاحب دمشق وصالحه واستنجده على أخويه فأجابه. ودعا المعظم الظاهر أخا الاشرف وعامله على خلاط والمظفر كوكبري صاحب إربل الى ذلك فأجابوه كلهم، وانتقض الظاهر غازي على أخيه الاشرف في خلاط وارمينية، وأظهر عصيانه في ولايته التي بيده فسار اليه الاشرف سنة احدى وعشرين وغلبه على خلاط فملكها، وولى عليها حسام الدين أبا علي الموصلي، كان أصله من الموصل. واستخدم للاشرف وترقى

في خدمته الى أن ولاه خلاط ، وعفا الاشرف عن أخيه الظّاهر غازي وأقرّه على ميافارقين.

وسار المظفر صاحب إربل ولؤلؤ صاحبها في طاعة الاشرف فحاصرها ، وامتنعت عليه ورجع عنها. وسار المعظم بنفسه من دمشق الى حمص ، وصاحبها شيركوه بن محمد بن شيركوه في طاعة الكامل فحاصرها وامتنعت عليه ، ورجع الى دمشق. ثم سار الاشرف الى المعظم طالباً للصلح فأمسكه عنده على أن ينحرف عن طاعة الكامل. وانطلق الى بلده فاستمرّ على شأنه. ثم زحف جلال الدين صاحب أذربيجان سنة أربع وعشرين الى خلاط فحاصرها مرّة بعد مرّة ، وأفرج عنها فسار حسام الدين نائبها الى بلاد جلال الدين. وملك حصونها واضطرب الحال بينهم ، وخشي الكامل مغبة الامر مع المعظم بمالأته لجلال الدين والخوارزمية فاستنجد هو بالافرنج ، وكاتب الامبراطور ملكهم من وراء البحر يستحثه للقدوم على عكا في صريخه ، على أن ينزل له عن القدس. وبلغ ذلك الى المعظم فخشي العواقب وأقصر من فتنته وكتب اليه يستعطفه ، والله تعالى أعلم.

وفاة المعظم صاحب دمشق وولاية ابنه الناصر ثم استيلاء الاشرف عليها واعتياض الناصر بالكرك

ثم توفي المعظم بن العادل صاحب دمشق سنة أربع وعشرين ،

وولي مكانه ابنه داود ولقب بالناصر. وقام بتدبير ملكه عز الدين اتابك خادم أبيه، وجرى على سنن المعظم أوّلا في طاعة الكامل والخطبة. ثم انتقض سنة خمس وعشرين عندما طالبه الكامل بالنزول له عن حصن الشوبك فامتنع وانتقض، وسار الكامل اليه في العساكر فانتهى الى غزة، وانتزع القدس ونابلس من أيديهم، وولى عليها من قبله. واستنجد الناصر عمه الاشرف فجاءه الى دمشق، وخرج منها الى نابلس. ثم تقدّم منها الى الكامل ليصلح أمر الناصر معه فدعاه الكامل الى انتزاع دمشق من الناصر له، وأقطعه اياها فلم يجب الناصر الى ذلك. وعاد الى دمشق فحاصره الاشرف.

ثم صالح الكامل ملك الافرنج ليفرغ لامر دمشق عن الشواغل وامكنهم من القدس على ان يخرب سورها فاستولوا عليها كذلك وزحف الكامل الى دمشق سنة ست وعشرين فحاصرها مع الاشرف. وخاف الحصار بالناصر فنزل لهما عنها على أن يستقلّ بالكرك والشوبك والبلقاء (١) فسلموا له في ذلك وسار اليها. واستولى الاشرف على دمشق ونزل الكامل عن اعماله، وهي حران والرها وما اليهما وبمكانها من حصار دمشق، ووصل

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٣٧٩: وبـذل له تسليم دمشق عـلى أن يبقي عليه الكرك وقلعة الشوبك والغور ونابلس وتلك الأعمال.

الخبر الى الكامل بوفاة ابنه المسعود صاحب اليمن وقد مرّ خبره، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

استيلاء المظفر بن المنصور على حماة من يد اخيه الناصر

ولما ملك الكامل دمشق شرع في انجاد نزيله المظفر محمود بن المنصور صاحب حماة وبها أخوه الناصر، وقد كاتبه بعض أهل البلد يستدعونه لملكها فجهزه بالعساكر، وسار اليها فحاصرها. ودسّ لمن كاتبه من أهلها فأجابوه وواعدوه ليلاً فطرقها وتسورها وملكها. وكتب اليه الكامل أن يقطع الناصر قلعة ماردين فأقطعه اياها، وانتزع الكامل منه سلميّة وأقطعها لصاحب حمص شيركوه ابن محمد بن شيركوه، واستقل المظفر محمود بملك حماة، وفوض امور دولته الى حسام الدين علي بن أبي علي الهدباني فقام بها. ثم استوحش منه فلحق بأبيه نجم الدين ايوب، ولم تزل ماردين بيد الناصر أخي المظفر الى سنة ثلاثين فهمّ الناصر بأن يملكها للافرنج، وشكا المظفر بذلك للكامل فأمره بانتزاعها منه. ثم اعتقله الكامل الى ان هلك سنة خمس وثلاثين، انتهى، والله أعلم.

استيلاء الاشرف على بعلبك من يد الامجد واقطاعها لاخيه اسمعيل بن العادل

كان السلطان صلاح الدين قد أقطع الامجد بهرام شاه بن

فرخشاه أخي تقي الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب قلعة بعلبك، وكانت بصرى لخضر. ثم صارت بعد وفاة العادل لابنه الاشرف رعليها أخوه اسمعيل بن العادل فجهزه سنة ست وعشرين الى بعلبك وحاصر بها الامجد حتى تسلمها منه على إقطاع أقطعه اياه. وسار اسمعيل الى دمشق فنزلها الى ان قتله مواليه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتنة جلال الدين خوارزم شاه مع الأشرف واستيلاؤه على خلاط

قد كنا قدمنا ان جلال الدين خوارزم شاه ملك اذربيجان، وجاور أعمال بني أيوب. وكان الاشرف قد ولّى على خلاط لما انتزعها من يد اخيه غازي سنة اثنتين وعشرين حسام الدين ابا علي الموصلي. ثم صالح المعظم جلال الدين خوارزم شاه ودعاه الى الفتنة مع أخويه كما قدمناه فزحف جلال الدين خوارزم شاه الى خلاط وحاصرها مرّتين، ورجع عنها فسار حسام الدين الى بلده وملك بعض حصونه، وداخل زوجته التي كانت زوجة ازبك ابن البهلوان، وكانت مقيمة بخوي وهجرها جلال الدين وقطع عنها ما كانت تعتاده من التحكم في الدولة مع زوجها قبله فدست الى حسام الدين نائب خلاط؛ واستدعته هي وأهل خَوِيّ ليملكوه البلاد فسار وملك خوي وما فيها من الحصون ومدينة قرند.

وكاتبه أهل بقجوان وملكوه بلدهم وعاد الى خلاط ونقل معه

زوجة جلال الدين وهي بنت السلطان طغرل فامتعض جلال الدين لذلك . ثم ارتاب الاشرف بحسام الدين نائب خلاط وأرسل اكبر امرائه عز الدين ايبك فقبض على حسام الدين ، وكان عدواً له وقتله غيلة ، وهرب مولاه فلحق بجلال الدين ثم زحف جلال الدين في شوال سنة ست وعشرين الى خلاط فحاصرها ونصب عليها المجانيق ، وقطع عنها الميرة مدة ثمانية أشهر . ثم ألحّ عليها بالقتال وملكها عنوة آخر جمادى الاولى من سنة سبع وعشرين وامتنع ايبك وحاميتها بالقلعة واستماتوا ، واستباح جلال الدين مدينة خلاط وعاث فيها بما لم يسمع بمثله . ثم تغلب على القلعة وأسر ايبك نائب خلاط فدفعه الى مولى حسام الدين نائبها قبله فقتله بيده ، والله تعالى اعلم .

مسير الكامل في انجاد الاشرف وهزيمة جلال الدين امام الاشرف

ولما استولى جلال الدين على خلاط سار الاشرف من دمشق الى أخيه الكامل بمصر يستنجده فسار معه ، وولى على مصر ابنه العادل ولقيه في طريقه صاحب الكرك الناصر بن المعظم ، وصاحب حماة المظفر بن المنصور ، وسائر بني أيوب . وانتهى الى سلمية وكلهم في طاعته . ثم سار الى آمد فملكها من يد مسعود بن محمد ابن الصالح بن محمد بن قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق ، وكان

صلاح الدين أقطعه اياها عندما ملكها من ابن نمشان، فلما نزل اليه اعتقله وملك آمد. ثم انطلق بعد وفاة الكامل من الاعتقال ولحق بالتتر. ثم استولى الكامل على البلاد الشرقية التي نزل له عنها الاشرف عوضاً عن دمشق وهي حران والرها وما اليهما.

ولما تسلمها ولى عليها ابنه الصالح نجم الدين أيوب، وكان جلال الدين لما ملك خلاط حضر معه صاحب ارزن الروم فاغتم لذلك علاء الدين كيقباد ملك بلاد الروم، لما بينه وبين صاحب ارزن من العداوة والقرابة، وخشيهما على ملكه فبعث الى الكامل والاشرف بحران يستنجدهما، ويستحث الاشرف للوصول فجمع عساكر الجزيرة والشام. وسار الى علاء الدين فاجتمع معه بسيواس وسار نحو خلاط. وسار جلال الدين للقائهما والتقوا بأعمال ارزنكان وتقدم عسكر حلب للقتال ومقدمهم عز الدين عمر بن علي الهكاري من اعظم الشجعان فلم يثبت لهم مصاف جلال الدين. وانهزم الى خلاط فأخرج حاميته منها ولحق باذربيجان. ووقف الاشرف على خلاط وهي خاوية. وكان صاحب ارزن الروم مع جلال الدين فجيء به أسيراً الى ابن عمه علاء الدين صاحب بلاد الروم فسار به الى ارزن وسلمها له وما يتبعها من القلاع.

ثم ترددت الرسل بينهم وبين جلال الدين في الصلح فاصطلحوا كل على ما بيده وتحالفوا، وعاد الاشرف الى سنجار. وسار أخوه غازي صاحب ميافارقين فحاصر مدينة أرزن من ديار بكر، وكان

حاضراً مع الاشرف في هـذه الحروب ، وأسره جلال الدين ؛ ثم أطلقه بعـد ان أخذ عليه العهد في طاعته فسار اليه شهاب الدين غازي وحاصره وملك منه ارزن صلحاً ، واعطاه عنها مدينة جاني من ديار بكر ، وكان اسمه حسام الدين ، وكان من بيت عريق في الملك يعرفون ببني الاحدب أقطعهـا لهم السلطان ملك شاه ، والله تعالى أعلم .

استيلاء العزيز صاحب حلب على شيزر ثم وفاته وولاية ابنه الناصر بعده

كان سابق الدين عثمان بن الـداية من امراء الملك العادل نور الدين محمود بن زنـكي ، واعتقله ابنه الصالح اسمعيل فنكر عليه صلاح الدين ذلـك ، وسار ببنيه الى دمشق فملكها وأقطع سابق الدين شيزر فلم تزل له ولبنيـه الى ان استقرّت لشهاب الـدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين فسار اليه صاحب حلب محمد بن العزيز بن الغازي الظاهر بأمر الكامل سنة ثلاثين وستمائة وملكها من يده . ثم هلك سنة أربع وثلاثين وملك في حلب مكانه ابنه الناصر يوسف في كفالة جدّته لابيه صفية خاتون بنت العـادل . واستولى على الدولة شمس الدين لؤلؤ الارمني وعز الدين المجلي واقبال الخاتوني ، وكلهم في تصريفها ، والله تعـالى ينصر من يشاء من عباده .

فتنة كيقباد صاحب بلاد الروم واستيلاؤه على خلاط

كان كيقباد بن كيكاوس صاحب بلاد الروم قد استفحل ملكه بها ومدّ يده الى ما يجاورها من البلاد فملك خلاط بعد ان دفع عنها مع الاشرف جلال الدين شاه كما قدّمناه ، ونازعه الاشرف في ذلك واستنجد بأخيه الكامل فسار بالعساكر من مصر سنة احدى وثلاثين . وسار معه الملوك من أهل بيته وانتهى الى النهر الازرق من تخوم الروم . وبعث في مقدمته المظفر صاحب حماة من أهل بيته فلقيه كيقباد وهزمه وحصره في خرت برت وتخاذل عن الحرب . ثم استأمن المظفر صاحب حماة الى كيقباد فأمنه وملك خرت برت ، وكان لبني أرتق ورجع الكامل بالعساكر الى مصر سنة اثنتين وثلاثين وكيقباد في اتباعهم . ثم سار الى حران والرها فملكها من يد نواب الكامل وولى عليها من قبله ، وسار الكامل سنة ثلاث وثلاثين والله أعلم .

وفاة الأشرف بن العادل واستيلاء الكامل على ممالكه

كان الاشرف سنة أربع وثلاثين قد استوحش من أخيه الكامل ، ونقض طاعته ومالأه على ذلك أهل حلب وكنخسرو ، صاحب بلاد الروم وجميع ملوك الشام من قرابتهما غير الناصر بن المعظم صاحب الكرك فانه أقام على طاعة الكامل ، وسار اليه

بمصر فتلقاه بالمبرّه والتكرمة ، ثم هلك الاشرف خلال ذلك سنة خمس وثلاثين وعهد بملك دمشق لاخيه الصالح اسمعيل صاحب بصرى فسار اليها وملكها . وبقي الملوك في وفاقه على الكامل كما كانوا على عهد الاشرف الا المظفر صاحب حماة فانه عدل عنهم الى الكامل ، وسار الكامل الى دمشق فحاصرها وضيق عليها حتى تسلمها صلحاً من الصالح ، وعوّضه عنها ببلبك ، واستولى على سائر أعمال الاشرف ، ودخل سائر بني أيوب في طاعته والله أعلم .

وفاة الكامل وولاية ابنه العادل بمصر واستيلاء ابنه الآخر نجم الدين ايوب على دمشق

ثم توفي الكامل بن العادل صاحب دمشق ومصر والجزيرة سنة خمس وثلاثين بدمشق لستة أشهر من وفاة أخيه الاشرف فانفض الملوك راجعين كل الى بلاده . المظفر الى حماة ، والناصر الى الكرك ، وبويع بمصر ابنه العادل أبو بكر فنصب العساكر بدمشق الجواد يونس ابن عمه مودود بن العادل نائباً عنه وسار الناصر داود الى دمشق ليملكها فبرز اليه الجواد يونس وهزمه . وتمكن في ملك دمشق وخلع طاعة العادل بن الكامل ، وراسل الصالح أيوب في أن يملكه دمشق وينزل له الصالح عن البلاد الشرقية التي ولاه أبوه عليها فسار الصالح لذلك سنة ست

وثلاثين وملك دمشق . وسار يونس الى البلاد الشرقية فاستولى عليها ، ولم تزل بيده الى أن زحف اليه لؤلؤ صاحب الموصل وغلبه عليها واستقرّت دمشق في يد الصالح . ولما أخذ لؤلؤ البلاد من يونس الجواد سار عن القفر الى غزة فمنعه الصالح من الدخول اليها فدخل الى الافرنج بعكا ، وباعوه من الصالح اسمعيل صاحب دمشق فاعتقله وقتله انتهى ، والله أعلم .

اخبار الخوارزمية

ثم زحف التتر الى اذربيجان واستولوا على جلال الدين وقتلوه سنة ثمان وعشرين ، وانفض أصحابه وذهبوا في كل ناحية وسار جمهورهم الى بلاد الروم فنزلوا على علاء الدين كيقباد ملكها ، حتى اذا مات وملك ابنه كنخسرو ارتاب بهم وقبض على أمرائهم وانفض الباقون عنه وعاثوا في الجهات ، فاستأذن الصالح أيوب صاحب سنجار وما اليها أباه الكامل صاحب مصر في استخدامهم ليحسم عن البلاد ضررهم فاجتمعوا عنده وأفاض فيهم الارزاق . ولما توفي الكامل سنة خمس وثلاثين انتقضوا عن الصلح وخرجوا فاكتسحوا النواحي . وسار لؤلؤ الى سنجار فحاصر الصالح فبعث الصالح الخوارزمية فاستمالهم وأقطعهم حران والرها ولقي بهم لؤلؤاً فهزمه وغنم معسكره ، والله تعالى أعلم .

مسير الصالح الى مصر واعتقال الناصر له بالكرك

لما ملك العادل بمصر بعد أبيه اضطرب عليه أهل الدولة وبلغهم استيلاء أخيه الصالح على دمشق فاستدعوه ليملكوه، فبعث عن عمه الصالح اسمعيل من بعلبك ليسير معه فاعتذر عن الوصول. وسار الصالح أيوب وولى على دمشق ابنه المغيث فتح الدين عمر. ولما فصل عن دمشق خالفه اليها عمه الصالح اسمعيل فملكها ومعه شيركوه صاحب حمص، وقبض على المغيث فتح الدين بن الصالح أيوب. وبلغ الخبر اليه وهو بنابلس فانفضت عنه العساكر ودخل نابلس. وجاءه الناصر داود من الكرك فقبض عليه واعتقله، وبعث فيه أخوه العادل فامتنع من تسليمه اليه. ثم قصد داود القدس فملكها من يد الافرنج وخرّب القلعة، والله تعالى ولي التوفيق.

وفاة شيركوه صاحب مصر وولاية ابنه ابراهيم المنصور

ثم توفي المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص سنة ست وثلاثين، وكانت ولايته أوّل المائة السابعة، وولي من بعده ابنه ابراهيم ويلقب بالمنصور والله أعلم.

خلع العادل واعتقاله واستيلاء اخيه الصالح ايوب على مصر

ولما رجع الناصر داود من فتح القدس أطلق الصالح نجم الدين أيوب

من الاعتقال فاجتمعت اليه مواليه، واتصل اضطراب أهل الدولة بمصر على أخيه العادل فكاتبوا الصالح واستدعوه ليملكوه فسار معه الناصر داود، وانتهى الى غزة وبرز العادل الى بلبيس وكتب الى عمه الصالح بدمشق يستنجده على أخيه أيوب فسار من دمشق وانتهى الى الغور. ثم وثب بالعادل في معسكره مواليه ومقدّمهم ايبك الاسمر وقبضوا عليه. وبعثوا الى الملك الصالح فجاء ومعه الناصر داود صاحب الكرك فدخل القلعة سنة سبع وثلاثين، واستقرّ في ملكه.وارتاب منه الناصر داود فلحق بالكرك.واستوحش من الامراء الذين وثبوا بأخيه فاعتقلهم، وفيهم ايبك الاسمر، وذلك سنة ثمان وثلاثين، وحبس أخاه العادل الى أن هلك في محبسه سنة خمس وأربعين. ثم اختط قلعة بين سمي النيل ازاء المقياس واتخذها مسكناً، وأنزل بها حامية من مواليه فكانوا يعرفون بالبحرية آخر أيامهم انتهى والله أعلم.

فتنة الخوارزمية

ثم كثر عيث الخوارزمية بالبلاد المشرقية، وعبروا الفرات وقصدوا حلب فبرزت اليهم عساكرها مع المعظم توران شاه بن صلاح الدين فهزموه وأسروه. وقتلوا الصالح بن الافضل صاحب سميساط، وكان في جملته. وملكوا مَنبِجَ عَنوَةً ورجعوا. ثم ساروا من حَرّان وعبروا من ناحية الرَّقة وعاثوا في البلاد. وجمع

أهل حلب العساكر، وأمدهم الصالح اسمعيل من دمشق بعسكر مع المنصور ابراهيم صاحب حمص، وقصدوا الخوارزمية فانقلبوا الى حران. ثم تواقعوا مع العساكر فانهزموا، واستولى عسكر حلب على حَرّان والرها وسروج والرقّة ورأس عين وما اليها. وخلص المعظم تورانشاه فبعث به لؤلؤ صاحب الموصل الى عسكر حلب. ثم سار عسكر حلب الى آمد وحاصروا المعظم تورانشاه وغلبوه على آمد. وأقام بحصن كيفا الى أن هلك أبوه بمصر، واستدعي لملكها فسار لذلك وولى ابنه الموحد عبد الله بكيفا الى أن غلب التتر على بلاد الشام. ثم سار الخوارزمية سنة أربعين مع المظفر غازي صاحب ميافارقين من أقتال صاحب حلب، ومعهم المنصور ابراهيم صاحب حمص فانهزموا وغنمت العساكر سوادهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

اخبار حلب

قد كان تقدّم لنا ولاية الظاهر غازي على حلب بعد وفاة أبيه. ثم توفي سنة أربع وثلاثين، ونصب أهل الدولة ابنه الناصر يوسف في كفالة جدّته أم العزيز صفية خاتون بنت العادل، ولؤلؤ الارمني واقبال الخاتوني وعز الدين بن مجلي قائمون بالدولة في تصريفها. وما زالت تجهز العساكر لدفاع الخوارزميّة وتفتح البلاد

الى ان توفيت سنة أربعين، واستقل الناصر بتدبير ملكه، وصرف النظر في اموره لجمال الدين اقبال الخاتوني والله أعلم.

فتنة الصالح ايوب مع عمه الصالح اسماعيل على دمشق واستيلاء ايوب آخراً عليها

قد كان تقدم لنا ان الصالح اسمعيل بن العادل خالف الصالح أيوب على دمشق عند مسيره الى مصر فملك دمشق سنة ست وثلاثين، وكان بعد ذلك اعتقال الصالح بالكرك ثم استيلاؤه على مصر سنة سبع وثلاثين، وبقيت الفتنة متصلة بينهما. وطلب الصالح اسمعيل صاحب دمشق من الافرنج المظاهرة على أيوب صاحب مصر على ان يعطيهم حصن الشقيف وصفد فأمضى ذلك ونكره مشيخة العلماء بعصره. وخرج من دمشق عز الدين بن عبد السلام الشافعي، ولحق بمصر فولاه الصالح خطة القضاء بها. ثم خرج بعده جمال الدين بن الحاجب المالكي الى الكرك، ولحق بالاسكندرية فمات بها.

ثم تداعى ملوك الشام لفتنة الصالح أيوب؛ واتفق عليها اسمعيل الصالح صاحب دمشق، والناصر يوسف صاحب حلب، وجدّته صفية خاتون، وابراهيم المنصور بن شيركوه صاحب حمص. وخالفهم المظفر صاحب حماة، وجنح الى ولاية نجم الدين أيوب، وأقام حالهم في الفتنة على ذلك. ثم جنحوا الى الصلح على أن

يطلق صاحب دمشق فتح الدين عمر بن نجم الدين أيوب الذي اعتقله بدمشق فلم يجب الى ذلك، واستجدت الفتنة. وسار الناصر داود صاحب الكرك مع اسمعيل الصالح صاحب دمشق، واستظهروا بالافرنج، وأعطاهم اسمعيل القدس على ذلك. واستنجد بالخوارزمية أيضاً فأجابوه، واجتمعوا بغزة.

وبعث نجم الدين العساكر مع مولاه بيبرس وكانت له ذمة باعتقاله معه فتلاقوا مع الخوارزمية، وجاءت عساكر مصر مع المنصور ابراهيم بن شيركوه، ولاقوا الافرنج من عكا فكان الظفر لعساكر مصر والخوارزمية واتبعوهم الى دمشق، وحاصروا بها الصالح اسمعيل الى أن جهده الحصار، وسأل في الصلح على أن يعوّض عن دمشق ببعلبك وبصرى والسواد فأجابه أيوب الى ذلك. وخرج اسمعيل من دمشق الى بعلبك سنة ثمان وأربعين. وبعث نجم الدين الى حسام الدين علي بن أبي علي الهدباني، وكان معتقلاً عند اسمعيل بدمشق فشرط نجم الدين اطلاقه في الصلح الاول فأطلقه، وبعث اليه بالنيابة عنه بدمشق فقام بها. وانصرف ابراهيم المنصور الى حمص وانتزع صاحب حماة منه سلمية فلكها.

واشتط الخوارزمية على الهدباني في دمشق في الولايات والاقطاعات وامتعضوا لذلك فسار بهم الصالح اسمعيل الى دمشق موصلاً الكرة، ومعه الناصر صاحب الكرك فقام الهدباني في دفاعهم أحسن قيام. وبعث نجم الدين من مصر الى يوسف الناصر

يستنجده على دفع الخوارزمية عن دمشق فسار في عساكره ، ومعه ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص فهزموا الخوارزمية على دمشق سنة أربع وأربعين ، وقتل مقدّمهم حسام الدين بركت خان ، وذهب بقيتهم مع مقدمهم الآخر كشلو خان فلحقوا بالتتر واندرجوا في جملتهم ، وذهب أثرهم من الشام واستجار اسمعيل الصالح وكان معهم بالناصر صاحب حلب فأجاره من نجم الدين أيوب . وسار حسام الدين الهدباني بعساكر دمشق الى بعلبك وتسلمها بالامان، وبعث بأولاد اسمعيل ووزيره ناصر الدين يغمور الى نجم الدين أيوب فاعتقلهم بمصر . وسارت عساكر الناصر يوسف صاحب حلب الى الجزيرة فتواقعوا مع لؤلؤ صاحب الموصل فانهزم لؤلؤ ، وملك الناصر نصيبين ودارا اوقرقيسيا ، وعاد عسكره الى حلب، والله تعالى أعلم .

مسير الصالح ايوب الى دمشق اولا وثانيا وحصار حمص وما كان مع ذلك من الاحداث

ثم بعث الصالح عن حسام الدين الهدباني من دمشق ، وولى مكانه جمال الدين بن مطروح . ثم سار الى دمشق سنة خمس وأربعين واستخلف الهدباني على مصر . ولما وصل الى دمشق جهز فخر الدين بن الشيخ بالعساكر الى عسقلان وطبرية فحاصرهما مدّة، وفتحهما من يد الافرنج ووفد على الصالح بدمشق المنصور صاحب

حماة وكان أبوه المظفر توفي سنة ثلاث وأربعين ، وولي المنصور ابنه هذا واسمه محمد. ووفد أيضاً الاشرف موسى صاحب حمص، وقد كان أبوه ابراهيم المنصور توفي سنة أربع وأربعين قبلها بدمشق وهو ذاهب الى مصر وافداً على الصالح أيوب . وأقام بحمص ابنه مظفر الدين موسى ولقب الاشرف . وجاءت عساكر حلب سنة ست وأربعين مع لؤلؤ الارمني وحصروا مصر شهرين وملكوها من يد موسى الاشرف ، وأعاضوه عنها تل باشر من قلاع حلب مضافةً الى الرَحَبَة وتدمر ، وكانتا بيده مع حمص . وغضب لذلك الصالح فسار من مصر الى دمشق ،وجهز العساكر الى حصار حمص مع حسام الدين الهدباني وفخر الدين بن الشيخ فحاصروا مصر مدّة . وجاء رسول الخليفة المستعصم الى الصالح أيوب شافعاً فافرج العساكر عنها ، وولى على دمشق جمال الدين يغمور ، وعزل ابن مطروح والله تعالى أعلم .

استيلاء الافرنج على دمياط

كانت افرنسة أمّة عظيمة من الافرنج ، والظاهر أنهم أصل الافرنج . وانّ افرنسة هي افرنجة انقلبت السين بها جيماً عندما عربتها العرب ، وكان ملكها من أعظم ملوكهم لذلك العصر ويسمونه ري الافرنس[1] ومعنى ري في لغتهم ملك افرنس .

(١) كذا بالأصل، وأظنه يقصد بذلك ملك الفرنسيس، واسمه بلغتهم، روادي فرنس.

فاعتزم هذا الملك على سواحل الشام وسار لذلك ، كما سار من قبله من ملوكهم . وكان ملكه قد استفحل فركب البحر الى قبرص في خمسين الف مقاتل وشتى بها . ثم عبر سنة سبع وأربعين الى دمياط ، وبها بنو كنانة أنزلهم الصالح بها حامية فلما رأوا ما لا قبل لهم به اجفلوا عنها فملكها ري افرنس ، وبلغ الخبر الى الصالح وهو بدمشق وعساكره نازلة بحمص ، فكرّ راجعاً الى مصر ، وقدّم فخر الدين ابن الشيخ أتابك عساكره ، ووصل بعده فنزل المنصورة وقد أصابه بالطريق وعك واشتدّ عليه والله تعالى أعلم.

استيلاء الصالح على الكرك

كان بين الصالح أيوب وبين الناصر داود ابن عمه المعظم من العداوة ما تقدّم ، وقد ذكرنا اعتقال الناصر له بالكرك فلما ملك الصالح دمشق بعث العساكر مع أتابكه فخر الدين يوسف ابن الشيخ لحصار الكرك . وكان أخوه العادل اعتقله وأطلقه الصالح وألزمه بيته ، ثم جهزه لحصار الكرك فسار اليها سنة اربع وأربعين وحاصرها ، وملك سائر أعمالها وخرّب نواحيها . وسار الناصر من الكرك الى الناصر يوسف صاحب حلب مستجيراً به بعد أن بعث بذخيرته الى المستعصم ، وكتب له خطه بوصولها . وكان قد استخلف على الكرك عندما سار الى حلب ابنه الاصغر عيسى ولقبه المعظم فغضب أخواه الاكبران الامجد حسن والظاهر شادي

فقبضا على أخيهما عيسى ، ووفدا على الصالح سنة ست وأربعين وهو بالمنصورة قبالة الافرنج فملك الكرك والشوبك منهما ، وولى عليهما بدرا الصواي ، وأقطعهما بالديار المصرية ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفاة الصالح ايوب صاحب مصر والشام وسيد ملوك الترك بمصر وولاية ابنه تورانشاه وهزيمة الافرنج واسر ملكهم

ثم توفي الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل سنة سبع وأربعين بمكانه من المنصورة قبالة الافرنج ، وخشي أهل الدولة من الافرنج فكتموا موته ، وقامت أمّ ولده شجرة الدرّ بالامر ، وجمعت الأمراء وسيروا بالخبر الى حسام الدين الهدباني بمصر فجمع الامراء وقوّى جاشهم واستحلفهم . وأرسل الاتابك فخر الدين بن الشيخ بالخبر الى المعظم تورانشاه بن الصالح ، واستدعاه من مكان امارته بحصن كيفا . ثم انتشر خبر الوفاة وبلغ الافرنج فشرهوا الى قتال المسلمين ، ودلفوا الى المعسكر فانكشف المسلمون ، وقتل الاتابك فخر الدين . ثم أتاح الله الكرة للمسلمين ، وانهزم الافرنج ، ووصل المعظم تورانشاه من مكانه بحصن كيفا لثلاثة أشهر او تزيد فبايعه المسلمون واجتمعوا عليه ، واشتدّوا في قتال الافرنج وغلبت أساطيلهم أساطيل العدوّ . وسأل الافرنج في الافراج عن دمياط على أن يعاضوا بالقدس فلم يجبهم المسلمون الى ذلك . وسارد

سرايا المسلمين من حولهم وفيما بين معسكرهم وبين دمياط فرحلوا راجعين اليها . وأتبعهم المسلمون فأدركهم الدهش وانهزموا ، وأسر ملكهم ريّ افرنس وهو المعروف بالفرنسيس . وقتل منهم اكثر من ثلاثين ألفا . واعتقل الفرنسيس بالدار المعروفة بفخر الدين بن لقمان ووكل به الخادم صبيح المعظمي . ثم رحل المعظم بعساكر المسلمين راجعاً الى مصر ، والله تعالى أعلم .

مقتل المعظم تورانشاه وولاية شجرة الدر وفناء الفرنسيس بدمياط

ولما بويع المعظم تورانشاه وكانت له بطانة من المماليك جاء بهم من كيفا فتسلطوا على موالي أبيه ، وتقسموهم بين النكبه والاهمال . وكان للصالح جماعة من الموالي وهم البحرية الذين كان ينزلهم بالدار التي بناها أزاء المقياس ، وكانوا بطانته وخالصته . وكان كبيرهم بيبرس ، وهو الذي كان الصالح بعثه بالعساكر لقتال الخوارزمية عندما زحفوا مع عمه الصالح اسمعيل صاحب دمشق . وقد مرّ ذكر ذلك فصارت صاغيته معهم . ثم استمالهم الصالح فصاروا معه وزحفوا مع عساكره الى عساكر دمشق والافرنج فهزموهم وحاصروا دمشق وملكوها بدعوة الصالح كما مرّ . واستوحش بيبرس حتى بعث اليه الصالح بالامان سنة أربع وأربعين ولحقه بمصر فحبسه على ما كان منه ، ثم أطلقه .

وكان من خواص الصالح أيضاً قلاون الصالحي كان من موالي علاء الدين قراسنقر مملوك العادل ، وتوفي سنة خمس وأربعين وورثه الصالح بحكم الولاء . ومنهم أقطاي الجامدار وايبك التركماني وغيرهم فأنفوا من استعلاء بطانة المعظم تورانشاه عليهم وتحكمهم فيهم فاعصوصبوا واعتزموا على الفتك بالمعظم . ورحل من المنصورة بعد هزيمة الافرنج راجعاً الى مصر فلما قربت له الحراقة عند البرج ليركب البحر كبسوه بمجلسه ، وتناوله بيبرس بالسيف فهرب الى البرج فاضرموه ناراً فهرب الى البحر فرموه بالسهام فألقى نفسه في الماء وهلك بين السيف والماء لشهرين من وصوله وملكه .

ثم اجتمع هؤلاء الامراء المتولون قتل تورانشاه ونصبوا للملك أم خليل شجرة الدر زوجة الصالح ، وأم ولده خليل المتوفى في حياته ، وبه كانت تلقب . وخطب لها على المنابر وضربت السكة باسمها ووضعت علامتها على المراسم ، وكان نص علامتها أمّ خليل وقدّم أتابك على العساكر عز الدين الجاشنكير ايبك التركماني ، فلما استقرت الدولة طلبهم الفرنسيس في الفداء على تسليم دمياط للمسلمين فاستولوا عليها سنة ثمان وأربعين . وركب الفرنسيس البحر الى عكا وعظم الفتح وأنشد الشعراء في ذلك وتساجلوا . ولجمال الدين بن مطروح نائب دمشق أبيات في الواقعة يتداولها الناس لهذا العصر ، والله تعالى ولي التوفيق وهي :

قل للفرنسيس إذا جئته مقال صدق عن قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى من قتل عبّاد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغي ملكها تحسب أنّ الزمر بالطبل ريح
فساقك الحين الى ادهم ضاق بهم في ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم بسوء تدبيرك بطن الضريح
خمسون الفاً لا يرى منهم إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لامثالها لعلنا من شركم نستريح
ان كان باباكم بذا راضياً فرب غش قد أتى من نصيح
أوصيكم خيراً به انه لطف من الله اليكم أتيح
لو كان ذا رشد على زعمكم ما كان يستحسن هذا القبيح
فقل لهم ان اضمروا عودة لاخذ ثار او لقصد قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

والطواشي في لغة أهل المشرق هو الخصي، ويسمونه الخادم ايضاً والله أعلم.

استيلاء الناصر صاحب حلب على دمشق وبيعة الترك بمصر لموسى الأشرف بن اطسز بن المسعود صاحب اليمن وتراجعهما ثم صلحهما

ولما قتل المعظم تورانشاه ونصب الامراء بعده شجرة الدر زوجة الصالح امتعض لذلك امراء بني أيوب بالشام، وكان بدر الصوابي بالكرك والشوبك ولّاه الصالح عليهما، وحبس عنده فتح الدين

عمر بن أخيه العادل فاطلقه من محبسه وبايع له. وقام بتدبير دولته جمال الدين بن يغمور بدمشق، واجتمع مع الامراء القصريّة بها على استدعاء الناصر صاحب حلب وتمليكه فسار وملك دمشق، واعتقل جماعة من موالي الصالح. وبلغ الخبر الى مصر فخلعوا شجرة الدر ونصبوا موسى الأشرف بن مسعود أخي الصالح بن الكامل، وهو الذي ملك أخوه أطسز واسمه يوسف باليمن بعد ابيهما مسعود، وبايعوا له وأجلسوه على التخت، وجعلوا أيبك اتابكه.

ثم انتقض الترك بغزة ونادوا بطاعة المغيث صاحب الكرك، فنادى الترك بمصر بطاعة المستعصم وجدّدوا البيعة للاشرف واتابكه ثم سار الناصر يوسف بعسكره من دمشق الى مصر فجهز الامراء العساكر الى الشام مع أقطاي الجامدار كبير البحرية، ويلقب فارس الدين فاجفلت عساكر الشام بين يديه. ثم قبض الناصر يوسف صاحب دمشق على الناصر داود لشيء بلغه عنه وحبسه بحمص، وبعث عن ملوك بني أيوب فجاءه موسى الاشرف صاحب حِمْصَ والرَّحَبَة وتدمر، والصالح اسمعيل بن العادل من بعلبك، والمعظم تورانشاه وأخوه نصر الدين ابنا صلاح الدين، والامجد حسام الدين والظاهر شادي ابنا الناصر، وداود صاحب الكرك، وتقي الدين عباس بن العادل؛ واجتمعوا بدمشق.

وبعث في مقدمته مولاه لؤلؤ الارمني، وخرج ايبك التركماني

في العساكر من مصر للقائهم، وأفرج عن ولدي الصالح اسمعيل المعتقلين منذ أخذهم الهدباني من بعلبك ليتهم الناس اباهم ويستريبوا به؛ والتقى الجمعان في العباسية فانكشفت عساكر مصر، وسارت عساكر الشام في اتباعهم، وثبت ايبك، وهرب اليه جماعة من عساكر الناصر. ثم صدق ايبك الحملة على الناصر فتفرقت عساكره وسار منهزماً، وجيء لايبك بلؤلؤ الارمني أسيراً فقتله، وأسر اسمعيل الصالح وموسى الاشرف وتورانشاه المعظم وأخوه. ولحق المنهزمون من عسكر مصر بالبلد وشعَر المتبعُون لهم من عساكر الشام بهزيمة الناصر وراءهم فرجعوا. ودخل ايبك الي القاهرة، وحبس بني أيوب بالقلعة.

ثم قتل يغمور وزير الصالح اسمعيل المعتقل ببعلبك مع بنيه، وقتل الصالح اسمعيل في محبسه. ثم جهز الناصر العساكر من دمشق الى غزة، فتواقعوا مع فارس الدين اقطاي مقدّم عساكر مصر، فهزموهم واستولوا عليها[1]. وتردّدت الرسل بين الناصر وبين الامراء بمصر، واصطلحوا سنة خمسين، وجعلوا التخم بينهم نهر الاردن. ثم أطلق ايبك حسام الدين الهدباني فسار الى دمشق، وسار في خدمة الناصر. وجاءت الى الناصر شفاعة المستعصم في

(١) أي على غزة كما في تاريخ أخبار البشر لأبي الفداء ج ٣ ص ١٨٥ وإليك عبارته: في هذه السنة (حوادث سنة ٦٤٨) بعد هزيمة الملك الناصر صاحب الشام سار فارس الدين اقطاي بثلاثة آلاف فارس إلى غزة فاستولى عليها، ثم عاد إلى الديار المصرية.

الناصر داود صاحب الكرك الذي حبسه بحمص فـافرج عنه ، ولحق ببغداد ومعه ابناه الامجد والظاهر فمنعه الخليفة من دخولها فطلب وديعته فلم يسعف بها. وأقام في أحياء عرية ، ثم رجع الى دمشق بشفاعة من المستعصم للناصر وسكن عنده ، والله تعـالى ينصر من يشاء من عباده .

خلع الاشرف بن اطسز واستبداد ايبك وامراء الترك بمصر

قد تقدّم لنا آنفاً بيعة أمراء التركمان بمصر للاشرف موسى بن يوسف أتسز بن الكامل ، وانهم خطبوا له وأجلسوه على التخت بعد أن نصبوا للملك ايبك، وكان طموحاً الى الاستبداد . وكان أقطاي الجامدار من أمراء البحرية يدافعه عن ذلك ، ويغض من عنانه منافسة وغيرة فارصد له ايبك ثلاثة من المماليك اغتـالوه في بعض سكك القصر وقتلوه سنة اثنتين وخمسين . وكانت جماعة البحرية ملتفة عليه فانفضوا ولحقوا بالنـاصر في دمشق ، واستبد ايبك بمصر ، وخلع الاشرف وقطع الخطبة له فكان آخر امراء بني أيوب بمصر ، وخطب ايبك لنفسه . ثم تزوّج شجرة الدر أم خليل الملكة قبله فلما وصل البحرية الى النـاصر بدمشق أطمعوه في ملك مصر واستحثوه فتجهز وسار الى غزة ، وبرز ايبك بعساكره الى العباسية فنزل بها .

وانتقض عليه (١) فتوهموا بالثورة به فارتاب بهم ولحقوا بالناصر. ثم تردّدت الرسل بين الناصر وايبك فاصطلحوا على أن يكون التخم بينهم العريش. وبعث الناصر الى المستعصم مع وزيره كمال الدين بن العديم في طلب الخلعة. وكان ايبك قد بعث بالهدية والطاعة الى المستعصم فطل المستعصم الناصر بالخلعة حتى بعثها اليه سنة خمس وخمسين. ثم قتل المعز أيبك قتلته شجرة الدر غيلة في الحمام سنة خمس وخمسين غيرة من خطبته بنت لؤلؤ صاحب الموصل فنصبوا مكانه ابنه علياً ولقبوه المنصور، وثاروا به من شجرة الدر كما نذكره في أخبارهم ان شاء الله تعالى.

مسير المغيث بن العادل صاحب الكرك مع البحرية الى مصر وانهزامهم

كان البحرية منذ لحقوا بالناصر بعد مقتل أقطاي الجامدار مقيمين عنده، ثم ارتاب بهم وطردهم آخر سنة خمس وخمسين فلحقوا بغزة وكاتبوا المغيث فتح الدين عمر بن العادل بالكرك وقد كنا ذكرنا ان بدراً الصوافي أخرجه من محبسه بالكرك بعد مقتل تورانشاه بمصر، وولاه الملك وقام بتدبير دولته. وبعث اليه الآن بيبرس البندقداري مقدّم البحرية من غزة يدعوه الى

(١) كذا بياض بالأصل، وفي تاريخ أبي الفداء ج ٣ ص ١٩٠ : وفيها (حوادث سنة ٦٥٣) عزمت العزيزية المقيمون مع المعز أيبك على القبض عليه، وعلم بذلك، واستعد لهم فهربوا من مخيمهم على العباسية.

الملك ، وبلغ الخبر الى الناصر بدمشق فجهز العساكر الى غزة فقاتلوهم وانهزموا الى الكرك فتلقاهم المغيث وقسم فيهم الاموال واستحثوه لملك مصر فسار معهم ، وبرزت عساكر مصر لقتالهم مع قطز مولى ايبك المعزّ ومواليه ، فالتقى الفريقان بالعباسيَّة فانهزم المغيث والبحرية الى الكرك ، ورجعت العساكر الى مصر .

وفي خلال ذلك أخرج الناصر داود بن المعظم من دمشق حاجاً ، ونادى في الموسم بتوسله الى المستعصم في وديعته ، وانصرف مع الحاج الى العراق فأكرهه المستعصم على براءته من وديعته فكتب وأشهد ولحق بالبرية . وبعث الى الناصر يوسف يستعطفه فأذن له وسكن دمشق . ثم رجع مع رسول المستعصم الذي جاء معَه الى الناصر بالخلعة والتقليد فأقام بقرقيسيا حتى يستأذن له الرسول فلم يأذن له فأقام عنده بأحياء العرب في التيه فقربوا في تقلبهم من الكرك ، فقبض عليه المغيث صاحب الكرك وحبسه ، حتى اذا زحف التتر لبغداد بعَث عنه المستعصم ليبعثه مع العَساكر لمدافعَتهم ، وقد استولى التتر على بغداد فرجع ومات ببعْض قرى دمشق بالطاعون سنة ست وخمسين انتهى ، والله تعَالى أعلم .

زحف الناصر صاحب دمشق الى الكرك وحصارها والقبض على البحرية

ولما كان من المغيث والبحرية ما قدّمناه ، ورجعوا منهزمين

الى الكرك بعَث الناصر عساكره من دمشق الى البحرية فالتقوا بغزة، وانهزمت عساكر الناصر وظفرت البحرية بهم. واستفحل امرهم بالكرك فسار الناصر بنفسه اليهم بالعَساكر من دمشق سنة سبع وخمسين، وسار معَه صاحب حماه المنصور بن المظفر محمود فنزلوا على الكرك وحاصروها. وأرسل المغيث الى الناصر في الصلح فشرط عليه أن يحبس البحرية فأجاب. ونمي الخبر الى بيبرس أميرهم البندقداري فهرب في جماعة منهم، ولحق بالناصر. وقبض المغيث على الباقين، وبعَث بهم الى الناصر في القيود ورجع (1) الكرك. ثم بعَث الى الامراء بمصر وزيره كمال الدين بن العَديم يدعوهم الى الاتفاق الى مدافعَة التتر. وفي أيام مقدم ابن العَديم مصر خلع الامراء على ابن المعز أيبك، وقبض عليه أتابك عسكره وموالي أبيه، وجلس على التخت وخطب لنفسه، وقبض على الامراء الذين يرتاب منازعتهم كما نذكره في أخبارهم. وأعاد ابن العَديم الى مرسله صاحب دمشق بالاجابة والوعد بالمظاهرة، والله تعَالى ينصر من يشاء من عباده.

---

(1) كذا بياض بالأصل، وفي أخبار البشر لأبي الفداء ج ٣ ص ١٩٨ : وقبض المغيث على من بقي عنده من البحرية، ومن جملتهم سنقر الأشقر وسكز وبرامق، وأرسلهم على الجمال إلى الملك الناصر فبعث بهم إلى حلب فاعتقلوا بها. واستقر الصلح بين الملك الناصر وبين الملك المغيث صاحب الكرك.

استيلاء التتر على الشام وانقراض ملك بني ايوب وهلاك من هلك منهم

ثم زحف التتر وسلطانهم هلاكو الى بغداد ، واستولى على كرسي الخلافة ، وقتلوا المستعصِم وطمسوا معالم الملة . وكادت تكون من أشراط الساعة . وقد شرحناها في أخبار الخلفاء ونذكرها في أخبار التتر فبادر الناصر صاحب دمشق بمصانعته ، وبعث ابنه العزيز محمداً الى السلطان هلاكو بالهدايا والالطاف فلم يغن وردّه بالوعد . ثم بعث هلاكو عساكره الى ميافارقين ، وبها الكامل محمد بن المظفر شهاب الدين غازي بن العادل الكبير فحاصروها سنتين ، ثم ملكوها عنوة سنة ثمان وخمسين وقتلوه . وبعث العساكر الى اربل فحاصروها ستة أشهر وفتحوها . وسار ملوك بلاد الروم كيكاوس وقليج أرسلان ابنا كنخسرو الى هلاكو أثر ما ملك بغداد فدخلوا في طاعته ورجعوا الى بلادهم . وسار هلاكو الى بلاد أذربيجان ، ووفد عليه هنالك لؤلؤ صاحب الموصل سنة سبع وخمسين ودخل في طاعته وردّه الى بلده وهلك أثر ذلك . وملك الموصل مكانه ابنه الصالح وسنجار ابنا علاء الدين .

ثم أوفد الناصر ابنه على هلاكو بالهدايا والتحف على سبيل المصانعة ، واعتذر عن لقائه بالتخوف على سواحل الشام

الافرنج فتلقى ولده بالقبول، وعذره وارجعه الى بـلده بالمهادنة والمواعده الجميلة. ثم سار هلاكو الى حرّان، وبعث ابنه في العساكر الى حلب وبها المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين نائباً عن الناصر يوسف فخرج لقتالهم في العساكر. وأكمن له التتر واستجروهم ثم كرّوا عليهم فاثخنوا فيهم ورحـلوا الى اعزاز فملكوها صلحاً. وبلغ الخبر الى الناصر، وهو بدمشق معسكر من ثورة سنة ثمان وخمسين. وجـاء الناصر بن المظفر صاحب حماة فأقـام معه ينتظر أمرهم. ثم بلغه ان جماعة من مواليه اعتزموا على الثورة به فكرّ راجعاً الى دمشق، ولحق اولئك الموالي بغزة. ثم اطلع على خبثهم وان قصدهم تمليك أخيه الظاهر فاستوحش منهم ولحق الظاهر بهم فنصبوه للامر، واعصوصبوا عليه. وكان معهم بيبرس البندقداري وشعر بتلاشى أحوالهم فكاتب المظفر صاحب مصر واستأمن اليه فأمنـه.

وسار الى مصر فتلقي بالكرامة وأنزل بدار الوزارة، وأقطعه السلطان قطز قليوب باعماله. ثم هرب هلاكو الى الفرات فملك [1] وكان بها اسمعيل أخو الناصر معتقلًا فاطلقه وسرحه الى عمـله بالصبينة وبانيـاس وولاه عليها. وقدم صاحب أرزن الى تورانشاه نائب حلب يدعوه الى الطاعة فامتنع فسار اليها، وملكها عنوة

(١) كـذا بياض بـالأصل، وفي أخبـار البشر لأبي الفـداء ج ٣ ص ٢٠٠ : أن هـولاكـو عـبر الفرات بجموعه ونازل حلب.

وأمنها . واعتصم تورانشاه والحامية بالقلعة . وبعث أهل حماة بطاعتهم الى هلاكو وأن يبعث عليهم نائباً من قبله ويسمى برطانتهم الشحنة . فأرسل اليهم قائداً يسمى خسرو شاه ، وينسب في العرب الى خالد بن الوليد رضي الله عنه . وبلغ الناصر أخذ حلب فاجفل عن دمشق واستخلف عليها ، وسار الى غزة واجتمع عليه مواليه وأخوه . وسار التتر الى نابلس فملكوها وقتلوا من كان بها من العسكر . وسار الناصر من غزة الى العريش ، وقدم رسله الى قطز تسأله النصر من عدوّهم واجتماع الايدي على المدافعة . ثم تقدموا الى (١)

واستراب الناصر بأهل مصر فسار هو وأخوه الظاهر ، ومعهما الصالح بن الاشرف موسى بن شيركو الى التيه فدخلوا اليه ، وفارقهم المنصور صاحب حماة والعساكر الى مصر فتلقاهم السلطان قطز بالصالحية ، وآنسهم ورجع بهم الى مصر . واستولى التتر على دمشق وسائر بلاد الشام الى غزة ، وولوا على جميعها أمراءهم . ثم افتتحت قلعة حلب ، وكان بها جماعة من البحرية معتقلين منهم سنقر الاشقر فدفعهم هلاكو الى السلطان جق من أكابر أمرائه . وولى على حلب عماد الدين القزويني . ووفد عليه بحلب الاشرف موسى بن منصور بن ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص . وكان

(١) كذا بياض بالأصل، وفي أخبار البشر ج ٣ ص ٢٠٢ : ثم سار الملك الناصر والملك المنصور صاحب حماه والعسكر، ووصلوا إلى قطينة فجرى بها فتنة بين التركماني والأكراد الشهرزورية .

الناصر قد أخذها منه كما قدمناه فأعادها عليه هلاكو، وردّ جميع ولايته بالشام الى رأيه.

وسار الى قلعة حارم فملكها واستباحها، وأمر بتخريب أسوار حلب وقلعتها وكذلك حماة وحمص وحاصروا قلعة دمشق طويلاً، ثم تسلموها بالامان. ثم ملكوا بعلبك وهدموا قلعتها، وساروا الى الصبينة، وبها السعيد بن العزيز بن العادل فملكوها منه على الامان. وسار معهم ووفد على هلاكو فخر الدين بن الزكي من أهل دمشق فولاه القضاء بها. ثم اعتزم هلاكو على الرجوع الى العراق فعبروا الفرات وولى على الشام أجمع أميراً اسمه كتبغا من أكابر أمرائه، واحتمل عماد الدين القزويني من حلب، وولى مكانه آخر. وأما الناصر فلما دخل في التيه هاله أمره، وحسن له أصحابه قصد هلاكو فوصل الى كتبغا نائب الشام يستأذنه. ثم وصل فقبض عليه وسار به الى [1] حتى سلمها اليه أهلها.

وبعث به الى هلاكو فمرّ بدمشق ثم بحماة، وبها الاشرف صاحب حمص وخسرو شاه نائبها فخرجا لتلقيه. ثم مرّ بحلب ووصل الى هلاكو فأقبل عليه ووعده برده الى ملكه. ثم ثار المسلمون بدمشق بالنصارى أهل الذمة، وخربوا كنيسة مريم من كنائسهم

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي أخبار البشر ج ٣ ص ٢٠٤ : وسار حسين الكردي إلى كتبغا نائب هولاكو، وعرفه بموضع الملك الناصر فأرسل كتبغا إليه: وقبض عليه وأحضره إلى عجلون، وكانت بعد عاصية فأمرهم الملك الناصر بتسليمها فسلمت إليهم فهدموها.

وكانت من اعظم الكنائس في الجانب الذي فتحه خالد بن الوليد رحمه الله. وكانت لهم أخرى في الجانب الذي فتحه أبو عبيدة بالامان. ولما ولي الوليد طالبهم في هذه الكنيسة ليدخلها في جامع البلد، وأعلى لهم في السوم فامتنعوا فهدمها وزادها في الجامع لانها كانت لصقه. فلما ولي عمر بن عبد العزيز استماضوه فعوضهم بالكنيسة التي ملكها المسلمون بالعنوة مع خالد بن الوليد رحمه الله، وقد تقدم ذكر هذه القصة. فلما ثار المسلمون الآن بالنصارى أهل الذمة خربوا كنيسة مريم هذه، ولم يبقوا لها اثراً.

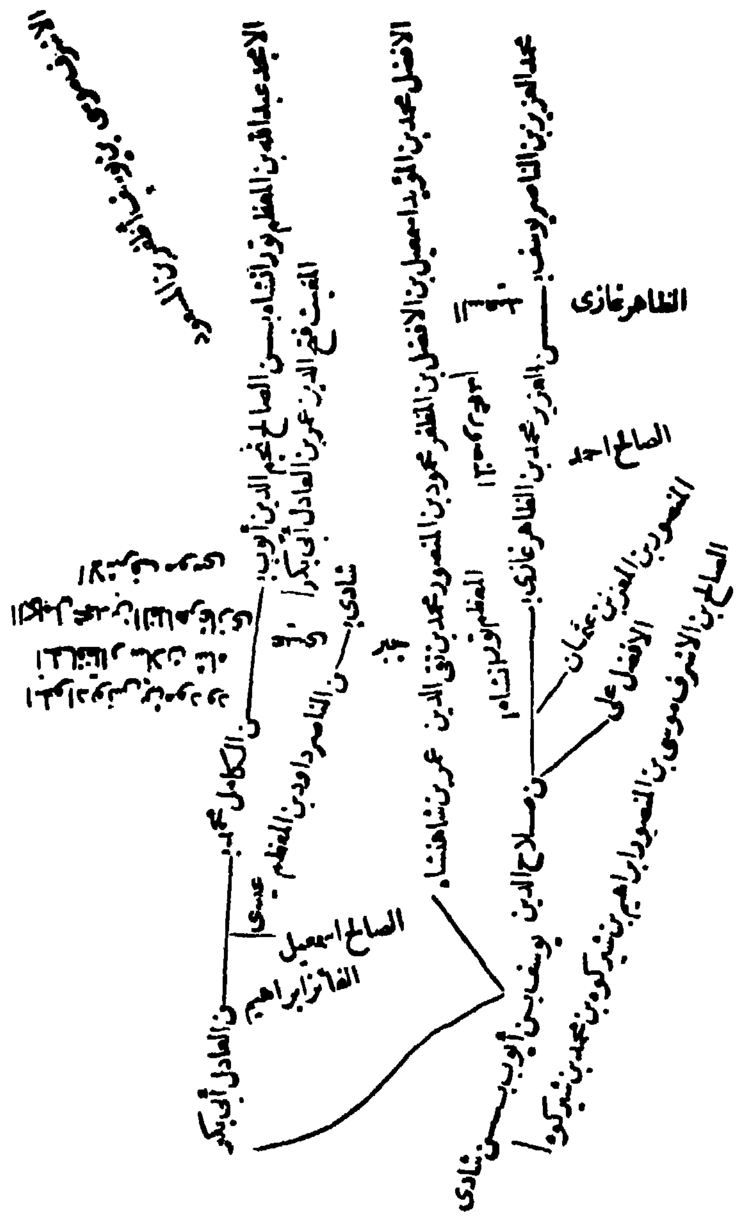
ثم ان العساكر الاسلامية اجتمعت بمصر، وساروا الى الشام لقتال التتر صحبة السلطان قطز صاحب [1] ومعه المنصور صاحب حماة وأخوه الافضل فسار اليه كتبغا نائب الشام، ومعه الاشرف صاحب حمص والسعيد صاحب الضبينة ابن العزيز بن العادل؛ والتقوا على عين جالوت بالغور فانهزم التتر وقتل أميرهم النائب كتبغا وأسر السعيد صاحب الضبينة فقتله قطز، واستولى على الشام أجمع. وأقر المنصور صاحب حماة على بلده ورجع الى مصر فهلك في طريقه، قتله بيبرس البندقداري، وجلس على التخت مكانه وتلقب بالظاهر حسبما يذكر ذلك كله في دولة الترك.

ثم جاءت عساكر التتر الى الشام، وشغل هلاكو عنهم بالفتنة

---

(١) كذا بياض بالأصل وفي أخبار البشر ج ٣ ص ٢٠٤ : لما اجتمعت العساكر الإسلامية بمصر عزم الملك المظفر قطز مملوك المعز ايبك على الخروج إلى الشام لقتال التتر.

مع قومه واسف عـلى قتل كتبغا نائبه وهزيمة عساكره فأحضر الناصر ولامه على ما كان منه من تسهيله عليه أمر الشام، وتجنى عليه بأنه غره بذلك فاعتذر له الناصر فلم يقبل فرماه بسهم فأنفذه. ثم اتبعه بأخيه الظاهر وبالصالح بن الاشرف موسى صاحب حمص، وشفعت زوجة هلاكو في العزيز بن الناصر وكان مع ذلك يحبه فاستبقاه. وانقرض ملك بني ايوب من الشام كما انقرض قبلها من مصر؛ واجتمعت مصر والشام في مملكة الترك، ولم يبق لبني أيوب بها ملك الا للمنصور بن المظفر صاحب حماة فان قطز أقره عليها والظـاهر بيبرس من بعده وبقي في امارتـه هو وبنوه مدة من دولة الترك وطاعتهم، حتى أذن الله بانقراضهم وولي عليها غيرهم من أمرائهم كما نذكر في أخبار دولتهم، والله وارث الارض ومن عليها والعاقبة للمتقين.


الظاهر غازي
الصالح احمد
الصالح اسمعيل

دولة الترك

الخبر عن دولة الترك القائمين بالدولة العباسية بمصر والشام من بعد بني ايوب ولهذا العهد ومبادي امورهم وتصاريف احوالهم

قد تقدم لنا ذكر الترك وأنسابهم أول الكتاب عند ذكر أمم العالم، ثم أخبار الامم السُلْجُوقيّة، وانهم من ولد يافث بن نوح باتفاق من أهل الخليقة. فعند نسابة العرب انهم من عامور بن سويل ابن يافث، وعند نسابة الروم أنهم من طيراش بن يافث. هكذا وقع في التوراة. والظاهر أن ما وقع لنسابة العرب غلط، وان عامور هو مصحف كومر لان كافه تنقلب عند التعريب غيناً معجمة فربما صحفت عيناً مهملة أو بقيت بحالها. وأما سويل فغلط بالزيادة وأما ما وقع للروم من نسبتهم الى طيراش فهو منقول في الاسرائيليات، وهو رأي مرجوح عندهم لمخالفته لما في التوراة.

وأما شعوبهم واجناسهم فكثيرة وقد عددنا منهم أول الكتاب التغرغر، وهم التتر والخطا وكانوا بأرض طغماج، وهي بلاد ملوكهم في الاسلام تركستان وكاشغر.

وعددنا منهم أيضاً الخزلجية والغز الذين كان منهم السلجوقية،

والمياطلة الذين منهم الخلج وبلادهم الصغد قريباً من سمرقند ويسمون بها أيضاً . وعددنا منهم أيضاً الغور والخزر والقفجاق ، ويقال الخفشاخ ويمك والعَلان ، ويقال اللان وشركس وأركش . وقال صاحب كتاب زجّار في الكلام على الجغرافيا اجناس من الترك كلهم وراء النهر الى البحر المظلم ، وهي العَسية والتغرغرية والخرخيرية والكيماكية والخزلخية والخزر والخاسان وتركش وأركش وخفشاخ والخلخ والغزية وبلغار وخجاكت ويمناك وبرطاس وسنجرت وخرجان وأنكر . وذكر في موضع آخر أنكر من شعوب الترك ، وأنهم في بلاد البنادقة من أرض الروم .

وأما مواطنهم فانهم ملكوا الجانب الشمالي من المعْمور في النصف الشرقي منه قبالة الهند والعِراق في ثلاثة أقاليم : هي السادس والسابع والخامس ، كما ملك العَرب الجانب الجنوبي من المعْمور أيضاً في جزيرة العَرب وما اليها من أطراف الشام والعِراق وهم رحالة مثلهم وأهل حرب وافتراس ومعَاش من التغلب والنهب إلّا في الاقل . وقد ذكرنا انهم عند الفتح لم يذعنوا الا بعْد طول حرب وممارسة أيام سائر دولة بني أمية ، وصدراً من صولة بني العَباس . وامتلأت أيدي العَرب يومئذ من سبيهم فاتخذوهم خولا في المهن والصنائع ، ونساءهم فرشاً للولادة كما فعلوه في سبي الفرس والروم وسائر الامم الذين قاتلوهم على الدين ، وكان شأنهم أن لا يستعِينوا برقيقهم في شيء مما يعانونه من الغزو والفتوح

ومحاربة الامم، ومن أسلم منهم تركوه لسبيله التي هو عليها من أمر معاشه على طاغية هواه .

لانّ عصبية العرب كانت مستفحلة يومئذ وشوكتهم قائمة مرهفة، ويدهم ويد سلطانهم في الامر جميعاً، ومرماهم الى العز والمجد واحد . وكانوا كأسنان المشط لتزاحم الانساب وغضاضة الدين، حتى اذا ارهف الملك حدّه ونهج الى الاستبداد طريقه واحتاج السلطان في القيام بأمره الى الاستظهار على المنازعين فيه من قومه بالعصبية المدافعة دونه، والشوكة المعترض شباها في اذياله حتى تجدع أنوفهم عن التطاول الى رتبته، وتغض أعنتهم عن السير في مضماره اتخذ بنو العباس من لدن المهدي والرشيد بطانة اصطنعوهم من موالي الترك والروم والبربر، ملؤا منهم المواكب في الاعياد والمشاهد والحروب والصوائف والحراسة على السلطان، وزينة في أيام السلم واكتافاً لعصابة الملك. حتى لقد اتخذ المعتصم مدينة سامرا لنزلهم تحرجاً من أضرار الرعية باصطدام مراكبهم، وتراكم القتال بجوهم، وضيق السكك على المارين بزحامهم .

وكان اسم الترك غالباً على جميعهم فكانوا تبعاً لهم ومندرجين فيهم . وكانت حروب المسلمين لذلك العهد في القاصية وخصوصاً مع الترك متصلة والفتوح فيهم متعاقبة، وأمواج السبي من كل وجه متداركة. وربما رام الخلفاء عند استكمال بغيتهم واستجماع

عصابتهم اصطفاء علية منهم للمخالصة ، وقواد العساكر ورؤساء المراكب ، فكانوا يأخذون في تدريجهم لذلك بمذاهب الترشيح فينتقون من أجود السبي الغلمان كالدنانير ، والجوار كاللآلىء ويسلمونهم الى قهارمة القصور وقرمة الدواوين ، يأخذونهم بحدود الاسلام والشريعة وآداب الملك والسياسة ، ومراس الثقافة في المران على المناضلة بالسهام والمسالحة بالسيوف والمطاعنة بالرماح ، والبصر بأمور الحرب والفروسية ، ومعاناة الخيول والسلاح والوقوف على معاني السياسة .

حتى اذا تنازعوا في الترشيح وانسلخوا من جلدة الخشونة الى رقة الحاشية وملكة التهذيب اصطنعوا منهم للمخالصة ، ورقوهم في المراتب واختاروا منهم لقيادة العساكر في الحروب ، ورئاسة المواكب أيام الزينة ، ورتق الفتوق الحادثة وسدّ الثغور القاصية كل على شاكلة غنائه وسابق اصطناعه . فلم يزل هذا دأب الخلفاء في اصطناعهم ، ودعامة سرير الملك بعمدهم ؛ وتمهيد الخلافة بمقاماتهم حتى سموا في درج الملك ، وامتلأت جوانجهم من الغزو ، وطمحت أبصارهم الى الاستبداد فتغلبوا على الدولة ، وحجروا الخلفاء وقعدوا بدست الملك ومدرج النهي والامر ، وقادوا الدولة بزمامهم ، وأضافوا اسم السلطان الى مراتبهم .

وكان مبدأ ذلك واقعة المتوكل ، وما حصل بعدها من تغلب الموالي واستبدادهم بالدولة والسلطان . ونهج السلف منهم في ذلك

السبيل للخلف ، واقتدى الآخر بالأول فكانت لهم دول في الاسلام متعدّدة تعقب غالباً دولة أهل العصبية وشوكة النسب : كمثل دولة بني سامان وراء النهر ، وبني سبكتكين بعدهم ، وبني طولون بمصر ، وبني طغج . وما كان بعد الدولة السلجوقية من دولتهم مثل : بني خوارزم شاه بما وراء النهر ، وبني طغرلتكين بدمشق ، وبني أرتق بماردين ، وبني زنكي بالموصل والشام ، وغير ذلك من دولهم التي قصصناها عليك في تصانيف الكتاب .

حتى اذا استغرقت الدولة في الحضارة والترف ، ولبثت أثواب البلاء والعجز ورميت الدولة بكفرة التتر الذين أزالوا كرسي الخلافة وطمسوا رونق البلاد ، وأدالوا بالكفر من الايمان بما أخذ أهلها عند الاستغراق في التنعم والتشاغل في اللذات والاسترسال في الترف من تكاسل الهمم والقعود عن المناصرة ، والانسلاخ من جلدة البأس وشعار الرجولية ، فكان من لطف الله سبحانه ان تدارك الايمان باحياء رمقه وتلافى شمل المسلمين بالديار المصرية بحفظ نظامه ، وحماية سياجه بأن بعث لهم من هذه الطائفة التركية وقبائلها العزيزة المتوافرة أمراء حامية وانصاراً متوافية ، يجلبون من دار الحرب الى دار الاسلام في مقادة الرق الذي كمن اللطف في طيه ، وتعرفوا العز والخير في مغبته ، وتعرضوا للعناية الربانية بتلافيه . يدخلون في الدين بعزائم ايمانية واخلاق بدوية لم يدنسها

لؤم الطباع، ولا خالطتها اقذار اللذات، ولا دنستها عوائد الحضارة، ولا كسر من سورتها غزارة الترف.

ثم يخرج بهم التجار الى مصر أرسالا كالقطا نحو الموارد فيستعرضهم أهل الملك منهم، ويتنافسون في أثمانهم بما يخرج عن القيمة لا لقصد الاستعباد، إنما هو اكتاف للعصبية وتغليظ للشوكة، ونزوع الى العصبية الحامية يصطفون من كل منهم بما يؤنسونه من شيم قومهم وعشائرهم. ثم ينزلونهم في غرف الملك ويأخذونهم بالمخالصة ومعاهدة التربية، ومدارسة القرآن وممارسة التعليم، حتى يشتدوا في ذلك. ثم يعرضونهم على الرمي والثقافة وركض الخيل في الميادين، والمطاعنة بالرماح والمماصعة بالسيوف، حتى تشتد منهم السواعد وتستحكم الملكات، ويستيقنوا منهم المدافعة عنهم والاستماتة دونهم.

فاذا بلغوا الى هذا الحد ضاعفوا أرزاقهم، ووفروا من اقطاعهم وفرضوا عليهم استجادة السلاح وارتباط الخيول، والاستكثار من أجناسهم لمثل هذا القصد. وربما عمروا بهم خطط الملك، ودرجوهم في مراتب الدولة فيسترشح من يسترشح منهم لاقتعاد كرسي السلطان، والقيام بامور المسلمين عناية من الله تعالى سابقة، ولطائف في خلقه سارية. فلا يزال نشئ منهم يردف نشوًا وجيل يعقب جيلًا، والاسلام يبتهج بما يحصل به من الغناء، والدولة ترف أغصانها من نضرة الشباب. وكان صلاح الدين يوسف بن

أيوب ملك مصر والشام، وأخوه العادل أبو بكر من بعده ثم بنوهم من بعدهم قد تناغوا في ذلك بما فوق الغاية. واختص الصالح نجم الدين أيوب آخر ملوكهم بالمبالغة في ذلك والامعان فيه، فكان عامة عسكره منهم. فلما انفض عشيره، وخذله أنصاره، وقعد عنه أولياؤه وجنوده، لم يدع سبباً في استجلابهم الا اتاه من استجادة المترددين الى ناحيتهم، ومراضاة التجار في أثمانهم بأضعاف ثمنهم، وكان رقيقهم قد بلغ الغاية من الكثرة لما كان التتر قد دوخوا الجانب الغربي من ناحية الشمال، وأوقعوا بسكانه من الترك وهم شعوب القفجاق والروس والعلان والمولات وما جاورهم من قبائل جركس. وكان ملك التتر بالشمال يومئذ دوشي خان بن جنكزخان قد أصابهم بالقتل والسبي فامتلأت أيدي أهل تلك النواحي برقيقهم، وصاروا عند التجار من أنفس بضائعهم والله تعالى أعلم.

ذكر بيبرس البندقداري

في تاريخه حكاية غريبة عن سبب دخول التتر لبلادهم بعد ان عد شعوبهم فقال: ومن قبائلهم – يعني القفجاق – قبيلة طغصبا وستا وبرج اغلا والبولى وقنعرا علي وأوغلي ودورت وقلابا اعلى وجرثان وقدكابر كلي وكنن. هذه احدى عشرة قبيلة وليس فيها ذكر الشعوب العشرة القديمة الذكر التي عدّدها النسابة كما قدمناه.

أوّل الترجمة. وهذه والله أعلم بطون متفرعة من القفجاق فقط ، وهي التي في ناحية الغرب من بلادهم الشمالية ، فان سياق كلامه انما هو في الترك المجلوبين من تلك الناحية لا من ناحية خوارزم ولا ما وراء النهر .

قال بيبرس : ولما استولى التتر على بلادهم سنة ست وعشرين، والملك يومئذ بكرسي جنكزخـان لولده دوشي خان ، واتفق ان شخصاً من قبيـلة دورت يسمى منقوش بن كتمر خرج متصيداً فلقيه آخر من قبيلة طغصبا اسمه آقا كبك - وبين القبيلتين عداوة مستحكمة - فقتله . وأبطأ خبره عن أهله فبعثوا طليعة لاستكشاف أمره اسمه جلنقر فرجع اليهم وأخبرهم ، وأنه قتل وسمى لهم قاتله فجمعوا للحرب ، وتزاحفت القبيلتـان فانهزمت قبيلة طغصبا ، وخرج اقا كبك القاتل ، وتفرق جمعه فارسل أخاه اقصر الى ملكهم دوشي يستعلم ما على ذوي قبيلة دورت القفجاقية . وذكره ما فعل كتمر وقومه بأخيه وأغراه بهم ، وسهل له الشأن فيهم . وبعث دوشي خان جاسوسه لاستكشاف حالهم واختيار مراسلهم وشكيمتهم ، فعاد اليه بتسهيل المرام فيهم .

وقال : ان رأيت كلاباً مكبين على فريستهم متى طردتهم عنها تمكنت منها فاطمعه ذلك في بلاد القفجاق ، واستحثه أقصر الذي جاء صريخاً وقال له ، ما معناه : نحن ألف رأس تجر ذنباً واحداً ، وانتم رأس واحـد تجر ألف ذنب ، فزاده ذلك اغراء .

ونهض بجموع التتر فأوقع بالقفجاق، وأثخن فيهم قتلًا وسبياً وأسراً، وفرّقهم في البقاع وامتلأت أيدي التجار، وجلبوهم الى مصر فعوضه الله بالدخول في الايمان والاستيلاء على الملك والسلطان. انتهى كلام بيبرس. ومساق القصة يدل على أن قبيله دورت من القفجاق، وان قبيلة طغصبا من التتر. فيقتضي ذلك أن هـذه البطون التي عددت ليست من بطن واحد، وكذلك يدل مساقها على أن اكثر هؤلاء الترك الذين بديار مصر من القفجاق، والله تعالى أعلم.

الخبر عن استبداد الترك بمصر وانفرادهم بها عن بني ايوب ودولة المعز ايبك اول ملوكهم

قد تقدم لنا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بن العادل قد استكثر من المماليك الترك، ومن في معناهم من التركمان والأرمن والروم وجركس وغيرهم. إلا أن اسم الترك غالب على جميعهم لكثرتهم ومزيتهم، وكانوا طوائف متميزين بسمات من ينسبون اليه من نسب أو سلطان: فمنهم العزيزية نسبة الى العزيز عثمان بن صلاح الدين، ومنهم الصالحية نسبة الى هذا الصالح أيوب، ومنهم البحرية نسبة الى القلعة التي بناها الصالح بين شعبتي النيل ازاء المقياس بما كانوا حاميتها. وكان هؤلاء البحرية شوكة دولته وعصابة سلطانه وخواص داره، وكان من كبرائهم عزالدين

ايبك الجاشنكير التركماني ، ورديفه فارس الدين أقطاي الجامدار ، وركن الدين بيبرس البندقداري .

ولما كان ما قدمناه ووفاة الصالح بالمنصورة في محاصرة الافرنج بدمياط في سنة سبع وأربعين ، وكتمانهم موته ورجوعهم في تدبير أمورهم الى شجرة الدر زوجة الصالح وأم ولد خليل ، وبعثهم الى ابنه المعظم تورانشاه وانتظاره ، وان الافرنج شعروا بموت الصالح فدلفوا الى معسكر المسلمين على حين غفلة فانكشف أوائل العسكر وقتل فخر الدين الاتابك . ثم أفرغ الله الصبر وثبت اقدامهم ، وأبلى أمراء الترك في ذلك اليوم بلاءً حسناً ، ووقفوا مع شجرة الدر زوج السلطان تحت الرايات ينوهون بمكانها فكانت لهم الكرّة وهزم الله العدوّ .

ثم وصل المعظم تورانشاه من كيفا فبايعوا له واعطوه الصفقة وانتظم الحال ، واستطال المسلمون على الافرنج براً وبحراً فكان ما قدمناه من هزيمتهم والفتك بهم وأسر ملكهم الفرنسيس . ثم رحل المعظم اثر هـذا الفتح الى مصر لشهرين من وصوله ، ونزل بفارس كور يريد مصر ، وكانت بطانته قد استطالوا على موالي ابيه ، وتقسموهم بين النكبة والاهمال فاتفق كبراء البحرية على قتله وهم : ايبك واقطاي وبيبرس فقتلوه كما مرّ ونصبوا للملك شجرة الدر أم خليل ، وخطب لها على المنابر ، ونقش اسمها على السكة ، ووضعت عـلامتها على المراسم ونصها أم خليل . وقام

ايبك التركماني باتابكية العسكر. ثم فودي الفرنسيس بالنزول عن دمياط وملكها المسلمون سنة ثمان وأربعين. وسرحوه في البحر الى بلاده بعد ان توثقوا منه باليمين انّ لا يتعرض لبلاد المسلمين ما بقي.

واستقلت الدولة بمصر للترك وانقرضت منها دولة بني أيوب، وبلغ الخبر الى بني أيوب بقتل المعظم وولاية المرأة، وما اكتنف ذلك فامتعضوا له. وكان فتح الدين عمر بن العادل قد حبسه عمه الصالح أيوب بالكرك لنظر بدر الصوابي خادمه الذي ولّاه على الكرك والشوبك لما ملكهما كما مرّ فاطلق بدر الدين من محبسه. وبايع له وقام بأمره ولقبه المغيث، واتصل الخبر بمصر وعلموا أنّ الناس قد نقموا عليهم ولاية المرأة فاتفقوا على ولاية زعيمهم ايبك لتقدّمه عند الصالح وأخيه العادل قبله فبايعوا له، وخلعوا أمّ خليل ولقبوه بالمعزّ فقام بالامر وانفرد بملك مصر. وولى مولاه سيف الدين قطز نائباً، وعمر المراتب والوظائف بأمراء الترك، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

نهوض الناصر صاحب دمشق من بني ايوب الى مصر وولاية الاشرف موسى مكان ايبك

كان الملك الصالح أيوب قبل موته قد استخلف جمال الدين ابن يغمور على دمشق مكان ابن مطروح، وأمراء الدولة الايوبية

بها متوافرون فلما بلغهم استبداد الترك بمصر وولاية ايبك وبيعة المغيث بالكرك أمعنوا النظر في تلافي أمورهم . وكبراء بني أيوب يومئذ بالشام : الناصر يوسف بن العزيز ، محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب وحمص وما اليها فاستدعوه وبايعوا له بدمشق وأغروه بطلب مصر . واتصل الخبر للترك في مصر فاعتزموا على أن ينصبوا بعض بني أيوب فيكفوا به ألسنة النكير عنهم ، فبايعوا لموسى الذي كان أبوه يوسف صاحب اليمن ، وهو يوسف أطسز بن المسعود بن الكامل ، وهو يومئذ ابن ست سنين ولقبوه الاشرف . وتزحزح له ايبك عن كرسي السلطان الى رتبة الاتابكية ، واستمرّ الناصر على غلوائه في النهوض الى مصر .

واستدعى ملوك الشام من بني أيوب فأقبل اليه موسى الاشرف الذي كان صاحب حمص ، واسمعيل الصالح بن العادل صاحب بعلبك ، والمعظم تورانشاه بن صلاح الدين وأخوه نصر الدين ، وابنا داود الناصر صاحب الكرك وهما الامجد حسن والظاهر شادي . وارتحل من دمشق سنة ثمان وأربعين ، وفي مقدّمته أتابكه لؤلؤ الارمني ، وبلغ الخبر الى مصر فاضطرب الامر ونادوا بشعار الخلافة والدعاء للمستعصم ، وجدّدوا البيعة على ذلك للاشرف وجهزوا العساكر وخرجوا للقائهم . وسار في المقدّمة أقطاي الجامدار وجمهور البحرية ، وتبعهم ايبك ساقة في العساكر . والتقى

الجمان بالعباسية فانكشف عسكر مصر أوّلا، وتبعهم أهل الشام وثبت المعزّ في القلب، ودارت عليه رحى الحرب.

وهرب اليه جماعة من عسكر الناصر فيهم أمراء العزيزية مثل جمال الدين لايدعون، وشمس الدين أتسز اليرلي، وشمس الدين أتسز الحسامي. غضبوا من رياسة لؤلؤ عليهم فهربوا وبقي لؤلؤ في المعركة صامداً. ثم حمل المعز على الناصر وأصحابه فانهزموا وانفض عسكره وجيء بلؤلؤ الاتابكي أسيراً فقتله صبراً، وبأمراء بني أيوب فحبسهم ورجع ايبك من الوقعة فوجد عساكر الناصر مجتمعين بالعباسية يظنون الغلب لهم. فعدل الى بلبيس، ثم الى القلعة. ورجعت عساكر الشام من اتباع المنهزمين لما شعروا بهزيمة صاحبهم فلحقوا بالناصر بدمشق، ودخل ايبك الى القاهرة وحبس بني أيوب بالقلعة. ثم قتل منهم اسمعيل الصالح ووزيره ابن يغمور الذي كان معتقلاً من قبل. ولما وصل الناصر الى دمشق أزاح علل عساكره وعجل الكرّة الى مصر، ونزل غزة سنة خمسين وبرزت عساكر مصر للقائه، فتواقفوا ملياً. ثم وصل نجم الدين البادراني رسول المستعصم فأصلح بين الطائفتين على أن يكون القدس والساحل الى نابلس للمعز، والتخم بين المملكتين نهر الاردن. وانعقد الامر على ذلك، ورجع كل الى بلده وأخرج المعز عن أمراء بني أيوب الذين حبسهم يوم الواقعة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

واقعة العرب بالصعيد مع اقطاي

لما شغل الصالح بالافرنج وما بعدهم عظم فساد العرب بالصعيد واجتمعوا على الشريف خضر الدين أبي ثعلب بن نجم الـدين عمر ابن فخر الدين اسمعيل بن حصن الـدين ثعلب الجعفري ، من ولد جعفر بن أبي طالب الذين أجازوا من الحجاز لمـا غلبهم بنو عمهم بنواحي المدينة ، في الحروب التي كانت بينهم . وأطاعه أعراب الصعيد كافة ، ولم يقدر على كفهم عن الراية . واتصل ذلك وهلك الصالح واستبدّ الترك بمصر ، وشغلوا عنهم بما كان من مطالبة بني أيوب لهم . فلما فرغ المعز ايبك من أمر النـاصر وعقد الصلح معَه ، بعَث لحربهم فارس الدين أقطاي وعز الدين ايبك الاقرم أمير البحرية فساروا اليهم ولقوهم بنواحي اخميم فهزموهم ، وفر الشريف ناجياً بنفسه . ثم قبض عليه بعد ذلك وقتل ، ورجعَت العَساكر الى القاهرة ، والله تعَالى أعلم .

مقتل اقطاي الجامدار وفرار البحرية الى الناصر ورجوع ايبك الى كرسيه

كان أقطاي الجامدار من أمراء البحرية وعظمائهم ، ويلقب فارس الدين ، وكان رديفاً للمعز ايبك في سلطانه وأتابكه . وكان يغض من عنانه عن الطموح الى الكرسي ، وكان يخفض من

جناحه للبحرية يتألفهم بذلك فيميلون له عن ايبك فاعتز في الدولة واستفحل أمره وأخذ من المعز الاسكندرية اقطاعاً ، وتصرف في بيت المال . وبعث فخر الدين محمد بن الناصر بهاء الدين بن حياء الى المظفر صاحب حماة في خطبة ابنته فتزوّجها ، وأطلق يده في العطاء والاقطاع فعم الناس وكثر تابعه . وغص به المعز ايبك ، وأجمع قتله فاستدعاه بعض الايام للقصر للشورى سنة اثنتين وخمسين . وقد اكمن له ثلاثة من مواليه في ممره بقاعة الاعمدة وهم : قطز وبهادل وسنجر فوثبوا عليه عند مروره بهم وبادروه بالسيوف ، وقتلوه لحينه . واتصلت الهيعة بالبحرية فركبوا وطافوا بالقلعة فرمى اليهم برأسه فانفضوا .

واستراب أمراؤهم فاجتمع ركن الدين بيبرس البندقداري وسيف الدين قلاون الصالحي ، وسيف الدين سنقر الأشقر ، وبدر الدين بنسر الشمسي ، وسيف الدين بلبان الرشيدي ، وسيف الدين تنكر وأخوه سيف الدين موافق ، ولحقوا بالشام فيمن انضم اليهم من البحرية ، واختفى من تخلف منهم ، واستصفيت أموالهم وذخائرهم. وارتجع ما أخذه أقطاي من بيت المال ، ورد ثغر الاسكندرية الى أعمال السلطان ، وانفرد المعز ايبك بتدبير الدولة ، وخلع موسى الاشرف وقطع خطبته وخطب لنفسه . وتزوّج شجرة الدر زوجة الصالح التي كانوا ملكوها من

قبل . واستخلص علاء الدين ايدغدي العزيزي وجماعة العزيزية ، وأقطعه دمياط .

ولما وصل البحرية وأمراؤهم الى غزة كاتبوا الناصر يستأذنونه في القدوم ، وساروا اليه فاحتفل في مبرتهم ، وأعروه بملك مصر فأجابهم وجهز العساكر . وكتب المعزّ فيهم الى الناصر ، وطلبوا منه القدس والبلاد الساحلية فأقطعَها لهم . ثم سار الناصر الى الغور وبرز الى القاهرة في العَزيزية ومن اليهم ، ونزل العباسية وتواقف الفريقان مدّة . ثم اصطلحوا ورجع كل الى بلده سنة اربع وخمسين وبعَث ايبك رسوله الى المستعْصم بطاعته وطلب الالوية والتقليد . ولما رجع الى مصر قبض على علاء الدين ايدغدي لاسترابته به ، وأعاد دمياط الى أعمال السلطان ، واتصلت أَحواله الى ان هلك في الدولة ، والله تعالى أعلم .

فرار الافرم الى الناصر بدمشق

كان عز الدين ايبك الافرم الصالحي والياً على قوص واخميم وأعمالها فقوي أمره ، وهمّ بالاستبداد وأراد المعزّ عزله فامتنع عليه ، فبعث بعض الخوارزمية مدداً له . ودس اليهم الفتك به . فلما وصلوا اليه استخدمهم وخلطهم بنفسه فاغتالوه وقبضوا عليه وتراموا اليه للحين فبطشوا بهم وقتلوهم وخلعوه . ثم عزله بعد ذلك عز الدين الصيمري عن خدمته واستدعاه الى مصر فأقام عنده

ثم بعثه مع اقطاي الى الصعيد وحضر ومعه الشريف ابو ثعلب والعَرب كما مرّ. وعاد اقطاي الى مكانه من الدولة وأوعز المعز ايبك الى الافرم بالمقام لتمهيد بلاد الصعيد وأن يكون الصيمري في خدمته وبلغه وهو هنالك أنّ المعز عدا على اقطاي وقتله وأن اصحابه البحرية فرّوا الى الشام فاستوحش وأظهر العصيان واستدعى الشريف أبا ثعلب وتظاهر معه على الفساد وجمعوا الاعراب من كل ناحية ثم بعث المعز سنة ثلاث وخمسين شمس الدين البرلي في العساكر فهزمهم. واعتقل الشريف فلم يزل في محبسه الى أن قتله الظاهر. ونجا الافرم في فل من مواليه الى الواحات. ثم اعتزم على قصد الشام فرجع الى الصعيد مع جماعة من اعراب جذام مروا به على السويس والطور، ورجع عنه مواليه الى مصر. ولما انتهى الى غزة تولع به الناصر فأذنه بالقدوم عليه بدمشق وركب يوم وصوله فتلقاه بالكسوة وأعطاه خمسة آلاف دينار. ولم يزل عنده بدمشق الى ان هرب البحرية من الكرك الى مصر كما يذكر فخشي أن يأخذه الناصر وكاتب الاتابك قطز بمصر، وسار اليه فقبله أولاً. ثم قبض عليه بعد ذلك واعتقله بالاسكندرية. وكان الصيمري قد بقي بعد الافرم في ولاية الصعيد، واستفحل فيه فسولت له نفسه الاستبداد ولم يتم له فهرب الى الناصر سنة أربع وخمسين انتهى، والله تعالى أعلم.

مقتل المعز ايبك وولاية ابنه علي المنصور

كان المعز ايبك عندما استفحل أمره ومهد سلطانه ودفع الاعداء عن حوزته طمحت نفسه الى مظاهرة المنصور صاحب حماة، ولؤلؤ صاحب الموصل ليصل يده بهما، وأرسل اليهما في الخطبة. وأثار ذلك غيرة من زوجته شجرة الدر وأغرت به جماعة من الخصيان منهم محسن الخزري، وخصى العزيزي، ويقال سنجر الخادمان؛ فبيتوه في الحمام بقصره وقتلوه سنة خمس وخمسين لثلاث سنين من ولايته. وسمع مواليه الناعية من جوف الليل فجاؤا مع سيف الدين قطز وسنجر الغتمي وبهادر فدخلوا القصر وقبضوا على الجوجريّ فقتلوه، وفرّ سنجر العزيزي الى الشام، وهموا بقتل شجرة الدر. وقام الموالي الصالحية دونها فاعتقلوها ونصبوا للملك علي بن المعز ايبك ولقبوه المنصور، وكان أتابكه علم الدين سنجر الحلي واشتمل موالي المعز على ابنه المنصور فكبسوا علم الدين سنجر واعتقلوه وولوا مكانه أقطاي المعزي الصالحي مولى العزيز على الدولة في نقضها وابرامها سنة ست وخمسين. وأغرته أمّ المنصور بالصاحب شرف الدين الغازي لان المعز كان يستودعه سراياه عنده فاستصفاه وقتله. وفي هذه السنة توفي زهير بن علي المهلي، وكان يكتب عن الصالح ويلازمه في سجنه بالكرك، ثم صحبه الى مصر، والله تعالى أعلم.

نهوض البحرية بالمغيث صاحب الكرك وانهزامه

قد ذكرنا فرار البحرية الى النـاصر ونهوضهم به الى مصر ، وخروج ايبك الى العباسة وما كان بينهما من الصلح . فلما انعقد الصلح ورجع الناصر الى دمشق ، ورجعوا عنه الى قلعة (١) ولم يرضوا الصلح فاستراب بهم الناصر وصرفهم عنه فلحقوا بغزة ونابلس . وبعثوا الى المغيث صاحب الكرك بطاعتهم فأرسل الناصر عساكره للايقاع بهم فهزموهم فسار اليهم بنفسه فهزموه الى البلقاء ولحقوا بالكرك ، وأطمعوا المغيث في مصر واستمدوه لها فأمدّهم بعسكره ، وقصدوا مصر وكبراؤهم : بيبرس البندقداري وقلاوون الصالحي وبليان الرشيدي . وبرز الامير سيف الدين قطز بعساكر مصر الى الصالحية فهزمهم ، وقتل بلغار الاشرف وأسر قلاوون الصالحي وبليان الرشيدي . واطلق قلاون بعد أيام في كفالة استاذ الدار فاختفى ، ثم لحق بأصحابه واستحثوا المغيث الى مصر فنهض في عساكره سنة ست وخمسين ونزل الصالحية ، وقدم اليه عز الدين الرومي والكافوري والهواشر ممن كان يكاتبه من أمراء مصر . وبرز سيف الدين قطز في عساكر مصر والتقى الجمعان فانهزم المغيث ولحق في الفل بالكرك . وفرّت البحرية الى الغور فوجدوا هنالك احياء من الاكراد فرّوا من جبال شهرزور

(١) كذا بياض بالأصل، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على اسم هذه القلعة.

أمام التتر فاجتمعوا بهم، والتحموا بالصهر معهم. وخشي الناصر غائلة اجتماعهم فجهز العساكر من دمشق اليهم والتقوا بالغور فانهزمت عساكره فتجهز ثانياً بنفسه، وسار اليهم فخاموا عن لقائه وافترقوا فلحق الاكراد بمصر، واعترضهم التركمان في طريقهم بالعريش فأوقعوا بهم وخلصوا الى مصر. ولحق البحرية بالكرك مع عسكر المغيث ووعدهم بالنصر، وأرسل اليه من دمشق في إسلامهم اليه. وتوعده (١) أنفسهم واضطربوا ففرّ بيبرس وقلاوون الى الصحراء واقاموا بها. ثم لحقوا بمصر وأكرمهم الاتابك قطز وأقطعهم وأقاموا عنده. ولما فر بيبرس وقلاوون من المغيث قبض على بقية امراء البحرية سنقر الاشقر وشكر وبرانق، وبعث بهم الى الناصر فحبسهم بقلعة حلب الى ان استولى التتر عليها. ونقلهم هلاكو الى بلاده، والله سبحانه وتعالى أعلم.

خلع المنصور علي بن ايبك واستبداد قطز بالملك

ثم كان ما ذكرناه ونذكره من زحف هلاكو الى بغداد واستيلائه عليها، وما بعدها الى الفرات وفتحه ميافارقين واربل، ومسير لؤلؤ صاحب الموصل اليه ودخوله في طاعته. ووفادة ابن الناصر صاحب دمشق اليه رسولاً عن أبيه بالهدايا والتحف على

(١) كذا بياض بالأصل، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على تصويب هذه العبارة ومقتضى السياق، وتوعده بقتلهم هم أنفسهم.

سبيل المصانعة والعذر عن الوصول بنفسه، خوفاً على سواحل الشام من الافرنج فارتاب الامراء بشأنهم، واستصغروا سلطانهم المنصور علي بن المعز ايبك عن مدافعة هذا العدو لعدم ممارسته الحروب، وقلة دربته بالوقاع. واتفقوا على البيعة لسيف الدين قطز المعزي وكان معروفاً بالصرامة والاقدام فبايعوا له وأجلسوه على الكرسي سنة ست وخمسين، ولقبوه المظفر. وخلعوا المنصور لسنتين من ولايته، وحبسوه وأخويه بدمياط. ثم غربها الظاهر بعد ذلك الى القسطنطينية. وكان المتولون لذلك الصالحية والعزيزية ومن يرجع الى قطز من المعزية. وكان بهادر وسنجر الغتمي غائبين فلما قدما استراب بهما قطز، وخشي من نكيرهما ومزاحمتهما فقبض عليهما وحبسهما. وأخذ في تمهيد الدولة فاستوسقت له. وكان قطز من أولاد الملوك الخوارزمية، يقال انه ابن أخت خوارزم شاه واسمه محمود بن مودود، اسره التتر عند الحادثة عليهم وبيع واشتراه ابن الزعيم. حكاه النووي عن جماعة من المؤرخين، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

استيلاء التتر على الشام وانقراض امر بني ايوب ثم مسير قطز بالعساكر وارتجاعه الشام من ايدي التتر وهزيمتهم وحصول الشام في ملك الترك

ثم عبر هلاكو الفرات سنة ثمان وخمسين، وفر الناصر وأخوه

الظاهر الى التيـه ولحق بمصر المنصور صاحب حماة وجماعة البحرية الذين كانوا باحياء العرب في القفر. وملك هلاكو بلاد الشام واحدة واحدة، وهدم أسوارها وولي عليها وأطلق المعتقلين من البحرية بحلب مثل: سنقر الاشقر وشكر وبرانق واستخدمهم. ثم قفل الى العراق لاختـلاف بين اخوته، واستخلف على الشام كتبغا من أكبر أمرائه في اثني عشر ألفاً من العساكر، وتقدّم اليه بمطالعة الاشرف ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص بعد ان ولّاه على مدينة دمشق وسائر مدن الشام. واحتمل معه الناصر وابنه العزيز بعد ان استشاره في تجهيز العساكر بالشام لمدافعة أهل مصر عنها، فهون عليه الامر وقللهم في عينه فجهز كتبغا ومن معه. ولما فصل سار كتبغا الى قلعة دمشق وهي ممتنعة بعد فحاصرها وافتتحها عنوة، وقتل نائبها بدر الدين بربدك، وخيم بمرج دمشق. وجاءه من ملوك الافرنج بالساحل.

ووفد عليه الظاهر أخو الناصر صاحب صرخد فرده الى عمله، وأوفد عليه المغيث صاحب الكرك ابنه العزيز بطاعته فقبله وردّه الى أبيه، واجتمعت عساكر مصر واحتشد المظفر العرب والتركمان وبعث اليهم بالعطايا وأزاح العلـل، وبعث كتبغا الى المظفر قطز بأن يقيم طاعـة هلاكو بمصر فضرب أعناق الرسل، ونهض الى الشام مصمماً للقاء العدوّ، ومعه المنصور صاحب حمـاة وأخوه الافضل. وزحف كتبغا وعساكر التتر ومعـه الاشرف صاحب

حمص، والسعيد صاحب الضبينة ابن العزيز بن العادل. وبعث اليها قطز يستميلها فوعده الاشرف بالانهزام يوم اللقاء، وأساء العزيز الردّ على رسوله وأوقع به، والتقى الفريقان بالغور على عين جالوت وتحيز الاشرف عندما تناشبوا فانهزم التتر، وقتل أميرهم كتبغا في المعركة.

وجيء بالسعيد صاحب الضبينة أسيراً فوبخه ثم قتله وجيء بالعزيز بن المغيث وأسر يومئذ (١) الذي ملك مصر بعد ذلك. ولقي العادل بيبرس المنهزمين في عسكر من الترك فأثخن فيهم وانتهى الى حمص فلقي مدداً من التتر جاء لكتبغا فاستأصلهم ورجع اليه الأشرف صاحب حمص من عسكر التتر فأقرّه على بلده، وبعث المنصور على بلده حماة وأقرّه عليها، وردّ اليه المعرّة وانتزع منه سلميّة فأقطعها لامير العرب مهنا بن مانع بن جديلة. وسار الى دمشق فهرب من كان بها من التتر وقتل من وجد بها من بقاياهم. ورتب العساكر في البلاد، وولى على دمشق علم الدين سنجر الحلبي الصالحي، وهو الذي كان أتابك علي بن ايبك ونجم الدين أبا الهيجاء ابن خشترين الكردي.

وولى على حلب السعيد، ويقال المظفر علاء الدين بن لؤلؤ صاحب الموصل. وكان وصل الى الناصر بمصر هارباً أمام التتر

---

(١) كذا بياض بالأصل، ويظهر من الفصول التي ستأتي بعد، أنه «الظاهر بيبروس» لأنه هو الذي ملك مصر بعد ذلك.

وسار معَه فلما دخل الناصر منها لحق هو بمصر ، وأحسن اليـه قطز . ثم ولاه الناصر على حلب الآن ليتوصل الى أخبار التتر من أخيه الصالح بالموصل . وولي عـلى نابلس وغزه والسواحل شمس الدين دانشير البرلي من أمراء العَزيز محمد ، وهو أبو الناصر ، وكان هرب منه عند نهوضه الى مصر في جماعة من العَزيزية ولحق بأتابك . ثم ارتاب بهم وقبض على بعْضهم ، ورجع البرلي في الباقين الى الناصر فاعتقله بقلعَة حلب حتى سار الى التتر . فلما دخل اليها سار البرلي مع العَساكر الى مصر فأكرمه المظفر ، وولاه الآن عـلى السواحل وغزة وأقام المظفر بدمشق عشرين ليلة ، وأقبل الى مصر . ولما بلغ الى هلاكو ما وقع بقومه في الشام واستيلاء الترك عليه ، اتهم صاحب دمشق بأنه خدعه في اشارته وقتله كما مرّ وانقرض ملك بني أيوب من الشام أجمع ، وصار لملوك مصر من الترك . والله يرث الارض من عليها وهو خير الوارثين .

مقتل المظفر وولاية الظاهر بيبرس

كان البحرية من حين مقتل أميرهم أقطاي الجامدار يتحينون لاخذ ثأره ، وكان قطز هو الذي تولى قتله فكان مستريباً بهم . ولما سار الى التـتر ذهل كل منهم عن شأنه . وجاء البحرية من القفر هاربين من المغيث صاحب الكرك فوثقوا لانفسهم من

السلطان قطز أحوج ما كان الى امثالهم من المدافعة عن الاسلام وأهله فأمنهم واشتمل عليهم، وشهدوا معه واقعة التتر على عين جالوت، وأبلغوا فيها والمقدمون فيهم يومئذ: بيبرس البندقداري وأنز الاصبهاني وبلبان الرشيدي وبكتون الجوكنداري وبندوغاز التركي. فلما انهزم التتر من الشام واستولوا عليه، وحسر ذلك المد، وأفرج عن الخائفين الروع عاد هؤلاء البحرية الى ديدنهم من الترصد لثأر أقطاي.

فلما قفل قطز من دمشق سنة ثمان وخمسين أجمعوا أن يبرزوا به في طريقهم. فلما قارب مصر ذهب في بعض أيامه يتصيد، وسارت الرواحل على الطريق فاتبعوه، وتقدم اليه أنز شفيعاً في بعض اصحابه. فشفعه فأهوى يقبل يده فأمسكها. وعلاه بيبرس بالسيف فخرّ صريعاً لليدين والفم. ورشقه الآخرون بالسهام فقتلوه، وتبادروا الى المخيم. وقام دون فارس الدين أقطاي على ابن المعز ايبك، وسأل من تولى قتله منكم؟ فقالوا بيبرس فبايع له، واتبعه أهل المعسكر ولقبوه الظاهر. وبعثوا ايدمر الحلي بالخبر الى القلعة بمصر فأخذ له البيعة على من هناك. ووصل الظاهر منتصف ذي القعْدة من السنة فجلس على كرسيه، واستخلف الناس على طبقاتهم، وكتب الى الاقطار بذلك. ورتب الوظائف وولى الامراء. وولى تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الاعز الوزارة مع القضاء، واقتدى بآثار استاذه الصالح نجم الدين. ومبدأ

أمر هذا الظاهر بيبرس انه كان من موالي علاء الدين ايدكين البندقداري مولى الصالح فسخط عليه واعتقله وانتزع ماله ومواليه وكان منهم بيبرس فصيره مع الجامدارية وما زال يترقى في المراتب الى أن تقدم في الحروب ورياسة المراكب، ثم كان خبره بعد الصالح ما قصصناه انتهى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتقاض سنجر الحلي بدمشق ثم اقوش البرلي بحلب

ولما بلغ علم الدين سنجر بدمشق مقتل قطز، وولاية الظاهر بيبرس انتقض ودعا لنفسه وجلس على التخت بدمشق وتلقب المجاهد، وخطب لنفسه وضرب السكة باسمه، وتمسك المنصور صاحب حماة بدعوة الظاهر. وجاءت عساكر التتر الى الشام فلما شارفوا البيرة جرد اليهم السعيد بن لؤلؤ من حلب عسكراً فهزمهم التتر وقتلوهم. واتهم الامراء العَزيزية والناصرية ابن لؤلؤ في ذلك فاعتقلوه، وقدموا عليهم حسام الدين الجوكنداري وأقرّه الظاهر. وزحف التتر الى حلب فملكوها، وهرب حسام الدين الى حماة. ثم زحف اليها التتر فلحق صاحبها المنصور وأخوه علي الافضل الى حمص، وبها الاشرف بن شيركوه واجتمعت اليه العَزيزية والناصرية وقصدوا التتر سنة تسع وخمسين فهزموهم بعد هزيمتهم ونازلوا حماة.

وسار المنصور والاشرف صاحب حمص الى سنجر الحلي بدمشق

ولم يدخلا في طاعته لضعفه. وسار التتر من حماة إلى افامية فحاصروها يوماً وعبروا الفرات الى بلادهم. وبعث بيبرس الظاهر صاحب مصر أستاذه علاء الدين البندقداري في العساكر لقتال سنجر الحلبي بدمشق وقاتلهم فهزموه، ولجأ الى القلعة. ثم خرج منها ليلًا الى بعلبك، واتبعوه فقبضوا عليه وبعثوه الى الظاهر فاعتقله واستقرّ ايدكين بدمشق، ورجع صاحب حمص وحماة الى بلديهما. وبعث الظاهر الى ايدكين بالقبض على بهاء الدين بقري وشمس الدين أقوش اليرلي[1] وغيرهما من العزيزية فقبض على بقري وفرّ العزيزية والناصرية مع أقوش البرلي، وطالبوا صاحب حمص وصاحب حماة في الانتقاض فلم يجيباهم الى ذلك. فقال لفخر الدين [2] اطلب لي الظاهر المقدّم معك في خدمتك. وبينما هو يسير لذلك خالفه البرلي الى حلب، وثار بها وجمع العرب والتركمان، ونصب للحرب فجاءت العساكر من مصر فقاتلوه وغلبوه عليها. ولحق بالبيرة فملكها واستقرّ بها حتى اذا جهز الظاهر عساكره سنة ستين الى حلب مع سنقر الرومي، سار معه صاحب حماة وصاحب حمص للاغارة على انطاكية. ولقيهم البرلي وأعطاهم طاعته، وأقرّه الظاهر على البيرة. ثم ارتاب به بعد ذلك واعتقله،

---

(١) كذا، واسمه في أخبار البشر ج ٣ ص ٢١٠: أقوش البرلي.

(٢) كذا بياض بالأصل، وفي أخبار البشر ج ٣ ص ٢١١: فلما قدم البرلي إلى حلب كان بها فخر الدين الحمصي المذكور، فقال له البرلي: نحن في طاعة الملك الظاهر.

ثم علاء الدين ايدكين البندقداري مولى السلطان بدمشق ، وولى عليها بيبرس الوزير ورجع ، والله ينصر من يشاء من عباده انتهى.

البيعة للخليفة بمصر ثم مقتله بالحديثة وغانة على يد التتر والبيعة للآخر الذي استقرت الخلافة في عقبه بمصر

لما قتل الخليفة عبد الله المستعصم ببغداد بقي رسم الخلافة الاسلامية عطلا باقطار الارض ، والظاهر متشوف الى تجديده وعمارة دسته . ووصل الى مصر سنة تسع وخمسين عم المستعصم ، وهو أبو العباس أحمد بن الظاهر كان بقصورهم ببغداد ، وخلص يوم البيعة ، وأقام يتردّد في الاحياء الى أن لحق بمصر فسرّ الظاهر بقدومه وركب للقائه ، ودعا الناس على طبقاتهم الى أبواب السلطان بالقلعة وأفرد بالمجلس أدباً معه . وحضر القاضي تاج الدين ابن بنت الاعزّ فحكم باتصال نسبه بالشجرة الكريمة بشهادة العرب الواصلين به والخدم الناجين من قصورهم . ثم بايع له الظاهر والناس على طبقاتهم ، وكتب الى النواحي بأخذ البيعة والخطبة على المنابر ، ونقش اسمه في السكة ، ولقب المستنصر وأشهد هو حينئذ الملأ بتفويض الامر للظاهر والخروج له عن العهد ، وكتب بذلك سجله. وانشأه فخر الدين بن لقمان كاتب الترسيل .

ثم ركب السلطان والناس كافة الى خيمة بنيت خارج المدينة فقرىء التقليد على الناس ، وخلع على أهل المراتب والخواص

ونادى السلطان بمظاهرته واعادته الى دار خلافته. ثم خطب هذا الخليفة يوم الجمعة وخشع في منبره فأبكى الناس وصلى وانصرفوا الى منازلهم؛ ووصل على أثره الصالح اسمعيل بن لؤلؤ صاحب الموصل، وأخوه اسحق صاحب الجزيرة، وقد كان أبوهما لؤلؤ استخدم لهلاكو كما مرّ، وأقرّه على الموصل وما اليها وتوفي سنة سبع وخمسين. وقد ولي ابنه اسمعيل على الموصل، وابنه اسمعيل المجاهد على جزيرة ابن عمر، وابنه السعيد على سنجار. وأقرّهم هلاكو على أعمالهم، ولحق السعيد بالناصر صاحب دمشق، وسار معه الى مصر، وصار مع قطز وولاه حلب كما مر، ثم اعتقل.

ثم ارتاب هلاكو بالاخوين فأجفلا ولحقا بمصر، وبالغ الظاهر في اكرامهم وسألوه في اطلاق أخيهم المعتقل فأطاقه، وكتب لهم بالولاية على أعمالهم وأعطاهم الالوية، وشرع في تجهيز الخليفة الى كرسيه ببغداد فاستخدم له العساكر وأقام الفساطيط والخيام، ورتب له الوظائف، وأزاح علل الجميع. يقال أنفق في تلك النوبة نحواً من ألف ألف دينار. ثم سار من مصر في شوال من السنة الى دمشق ليبعث من هناك الخليفة وابني لؤلؤ الى ممالكهم. ووصل الى دمشق ونزل بالقلعة، وبعث بلبان الرشيدي وشمس الدين سنقر الى الفرات. وصمم الخليفة لقصده وفارقهم. وسار الصالح اسمعيل وأخواه الى الموصل، وبلغ الخبر الى هلاكو فجرد العساكر الى الخليفة وكبسوه بغانة والحديثة فصابرهم قليلًا. ثم

استشهد وبعث العساكر الى الموصل فحاصروها تسعة أشهر حتى جهدهم الحصار واستسلموا فملكها التتر، وقتلوا الصالح اسمعيل، والظاهر خلال ذلك مقيم بدمشق .

وقد وفد عليه بنو أيوب من نواحي الشام وأعطوه طاعتهم : المنصور صاحب حماة، والاشرف صاحب حمص فأكرم وصلهما وولاهما على أعمالهما وأذن لهما في اتخاذ الآلة وبسط حكمهما على بلاد الاسماعيلية . والى المنصور تل باشر الذي اعتاضه عن حمص لما أخذها منه الناصر صاحب حلب . ووفد على الظاهر أيضاً بدمشق الزاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وصاحب بعلبك والمنصور والسعيد ابنا الصالح اسمعيل بن العادل، والامجد ابن الناصر داود الاشرف بن مسعود، والظاهر بن المعظم فأكرم وفادتهم وقابل بالاحسان والقبول طاعتهم، وفرض لهم الارزاق وقرّر الجرايات . ثم قفل الى مصر وأفرج عن العزيز بن المغيث الذي كان اعتقله قطز وأطلقه يوم الموقعة بالكرك .

وولى على احياء العرب بالشام عيسى بن مهنا بن مانع بن جريلة من رجالاتهم، ووفّر لهم الاقطاع على حفظ السابلة الى حدود العراق، ورجع الى مصر فقدم عليه رجل من عقب المسترشد من خلفاء بني العباس ببغداد اسمه أحمد، فأثبت نسبه ابن بنت الاعز كالاوّل . وجمع الظاهر الناس على مراتبهم وبايع له وفوض اليه هو الامور وخرج اليه عن التدبير . وكانت هذه البيعة سنة

ستين ونسبه عند العباسيين في ادراج نسبهم الثابت أحمد بن أبي بكر علي بن أبي بكر بن أحمد بن الامام المسترشد. وعند نسابة مصر أحمد بن حسن بن أبي بكر بن الامير أبي علي القتبي بن الامير حسن بن الامام الراشد بن الامام المسترشد. هكذا قال صاحب حماة في تاريخه وهو الذي استقرّت الخلافة في عقبه بمصر لهذا العهد انتهى ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فرار التركمان من الشام الى بلاد الروم

كان التركمان عند دخول التتر الى بلاد الشام كلهم قد أجفلوا الى الساحل ، واجتمعت أحياؤهم بالجوكان قريباً من صفد. وكان الظاهر لما نهض الى الشام اعترضه رسل الافرنج من يافا وبيروت وصفد يسألونه في الصلح على ما كان لعهد صلاح الدين ، فأجابهم وكتب به الى الانبردور ملكهم ببلاد افرنسة وراء البحر فكانوا في ذمّة من الظاهر وعهد. ووقعت بين الافرنج بصفد وبين أحياء التركمان واقعة يقال أغار فيها أهل صفد عليهم فأوقع بهم التركمان ، وأسروا عدّة من رؤسائهم وفادوهم بالمال. ثم خشوا عاقبة ذلك من الظاهر فارتحلوا الى بلاد الروم وأقفر الشام منهم. والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

انتقاض الاشرفية والعزيزية واستيلاء البرلي على البيرة

كان هؤلاء العزيزية والاشرفية من أعظم جموع هؤلاء الموالي وكان مقدم الاشرفية بهاء الدين بقري ، ومقدم العزيزية شمس الدين أقوش ، وكان المظفر قطز قد أقطعه نابلس وغزة وسواحل الشام. ولما ولي الظاهر انتقض عليه سنجر الحلي بدمشق وجهز أستاذه علاء الدين البندقداري في العساكر لقتاله . وكان الاشرفية والعزيزية بحلب وقد انتقضوا على نائبها السعيد بن لؤلؤ كما مر فتقدّم البندقداري باستدعائهم معه الى دمشق . ثم أضاف الظاهر بيسان للبرلي زيادة على ما بيده فسار وملك دمشق . ثم أوعز الظاهر الى البندقداري بالقبض على العزيزية والاشرفية . فلم يتمكن الا من بقري مقدم الاشرفية ، وفارقه الباقون وانتقضوا. واستولى شرف الدين البرلي على البيرة ، وأقام بها وشنّ الغارات على التتر شرقي الفرات فنال منهم . ثم جهز الظاهر عساكره اليه مع جمال الدين بامو الحموي فهزمهم وأطلقهم وأقام الظاهر على استمالته بالترغيب والترهيب حتى جنح الى الطاعة ، واستأذن في القدوم ، وسار بكباس الفخري للقائه فلقيه بدمشق سنة احدى وستين ، ثم وصل فأوسعه السلطان يدا وعطاء والواصلين معه على مراتبهم واختصه بمراكبته ومشورته ، وسأله النزول عن البيرة فنزل عنها فقبلها الظاهر وأعاضه عنها . والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء الظاهر على الكرك من يد المغيث وعلى حمص بعد وفاة صاحبها

لما قفل السلطان من الشام سنة ستين كما قدّمناه جرّد عسكراً الى الشوبك مع بدر الدين ايدمري فملكها، وولى عليها بدر الدين بلبان الخصي ورجع الى مصر. وكان عند المغيث بالكرك جماعة من الاكراد الذين أجفلوا من شهرزور أمام التتر الى الشام، وكان قد اتخذهم جنداً لعسكرته فسرّحهم للاغارة على الشوبك ونواحيه فاعتزم السلطان على الحركة الى الكرك مخافة المغيث. وبعث بالطاعة واستأمن من الاكراد فقبلهم الظاهر وأمن الاكراد فوصلوا اليه. ثم سار سنة احدى وستين الى الكرك، واستخلف على مصر سنجر الحلي، واستخلف على غزة فلقي هنالك امّ المغيث تستعطفه وتستأمن منه لحضور ابنها فأجابها وسار الى بيسان فسار المغيث للقائه. فلما وصل قبض عليه، وبعثه من حينه الى القاهرة مع اقسنقر الفارقاني، وقتل بعد ذلك بمصر.

وولى على الكرك عز الدين ايدمر وأرسل نور الدين بيسري الشمسي ليؤمن أهل الكرك ويرتب الامور بها. وأقام بالطور في انتظاره فأبلغ بيسري القصد من ذلك. ورجع اليه فارتحل الى القدس وأمر بعمارة مسجده، ورجع الى مصر. وبلغه وفاة صاحب

حمص موسى الاشرف بن ابراهيم المنصور شيركوه المجاهد بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، وكانت وراثة له من آبائه ، أقطعه نور الدين العادل لجدّه أسد الدين ، ولم تزل بأيديهم وأخذها الناصر يوسف صاحب حلب سنة ست وأربعين وعوضه عنها تل باشر وأعادها عليه هلاكو ، وأقرّه الظاهر . ثم توفي سنة احدى وستين ، وصارت للظاهر ؛ وانقرض منها ملك بني أيوب ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

هزيمة التتر على البيرة وفتح قيسارية وارسوف بعدها

ثم رجعت عساكر التتر الى البيرة مع ردمانة من امراء المغل سنة ثلاث وستين فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق ، فجهز السلطان العساكر مع لوغان من امراء الترك فساروا في ربيع من السنة ، وسار السلطان في أثرهم وانتهى الى غزة . ولما وصلت العساكر الى البيرة وأشرفوا عليها والعدوّ يحاصرها أجفلت عساكر التتر وساروا منهزمين ، وخلفوا سوادهم وأثقالهم فنهبتها العساكر . وارتحل السلطان من غزة وقصد قيسارية وهي للافرنج فنزل عليها عاشر جمادى من السنة فنصب المجانيق ودعا أهلها للحرب واقتحمها عليهم فهربوا الى القلعة فحاصرها خمساً وملكها عنوة ، وفرّ الافرنج منها . ثم رحل في خض من العساكر الى عملها فشن عليها الغارة ، وسرّح عسكراً الى حيفا فملكها عنوة . وخرّبوها

وقلعتها في يوم أو بعض يوم. ثم ارتحل الى أرسوف فنازلها مستهل جمادى الاخيرة فحاصرها وفتحها عنوة، وأسر الافرنج الذين بها، وبعث بهم الى الكرك. وقسم أسوارها على الامراء فرموها، وعمد الى ما ملك في هذه الغزاة من القرى والضياع والارضين فقسمها على الامراء الذين كانوا معه، وكانوا اثنين وخمسين، وكتب لهم بذلك وقفل الى مصر. وبلغه الخبر بوفاة هلاكو ملك التتر في ربيع من السنة وولاية ابنه أبغا مكانه، وما وقع بينه وبين بركه صاحب الشمال من الفتنة. ولاول دخوله لمصر قبض على شمس الدين سنقر الرومي وحبسه، وكانت الفتنة قبل غزاته بين عيسى بن مهنا، ولحق زامل بعد ذلك بهلاكو. ثم استأمن الى الظاهر فامنه وعاد الى احيائه، والله تعالى أعلم.

غزو طرابلس وفتح صفد

كانت طرابلس للافرنج وبها سمند بن البرنس الاشتر، وله معها انطاكية. وبلغ السلطان انه قد تجهز للقتال فلقيه النائب بها علم الدين سنجر الباشقر وانهزم المسلمون واستشهد كثير منهم فتجهز السلطان للغزو، وسار من مصر في شعبان سنة أربع وستين وترك ابنه السعيد علياً بالقلعة في كفالة عز الدين ايدمر الحلي. وقد كان عهد لابنه السعيد بالملك سنة اثنتين وستين. ولما انتهى الى غزة بعث العساكر صحبة سيف الدين قلاون ايدغدي العزيزي

فنازل القليعات وحلبا وعرقا من حصون طرابلس ، فاستأمنوا اليه . وزحفت العساكر وسار السلطان الى صفد فحاصرها عشراً ، ثم اقتحمها عليهم في عشرين من رمضان السنة ، وجمع الافرنج الذين بها فاستلحمهم أجمعين ، وأنزل بها الحامية وفرض أرزاقهم في ديوان العطاء ، ورجع الى دمشق ، والله تعالى أعلم .

مسير العساكر لغزو الارمن

هؤلاء الارمن من ولد أخي ابراهيم عليه السلام من بني قوميل بن ناحور ، وناحور بن تارح وعبر عنه في التنزيل بآزر . وناحور اخو ابراهيم عليه السلام . ويقال ان الكرج اخوة الارمن ، وارمينية منسوبة اليهم . وآخر مواطنهم الدروب المجاورة لحلب ، وقاعدتها سيس ، ويلقب ملكهم التكفور . وكان ملكهم صاحب هذه الدروب لعهد الملك الكامل وصلاح الدين من بعده اسمه قليج بن اليون . واستنجد به العادل واقطع له ، وكان يعسكر معه . وصالحه صلاح الدين على بلاده . ثم كان ملكهم لعهد هلاكو والتتر هيثوم بن قسطنطين ، ولعله من أعقاب قليج او قرابته . ولما ملك هلاكو العراق والشام دخل هيثوم في طاعته فأقرّه على سلطانه ثم أمره بالاغارة على بلاد الشام وأمده صاحب بلاد الروم من التتر . وسار سنة اثنتين وستين ومعه بنو كلاب

أعراب حلب. وانتهوا الى سيس، وجهز الظاهر عساكر حماة وحمص فساروا اليهم وهزموهم ورجعوا الى بلادهم.

فلما رجع السلطان من غزاة طرابلس سنة أربع وستين سرح العساكر لغزو سيس وبلاد الارمن وعليهم سيف الدين قلاوون والمنصور صاحب حماة فساروا لذلك. وكان هيثوم ملكهم قد ترهب ونصب للملك ابنه كيقومن فجمع كيقومن الارمن وسار للقائهم ومعه أخوه وعمه. وأوقع بهم المسلمون قتلاً وأسراً وقتل أخوه وعمه في جماعة من الارمن. واكتسحت عساكر المسلمين بلادهم واقتحموا مدينة سيس وخربوها، ورجعوا وقد امتلأت أيديهم بالغنائم والسبي، وتلقاهم الظاهر من دمشق عند قارا. فلما رآهم ازداد سروراً بما حصل لهم، وشكا اليه هنالك الرعية ما لحقهم من عدوان الاحياء الرحالة، وانهم ينهبون موجودهم ويبيعون ما يتخطفونه منهم من الافرنج بعكا فأمر باستباحتهم، وأصبحوا نهباً في ايدي العساكر بين القتل والاسر والسبي.

ثم سار الى مصر وأطلق كيقومن ملك الارمن وصالحه على بلده. ولم يزل مقيماً الى أن بعث أبوه في فدائه وبذل فيه الاموال والقلاع فأبى الظاهر من ذلك، وشرط عليه خلاص الامراء الذين أخذهم هلاكو من سجن حلب وهم: سنقر الاشقر وأصحابه. فبعث فيهم نكفور الى هلاكو فبعث بهم اليه، وبعث الظاهر بابنه منتصف شوال وتسلم القلاع التي بذلت في فدائه، وكانت من

أعظم القلاع وأحصنها منها : مرزبان ورعبان . وقدم سنقر الاشقر على الظـاهر بدمشق ، وأصبح معه في الموكب ، ولم يكن أحد علم بأمره . واعظم اليه السلطان النعمة ورفع الرتبة ورعى له السابقة والصحبة . وتوفي هيثوم سنة ستين بعدها والله تعالى ينصر من يشاء من عباده .

مسير الظاهر لغزو حصون الافرنج بالشام وفتح يافا والشقيف ثم انطاكية

كان الظاهر عندما رجع من غزاة طرابـلس الى مصر أمر بتجديد الجامع الازهر واقامة الخطبة به ، وكان معطلاً منها منذ مائة سنة ، وهو أول مسجد أسسه الشيعة بالقاهرة حين اختطوها ثم خرج الى دمشق لخبر بلغه عن التتر ولم يثبت فسار من هنالك الى صفد ، و كان أمر عند مسيره بعمارتها ، وبلغه اغارة أهل الشقيف على الثغور فقصدها وشن الغارة على عكا ، واكتسح بسائطها حتى سأل الافرنج منه الصلح على ما يرضيه فشرط المقاسمة في صيدا ، او هدم الشقيف ، واطـلاق تجار من المسلمين كانوا أسروهم ودية بعض القتلى الذين أصابوا دمه . وعقد الصلح لعشر سنين ولم يوفوا بما شرط عليهم فنهض لغزوهم ، ونزل فلسطين في جمادى سنة ست وستين ، وسرح العساكر لحصار الشقيف . ثم بلغه مهلك صاحب يافـا من الافرنج ، وملك ابنه مكانه . وجـاءت رسله اليه

في طلب الموادعة فحبسهم وصبح البلد فاقتحمها ولجأ أهلها الى القلعة فاستنزلهم بالامان وهدمها .

وكان أول من اختط مدينة يافا هذه صنكل من ملوك الافرنج عندما ملكوا سواحل الشام سنة ثلاث وتسعين واربعمائة ثم مدنها وأتم عمارتها ريد افرنس المأسور على دمياط عندما خلص من محبسه بدار ابن لقمان . ثم رجع الى حصن الشقيف فحاصره وافتتحه بالامان ، وبث العساكر في نواحي طرابلس فاكتسحوها وخربوا عمرانها وكنائسها . وبادر صاحب طرطوس بطاعة السلطان وبعث الى العساكر بالميرة وأطلق الاسرى الذين عنده ثلثمائة أو يزيدون . ثم ارتحل السلطان الى حمص وحماة يريد انطاكية ، وقدم سيف الدين قلاون في العساكر فنازل انطاكية في شعبان فسار [(١)] المنصور صاحب حماة وجماعة البحرية الذين كانوا بأحياء العرب في القفر .

وكان صاحب انطاكية سمند بن تيمند ، وكانت قاعدة ملك الروم قبل الاسلام اختطها انطيخس من ملوك اليونانيين واليه تنسب ثم صارت للروم وملكها المسلمون عند الفتح . ثم ملكها الافرنج عندما ساروا الى ساحل الشام أعوام التسعين والاربعمائة . ثم استطردها صلاح الدين من البرنس ارناط الذي قتله في واقعة

(١) كذا بياض بالأصل، وفي أخبار البشر ج ٤ ص ٢٣ : ولما فرغ السلطان من فتح طرابلس وهدمها عاد إلى الديار المصرية وأعطى صاحب حماه الدستور فعاد إلى بلده.

حطين كما مر. ثم ارتجعها الافرنج بعد ذلك على يد البرنس الأشتر وأظنه صنكل. ثم صارت لابنه تيمند، ثم لابنه سمند.

وكان عندما حاصرها الظاهر بطرابلس وكان بها كنداصطبل عم يغمور ملك الارمن أفلت من الواقعة عليه بالدرابند، واستقرّ بانطاكية عند سمند فخرج في جموعه لقتال الظاهر فانهزم أصحابه. وأسر كند اصطبل على أن يحمل أهل انطاكية على الطاعة فلم يوافقوه. ثم جهدهم الحصار واقتحمها المسلمون عنوة وأثخنوا فيهم، ونجا فلهم الى القلعة فاستنزلوا على الامان. وكتب الظاهر الى ملكهم سمند وهو بطرابلس وأطلق كندا صطبل وأقاربه الى ملكهم هيثوم بسيس. ثم جمع الغنائم وقسمها وخرب قلعة انطاكية وأضرمها ناراً. واستأمن صاحب بغراس فبعث اليه سنقر الفارقي استاذ داره فملكها، وأرسل صاحب عكا الى الظاهر في الصلح وهو ابن أخت صاحب قبرس فعقد له السلطان الصلح لعشر سنين. ثم عاد الى مصر فدخلها ثالث أيام التشريق من السنة، والله تعالى أعلم.

الصلح مع التتر

ثم نهض السلطان من مصر سنة سبع وستين لغزو الافرنج بسواحل الشام، وخلف على مصر عز الدين ايدمر الحلي مع ابنه السعيد ولي عهده، وانتهى الى ارسوف فبلغه أن رسلاً جاؤا من

عند أبغا بن هلاكو، ومروا بنقفور ملك الروم فبعث بهم الى[1] فبعث أميراً من حلب لاحضارهم. وقرأ كتاب ابغا بسعي نقفور في الصلح، ويحتال فيا اذاعه من رسالته فأعاد رسله بجوابهم، وأذن للامراء في الانطلاق الى مصر، ورجع الى دمشق. ثم سار منها في خف من العسكر الى القلاع، وبلغه وفاة ايدمر الحلي بمصر فخيم بخربة اللصوص، وأغذّ السير الى مصر متنكراً منتصف شعبان في خف من التركمان. وقد طوى خبره عن معسكره وأوهمهم القعود في خيمته عليلاً، ووصل الى القلعة ليلة الثلاثاء رابعة سفره فتنكر له الحراس، وطولع مقدم الطواشية فطلب منهم امارة على صدقهم فأعطوها. ثم دخل فعرفوه، وباكر الميدان يوم الخميس فسرّ به الناس. ثم قضى حاجة نفسه، وخرج ليلة الاثنين عائداً الى الشام كما جاء فوصل الى مخيمه ليلة الجمعة تاسع عشر شعبان، وفرح الامراء بقدومه. ثم فرّق البعوث في الجهات وأغاروا على صور وملكوا احدى الضياع وساحوا في بسيط كركو فاكتسحوها، وامتلأت أيديهم بالغنائم ورجعوا والله تعالى أعلم.

استيلاء الظاهر على صهيون

كان صلاح الدين بن أيوب قد أقطعها يوم فتحها وهي سنة

(١) كذا بياض بالأصل، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على اسم البلد الذي أرسلهم إليها.

أربع وثمانين وخمسمائة لناصر الدين منكبرس، فلم تزل بيده الى ان هلك وولي فيها بعده ابنه مظفر الدين عثمان، وبعده ابنه سيف الدين بن عثمان. واستبد الترك بمصر، وبعث سيف الدين أخاه عماد الدين سنة ستين بالهدايا الي الملك الظاهر بيبرس فقبلها وأحسن اليه. ثم مات سيف الدين سنة تسع وستين، وكان أوصى أولاده بالنزول للظاهر عن صهيون فوفد ابناه سابق الدين وفخر الدين على السلطان بمصر فاكرمها وأقطعها، وولى سابق الدين منهما أميراً، وولى على صهيون من قبله. ولم يزل كذلك الى أن غلب عليها سنقر الاشقر عندما انتقض بدمشق أيام المنصور، والله تعالى أعلم.

نهوض الظاهر الى الحج

ثم بلغ الظاهر أن ابا نمى بن أبي سعد بن قتادة غلب عمه ادريس ابن قتادة على مكة واستبد بها، وخطب للظاهر فكتب له بالامارة على مكة. واعتزم على النهوض الى الحج وتجهز لذلك سنة سبع وستين، وأزاح علل أصحابه. وشيع العساكر مع اقسنقر الفارقاني استاذ داره الى دمشق. وسار الى الكرك مورياً بالصيد، وانتهى الى الشوبك، ورحل منه لاحدى عشرة ليلة من ذي القعدة ومر بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم فأحرم من ميقاتها، وقدم مكة لخمس من ذي الحجة وغسل الكعبة بيده وحمل لها الماء على كتفه، واباح للمسلمين دخولها،

واقام على بابها يأخذ بأيديهم . ثم قضى حجه ومناسكه، وولى نائباً على مكة شمس الدين مروان، وأحسن الى الامير أبي نمى والى صاحب ينبع وخليص وسائر شرفاء الحجاز. وكتب الى صاحب اليمن : اني بمكة ، وقد وصلتها في سبع عشرة خطوة . ثم فصل من مكة ثالث عشر ذي الحجة فوصل المدينة على سبعة أيام ، ووصل الى الكرك منسلخ السنة. ثم وصل دمشق غرة ثمان وستين وسار الى زيارة القدس وقدم العساكر مع الامير أقسنقر الى مصر وعاد من الزيارة فادركهم بتل العجول، ووصل لقلعة ثالث صفر من السنة، والله تعالى أعلم .

اغارة الافرنج والتتر على حلب ونهوض السلطان اليهم

كان صمغان من امراء التتر مقيماً ببلاد الروم وأميراً عليها فوقعت المراسلة بينه وبين الافرنج في الاغارة على بلاد الشام . وجاء صمغان في عسكره لموعدهم فأغار على أحياء العرب بنواحي حلب. وبلغ الخبر الى الظاهر سنة ثمان وستين، وهو يتصيد بنواحي الاسكندرية فنهض من وقته الى غزة، ثم الى دمشق ، ورجع التتر على أعقابهم. ثم سار الى عكا فاكتسح نواحيها وأثخن فيها ، وفعل كذلك بحصن الاكراد ، ورجع الى دمشق آخر رجب، ثم الى مصر ومر بعسقلان فخرّبها وطمس آثارها. وجاءه الخبر بمصر بان الفرنسيس لويس بن لويس ، وملك انكلترة، وملك

اسكوسنا[١] وملك نودل، وملك برشلونة وهوربدراكون، وجماعة من ملوك الافرنج جاؤا في الاساطيل الى صقلية، وشرعوا في الاستكثار من الشواني وآلة الحرب. ولم يعرف وجه مذهبهم فاهتم الظاهر بحفظ الثغور والسواحل، واستكثر من الشواني والمراكب. ثم جاء الخبر الصحيح بأنهم قاصدون تونس فكان من خبرهم ما نذكره في دولة السلطان بها من بني أبي حفص، والله تعالى أعلم.

فتح حصن الأكراد وعكا وحصون صور

ثم سار السلطان سنة تسع وستين لغزو بلاد الافرنج، وسرح ابنه السعيد في العساكر الى المرقب لنظر الامير قلاون وببعلبك الخزندار. وسار هو الى طرابلس فاكتسحوا سائر تلك النواحي وتوافوا لحصن الاكراد عاشر شعبان من السنة فحاصره السلطان عشراً. ثم اقتحمت أرباضه، وانحجر الافرنج في قلعته، واستأمنوا وخرجوا الى بلادهم. وملك الظاهر الحصون وكتب الى صاحب الاسبتار بالفتح وهو بطرطوس، وأجاب بطلب الصلح فعقد له على طرطوس والمرقب. وارتحل السلطان عن حصن الاكراد بعد ان شحنه بالاقوات والحامية، ونازل حصن عكا[٢] واشتد في

(١) هي اسكوتلاندا.
(٢) كذا، وفي أخبار البشر لأبي الفداء ج ٤ ص ٦: حصن عكار.

حصاره . واستأمن أهله اليه وملكه . ثم ارتحل بعد الفطر الى طرابلس واشتدّ في قتالها وسأل صاحبها البرنس الصلح فعقد له على ذلك لعشر سنين ، ورجع الى دمشق . ثم خرج آخر شوّال الى العليقة ، وملك قلعتها بالامان على أن يتركوا الأموال والسلاح، واستولى عليه وهدمه ، وسار الى اللجون . وبعث اليه صاحب صور في الصلح على أن ينزل له عن خمس من قلاعه فعقد له الصلح لعشر سنين وملكها . ثم كتب الى نائبه بمصر أن يجهز عشرة من الشواني الى قبرس فجهزها ووصلت ليلًا الى قبرس والله أعلم .

استيلاء الظاهر على حصون الاسماعيلية بالشام

كان الاسماعيلية في حصون من الشام قد ملكوها ، وهي مصياف والعليقة والكهف والمينقة والقدموس . وكان كبيرهم لعهد الظاهر نجم الدين الشعراني ؛ وكان قد جعل له الظاهر ولايتها ثم تأخر عن لقائه في بعض الاوقات فعزله ، وولى عليها خادم الدين بن الرضا على أن ينزل له عن حصن مصياف . وأرسل معه العساكر فتسلموه منه . ثم قدم عليه سنة ثمان وستين وهو على حصن الاكراد ، وكان نجم الدين الشعراني قد أسنّ وهرم فاستعتب وأعتبه الظاهر وعطف عليه ، وقسم الولاية بينه وبين ابن الرضا ، وفرض عليهما مائة وعشرين الف درهم يحملانها في كل سنة . ولما رجع سنة تسع وستين ، وفتح حصن الاكراد

مرّ بحصن العليقة من حصونهم فملكه من يد ابن الرضا منتصف شوّال من السنة. وأنزل به حامية. ثم سار لقتال التتر على البيرة كما يذكر، ورجع الى مصر فوجد الاسماعيلية قد نزلوا على الحصون التي بقيت بأيديهم وسلموها لنواب الظاهر فملكوها. وانتظت قلاع الاسماعيلية في ملكة الظاهر، وانقرضت منها دعوتهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حصار التتر البيرة وهزيمتهم عليها

ثم بعث ابغا بن هلاكو العساكر الى البيرة سنة احدى وسبعين مع درباري من مقدّمي أمرائه فحاصرها ونصب عليها المجانيق، وكان السلطان بدمشق فجمع العساكر من مصر والشام وزحف الى الفرات، وقد جهز العساكر على قاصيته فتقدّم الامير قلاون وخالط التتر عليها في مخيمهم فجالوا معه. ثم انهزموا وقتل مقدّمهم وخاض السلطان بعساكره بحر الفرات اليهم فأجفلوا وتركوا خيامهم بما فيها. وخرج أهل البيرة فنهبوا سوادهم وأحرقوا آلات الحصار، ووقف السلطان بساحتها قليلا، وخلع على النائب بها (١) ولحق درباري بسلطانه ابغا مفلولا فسخطه ولم يعتبه والله تعالى ولي التوفيق.

(١) كذا بياض بالأصل، وفي أخبار البشر ج ٤ ص ٧: ثم عاد الملك الظاهر فوصل إلى الديار المصرية في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة.

غزوة سيس وتخريبها

ثم نهض الظاهر من مصر لغزو سيس في شعبان سنة ثلاث وسبعين وانتهى الى دمشق في رمضان، وسار منها وعلى مقدّمته الامير قلاون وبدر الدين بيليك الخازندار فوصلوا الى المصيصة وافتتحوها عنوة . وجاء السلطان على أثرهم ، وسار بجميع العساكر الى سيس بعد أن كنف الحامية بالبيرة خوفاً عليها من التتر . وبعث حسام الدين العنتابي ومهنا بن عيسى أمير العرب بالشام للاغارة على بلاد التتر من ناحيتها . وسار الى سيس فخربها وبث السرايا في نواحيها فانتهوا الى بانياس وأدنة ، واكتسحوا سائر الجهات ، ووصل الى دربند الروم ، وعاد الى المصيصة في التعبية فأحرقها .

ثم انتهى الى انطاكية فأقام عليها حتى قسم الغنائم. ثم رحل الى القصر وكان للافرنج خالصاً لتبركهم به إذ أمر ببنائه رئيسهم برومة الذي يسمونه البابا فافتتحه. ولقيه هنالك حسام الدين العنتابي ومهنا بن عيسى راجعين من اغارتهم وراء الفرات . ثم بلغه مهلك البرنس سمند ابن تيمند صاحب طرابلس فبعث الظاهر بليان الدوادار ليقرّر الصلح مع بنيه فقرّره على عشرين ألف دينار وعشرين أسيراً كل سنة ، وحضر لذلك صاحب قبرس ، وكان جاء معزياً لبني البرنس

ورجع الداودار الى الظاهر فقفل الى دمشق منتصف ذي الحجة ، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده .

ايقاع الظاهر بالتتر في بلاد الروم ومقتل البرواناة بمداخلته في ذاك

كان علاء الدين البرواناة[1] متغلباً على غياث الدين كنخسرو صاحب بلاد الروم من بني قليج أرسلان ، وقد غلب التتر على جميع ممالك بلاد الروم وأبقوا على كنخسرو اسم الملك في كفالة البرواناة . وأقاموا أميراً من أمرائهم ومعه عسكر التتر حامية بالبلاد ويسمونه بالشحنة ، وكان أوّل أمير من التتر ببلاد الروم بيكو ، وهو الذي افتتحها ، وبعده صمغان وبعده توقوو وتدوان شريكين في أمرها لعهد الملك الظَّاهر . وكان البرواناة يتأفف من التتر لاستطالتهم عليه وسوء ملكهم . ولما استفحل أمر الظَّاهر بمصر والشام أمّل البرواناة الظُّهور على التتر والكرة لبني قليج ارسلان بممالأة الظَّاهر فداخله في ذلك وكاتبه. وزحف أبغا ملك التتر الى البيرة سنة أربع وسبعين ، وخرج الظَّاهر بالعساكر من دمشق ، وكاتبه البرواناة يستدعيه . وأقام الظَّاهر على حمص ، وأرسل اليه البرواناة يستحثه للقاء التتر. وعزم ابغا على البرواناة في الوصول فاعتذر ، ثم رحل متثاقلاً .

(١) كذا، وفي أخبار البشرج ٤ ص ١٠ : واسم البرواناة المذكور سليمان، والبرواناة لقب وهو «الحاجب» بالعجمي.

وكتب اليه الامراء بعده بأنّ الظاهر قد نهض الى بلاد الروم بوصيته اليه بذلك فبعث الى ابغا واستمدّه فأمدّه بعساكر المغل، وأمره بالرجوع لمدافعة الظاهر فرجع، ووجد جماعة من الامراء قد كاتبوا الظاهر واستحثوه للقدوم فسقط في ايديهم، وحيل بينهم وبين مرامهم، ورجع الى مصر في رجب من السنة وأقام بها حولا. ثم لقي توقوو وتدوان أمير التتر ببلاد الروم وسار الى الثغور بالشام، وبلغ السلطان خبرهما فسار من مصر في رمضان سنة خمس وسبعين وقصد بلاد الروم، وانتهى الى النهر الازرق فبعث شمس الدين سنقر الاشقر فلقي مقدّمة التتر فهزمهم.

ورجع الى السلطان وساروا جميعاً فلقوا التتر على البلنشين، ومعهم علاء الدين البرواناة في عساكره فهزمهم. وقتل الامير توقوو وتدوان وفرّ البرواناة وسلطانه كنخسرو لما كان منفرداً عنهم، وأسر كثير من المغل منهم: سلار بن طغرل ومنهم قفجاق وجاورصي. وأسر علاء الدين بن معين الدين البرواناة وقتل كثير منهم. ثم رحل السلطان الى قيسارية فملكها وأقام عليها ينتظر البرواناة لموعد كان بينهما، وأبطأ عليه وقفل راجعاً ورجع خبر الهزيمة الى ابغا ملك التتر وأطلع من بعض عيونه على ما كان بين البرواناة والظاهر من المداخلة فتنكر للبرواناة، وجاء لوقته حتى وقف على موضع المعركة، وارتاب لكثرة القتلى من المغل. وأنّ عسكر الروم لم يصب منهم أحد فرجع على بلادهم

بالقتل والتخريب والاكتساح ، وامتنع كثير من القلاع ثم أمنهم ورجع . وسار معه البرواناه وهمّ بقتله أوّلا ، ثم رجع لتخليته لحفظ البلاد فأعول نساء القتلى من المغل عند بابه فرحم بكاءهن ، وبعث أميراً من المغل فقتله في بعض الطريق ، والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه وأحكم .

وفاة الظاهر وولاية ابنه السعيد

ولما رجع السلطان من واقعته بالتتر على البلستين وقيسارية طرقه المرض في محرّم سنة ست وسبعين ، وهلك من آخره ، وكان ببليك الخزندار مستولياً على دولته فكتم موته ودفنه ، ورجع بالعساكر الى مصر . فلما وصل القلعة جمع الناس وبايع لبركة بن الملك الظاهر ولقبه السعيد ، وهلك ببليك أثر ذلك فقام بتدبير الدولة استاذ داره شمس الدين الفارقاني ، وكان نائب مصر أيام مغيب الظاهر بالشام واستقامت أموره . ثم قبض على شمس الدين سنقر الاشقر وبدر الدين بيسري من أمراء الظاهر بسعاية بطانته الذين جمعهم عليه لاوّل ولايته ، وكانوا من أوغاد الموالي ، وكان يرجع اليهم لمساعدتهم له على هواه وصارت شبيبته. ولما قبض على هذين الاميرين نكر ذلك عليه خاله محمد بن بركة خان فاعتقله معهما فاستوحشت أمه لذلك فأطلق الجميع ، فارتاب الامراء وأجمعوا على معاتبته فاستعتب واستحلفوه . ثم أغراه

بطانته بشمس الدين الفارقاني مدبر دولته فقبض عليه واعتقله ، وهلك لايام من اعتقاله ، وولى مكانه شمس الدين سنقر الالفي ، ثم سعى أولئك البطانة به فعزله وولى مكانه سيف الدولة كونك الساقي صهر الامير سيف الدين قلاون على أخت زوجته بنت كرمون ، كانا بوها من أمراء التتر قدخرج الى الظاهر ، واستقرّ عنده وزوّج بنته من الامير قلاون ، وبنته الاخرى من كوزبك . ثم حضر عند السعيد لاشين الربعي من حاشيته وغلب على هراة ، واستمال أهل الدولة بقضاء حاجاتهم ، واستمرّ معروفه لهم ، واستمرّ الحال على ذلك ، والله سبحانه وتعالى اعلم .

خلع السعيد وولاية اخيه شلامش

ولما استقرّ السعيد بملكه في مصر أجمع المسير الى الشام للنظر في مصالحه فسار لذلك سنة سبع وسبعين فاستقرّ بدمشق ، وبعث العساكر الى الجهات . وسار قلاون الصالحي وبدر الدين بيسري الى سيس ، زين له ذلك لاشين الربعي والبطانة الذين معه ، وأغروه بالقبض عليهم عند مرجعهم . ثم حدث بين هؤلاء البطانة وبين النائب سيف الدين كونك وحشة ، وآسفوه بما يلقون فيه عند السلطان فغضب لذلك . وسارت العساكر فأغاروا على سيس واكتسحوا نواحيها ورجعوا فلقيهم النائب كونك ، وأسرّ اليهم ما أضمر لهم السلطان فخيموا بالمرج وقعدوا عن لقاء السلطان ،

وبعثوا اليه بالعذل في بطانته وأن ينصف نائبه منهم فأعرض عنهم ودس لموالي أبيه أن يعاودوهم اليه فأطلعوهم على كتابه فزادهم ضغناً . وصرحوا بالانتقاض فبعث اليهم سنقر الاشقر وسنقر التركيتي استاذ داره بالاستعطاف فردّوهما فبعث أمّه بنت بركة خان فلم يقبلوهـا ، وارتحلوا الى القـاهرة فوصلوها في محرّم سنة ثمان وسبعين ، وبالقلعة عز الدين ايبـك الافرم الصالحي أمير جندار ، وعلاء الدين اقطوان الساقي ، وسيف الدين بليان أستاذ داره فضبطوا أبواب القاهرة ومنعوهم من الدخول .

وتردّدت المراسلة بينهم وخرج ايبك الافرم واقطوان ولاشين التركاني للحديث فتقبضوا عليهم ودخلوا الى بيوتهم ، ثم باكروا القلعة بالحصار ومنعوا عنها الماء . وكان السعيد بعد منصرفهم من دمشق سار في بقيـة العساكر واستنفر الاعراب وبث العطاء ، وانتهى الى غزة فتفرّقت عنه الاعراب واتبعهم الناس . ثم انتهى الى بلبيس ورأى قلة العساكر فردّ عن الشام مع عز الدين ايدمر الظاهري الى دمشق ، والنائب بهـا يومئذ أقوش فقبض عليه ، وبعث به الى الامراء بمصر . ولما رحل السعيد من بلبيس الى القلعة اعتزل عنـه سنقر الاشقر . وسار الامراء في العساكر لاعتراضه دون القلعة ، وألقى الله عليه حجاباً من الغيوم المتراكمة فلم يهتدوا الى طريقه ، وخلص الى القلعة وأطلق علم الدين سنجر الحنفي من محبسه ليستعين به .

ثم اختلف عليه بطانته وفارقه بعضهم فرجع الى مصانعة الامراء بأن يترك لهم الشام أجمع فأبوا الا حبسه فسألهم أن يعطوه الكرك فأجابوه، وحلفهم على الامان، وحلف لهم أن لا ينتقض عليهم ولا يداخل أحداً من العساكر ولا يستميله فبعثوه من حينه الى الكرك. وكتبوا الى النائب بها علاء الدين ايدكز الفخري أن يمكنه منها ففعل واستمرّ السعيد بالكرك، وقام بدولته ايدكز الفخري، واجتمع الامراء بمصر وعرضوا الملك على الامير قلاون، وكان أحق به فلم يقبل وأشار الى شلامش بن الظاهر وهو ابن ثمان سنين فنصبوه للملك في ربيع سنة ثمان وسبعين، ولقبوه بدر الدين.

وولى الامير قلاون أتابك الجيوش، وبعث مكان جمال الدين اقوش نائب دمشق بتسلمها منه. وسار أقوش الى حلب نائباً وولى قلاون في الوزارة برهان الحصري السنحاوي. وجمع المماليك الصالحية ووفر اقطاعاتهم، وعمر بهم مراتب الدولة، وأبعد الظاهرية وأودعهم السجون ومنع الفساد. ولم يقطع عنهم رزقاً الى أن بلغ العقاب فيهم أجله فأطلقهم تباعاً واستقام أمره، والله تعالى أعلم.

خلع شلامش وولاية المنصور قلاون

أصل هذا السلطان قلاون من القفجاق، ثم من قبيلة منهم يعرفون برج أغلي، وقد مرّ ذكرهم. وكان مولى لعلاء الدين

أقسنقر الكابلي مولى الصالح نجم الدين أيوب . فلما مات علاء الدين صار من موالي الصالح وكان من نفرتهم واستقامتهم ما قدّمناه . ثم قدم الى مصر في دولة المظفر قطز مع الظاهر بيبرس . ولما ملك الظاهر قرّبه واختصه وأصهر اليه، ثم بايع لابنه السعيد من بعده .

ولما استوحش الامراء من السعيد وخلعوه رغبوا من الامير قلاون في الولاية عليهم كما قدّمناه، ونصب أخاه شلامش بن الظاهر فوافقه الامراء على ذلك طواعية له . واتصلت رغبتهم في ولايته مدّة شهرين حتى أجابهم الى ذلك فبايعوه في جمادى سنة ثمان وسبعين فقام بالامر ورفع كثيراً من المكوس والظلامات . وقسم الوظائف بين الامراء، وولى جماعة من مماليكه امرة الالوف وزادهم في الاقطاعات . وأفرج لوقته عن عز الدين ايبك الافرم الصالحي وولاه نائباً بمصر . ثم استبقاه فأعفاه وولى مملوكه حسام الدين طرنطاي مكانه، ومملوكه علم الدين سنجر الشجاعي رئاسة الدواوين . وأقرّ الصاحب برهان الدين السنجاري في الوزارة، ثم عزله بفخر الدين ابراهيم بن لقمان . وبعث عز الدين ايدمر الظاهري الذي كان اعتقله جمال الدين اقوش حين رجع بعساكر الشام عن السعيد بن الظاهر من بلبيس، فجيء به مقيداً واعتقله، والله تعالى وليّ التوفيق .

انتقاض السعيد بن الظاهر بالكرك ووفاته وولاية اخيه خسرو مكانه

ولما ملك السلطان قلاون شرع السعيد بالكرك ، وكاتب الامراء بمصر والشام في الانتقاض، وخاطبه السلطان بالعتاب على نقض العهد فلم يستعتب . وبعث عساكره مع حسام الدين لاشين الجامدار الى الشوبك فاستولى عليها فبعث السلطان نور الدين بليك الايدمري في العساكر فارتدّها في ذي القعدة سنة ثمان وسبعين . وقارن ذلك وفاة السعيد بالكرك ، واجتمع الامراء الذين بها ومقدّمهم نائبه ايدكين الفخري . وقال ايدكين انّ نائبه كان ايدغري الحراني فنصبوا أخاه خسرو ولقبوه المسعود نجم الدين ، واستولى الموالي على رأيه وأفاضوا المال من غير تقدير ولا حساب ، حتى أنفقوا ما كان بالكرك من الذخيرة التي ادّخرها الملك الظاهر وبعض أمراء الشام في الخلاف .

وبعثوا العساكر فاستولوا على الصليب وحاصروا صرخد فامتنعَت ، وكاتبوا سنقر الاشقر المتظاهر على الخلاف فبعث السلطان ايبك الافرم في العَساكر لحصار الكرك فحاصرها وضيق عليها . ثم سأل المسعود في الصلح على ما كان الناصر داود بن المَظم فأجابه السلطان قلاون وعقد له ذلك . ثم انتقض ثانية ونزع عنه نائبه علاء الدين ايدغري الحراني ، ونزع عنه الى

السلطان فصدق ما نقل عنه من ذلك. ثم بعَث السلطان سنة خمس وثمانين نائبه حسام الدين طرنطاي في العَساكر لحصار الكرك فحاصروها ، واستنزل المسعود وأخاه شلامش منها على الامان وملكها. وجاء بهما الى السلطان قلاون فأكرمهما وخلطهما بولده الى أن توفي ففرّ بهما الاشرف الى القسطنطينية.

انتقاض سنقر الاشقر بدمشق وهزيمته ثم امتناعه بصهيون

كان شمس الدين سنقر الاشقر لما استقرّ في نيابة دمشق أجمع الانتقاض والاستبداد وتسلم القلاع من الظاهرية ، وولى فيها وطالب المنصور قلاون دخول الشام بأسرها من العريش الى الفرات في ولايته ، وزعم أنه عاهده على ذلك . وولى السلطان على قلعة دمشق مولاه حسام الدين لاشين الصغير سلحدارا في ذي الحجة سنة ثمان وسبعين فنكر ذلك سنقر وانتقض ودعا لنفسه . ثم بلغه خبر قلاون وجلوسه على التخت فدعا الامراء وأشاع أنّ قلاون قتل ، واستحلفهم على منعته وحبس من امتنع من اليمين وتلقب الكامل ، وذلك في ذي الحجة من السنة . وقبض على لاشين نائب القلعة . وجهز سيف الدين الى الممالك الشامية والقلاع للاستحلاف ، وولى في وزارة الشام مجد الدين اسمعيل بن كسيرات وسكن سنقر بالقلعة .

ثم بعث السلطان ايبك الافرم بالعساكر الى الكرك لما توفي

السعيد صاحبها وانتهى الى غزة ، واجتمع اليه ببليك الايدمري منقلباً من الشوبك بعد فتحه فحذرهم سنقر الاشقر ، وخاطب الافرم يتجنى على السلطان بأنه لم يفرده بولاية الشام . وولى في قلعة دمشق وفي حلب وبعث الافرم بالكتاب الى السلطان ، قلاون فأجابه ، وتقدّم الى الافرم أن يكاتبه بالعزل فيما فعله وارتكبه فلم يرجع عن شأنه ، وجمع العساكر من عمالات الشام واحتشد العربان وبعثهم مع قراسنقر المقري الى غزة فلقيهم الافرم وأصحابه وهزموهم ، وأسروا جماعة من أمرائهم ، وبعثوا بهم الى السلطان قلاون ، فأطلقهم وخلع عليهم .

ولما وصلت العساكر مفلولة الى دمشق عسكر سنقر الاشقر بالمرج ، وكاتب الامراء بغزة يستميلهم ، وبعث السلطان العساكر بمصر مع علم الدين سنجر لاشين المنصوري وبدر الدين بكتاش الفخري السلحدار فساروا الى دمشق فلقيهم الاشقر على الجسر بالكسرة فهزموه في صفر سنة تسع وسبعين ، وتقدّموا الى دمشق فملكوها وأطلق علم الدين سنجر لاشين المنصوري من الاعتقال وولاه نيابة دمشق . وولى على القلعة سيف الدين سنجار المنصوري وكتب الى السلطان بالفتح . وسار سنقر الى الرحبة فامتنع عليه نائبها فسار الى عيسى بن مهنا ، ورجع عنه الى الفلّ وكاتبوا أبغا ملك التتر واستحثوه لملك الشام يستميلونه فلم يجب ، وبعث اليه العساكر فأجفلوا الى صهيون وملكها سنقر، وملك معها شيزر .

وبعث السلطان العساكر لحصار شيزر مع عز الدين الافرم فحاصرها، وجاءت الاخبار بزحف أبغا ملك التتر الى الشام في مواعدة سنقر وابن مهنا، واستدعى صغار صاحب بلاد الروم فيمن معه من المغل، وانه بعث بيدو ابن أخيه طرخان صاحب ماردين وصاحب سيس من ناحية اذربيجان، وجاء هو على طريق الشام في مقدمته أخوه منوكتمر. فلما تواترت الاخبار بذلك أفرج الافرم عن حصار شيزر، ودعا الاشقر الى مدافعة عدو المسلمين فأجابه ورفع عن موالاة أبغا. وسار من صهيون للاجتماع بعساكر المسلمين.

وجمع السلطان العساكر بمصر وسار الى الشام واستخلف على مصر ابنه أبا الفتح علياً بعد ان ولاه عهده، وقرأ كتابه بذلك على الناس. وخرج لجمع العساكر في جمادى سنة تسع وسبعين، وانتهى الى غزة. ووصل التتر الى حلب، وقد أجفل عنها أهلها وأقفرت منازلها فاضرموا النار في بيوتها ومساجدها. وتولى كبر ذلك صاحب سيس والارمن، وبلغهم وصول السلطان الى غزة فأجفلوا راجعين الى بلادهم، وعاد السلطان الى مصر بعد ان جرّد العساكر الى حمص وبلاد السواحل بحمايتها من الافرنج. ورجع سنقر الاشقر الى صهيون وفارقه كثير من عسكره فلحقوا بالشام وأقام معه سنجر الدوادار وعز الدين اردين والامراء الذين مكنوه من قلاع الشام عند انتقاضه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير السلطان لحصار المرقب ثم الصلح معهم ومع سنقر الأشقر بصهيون ومع بني الظاهر بالكرك

كان الافرنج الذين بحصن المرقب عندما بلغهم هجوم التتر على الشام شنوا الغارات في بلاد المسلمين من سائر النواحي ، فلما رجع التتر عن الشام استأذن بليان الطباخي صاحب حصن الاكراد في غزوهم ، وسار اليهم في حامية الحصون بنواحيه ، وجمع التركمان وبلغ حصن المرقب ووقف أسفله ، واستطرد له أهل الحصن حتى تورط في أوعار الجبل . ثم هجموا عليه دفعة فانهزم ونالوا من المسلمين ، وبلغ الخبر الى السلطان فخرج من مصر لغزوهم آخر سنة تسع وسبعين . واستخلف ابنه مكانه ، وانتهى الى الروحاء فوصله هنالك رسل الافرنج في تقرير المدنة مع أهل المرقب على أن يطلقوا من أسروه من المسلمين في واقعة بليان ، فعقد لهم في المحرّم سنة ثمانين ، وعقد لصاحب بيت الاسبتار وابنه ولصاحب طرابلس سمند بن تيمند ، ولصاحب عكا على بلادهم ، وعلى قلاع الاسماعيلية وعلى جميع البلاد المستجدة الفتح وما سيفتحه ؛ على أن يسكن عمال المسلمين باللاذقية وان لا يستنجدوا اسير قلعة ولا غيرها ، ولا يداخلوا التتر في فتنة ولا يمروا عليهم الى بلاد المسلمين إن أطاقوا ذلك . وعقد معهم ذلك لاحدى عشرة سنة .

وبعث السلطان من امرائه من يستحلف الافرنج على ذلك ، وبلغه الخبر بأن جماعة من امرائه اجمعوا الفتك به ، وداخلوا الافرنج في ذلك وكان كبيرهم كوندك . فلما وصل الى بيسان قبض عليه وعليهم ، وقتلهم واستراب من داخلهم في ذلك ولحقوا بسنقر في صهيون . ودخل السلطان دمشق ، وبعث العساكر لحصار شيزر . ثم ترددت الرسل بينه وبين الاشقر في الصلح على أن ينزل عن شيزر (1) ويتعوّض عنها بالشغر وبكاس ، وعلى أن يقتصر في حامية الحصون التي لقطره على ستمائة من الفرسان فقط ، ويطرد عنه الامراء الذين لحقوا به فتم الصلح على ذلك ، وكتب له التقليد بتلك الاعمال . ورجع من عنده سنجر الدوادار فأحسن اليه السلطان ، وولى على نيابة شيزر بليان الطباخي . وكان بنو الظاهر بالكرك يسألون السلطان في الصلح بالزيادة على الكرك كما كان السلطان داود . فلما تم الصلح مع سنقر رجعوا الى القنوع بالكرك . وبعث اليهم السلطان بأقاربهم من القاهرة وأتم لهم العقد على ذلك ، وبعث الامير سلحدار والقاضي تاج الدين بن الاثير لاستحلافهم ، والله تعالى أعلم .

واقعة التتر بحمص ومهلك ابغا سلطانهم باثرها

ثم زحف التتر سنة ثمانين الى الشام من كل ناحية متظاهرين

(1) كذا بياض بالأصل، وفي أخبار البشر ج ٤ ص ١٤ : ووقع بينهم الصلح على أن يسلم شيزر إلى السلطان ويتسلم سنقر الأشقر: الشغر وبكاس، وكانتا قد ارتجعتا منه .

فسار أبغا في عساكر المغل وجموع التتر، وانتهى الى الرحبة فحاصرها ومعه صاحب ماردين، وقدم أخوه منكوتمر في العساكر الى الشام. وجاء صاحب الشمال منكوتمر من بني دوشي خان من كرسيهم بصراي مظاهراً لابغا بن هلاكو على الشام فمرّ بالقسطنطينية ثم نزل بين قيسارية وتفليس، ثم سار الى منكوتمر بن هلاكو، وتقدم معه الى الشام. وخرج السلطان من دمشق في عساكر المسلمين وسابقهم الى حمص، ولقيه هنالك سنقر الاشقر فيمن معه من أمراء الظاهرية. وزحف التتر ومن معهم من عساكر الروم والافرنج والارمن والكرج ثمانون ألفاً أو يزيدون؛ والتقى الفريقان على حمص.

وجعل السلطان في ميمنته صاحب حماة محمد بن المظفر، ونائب دمشق لاشين السلحدار، وعيسى بن مهنا فيمن اليه من العرب. وفي الميسرة سنقر الاشقر في الظاهرية مع جموع التركمان ومن اليهم جماعة من أمرائه. وفي القلب نائبه حسام الدين طرنطاي، والحاجب ركن الدين اياجي وجمهور العساكر والمماليك. ووقف السلطان تحت الرايات في مواليه وحاشيته. ووقفت عساكر التتر كراديس، وذلك منتصف رجب سنة ثمانين واقتتلوا، ونزل الصبر. ثم انفضت ميسرة المسلمين واتبعهم التتر، وانفضت ميسرة التتر ورجعوا على ملكهم منكوتمر في القلب فانهزم، ورجع التتر من

اتباع ميسرة المسلمين فرّوا بالسلطان وهو ثابت في مقامه لم يبرح ، ورجع أهل الميرة .

ونزل السلطان في خيامه ورحل من الغد في اتباع العدوّ ، وأوعز الى الحصون التي في ناحية الفرات باعتراضهم على المقابر فعدلوا عنها ، وخاضوا الفرات في المجاهل فغرقوا ومرّ بعضهم ببرّ سَلَمْيَة فهلكوا وانتهى الخبر الى أبغا ، وهو على الرَحَبَة فأجفل الى بغداد. وصرف السلطان العساكر الى أماكنهم ، وسار سنقر الاشقر الى مكانه بصهيون. وتخلف عنه كثير من الظاهرية عند السلطان ، وعاد السلطان الى دمشق ، ثم الى مصر آخر شعبان من السنة فبلغه الخبر بمهلك منكوتمر بن هلاكو بهمذان ومنكوتمر صاحب الشمال بصراي فكان ذلك تماماً للفتح .

ثم هلك أبغا بن هلاكو سنة احدى وثمانين ؛ وكان سبب مهلكه فيما يقال انه اتهم شمس الدين الجريض وزيره باغتيال أخيه منكوتمر منصرفه من واقعة حمص ، فقبض عليه وامتحنه واستصفاه فدس له الجويني من سمه ومات . وكان أبغا اتهم بأخيه أيضاً أميراً من المغل كان شِحْنَةً بالجزيرة ففر منها وأقام مشركاً . وبعث السلطان قلاون بعثاً الى ناحية الموصل للاغارة عليها وانتهوا الى سنجر فصادفوا هذا الامير ، وجاؤا به الى السلطان فحبسه . ثم أطلقه وأثبت اسمه في الديوان ، وكان يحدث بكثير من أخبار التتر وكتب بعضها عنه .

وبعث السلطان في هذه السنة بعوثاً أخرى الى نواحي سيس من بلاد الروم جزاء بما كان من الارمن في حلب ومساجدها فاكتسحوا تلك النواحي، ولقيهم بعض امراء التتر بمكان هنالك فهزموه ووصلوا الى جبال بلغار ورجعوا غانمين. وبعث السلطان شمس الدين قراسنقر المنصوري الى حلب لاصلاح ما خرب التتر من قلعتها وجامعها فأعاد ذلك الى أحسن ما كان عليه.

ثم أسلم ملوك التتر فبعث أولا بكدار بن هلاكو صاحب العراق بإسلامه، وانه تسمّى احمد وجاءت رسله بذلك الى السلطان وهم شمس الدين اتابك ومسعود بن كيكاوس صاحب بلاد الروم، وقطب الدين محمود الشيرازي قاضي سيواس وشمس الدين محمد بن الصاحب من حاشية صاحب ماردين، وكان كتابه مؤرخاً بجمادى سنة احدى وثمانين، وحملوا على الكرامة، وأجيب سلطانهم بما يناسبه. ثم وصل رسول قودان بن طقان المتولي بكرسي الشمال بعد أخيه منكوتمر سنة اثنتين وثمانين بخبر ولايته ودخوله في دين الاسلام، ويطلب تقليد الخليفة واللقب منه والراية للجهاد فيمن يليه من الكفار فأسعف بذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء السلطان قلاون على الكرك وعلى صهيون ووفاة صاحب حماة

ثم توفي المنصور محمد بن المظفر صاحب حماة في شوال سنة

اثنتين وثمانين ، وولى السلطان ابنه المظفر وبعث بالخلع له ولاقاربه. وسار السلطان قلاون الى الشام في ربيع سنة ثلاث وثمانين لمحاصرة المرقب بما فعلوه من ممالأة العدو فحاصره حتى استأمنوا اليه ، وملك الحصن من أيديهم وانتظر وصول سنقر الاشقر من صهيون فلم يصل فرجع الى مصر. وجهز النائب حسام الدين طرنطاي في العساكر لحصار الكرك بما وقع من شلامش وخسرو من الانتقاض فسار سنة خمس وثمانين وحاصرهم حتى استأمنوا. وجاء بهم الى السلطان فركب للقائهم وبالغ في اكرامهم ؛ ثم ساءت سيرتهم فاستراب بهم واعتقلهم وغربهم الى القسطنطينية. وولى على الكرك عز الدين المنصوري ، وبعده بيبرس الدويدار مؤلف أخبار الترك ثم جهز السلطان ثانياً النائب طرنطاي بالعساكر لحصار سنقر الاشقر بصهيون لانتقاضه واغارته على بلاد السلطان فسار لذلك سنة ست وثمانين ، وحاصره حتى استأمن هو ومن معه. وجاء به الى السلطان وأنزله بالقلعة ، ولم يزل عنده الى أن هلك السلطان فقبض عليه ، وتولى ابنه الاشرف من بعده كما نذكره ان شاء الله تعالى

وفاة ميخائيل ملك القسطنطينية

قد تقدم لنا كيف تغلب الافرنج على القسطنطينية من يد الروم سنة ستمائة ، وكان ميخائيل هذا من بطارقتهم ، أقام في

بعض الحصون بنواحيها فلما امكنته الفرصة بيتها وقتل من كان بها من الافرنج، وفرّ الباقون في مراكبهم. واجتمع الروم الى ميخائيل هذا وملكوه عليهم، وقتل الملك الذي قبله. وكان بينه وبين صاحب مصر والناصر قلاون من بعده اتصال ومهاداة، ونزل بنو الظاهر عليه عندما غربوا من مصر. ثم مات ميخائيل سنة احدى وثمانين، وولي ابنه ماندر ويلقب الراونس، وميخائيل هذا يعرف بالاشكري وبنوه من بعده بنو الاشكري، وهم ملوك القسطنطينية الي هذا العهد، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

اخبار النوبة

كان الملك الظاهر وفد عليه أعوام سنة خمس وسبعين ملك النوبة من تشكيل مستنجداً به على ابن أخيه داود لما كان تغلب عليه، وانتزع الملك من يده، فوعده السلطان وأقام ينتظر. واستفحل ملك داود وتجاوز حدود مملكته الى قرب اسوان من آخر الصعيد، فجهز السلطان العساكر اليه مع اقسنقر الفارقاني وايبك الافرم أستاذ داره، وأطلق معهم مرتشكين ملك النوبه فساروا لذلك، واستنفروا العرب وانتهوا الى رأس الجنادل، واستولوا على تلك البلاد وأمنوا أهلها. وساروا في البلاد فلقيهم داود الملك فهزموه وأثخنوا في عساكره، وأسروا أخاه وأخته

وأمّه . وسار الى مملكة السودان بالابواب ، ورآه فقاتله ملكها وهزمه وأسره ، وبعث به مقيداً الى السلطان فاعتقل بالقلعة الى أن مات . واستقر مرتشكين في سلطان النوبة على جراية مفروضة وهدايا معلومة في كل سنة ، وعلى أن تكون الحصون المجاورة لاسوان خالصة للسلطان ، وعلى أن يمكن ابن أخيه داود وجميع أصحابه من كل ما لهم في بلادهم فوفى بذلك .

ثم مات الظّاهر وانقرضت دولته ودولة بنيه ، وانتقل الملك الى المنصور قلاون فبعث سنة ست وثمانين العَساكر الى للنوبة مع علم الدين سنجر الخياط ، وعز الدين الكوراني وسار معهم نائب قوص عز الدين ايدمر السيفي بعد أن استنفر العُربان : أولاد أبي بكر وأولاد عمر وأولاد شريف وأولاد شيبان واولاد كنز الدولة ، وجماعة من الغرب ، وبني هلال وساروا على العُدوة الغربية والشَرقية في دنقلة ، وملكهم بيتامون . هكذا سماه النووي ، وأظنه أخا مرتشكين وبرزوا للعَساكر فهزمتهم ، واتبعَتهم خمسة عشر يوماً وراء دنقلة .

ورتب ابن اخت بيتامون في الملك ورجعَت العَساكر الى مصر فجاء بيتامون الى دنقلة فاستولى على البلاد ولحق ابن اخته بمصر ، صريخاً بالسلطان فبعَث معَه عز الدين ايبك الافرم في العَساكر ، ومعَه ثلاثة من الامراء ، وعز الدين نائب قوص وذلك سنة ثمان وثمانين . وبعَثوا المراكب في البحر بالازودة والسلاح .

وفاة ملك النوبة بأسوان ودفن بها ، وجاء نائبه صريخاً الى السلطان فبعث معه داود بن أخي مرتشكين الذي كان أسيراً بالقلعة ، وتقدّم جريس بين يدي العساكر فهرب بيتامون ، وامتنع بجزيرة وسط النيل على خمس عشرة مرحلة وراء دنقلة . ووقف العساكر على ساحل البحر وتعذر وصول المراكب الى الجزيرة من كثرة الحجر ، وخرج بيتامون منها فلحق بالابواب ، ورجع عنه أصحابه ، ورجعت العساكر الى دنقلة فملكوا داود ورجعوا الى مصر سنة تسع وثمانين لتسعة أشهر من مسيرهم ، بعد أن تركوا أميراً منهم مع الملك داود ، ورجعوا الى مصر ، ورجع بيتامون الى دنقلة ، وقتل داود ، وبعث الامير الذي كان معهم الى السلطان وحمله رغبة في الصلح على أن يؤدّى الضريبة المعلومة فأسعف لذلك ، واستقرّ في ملكه انتهى والله تعالى اعلم .

فتح طرابلس

كان الافرنج الذين بها قد نقضوا الصلح وأغاروا على الجهات فاستنفر السلطان العساكر من مصر والشام ، وأزاح عللهم ، وجهّز آلات الحصار ، وسار اليها في محرم سنة ثمان وثمانين فحاصرها ونصب عليها المجانيق ، وفتحها عنوة لاربعة وثلاثين يوماً من حصارها واستباحها . وركب بعضهم الشواني للنجاة فردتهم الريح الى السواحل فقتلوا وأسروا ، وأمر السلطان بتخريبها فخربت

وأحرقت . وفتح السلطان ما اليها من الحصون والمعاقل ، وأنزل حاميتها وعاملها بحصن الاكراد . ثم اتخذ حصناً آخر لترك النائب والحامية في العمل ، وسمي باسم المدينة ، وهو الموجود لهذا العهد وكان من خبر هذه المدينة من لدن الفتح انّ معاوية أيام ولايته الشام لعهد عثمان بن عفان رضي الله عنه بعث اليها سفيان بن مخنف الازدي فحاصرها وبنى عليها حصناً حتى جهد أهلهــا الحصار ، وهربوا منها في البحر . وكتب سفيان الى معاوية بالفتح . وكان يبعث العساكر كل سنة للمرابطة بها .

ثم جاء الى عبد الملك بن مروان بطريق من الروم وسأله في عمارتها والنزول بها مجمعاً على أن يعطيه الخراج فأجابه ، وأقام قليلاً ثم غدر بمن عنده من المسلمين . وذهب الى بلاد الروم فتخطفته شواني المسلمين في البحر ، وقتله عبد الملك ، ويقــال الوليد ، وملكها المسلمون . وبقي الولاة يملكونها من دمشق الى أن جاءت دولة العبيديين فأفردوها بالولاية ، ووليهــا ريّان الخادم ، ثم سرّ الدولة ، ثم أبو السعادة علي بن عبد الرحمن بن جبارة ، ثم نزال ، ثم مختار الدولة بن نزال ، وهؤلاء كلهم من أهل دولته . ثم تغلّب قاضيها أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمّار ، وتوفي سنة أربع وستين واربعمائة . وكان من فقهاء الشيعة ، وهو الذي صنّف الكتاب الملقب بخراب الدولة ابن منقذ بن كود فقام بولاية أخيه أبي الحسن بن محمد بن عمّار ولقبه جلال الدين .

وتوفي سنة اثنتين وتسعين صنجيل من ملوكهم واسمه ميمنت ، ومعناه ميمون . وصنجيل اسم مدينة عرف بها ، وأقام صنجيل يحاصرها طويلاً ، وعجز ابن عمار عن دفاعه . ثم قصد سلطان السلجوقية بالعراق محمد بن ملكشاه مستنجداً به ، واستخلف بالمناقب ابن عمه على طرابلس ، ومعه سعد الدولة فتيان بن الاغر فقتله أبو المناقب ودعا للافضل بن أمير الجيوش المستبدّ على خلفاء العبيديين بمصر لذلك العهد . ثم هلك صنجيل وهو محاصر لها ، وولي مكانه السرداني من زعمائهم . وبعث الافضل قائداً الى طرابلس فأقام بها وشغل عن مدافعة العدوّ بجمع الاموال .

ونمي عنه الى الافضل أنه يروم الاستبداد فبعث آخر مكانه، ونافر أهل البلد لسوء سيرتـه فتبين وصول المراكب من مصر بالمدد ، وقبض على اعيانهم وعلى مخلف فخر الملك بن عمار من أهله وولده ، وبعث بهم الى مصر . وجاء فخر الملك بن عمار بعد ان قطع حبل الرجاء في يـده من انجاد السلجوقية لما كانوا فيه من الشغل بالفتنة ، وربما علله بعضهم بولاية الوزارة له . ثم رجع الى دمشق سنة اثنتين وخمسمائة ونزل على طغتكين الاتابك .

ثم ملكها السرداني سنة ثلاث وخمسمائـة بعد حصارها سبع سنين . وجاء ابن صنجيل من بلاد الافرنج فملكها منه ، وأقامت في مملكته نحواً من ثلاثين سنة . ثم ثار عليه بعض الزعماء وقتله بطرس الاعور واستخلف في طرابلس القوش بطرار . ثم كانت

الواقعة بين صاحب القدس ملك الافرنج ، وبين زنكي الاتابك صاحب الموصل ، وانهزم الافرنج وأسر القوش في تلك الوقعة ، ونجا ملك الافرنج الى تغريب فتحصّن بها وحصره زنكي حتى اصطلحا على أن يعطي تغريب ، ويطلق زنكي الاسرى في الواقعة فانطلق القوش الى طرابلس فأقام بها مدّة ، ووثب الاسماعيليه به فقتلوه وولي بعده رهند صبياً وحضر مع الافرنج سنة سبع وخمسين وقعة حارم التي هزمهم فيها العادل . وأسر رهند يومئذ وبقي في اعتقاله الى أن ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب فأطلقه سنة سبعين وخمسمائة ، ولحق بطرابلس ولم تزل في ملكه وملك ولده الى أن فتحها المنصور سنة ثمان وثمانين كما مرّ والله تعالى أعلم .

انشاء المدرسة والمارستان بمصر

كان المنصور قلاون قد اعتزم على انشاء المارستان بالقاهرة ونظر له الاماكن ، حتى وقف نظره على الدار القطبية من قصور العبيديين وما يجاورها من القصرين ، واعتمد انشاءه هنالك ، وجعل الدار أصل المارستان ، وبنى بازائه مدرسة لتدريس العلم وقبة لدفنه . وجعل النظر في ذلك لعلم الدين الشجاعي فقام بانشاء ذلك لاقرب وقت وكملت العمارة سنة اثنتين وثمانين وستمائة . ووقف عليها املاكاً وضياعاً بمصر والشام وجلس بالمارستان في يوم مشهود . وتناول قدحاً من الاشربة الطبية وقال : وقفت هذا

المارستان على مثلي فن دوني من أصناف الخلق ، فكان ذلك من صالح آثاره والله أعلم .

وفاة المنصور قلاون وولاية ابنه خليل الاشرف

كان المنصور قلاون قد عهد لابنه علاء الدين ولقبه الصالح، وتوفي سنة سبع وثمانين فولي العهد مكانه ابنه الآخر خليل . ثم انتقض الافرنج بعكا وأغاروا على النواحي ومرّت بهم رفقة من التجار برقيق من الروم والترك جلبوهم للسلطان فنهبوهم وأسروهم فأجمع السلطان غزوهم وخرج في العساكر بعد الفطر من سنة تسع وثمانين . واستخلف ابنه خليلا على القاهرة ومعه زين الدين سيف ، وعلم الدين الشجاعي الوزير وعسكر بظاهر البلد فطرقه المرض ، ورجع الى قصره فمرض . وتوفي في ذي القعدة من السنة فبويع ابنه خليل ولقب الاشرف ، وكان حسام الدين طرنطاي نائب المنصور اليه فأقره وأشرك معه زين الدين سيف في نيابة العتبة ، وأقرّ علم الدين الشجاعي على الوزارة ، وبدر الدين بيدو استاذ داره ، وعز الدين ايبك خرندار .

وكان حسام الدين لاشين السلحدار نائباً بدمشق ، وشمس الدين قراسنقر الجوكندار نائباً بحلب فأقرهما وجمع ما كان بالشام من ولاة أبيه . ثم قبض على النائب حسام الدين طرنطاي لأيام قلائل وقتله واستولى على مخلفه ، وكان لا يعبر عنه . كان الناض

منها ستمائة الف دينار ، وحملت كلها لخزانته . واستقل بدر الدين بالنيابة ، وبعث الى محمد بن عثمان بن السلعوس من الحجاز فولاه الوزارة ، وكان تاجراً من تجار الشام وتقرب له أيام أبيه ، واستخدم له فاستعمله في بعض اقطاعه بالشام ، ووفر جبايتها فولاه ديوانه بمصر فأسرف في الظلم وأنهى أمره الى طرنطاي النائب فصادره المنصور وامتحنه ، ونفاه عن الشام .

وحج في هذه السنة وولي الاشرف فكان أوّل أعماله البعث عنه، وولاه الوزارة فبلغ المبالغ في الظهور وعلوّ الكلمة واستخدم الخواص له وترفع عن الناس ، واستقل الرتب وقبض الاشرف على شمس الدين سنقر وحبسه ، وكان قد قبض مع طرنطاي النائب عن عز الدين سيف لما بلغه أنه يدبر عليه مع طرنطاي ، ثم ثبتت عنده براءته فأطلقه والله تعالى أعلم .

فتح عكا وتخريبها

ثم سار الاشرف أوّل سنة تسعين وستمائة لحصار عكا متمما عزم أبيه فيها فجهز العساكر واستنفر أهل الشام ، وخرج من القاهرة فاغذّ السير الى عكا ، ووافاه بها أمراء الشام والمظفر بن المنصور صاحب حماة فحاصرها ورماها بالمجانيق فهُدِم كثير من أبراجها ، وتلاها المقاتلة لافتحاها فرشقوهم بالسهام فا (١)

(١) كذا بياض بالأصل، وفي أخبار البشر ج ٤ ص ٢٥ : وكانوا يرمونها بالنشاب والجوارح وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة .

من اللبود، وزحفوا في كنّها وردموا الخندق بالتراب فحمل كل واحد منهم ما قدر عليه حتى طموه، وانتهوا الى الابراج المتهدمة فالصقوها بالارض، واقتحموا البلد من ناحيتها، واستلحموا من كان فيها وأكثروا القتل والنهب، ونجا الفل من العدو الى ابراجها الكبار التي بقيت ماثلة فحاصرها عشراً آخراً، ثم اقتحمها عليهم فاستوعبهم السيف. وكان الفتح منتصف جمادى سنة سبعين لمائة وثلاث سنين من ارتجاع الكفار لها من يد صلاح الدين سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

وأمر الاشرف بتخريبها فخربت وبلغ الخبر الى الافرنج بصور وصيدا وعتلية وحيفا فاجفلوا عنها وتركوها خاوية، ومر السلطان بها وأمر بهدمها فهدمت جميعاً، وانكفا راجعاً الى دمشق. وتقبض في طريقه على لاشين نائب دمشق لان بعض الشياطين أوحى اليه ان السلطان يروم الفتك به فركب للفرار، واتبعه علم الدين سنجر الشجاعي، وسار الى بيروت ففتحها. ومر السلطان بالكرك فاستعفى نائبها ركن الدين بيبرس الدوادار وهو المؤرخ فولى مكانه جمال الدين أتسز الاشرفي، ورجع السلطان الى القاهرة فبعث شلامش وخسرو ابني الظاهر من محبسهما بالاسكندرية الى القسطنطينية. ومات شلامش هنالك، وأفرج عن شمس الدين سنقر الاشقر، وحسام الدين لاشين المنصوري اللذين اعتقلهما كما قدّمناه. وقبض على علم الدين سنجار نائب دمشق، وسبق الى

مصر معتقلًا . وأمر السلطان ببناء الرفوف بالقلعة على أوسع ما يكون وارفعه، وبنى القبة بازائه لجلوس السلطان أيام الزينة والفرح فبنيت مشرفة على سوق الخيل والميدان، والله سبحانه وتعالى أعلم .

فتح قلعة الروم

ثم سار السلطان سنة احدى وتسعين في عساكره الى الشام بعد ان أفرج عن حسام الدين لاشين وردّه الى امارته وانتهى الى دمشق . ثم سار الى حلب، ثم دخل منها الى قلعة الروم فحاصرها في جمادى من السنة وملكها عنوة بعد ثلاثين يوماً من الحصار، وقاتل المقاتلة الذريعة، وخرب القلعة وأخذ فيها بطرك الارمن أسيراً، وانكفأ السلطان راجعاً الى حلب فأقام بها شعبان، وولّى عليها سيف الدين الطباقي نائباً مكان قراسنقر الظاهري لانه ولاه مقدم المماليك .

ورحل الى دمشق فقضى بها عيد الفطر، واستراب لاشين النائب فهرب ليلة الفطر، وأركب السلطان في طلبه، وتقبض عليه بعض العرب في حيه . وجاء به الى السلطان فبعثه مقيداً الى القاهرة، وولى على نيابة دمشق عز الدين ايبك الحميدي عوضاً عن علم الدين سنجر الشجاعي، ورجع الى مصر فافرج عن علم الدين سنجر الشجاعي، وتوفي لسنة بعد اطلاقه . ثم قبض على

سنقر الاشقر وقتله، وسمع نائبه بيدو ببراءة لاشين فاطلقه. وتوفي ابن الاثير بعد شهر فولّى مكانه ابنه عماد الدين أيوب، وكان أيوب قد اعتقله المنصور لاوّل ولايته فأطلقه الاشرف هذه السنة لثلاث عشرة سنة من اعتقاله، واستخلصه للمجالسة والشورى.

وتوفي القاضي فتح الدين محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر كاتب السرّ وصاحب ديوان الانشاء وله التقدم عنده وعند أبيه، فولى مكانه فتح الدين أحمد بن الاثير الحلي. وترك ابن عبد الظاهر ابنه علاء الدين عليا فالقى عليه النعمة منتظماً في جملة الكتاب. ثم سار السلطان الى الصعيد يتصيد، واستخلف بيدو النائب على دار ملكه، وانتهى الى قوص. وكان ابن السلعوس قد دسّ اليه بانّ بيدو احتجن بالصعيد من الزرع ما لا يحصى فوقف هنالك على مخازنها واستكثرها، وارتاب بيدو لذلك. ولما رجع الاشرف الى مصر ارتجع منه بعض اقطاعه، وبقي بيدو مرتاباً من ذلك، وأتحف السلطان بالهدايا من الخيام والهجن وغيرها، والله تعالى أعلم.

مسير السلطان الى الشام وصلح الارمن ومكثه في مصياف وهدم الشوبك

ثم تجهز السلطان سنة اثنتين وتسعين الى الشام، وقدم بيدو النائب بالعساكر، وعاج على الكرك على الهجن فوقف عليها وأصلح من أمورها ورجع. ووصل الى الشام فوافاه رسول صاحب

سيس ملك الارمن راغباً في الصلح على أن يعطي تهسنا ومرعش وتل حمدون فعقد لهم على ذلك ، وملك هذه القلاع وهي في فم الدرب من ضياع حلب ، وكانت تهسنا للمسلمين. ولما ملك هلاكو حلب باعها النائب من ملك الارمن سيس. ثم سار السلطان الى حمص ووصل اليها في رجب من السنة ، ومعه المظفر صاحب حماة ونزل سلميه ، ولقيه مهنا بن عيسى أمير العرب فقبض عليه وعلى أخويه محمد وفضل وابنه موسى وبعثهم معتقلين مع لاشين الى دمشق ، ومن هناك الى مصر فحبسوا بها. وولى على العرب مكانهم محمد بن أبي بكر بن علي بن جديلة وأوعز وهو بحمص الى نائب الكرك بهدم قلعة الشوبك فهدمت ، وانكفأ راجعاً الى مصر ، وقدم العساكر مع بيدو ، وجاء في الساقة على الهجن مع خواصه. ولما دخل علي مصر أفرج عن لاشين المنصوري والله تعالى أعلم.

مقتل الأشرف وولاية اخيه محمد الناصر في كفالة كتبغا

كان النائب بيدو مستولياً على الاشرف ، والاشرف مستريب به حتى كأنه مستبد ، وكان مستوحشاً من الاشرف. واعتزم الاشرف سنة ثلاث وتسعين على الصيد في البحيرة فخرج اليها. وبعث وزيره ابن السلعوس للاسكندرية لتحصيل الاموال والاقمشة

فوجد [١] بيدو قد سبقوا اليها واستصفوا ما هنالك فكاتب السلطان بذلك فغضب. واستدعى بيدو فوبخه وتوعده ولم يزل هو يلاطفه حتى كسر من سورة غضبه. ثم خلص الى أصحابه وداخلهم في التوثب به. وتولى كبر ذلك منهم لاشين المنصوري نائب دمشق، وقراسنقر المنصوري نائب حلب، وكان الامراء كلهم حاقدين على الاشرف لتقديمه حاشيته عليهم. ولما كتب اليه السلعوس بقلة المال صرف مواليه الى القلعة تخفيفاً من النفقة، وبقي في القليل.

وركب بعض أيامه يتصيد وهو مقيم على فرجة فاتبعوه وأدركوه في صيده فأوجس في نفسه الشر منهم فعاجلوه وعلوه بالسيوف ضربه أولا بيدو وثنى عليه لاشين وتركوه مجندلاً بمصرعه منتصف محرم من السنة، ورجعوا الى المخيم وقد أبرموا أن يولوا بيدو فولوه ولقبوه القاهر. وتقبض على بيسرى الشمسي وسيف الدين بكتمر السلحدار، واحتملوهما وساروا الى قلعة الملك. وكان زين الدين سيف قد ركب للصيد فبلغه الخبر في صيده فسار في اتباعهم، ومعه سوس الجاشنكير وحسام الدين استاذ دار وركن الدين سوس وطقجي في طائفة من الجاشنكيرية، وادركوا القوم

(١) كذا بياض بالأصل، وفي أخبار البشر ج ٤ ص ٣٠: وركب في نفر يسير من خواصه للصيد، فقصده مماليك والده، وهم: بيدرا نائب السلطنة، ولاجين الذي كان عزله السلطان عن نيابة السلطنة بدمشق واعتقله مرة بعد أخرى، وقرا سنقر الذي عزله عن نيابة السلطنة بحلب وانضم إليهم بهادر رأس النوبة وجماعة من الأمراء.

على الطرّانة . ولما عاينهم بيدو وبيسري وبكتمر المعتقلين في المخيم رجعوا الى كيبغا[1] وأصحابه وفرّ عن بيدو من كان معه من العربان والجند وقاتل قليلاً ثم قتل ، ورجع برأسه على القناة ، وافترق أصحابه قراسنقر ولاشين بالقاهرة .

ويقال ان لاشين كان مختفياً في مأذنة جامع ابن طولون ، ووصل كتبغا وأصحابه الى القلعة وبها علم الدين الشجاعي ، واستدعوا محمد بن قلاون أخا الاشرف وبايعوه ولقبوه الناصر ، وقام بالنيابة كتبغا وبالاتابكية حسام الدين ، وبالوزارة علم الدين سنجر ، وبالاستاذ دارية ركن الدين سوس الجاشنكير . واستبدوا بالدولة فلم يكن الناصر يملك معهم شيأ من أمره ، وجدوا في طلب الامراء الذين داخلوا بيدو في قتل الاشرف فاستوعبوهم بالقتل والصلب والقطع وكان بهادر ، رأس نوبة ، وأقوش الموصلي فقتلا ، وأحرقت أشلاؤهما . وشفع كتبغا في لاشين وقرا سنقر المتوليين كبر ذلك فظهرا من الاختفاء وعادا الى محلهما من الدولة . ثم تقبض على الوزير محمد بن السلعوس عند وصوله من الاسكندرية ، وصادره الوزير الشجاعي وامتحنه فمات تحت الامتحان ، وأفرج عن عز الدين ليبك الافرم الصالحي ، وكان الاشرف اعتقله سنة اثنتين وتسعين والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) ورد هذا الاسم في تاريخ ابن خلدون تارة «كسبغا» وتارة أخرى «كتبغا»، وأحياناً «كيغا» وقد ورد في تاريخ أخبار البشر «كتبغا» بمواضع متفرقة.

وحشة كتبغا ومقتل الشجاعي

ثم انّ الشجاعي لطف محله من النـاصر واختصه بالمداخلة ، وأشار عليه بالقبض على جماعة من الامراء فاعتقلهم : وفيهم سيف الدين كرجي وسيف الدين طونجي . وطوى ذلك عن كتبغا ، وبلغه الخبر وهو في موكب بساحة القلعة . وكان الامراء يركبون في خدمته فاستوحش ، وارتاب بالشجاعي وبالناصر . ثم جاء بعض مماليك الشجاعي الى كتبغا في الموكب ، وجرد سيفه لقتله فقتله مماليكه ، وتأخر هو ومن كان معه من الامراء عن دخول القلعة ، وتقبضوا على سوس الجاشنكير استاذ دار وبعثوا به الى الاسكندرية ونادوا في العسكر فاجتمعوا وحـاصروا القلعـة . وبعث اليهم السلطان أميراً فشرطوا عليه أن يمكنهم من الشجاعي فامتنع ، وحاصروه سبعاً واشتد القتال .

وفرّ من كان بقي في القلعة من العسكر الى كتبغا ، وخرج الشجاعي لمدافعتهم فلم يغن شيأ . ورجع الي السلطان وقد خامره الرعب فطلب أن يحبس نفسه فمضى به المماليك الى السجن وقتلوه في طريقهم . وبلغ الخبر الى كتبغا ومن كان معه فذهبت عنهم الهواجس ، واستأمنوا للسلطـان فأمنهم واستحلفوه فحلف لهم ودخلوا الى القلعة ، وأفاض كتبغا العطاء في الناس ، وأخرج من كان في الطباق من المماليك بمداخلة الشجاعي فأنزلهم الى البلد بمقاصر

الكسر، ودار الوزارة، والجوار وكانوا نحواً من تسعة آلاف فأقاموا بها .

ولما كان المحرم فاتح سنة أربع وتسعين اتعدوا ليلة وركبوا فيها جميعاً، وأخرجوا من كان في السجون ونهبوا بيوت الامراء وأعجلهم الصبح عن تمام قصدهم، وباكرهم الحاجب بهادر ببعض العساكر فهزمهم. وافترقوا وتقبض على كثير منهم فأخذ منهم العقاب مأخذه قتلاً وضرباً وعزلاً ، وأفرج عن عز الدين ايبك الافرم، وأعيد الى وظيفته أمير جندار، ثم هلك قريباً. واستحكم أمر السلطان ونائبه كتبغا وهو مستبد عليه، واستمرّ الحال على ذلك الى ان كان ما نذكره ان شاء الله تعالى، والله تعالى ولي التوفيق .

خلع الناصر وولاية كتبغا العادل

ولما وقعت الوحشة بين كتبغا والشجاعي، وتلتها هذه الفتنة استوحش كتبغا في ظاهر أمره، وأنقطع عن دار النيابة متمارضاً وتردّد السلطان لعيادته. ثم حمل بطانته على الاستبداد بالملك والجلوس على التخت، وكان طموحاً لذلك من أول أمره فجمع الامراء ودعاهم الى بيعته فبايعوه. وخلع الناصر وركب الى دار السلطان فجلس على التخت وتلقب بالعادل، وأخرج السلطان من قصور الملك، وكان مع أمّه ببعض الحجر. وولّى حسام الدين

لاشين نائباً والصاحب فخر الدين عمر بن عبد العزيز الخليلي استاذ الدار وزيرا نقله اليها من النظر في الديوان لعلاء الدين ولي العهد ابن قلاون، وعز الدين ايبك الافرم الصالحي أمير جندار، وبهادر الحلبي أمير حاجب، وسيف الدين منماص استاذ دار، وقسم امارة الدولة بين مماليكه.

وكتب الى نواب الشام بأخذ البيعة فاجابوا بالسمع والطاعة، وقبض على عزالدين ايبك الخازندار نائب طرابلس، وولي مكانه فخر الدين ايبك الموصلي. وكان الخازندار ينزل حصن الاكراد، ونزل الموصلي بطرابلس، وعادت دار امارة. ثم وفد سنة خمس وتسعين على العادل كتبغا طائفة من التتر يعرفون بالاربدانية، ومقدّمهم طرنطاي كان مداخلًا لبدولي كنجاب ابن عمه ملك التتر. فلما سار الملك الى غازان خافه طرنطاي، وكانت احياؤه بين غازان والموصل.

وأوعز غازان الى التتر الذين من مارتكن فأخذ الطرق عليهم. وبعث قطقرا من أمرائه للقبض على طرنطاي ومن معه من أكابر قبيله فسار لذلك في ثمانين فارساً فقتله طرنطاي وأصحابه وعبروا الفرات الى الشام. واتبعهم التتر من ديار بكر فكرّوا عليهم فهزموهم. وأمر العادل سنجر الدوادار أن يتلقاهم بالرحب واحتفل نائب دمشق لقدومهم. ثم ساروا الى مصر فتلقاهم شمس الدين قرا سنقر، وكانوا يجلسون مع الامراء بباب القلعة فانفوا

لذلك، وكان سبباً لخلع العادل كما نذكر. ووصل على أثرهم بقية قومهم بعد أن مات منهم كثير. ثم رسخوا في الدولة وخلطهم الترك بأنفسهم، وأسلموا واستخدموا أولادهم وخلطوهم بالصهر والولاء والله سبحانه وتعالى أعلم.

خلع العادل كتبغا وولاية لاشين المنصور

كان أهل الدولة نقموا على السلطان كتبغا العادل تقديم مماليكه عليهم، ومساواة الاربدانية من التتر بهم فتفاوضوا على خلعه. وسار الى الشام في شوّال سنة خمسة وتسعين فعزل عز الدين ايبك الحموي نائب دمشق واستصفاه، وولى مكانه سيف الدين عزّلو من مواليه. ثم سار الى حمص متصيّداً ولقيه المظفر صاحب حماة فأكرمه ورده الى بلده. وسار الى مصر والامراء مجمعون خلعه والفتك بمماليكه، وانتهى الى العوجاء من أرض فلسطين، وبلغه عن بيسري الشمسي انه كاتب التتر فنكر عليه وأغلظ له في الوعيد. وارتاب الامراء من ذلك وتمشت رجالاتهم واتفقوا. وركب حسام الدين لاشين وبدر الدين بيسري وشمس الدين قراسنقر وسيف الدين قفجاق وبهادر الحلبي الحاجب وبكتاش الفخري وببليك الخازندار وأقوش الموصلي وبكتمر السلحدار وسلار وطفجي وكرجي ومعطاي، ومن انضاف اليهم بعد أن بايعوا لاشين، وقصدوا مخيم بكتوت الازرق فقتلوه.

وجاءهم ميحاص فقتلوه ايضاً. وركب السلطان كتبغا في لفيفه فحملوا عليه فانهزم الى دمشق، وبايع القوم لاشين ولقبوه المنصور وشرطوا عليه أن لا ينفرد عنهم برأي فقبل، وسار الى مصر ودخل القلعة.

ولما وصل كتبغا الى دمشق لقيه نائبه سيف الدين غزلو وأدخله القلعة واحتاط على حواصل لاشين والامراء الذين معه، وأمّن جماعة من مواليه. ووصلت العساكر التي كانت مجرّدة بالرَّحَبَة ومقدّمهم جاغان، وكانوا قد داخلوا لاشين في شأنه ونزلوا ظاهر دمشق، واتفقوا على بيعة لاشين وأعلنوا بدعوته. وانحلّ أمر العادل وسأل ولاية صرخد، وألقى بيده فحبس بالقلعة لسنتين من ولايته. وبعث الامراء بيعتهم للاشين، ودخل سيف الدين جاغان الى القلعة.

ثم وصل كتاب لاشين ببعثه الى مصر، وبعث الى كتبغا بولاية صرخد كما سأل، ووصل قفجق المنصوري نائباً عن دمشق. وأفرج لاشين بمصر عن ركن الدين بيبرس الجاشنكير وغيره من المماليك، وولّى قراسنقر نائباً وسيف الدين سلار استاذ دار سيف الدين بكتمر السلحدار أمير جاندار وبهادر الحلبي صاحب [١] وأقر فخر الدين الخليلي على وزارته، ثم عزله وولى مكانه شمس

(١) كذا بياض بالأصل في جميع النسخ ولم نعثر بالمراجع التي بين أيدينا على اسم هذه المقاطعة أو البلدة.

الدين سنقر الاشقر ، وقبض على قراسنقر النائب وسيف الدين سلار استاذ دار آخر سنة ست وتسعين وولى مكانه سيف الدين منكوتمر الحسامي مولاه ، واستعمل سيف الدين قفجق المنصوري نائباً .

ثم أمر بتجديد عمارة جامع ابن طولون وندب لذلك علم الدين سنجر الدوادار ، وأخرج للنفقة فيه من خالص ماله عشرين ألف دينار ، ووقف عليه املاكاً وضياعاً . ثم بعث سنة تسع وسبعين بالناصر محمد بن قلاون الى الكرك مع سيف الدين سلار استاذ دار، وقال لزين الدين ابن مخلوف فقيه بيته هو ابن استاذي وأنا نائبه في الامر ، ولو علمت أنه يقوم بالامر لاقمته . وقد خشيت عليه في الوقت فبعثته الى الكرك فوصلها في ربيع . وقال النووي : انه بعث معه جمال الدين بن أقوش . ثم قبض السلطان في هذه السنة على بدر الدين بيسري الشمسي بسعاية منكوتمر نائبه ، لان لاشين أراد أن يعهد اليه بالامر فردّه بيسري عن ذلك وقبحه عليه ، فدس منكوتمر بعض مماليك بيسري وانهوا الى السلطان أنه يريد الثورة فقبض عليه آخر ربيع الثاني من السنة وأودعه السجن فمات في محبسه .

وقبض في هذه السنة على بهادر الحلبي وعلى عز الدين ايبك الحموي . ثم أمر في هذه السنة بردّ الاقطاعات في النواحي ، وبعث الامراء والكتاب لذلك . وتولى ذلك عبد الرحمن الطويل

مستوفي الدولة. وقال مؤرّخ حماة المؤيد: كانت مصر منقسمة على أربعة وعشرين قيراطاً: أربعة منها للسلطان والكلف والرواتب وعشرة للامراء والاطلاقات والزيادات، وعشرة للاجناد الحلقة. فصيروها عشرة للامراء والاطلاقات والزيادات والاجناد، وأربعة عشر للسلطان فضعف الجيش. وقال النووي: قرّر للخاص في الروك الجيزة واطفيح ودمياط ومنفلوط والكوم الاحمر، وحولت السنة الحراجية من سنة ست وتسعين. وهذا في العدد، انما هو بعد انقضاء ثلاثة وثلاثين سنة واحدة، هي تفاوت ما بين السنين الشمسية والقمرية، وهو حجة ديوان الجيش في انقضاء التفاوت الجيشي، وهو تحويل بالاقلام فقط. وليس فيه نقص شيء. ثم أقطعت البلاد بعد الروك واستثنيت المراتب الجسرية والرزق الاحباسية. انتهى كلام النووي رحمه الله، والله تعالى أعلم.

فتح حصون سيس

ولما ولي سيف الدين منكوتمر النيابة، وكان مختصاً بالسلطان استولى على الدولة وطلب من السلطان أن يعهد له بالملك فنكر ذلك الامراء، وثنوا عنه السلطان فتنكر لهم منكوتمر وأكثر السعاية فيهم، حتى قبض على بعضهم وتفرق الآخرون في النواحي. وبعث السلطان جماعة منهم سنة سبع وتسعين لغزو

سيس وبلاد الأرمن : كان منهم بكتاش أمير سلاح وقراسنقر وبكتمر السلحدار وتدلار وتمراز ومعهم الالفي نائب صفد في العساكر ، ونائب طرابلس ونائب حماة ، ثم أردفهم بعلم الدين سنجر الدوادار . وجاءت رسل صاحب سيس وأغاروا عليها ثلاثة أيام واكتسحوها . ثم مرّوا ببغراس ، ثم ببرج انطاكية وأقاموا بها ثلاثاً ، ومرّوا بجسر الحديد ببلاد الروم . ثم قصدوا تل حمدون فوجدوها خاوية ، وقد انتقل الارمن الذين بها الى قلعة النجيمة ، وفتحوا قلعة مرعش وحاصروا قلعة النجيمة أربعين يوماً وافتتحوها صلحاً ، وأخذوا أحد عشر حصناً منها المصيصة وحموم وغيرهما .

واضطرب أهلها من الخوف فأعطوا طاعتهم ، ورجع العساكر الى حلب . وبلغ السلطان لاشين أنّ التتر قاصدون الشام فجهز العساكر الى دمشق مع جمال الدين أقوش الافرم ، وأمره أن يخرج العساكر من دمشق الى حلب مع قفجق النائب فسار الى حمص وأقام بها . ثم بلغهم الخبر برجوع التتر ، ووصل أمر السلطان الى سيف الدين الطباخي نائب حلب بالقبض على بكتمر السلحدار والالفي نائب صفد ، وجماعة من الامراء بحلب بسعاية بكتمر . وحاول الطباخي ذلك فتعذر عليه وبرز تدلار الى بسار فتوفي بها وأقام الآخرون . وشعروا بذلك فلحقوا بقفجق النائب على حمص فأمنهم ، وكتب الى السلطان يشفع فيهم فأبطأ جوابه .

وعزله سيف الدين كرجي وعلاء الدين ايدغري من اجارتهم

فاستراب ، وولّى السلطان مكانه على دمشق جاغان فكتب الى قفجق بطلبهم فنفروا وافترق عسكره ، وعبر الفرات الى العراق ومعه أصحابه بعد أن قبضوا على نائب حمص واحتملوه . ولحقهم الخبر بقتل السلطان لاشين وقد تورطوا في بلاد العدوّ فلم يمكنهم الرجوع . ووفدوا على غازان بنواحي واسط ، وكان قفجق من جند التتر وأبوه من جند غازان خصوصاً . ولما وقعت الفتنة بين لاشين وغازان ، وكان فيروز أتابك غازان مستوحشاً من سلطانه فكاتب لاشين في اللحاق به ، واطلع سلطانه على كتبه فأرسل الى قطلو شاه نائب حران فقبض على فيروز وقتله ، وقتل غازان أخويه في بغداد ، والله تعالى اعلم .

مقتل لاشين وعود الناصر محمد بن قلاون الى ملكه

كان السلطان لاشين قد فوض امر دولته الى مولاه منكوتمر فاستطال وطمع في الاستبداد ؛ ونكره الامراء كما قدّمناه فأغرى السلطان بهم وشردهم كلّ مشرد بالنكبة والابعاد . وكان سيف الدين كرجي من الجاشنكير ومقدّماً عليهم ، كما كان قراسنقر مع الاشرف . وكان جماعة المماليك معصوصبين عليه . وسعى منكوتمر في نيابته على القلاع التي افتتحت من الارمن ببلاد سيس فاستعفى من ذلك وأسرّها في نفسه ، وأخذ في السعاية على منكوتمر وظاهره على أمره قفجى من كبار الجاشنكيرية . وكان

لطقجي صهر من كبار الجاشنكيرية اسمه طنطاي أغلظ له منكوتمر يوماً في المخاطبة فامتعض وفزع الى كرجي وطقجي فاتفقوا على اغتيال السلطان .

وقصدوه ليلاً ، وهو يلعب بالشطرنج ، وعنده حسام الدين قاضي الحنفية فأخبره كرجي بغلق الابواب على المماليك فنكره ، ولم يزل يتصرّف أمامه حتى ستر سيفه بمنديل طرحه عليه . فلما قام السلطان لصلاة العتمة نحاها عنه وعلاه بالسيف . وافتقد السلطان سيفه فتعاوروه بسيوفهم حتى قتلوه ، وهموا بقتل القاضي ثم تركوه . وخرج كرجي الى طقجي بمكان انتظاره وقصدوا منكوتمر وهو بدار النيابة فاستجار بطقجي فأجاره وحبسه بالجبّ ثم راجعوا رأيهم واتفقوا على قتله فقتلوه . وكان مقتل لاشين في ربيع سنة ثمان وتسعين ، وكان من موالي علي بن المعز ايبك فلما غرب للقسطنطينية تركه بالقاهرة واشتراه المنصور قلاون من القاضي بحكم البيع على الغائب بألف درهم ، وكان يعرف بلاشين الصغير لانه كان هناك لاشين آخر أكبر منه ، وكان نائباً بحمص.

ولما قتل اجتمع الامراء، وفيهم ركن الدين بيبرس الجاشنكير وسيف الدين سلار استاذ دار وحسام الدين لاشين الرومي ، وقد وصل على البريد من بلاد سيس جمال الدين أقوش الافرم وقد عاد من دمشق بعد أن أخرج النائب والعساكر الى حمص وعز الدين ايبك الخزندار وبدر الدين السلحدار فضبطوا القلعة . وبعثوا الى

الناصر محمد بن قلاون بالكرك يستدعونه للملك فاعتزم طقجي على الجلوس على التخت ، واتفق وصول الامراء الذين كانوا بحلب منصرفين من غزاة سيس ، وفيهم سيف الدين كرجي وشمس الدين سرقنشاه ، ومقدّمهم بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح فأشار الامراء على طقجي بالركوب للقائهم فأنف أوّلا ، ثم ركب ولقيهم وسألوه عن السلطان فقال قتل فقتلوه .

وكان كرجي عند القلعة فركب هارباً وأدرك عند القرافة وقتل ، ودخل بكتاش والامراء القلعة لحول من غزاة سيس . ثم اجتمعوا بمصر وكان الامر دائراً بين سلار وبيبرس وايبك الجامدار وأقوش الافرم وبكتمر أمير جندار وكرت الحاجب وهم ينتظرون وصول الناصر من الكرك ، وكتبوا الى الامراء بدمشق بما فعلوه فوافقوا عليه ، ثم قبضوا على نائبها جاغان الحسامي . وتولى ذلك بهاء الدين قرا ارسلان السيفي فاعتقل ومات لأيام قلائل فبعث الامراء بمصر مكانه سيف الدين قطلو بك المنصوري.

ثم وصل الناصر محمد بن قلاون الى مصر في جمادى سنة ثمان وتسعين فبايعوا له وولى سلار نائباً وبيبرس استاذ دار وبكتمر الجوكندار أمير جندار وشمس الدين الأعسر وزيراً ، وعزل فخر الدين بن الخليلي بعد ان كان أقرّه ، وبعث على دمشق جمال الدين أقوش الأفرم عوضاً عن سيف الدين قطلو بك ، واستدعاه الى مصر فولاه حاجباً وبعث على طرابلس سيف الدين كرت

وعلى الحصون سيف الدين كراي ، وأقرّ بليان الطباخي على حلب ، وأفرج عن قراسنقر المنصوري وبعثه على الضبينة ، ثم نقله الى حماة عندما وصله وفاة صاحبها المظفر آخر السنة ، وخلع على الامراء وبث العطايا والارزاق . واستقرّ في ملكه وبيبرس وسلار مستوليان عليه ، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده .

الفتنة مع التتر

قد كنا قدّمنا ما كان من فرار قفجق نائب دمشق الى غازان وحدوث الوحشة بين المملكتين فشرع غازان في تجهيز العساكر الى الشام ، وبعث شلامش بن امال بن بكو في خمسة وعشرين ألفاً في عساكر المغل ، ومعه أخوه قطقطو وأمره بالمسير من جهة سيس فسار لذلك . ثم حدّثته نفسه بالملك فخاضع وطلب الملك لنفسه ، وكاتب ابن قزمان أمير التركمان فسار اليه في عشرة آلاف فارس . وسار في ستين ألف فارس وسار الى سيواس فامتنعت عليه ، وكتب الى صاحب مصر مع مخلص الرومي يستنجده فبعث الى نائب دمشق بإنجاده ، وبلغ الخبر غازان فبعث لقتاله مولاي من أمراء التتر في خمسة وثلاثين ألف فارس ، ولحقه الى سيواس فانتقض عليه العسكر ورجع التتر الى مولاي . ولحق التركمان بالجبال ، ولحق هو بسيس في فلّ من العسكر ، وسار الى دمشق

ثم الى مصر ، وسأل من السلطان لاشين أن يمدّه بعسكر ينقل به عياله الى الشام فأمر السلطان نائب حلب ان ينجده على ذلك فبعث معه عسكراً عليهم بكتمر الحلبي ، وساروا الى سيواس فاعترضهم التتر وهزموهم وقتل الحلبي ، ونجا شلامش الى بعض القلاع فاستنزله غازان وقتله ، واستقرّ أخوه قطقطو ومخلص بمصر ، وأقطع لهما وانتظما في عسكر مصر ، والله تعالى أعلم .

واقعة التتر مع الناصر واستيلاء غازان على الشام ثم ارتجاعه منه

قد كنا قدّمنا ما حدث من الوحشة بين التتر وبين الترك بمصر ، وقدّمنا من اسبابها ما قدمناه . فلمّا بويع الناصر بلغه ان غازان زاحف الى الشام فتجهّز وقدّم العساكر مع قطلبك الكبير وسيف الدين غزار . وسار على اثرهم آخر سنة ثمان وسبعين وانتهى الى غزة فنمي اليه ان بعض المماليك مجمعون للتوثب عليه ، وان الاربدانية الذين وفدوا من التتر على كتبغا داخلوهم في ذلك . وبينما هو يستكشف الخبر اذ بمملوك من اولئك قد شهر سيفه واخترق صفوف العساكر وهم مصطفون بظاهر غزة فقتل لحينه ، وتتبع أمرهم من هذه البادرة حتى ظهرت جليتها فسبق الاربدانية ومقدمهم طرنطاي ، وقتل بعض المماليك وحبس الباقين بالكرك.

ورحل السلطان الى عسقلان ثم الى دمشق . ثم سار ولقي غازان ما بين سلمية وحمص بمجمع المروج ومعه الكرج والارمن ،

وفي مقدمته امراء الترك الذين هربوا من الشام وهم قفجق المنصوري وبكتمر السلحدار وفارس الدين ألبكي وسيف الدين غزار، فكانت الجولة منتصف ربيع فانهزمت ميمنة التتر وثبت غازان. ثم حمل على القلب فانهزم الناصر، واستشهد كثير من الامراء، وفقد حسام الدين قاضي الحنفية وعماد الدين اسمعيل ابن الامير، وسار غازان الى حمص فاستولى على الذخائر السلطانية.

وطار الخبر الى دمشق فاضطربت العامة وثار الغوغاء، وخرج المشيخة الى غازان يقدمهم بدر الدين بن جماعة وتقي الدين بن تيمية وجلال الدين القزويني. وبقي البلد فوضى وخاطب المشيخة غازان في الامان فقال قد خالفكم الى بلدكم كتاب الامان. ووصل جماعة من امرائه فيهم اسمعيل بن الامير والشريف الرضي وقرأ كتاب الامان ويسمونه بلغاتهم الفرمان. وترجل الامراء بالبساتين خارج البلد وامتنع علم الدين سلحدار بالقلعة فبعث اليه اسمعيل يستنزله بالامان فامتنع فبعث اليه المشيخة من اهل دمشق فزاد امتناعاً ودسّ اليه الناصر بالتحفظ. وان المدد على غزة ووصل قفجق بكتمر فنزلوا الميدان، وبعثوا الى سنجر صاحب القلعة في الطاعة فأساء جوابهم وقال لهم: ان السلطان وصل وهزم عساكر التتر التي اتبعته.

ودخل قفجق الى دمشق فقرأ عهد غازان له بولاية دمشق والشام جميعاً، وجعل اليه ولاية القضاء وخطب لغازان في الجامع،

وانطلقت ايدي العساكر في البلد بأنواع جميع العيث ، وكذا في الصالحية والقرى التي بها والمزة وداريا. وركب ابن تيمية الى شيخ الشيوخ نظام الدين محمود الشيباني. وكان نزل بالعادلية فأركبه معه الى الصالحية وطردوا منها اهل العيث ، وركب المشيخة الى غازان شاكين فنعوا من لقائه حذراً من سطوته بالتتر فيقع الخلاف ويقع وبال ذلك على اهل البلد. فرجعوا الى الوزير سعد الدين ورشد الدين فأطلقوا لهم الاسرى والسبي.

وشاع في الناس ان غازان اذن للمغل في البلد وما فيه ففزع الناس الى شيخ الشيوخ وفرضوا على انفسهم اربعمائة ألف درهم مصانعة له على ذلك واكرهوا على غرمها بالضرب والحبس حتى كملت. ونزل التتر بالمدرسة العادلية فأحرقها ارجواش نائب القلعة ونصب المنجنيق على القلعة بسطح جامع بني امية فاحرقوه فأعيد عمله. وكان المغل يحرسونه فانتهكوا حرمة المسجد بكل محرم من غير استثناء ، وهجم اهل القلعة فقتلوا النجار الذي كان يصنع المنجنيق وهدم نائب القلعة ارجواش ما كان حولها من المساكن والمدارس والابنية ودار السعادة ، وطلبوا ما لا يقدرون عليه ، وامتهن القضاة والخطباء وعطلت الجماعات والجمعة ، وفحش القتل والسبي ، وهدمت دار الحديث وكثير من المدارس.

ثم قفل الى بلده بعد ان ولي على دمشق والشام قفجق ، وعلى حماة وحمص بكتمر السلحدار ، وعلى صفد وطرابلس والساحل

فـارس الدين ألبكي ، وخلف نائبه قطلوشاه في ستين ألفاً حامية للشام واستصحب وزيره بدر الدين بن فضل الله وشرف الدين ابن الامير وعلاء الدين بن القلانسي . وحاصر قطلوشاه القلعة فامتنعت عليه فاعتزم على الرحيل ، وجمع له قفجق الاوغاد في جمادى من السنة ، وبقي قفجق منفرداً بأمره فأمن الناس بعض الشيء ، وأمر مماليكه ورجعت عساكر التتر من اتباع الترك بعد ان وصلوا الى القدس وغزة والرملة واستباحوا ونهبوا ، وقائدهم يومئذ مولاي من امراء التتر فخرج اليـه ابن تيمية واستوهبه بعض الاسرى فأطلقهم .

وكان الملك الناصر لما وصل الى القلعة ووصل معه كتبغا العادل ، وكان حضر معه المعركة من محل نيابته بصرخد . فلما وقعت الهزيمة سار مع السلطان الى مصر وبقي في خدمة النائب سلار ، وجرد السلطان العساكر وبث النفقات وسار الى الصالحية وبلغه رحيل غازان من الشام . ووصل اليه بليان الطباخي نائب حلب على طريق طرابلس ، وجمال الدين الافرم نائب دمشق وسيف الدين كراي نائب طرابلس . واتفق السلطان في عساكرهم ، وبلغه ان قطلوشاه نائب غازان رحل من الشام عـلى اثر غازان فتقدم بيبرس وسار في العساكر ، ووقعت المراسلة بينه وبين قفجق وبكتمر والبكى فاذعنوا للطاعة ، ووصلوا الى بيبرس وسلار فبعثوا بهم الى السلطان وهو في الصالحية في شعبان من السنة

فركب للقائهم وبالغ في تكرمتهم والاقطاع لهم. وولى قفجق على الشوبك، ورحل عائداً الى مصر. ودخل بيبرس وسلار الى مصر وقرروا في ولايتها جمال الدين اقوش الافرم بدمشق، وفي نيابة حلب قراسنقر المنصوري الجوكندار لاستعفاء بليان الطباخي عنها وفي طرابلس سيف الدين قطلبك، وفي حماة كتبغا العادل، وفي قضاء دمشق بدر الدين بن جماعة لوفاة امـام الدين بن سعد الدين القزويني. وعاد بيبرس وسلار الى مصر منتصف شوال، وعاقب الافرم كل من استخدم للتتر من اهل دمشق. وأغزى عساكره جبل كسروان والدرزية لما نالوا من العسكر عند الهزيمة، وألزم اهـل دمشق بالرماية وحمل السلاح. وفرضت على اهل دمشق ومصر الاموال عن بعث الخيالة والمساكن لاربعة أشهر وضمـان للقرى وكثر الارجـاف سنة سبعمائة بحركة التتر فتوجه السلطان الى الشام بعد ان فرض على الرعية أموالا، واستخرجها لتقوية عساكره. وأقام بظاهر غزة أياماً يؤلف فيهـا الامصار. ثم بعث ألفي فارس الى دمشق، وعاد الى مصر منسلخ ربيع الآخر. وجاء غازان بعساكره وأجفلت الرعايا امامه حتى ضاقت بهم السبل والجهات فنزل ما بين حلب ومرس ونازلها، واكتسح البلاد الى انطاكية وجبل السمر، وأصابهم هجوم البرد وكثرة الامطار والوحل، وانقطعت الميرة عنهم، وعـدمت الاقوات وصوعت المراعي من كثرة الثلج، وارتحلوا الى بلادهم. وكان السلطان

قد جهز العساكر كما قلنا الى الشام صحبة بكتمر السلحدار نائب صفد، وولى مكانه سيف الدين فنحاص المنصوري. ثم وقعت المراسلة بين السلطان الناصر وبين غازان وجاءت كتبه، وبعث الناصر كتبه ورسله وولى السلطان على حمص فارس الدين البكي، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة الخليفة الحاكم وولاية ابنه المستكفي والغزاة الى العرب بالصعيد

ثم توفي الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد، وهو الذي ولاه الظاهر وبايع له سنة ستين فتوفي سنة احدى وسبعمائة لاحدى واربعين سنة من خلافته، وقد عهد لابنه أبي الربيع سليمان فبايع له الناصر ولقبه المستكفي، وارتفعت شكوى الرعايا في الصعيد من الاعراب، وكثر عيثهم فجهز اليهم السلطان العساكر مع شمس الدين قراسنقر فاكتسحهم. وراجعوا الطاعة وقرر عليهم مالاً حملوه ألف ألف وخمسمائة ألف درهم، وألف فرس واحداً وألفي جمل اثنين، وعشرة آلاف رأس من الغنم. وأظهروا الاستكانة، ثم اظهروا النفاق فسار اليهم كافل المملكة سلار وبيبرس في العساكر فاستلحموهم وأبادوهم، وأصابوا اموالهم ونعمهم ورجعوا. واستأذن بيبرس في قضاء فرضه فخرج حاجاً وكان ابو نمى امير مكة قد توفي، وقام بأمره في مكة ابناه رميثة وخميصة، واعتقلا اخويهما عطيفة

وابا الغيث فنقبا السجن وجاءا الى بيبرس مستعدين على اخويهما فقبض عليهما بيبرس، وجاء بهما الى القاهرة. وفي سنة ستين وسبعمائة بعدها خرجت الشواني مشحونة بالمقاتلة الى جزيرة ارواد في بحر طرطوس، وبها جماعة من الافرنج قد حصنوها وسكنوها فملكوها واسروا أهلها وخربوها واذهبوا آثارها والله تعالى ولي التوفيق.

تقرير العهد لأهل الذمة

حضر في سنة سبعمائة وزير من المغرب في غرض الرسالة فرأى حال أهل الذمة وترفهم وتصرفهم في أهل الدولة فنكره وقبح ذلك، واتصل بالسلطان نكيره فأمر بجمع الفقهاء للنظر في الحدود التي تقف عندها اهل الذمة بمقتضى عهود المسلمين لهم عند الفتح وأجمع الملأ فيهم على ما نذكر وهو ان يميز بين اهل الذمة بشمار يخصهم: فالنصارى بالعمائم السود، واليهود بالصفر، والنساء منهن بعلامات تناسبهن. وان لا يركبوا فرساً ولا يحملوا سلاحاً، واذا ركبوا الحمير يركبونها عرضاً ويتنحون وسط الطريق، ولا يرفعوا اصواتهم فوق صوت المسلمين، ولا يعلو بناءهم على بناء المسلمين، ولا يظهروا شعائرهم ولا يضربوا بالنواقيس، ولا ينصروا مسلماً ولا يهوّدوه، ولا يشتروا من الرقيق مسلماً ولا من سباة مسلم، ولا من جرت عليه سهام المسلمين. ومن دخل منهم الحمام يجعل في

عنقه جرساً يتميز به. ولا ينقشوا فص الخاتم بالعربي ، ولا يعلموا أولادهم القرآن ولا يخدموا في اعمالهم الشاقة مسلماً. ولا يرفعوا النيران. ومن زنى منهم بمسلمة قتل. وقال البطرك ، بحضرة العدول حرمت على أهل ملتي وأصحابي مخالفة ذلك والعدول عنه. وقال رئيس اليهود : أوقعت الكلمة على أهل ملتي وطائفتي وكتب بذلك الى الاعمال.

ولنذكر في هذا الموضع نسخة كتاب عمر بالعهد لاهل الذمة بعد كتاب نصارى الشام ومصر ونصه : هكذا كتاب لعبدالله عمر أمير المؤمنين من نصارى أهل الشام ومصر ، لما قدمتم علينا سألناكم الامان لانفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا على أنفسنا ان لا نحدث في مدائننا ولا فيا حولها ديراً ولا كنيسة ولا علية ولا صومعة راهب ، ولا نجدّد ما خرب منها ولا ما كان في خطط. وان نوسع أبوابنا للمارة ولبني السبيل ، وان ننزل من مرّ بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ، ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ، ولانكتم عيباً للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شرعنا ولا ندعو اليه أحداً ولا نمنع أحداً من ذي قرابتنا الدخول في دين الاسلام ان أرادوه. وان نوقر المسلمين ونقوم لهم في مجالسنا اذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ، ولا نتسمى بأسمائهم ولا نتكنى بكناهم ، ولا نركب السروج ولا

نتقلد بالسيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية. وان نجز مقدم رؤسنا، ونكرم نزيلنا حيث كنا، وان نشد الزنانير على أوساطنا ولا نظهر صلبانا، ولا نفتح كنفنا في طريق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب بنواقيسا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانيننا ولا طواغيننا. ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نوقد النيران في طرق المسلمين ولا اسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا ولانتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين، ولا نطلع في منازلهم ولا نعلي منازلنا.

فلما أتي عمر بالكتاب زاد فيه. ولا نضرب أحداً من المسلمين شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الامان، فان نحن خالفنا في شيء مما شرطنا لكم علينا وضمناه على أنفسنا وأهل ملتنا فلا ذمّة لنا عليكم، وقد حلّ بنا ما حلّ بغيرنا من أهل المعاندة والشقاق. فكتب عمر رضى الله عنه أمض ما سألوه، وألحق فيه حرفاً اشترطه عليهم مع ما اشترطوه، من ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده. وعلى أحكام هذا الكتاب جرت فتاوى الفقهاء في أهل الذمّة نصاً وقياساً. وأما كنائسهم فقال أبو هريرة أمر عمر بهدم كل كنيسة استحدثت بعد الهجرة، ولم يبق الا ما كان قبل الاسلام. وسير عروة بن محمد فهدم الكنائس بصنعاء، وصالح القبط على كنائسهم وهدم بعضها، ولم يبق من الكنائس

الا ما كان قبل الهجرة . وفي اباحة رمّها واصلاحها لهم خلاف معروف بين الفقهاء ، والله تعالى وليّ التوفيق .

ايقاع الناصر بالتتر على شقحب

ثم تواترت الاخبار سنه اثنتين وسبعمائة بحركة التتر ؛ وأنّ قطلو شاه وصل الى جهة الفرات ، وأنه قدم كتابه الى نائب حلب بأنّ بلادهم مَحِلَةٌ ، وأنهم يرتادون المراعي بنواحي الفرات فخادع بذلك عن قصده ويوهم الرعية أن يجفلوا من البسائط . ثم وصلت الاخبار باجازتهم الفرات فأجفل الناس امامهم كل ناحية ، ونزل التتر مرعش . وبث العساكر من مصر مدداً لاهل الشام فوصلوا الى دمشق ، وبلغهم هنالك ان السلطان قازان وصل في جيوش التتر الى مدينة الرحبة ونازلها فقدم نائبها قرى وعلوفة واعتذر له بأنه في طاعته الى ان يرد الشام ، فان ظفر به فالرحبة أهون شيء وأعطاه ولده رهينة على ذلك فأمسك عنه ، ولم يلبث ان عبر الفرات راجعاً الى بلاده .

وكتب الي أهل الشام كتاباً مطوّلا ينذرهم فيه أنْ يستمدّوا عسكر السلطان او يستجيشوه ويخادعهم بلين القول وملاطفته ، وتقدّم قطلو شاه وجوبان الى الشام بعساكر التتر يقال في تسعين ألفاً او يزيدون . وبلغ الخبر الى السلطان فقدم العساكر من مصر وتقدّم بيبرس كافل المملكة الى الشام ، والسلطان وسلار على

أثره ومعهم الخليفة أبو الربيع . وساروا في التعبية . ودخل بيبرس دمشق ، وكان النائب بحلب قراسنقر المنصوري ، وقد اجتمع اليه كتبغا العادل نائب حماة وأسد الدين كرجي نائب طرابلس بمن معهم من العساكر فأغار التتر على القريتين ، وبها أحياء من التركمان كانوا أجفلوا أمامهم من الفرات فاستاقوا أحياءهم بما فيها وأتبعهم العساكر من حلب فأوقعوا بهم واستخلصوا أحياء التركمان من ايديهم .

وزحف قطلوشاه وجوبان بجموعهما الى دمشق يظنان ان السلطان لم يخرج من مصر ، والعساكر والمسلمون مقيمون بمرج الصفر وهو المسمى بشقحب مع ركن الدين بيبرس ، ونائب دمشق أقوش الافرم ينتظرون وصول السلطان فارتابوا لزحف التتر وتأخروا عن مراكزهم قليلاً ، وارتاعت الرعايا من تأخرهم فأجفلوا الى نواحي مصر . وبينما هم كذلك اذ وصل السلطان في عساكره وجموعه غرّة رمضان من السنة فرتب مصافه وخرج لقصدهم فالتقى الجمعان بمرج الصفر ، وحمل التتر على ميمنة السلطان فثبت الله اقدامهم وصابروهم الى أن غشيهم الليل ، واستشهد جماعة في الجولة .

ثم انهزم التتر ولجأوا الى الجبل يعتصمون به ، واتبعهم السلطان فأحاط بالجبل الى أن أظلّ الصباح . وشعر المسلمون باستماتتهم فأفرجوا لهم من بعض الجوانب ، وتسلل معظمهم مع قطلو شاه

وجوبان، وحملت العساكر الشامية على من بقي منهم فاستلحموهم وأبادوهم . وأتبعت الخيول آثار المنهزمين ، وقد اعترضتهم الاوحال بما كان السلطان قدّم الى أهل الانهار بين أيديهم فبثقوها ، ووحلت خيولهم فيها فاستوعبوهم قتلًا وأسراً . وكتب السلطان الى قازان بما يجدّد عليه الحسرة ويملأ قلبه رعباً ، وبعث البشائر الى مصر .

ثم دخل الى دمشق وأقام بها عيد الفطر ، وخرج لثالثه منها الى مصر فدخلها آخر شوّال في موكب حفل ومشهد عظيم ، وقرّ الاسلام بنصره ، وتيمن بنقيب نوّابه ، وأنشده الشعراء في ذلك . وفي هذه السنة توفي كتبغا العادل نائب حماة ، وهو الذي كان ولي الملك بمصر كما تقدّم ذكره فدفن بدمشق . وتوفي أيضاً بايان الجوكندار نائب حمص . وتوفي ايضاً القاضي تقي الدين بن دقيق العيد بمصر لولايته ست سنين بها ، وولي مكانه بدر الدين ابن جماعة . وهلك قازان ملك التتر ، يقال أصابته حمى حادّة للهزيمة التي بلغته فهلك وولي أخوه خربندا . وفيها أفرج السلطان عن رميثه وحميضة ولدي الشريف أبي نمى ، وولاهما بدلا من أخويهما عطيفة وأبي الغيث ، والله تعالى أعلم .

أخبار الأرمن

اخبار الأرمن وغزو بلادهم وادعاؤهم الصلح ثم مقتل ملكهم صاحب سيس على يد التتر

قد كان تقدّم لنا ذكر هؤلاء الارمن ، وانهم واخوتهم الكرج من ولد قويل بن ناحور بن آزر ، وناحور أخو ابراهيم عليه السلام . وكانوا أخذوا بدين النصرانية قبل الملة وكانت مواطنهم ارمينية ، وهي منسوبة اليهم . وقاعدتها خلاط وهي كرسي ملكهم ويسمى ملكهم النكفور . ثم ملك المسلمون بلادهم وضربوا الجزية على من بقي منهم ، واختلف عليهم الولاة ونزلت بهم الفتن ، وخربت خلاط فانتقل ملكهم الى سيس عند الدروب المجاورة لحلب ، وانزووا اليها وكانوا يؤدّون الضريبة للمسلمين . وكان ملكهم لعهد نور الدين العادل قليج بن اليون ، وهو صاحب ملك الدروب ، واستخدم للعادل وأقطع له ، وملك المصيصة واردن وطرسوس من يد الروم . وأبقاه صلاح الدين بعد العادل نور الدين على ما كان عليه من الخدمة .

وغدر في بعض السنين بالتركمان فغزاهم صلاح الدين ، وأثخن

عليهم حتى أذعنوا ورجع الى حاله من أداء الجزية والطاعة وحسن الجوار بثغور حلب . ثم ملكها لعهد الظاهر هيثوم بن قسطنطين ابن يانس ، ويظهر أنه من أعقاب قليج أو من اهل بيته . ولما ملك هلاكو العراق والشام دخل هيثوم في طاعته وأقرّه على سلطانه ، وأجلب مع التتر في غزواتهم على الشام . وغزا سنة اثنتين وستين صاحب بلاد الروم من التتر ، واستنفر معه بني كلاب من اعراب حلب . وعاثوا في نواحي عنتاب . ثم ترهب هيثوم بن قسطنطين ونصب ابنه ليون للملك .

وبعث الظاهر العساكر سنه اربع وستين ، ومعه قلاون المنصور صاحب حماة الى بلادهم فلقيهم ليون في جموعه قبل الدربند فانهزم وأسر ، وخرب العساكر مدينة سيس . وبذل هيثوم الاموال والقلاع في فداء ابنه ليون فشرط عليه الظاهر أن يستوهب سنقر الأشقر وأصحابه من أبغا بن هلاكو . وكان هلاكو أخذهم من سجن حلب فاستوهبهم وبعث بهم ، وأعطى خمساً من القلاع منها : رغبان ومرزبان لما توفي هيثوم سنة تسع وستين . وملك بعده ابنه ليون وبقي الملك في عقبه . وكان بينهم وبين الترك نفرة واستقامة لقرب جوارهم من حلب . والترك يردّدون العساكر الي بلادهم حتى أجابوا بالصلح على الطاعة والجزية ، وشحنة التتر مقيم عندهم بالعساكر من قبل شحنة بلاد الروم .

ولما توفي ليون ملك بعده ابنه هيثوم ، ووثب عليه أخوه سنباط فخلعه وحبسه بعد أن سمل عينه الواحدة ، وقتل أخاهما الاصغر يروس . ونازلت عساكر الترك لعهده قلعة حموض من قبل العادل كتبغا فاستضعف الارمن سنباط وهموا به فلحق بالقسطنطينية وقدّموا عليهم أخاه رندين فصالح المسلمين وأعطاهم مرعش ، وجميع القلاع على جيحان ، وجعلوها تخماً ، ورجعت العساكر عنهم . ثم افرج رندين عن أخيه هيثوم الاعور سنة تسع وستين فأقام معه قليلاً . ثم وثب برندين ففرّ الى القسطنطينية . وأقام هيثوم بسيس في ملك الارمن ، وقدم ابن أخيه تروس معسول أتابكاً ، واستقامت دولته فيهم .

وسار مع قازان في وقعته مع الملك الناصر فعاث الارمن في البلاد ، واستردّوا بعض قلاعهم ، وخربوا تل حمدون . فلما هزم الناصر التتر سنة اثنتين وسبعمائة بعث العساكر الى بلادهم فاسترجعوا القلاع وملكوا حمص واكتسحوا بسائط سيس وما اليها ، ومنع الضريبة المقرّرة عليهم فأنفذ نائب حلب قراسنقر المنصوري سنة سبع وستمائة العساكر اليهم مع أربعة من الامراء فعاثوا في بلادهم . واعترضهم شحنة التتر بسيس فهزموهم وقتل أميرهم وأسر الباقون . وجهز العساكر من مصر مع بكتاش الفخري أمير سلاح من بقية البحرية ، وانتهوا الى غزة ، وخشي هيثوم مغبة هذه الحادثة فبعث الى نائب حلب بالجزية التي عليهم

لسنة خمس وقبلها . وتوسل بشفاعته الى السلطان فشفعه وأمنه ، وكان شحنة التتر ببلاد الروم لهذا العهد أرفلي ، وكان قد أسلم لما اسلم أبغا ، وبنى مدرسة بأذنه وشيد فيها مئذنة .

ثم حدث بينه وبين هيثوم صاحب سيس وحشة فسعى فيه هيثوم عند خربندا ملك التتر بأنه مداخل لاهل الشام ، وقد واطأهم على ملك سيس وما اليها وشهد له بالمدرسة والمئذنة وكتب بذلك الى ارفلي بعض قرابته فأسرّها في نفسه ، واغتاله في صنيع دعاه اليه . وقبض على وافد من مماليك الترك كان عند هيثوم من قبل نائب حلب يطلب الجزية المقرّرة عليه ، وهو ايدغدي الشهرزوري . ولم يزل في سجن التتر الى أن فرّ من محبسه بتوريز سنة عشر وسبعمائة . ونصب لملك سيس أوشني بن ليون ، وسار ارفلي الى خربندا فسابقه ألتاق أخو هيثوم بنسائه وولده مستعدين عليه فتفجع لهم خربندا وسط ارفلي وقتله وأقرّ أوشين أخاه في ملكه لسيس ، فبادر الى مراسلة الناصر بمصر ، وتقرير الجزية عليه كما كانت وما زال يبعثها مع الاحيان ، والله تعالى اعلم .

مراسلة ملك المغرب ومهاداته

كان ملك المغرب الاقصى من بني مرين المتولين امره من بعد الموحدين ، وهو يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق قد بعث الى السلطان الناصر سنة أربع وسبعمائة رسوله علاء الدين ايدغدي

الشهرزوري من الشهرزورية المقرّبين هنالك أيام الظاهر بيبرس، ومعه هدية حافلة من الخيل والبغال والابل وكثير من ماعون المغرب وسائر طرفه، وجملة من الذهب العين في ركب عظيم من المغاربة ذاهبين لقضاء فرضهم. فقابلهم السلطان بأبلغ وجوه التكرمة، وبعث معهم اميراً لاكرامهم وقراهم في طريقهم حتى قضوا فرضهم، وعاد الرسول ايدغدي المذكور من حجه سنة خمس فبعث السلطان معه مكافأة هديتهم بما يليق بها من النفاسة وعين لذلك أميرين من بابه: ايدغدي البابلي وايدغدي الخوارزمي كل منهما لقبه علاء الدين فانتهوا الى يوسف بن يعقوب بمكانه من حصار تلمسان كما هو في ربيع الآخر سنة ست فقابلهم بما يجب لهم ولمرسلهم، واوسع لهم في الكرامة والحباء، وبعثهم الى ممالكه بفاس ومراكش ليتطوّفا بها ويعاينا مسرتها.

وهلك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصار تلمسان، وانطلق الرسولان المذكوران من فاس راجعين من رسالتهما في رجب سنة سبع في ركب عظيم من أهل المغرب اجتمعوا عليهم لقصد الحج، ولقوا السلطان ابا ثابت الجزولي من بعد يوسف بن يعقوب في طريقهم فبالغ في التكرمة والاحسان اليهم. وبعث الى مرسلهم الملك الناصر بهدية اخرى من الخيل والبغال والابل. ثم مرّوا بتلمسان، وبها ابو زيّان وابو حمو ابنا عثمان بن يغمراسن فلم يصرفا اليهما وجهاً من القبول، وطلبا منهما خفيراً يخفرهما الى تخوم

بلادهما لما كانت نواحي تلمسان قد اضطربت بعد مهلك يوسف بن يعقوب ، وما كان من شأنه فبعث معهما بعض العرب فلم يغن عنهم، واعترضهم في طريقهم أشرار حصن من زغبة بنواحي المرية فبالغوا في الدفاع فلم يغن عنهم .

واستولى الاشرار على الركب بما فيه ، ونهبوا جميع الحجاج ورسل الملك الناصر معهم . وخلصوا برؤوسهم الى الشيخ بكر ابن زغلي شيخ بني يزيد بن زغبة بوطن حمزة بنواحي بجاية ، فأوصلهم الى السلطان ببجاية ابي البقاء خالد من ولد الأمير ابي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن ابي حفص من ملوك افريقية فكساهم وحملهم الى حضرة تونس ، وبها السلطان ابو عصيدة محمد بن يحيى الواثق من بني عمه فبالغ في تكرمتهم . وسافر معهم ابراهيم بن عيسى من بني وسنار أحد امراء بني مرين كان اميراً على الغزاة بالاندلس ، وخرج لقضاء فرضه فمرّ بتونس واستنهضه سلطانها على الافرنج بجزيرة جربة ، فسار اليها بقومه ومعه عبد الحق بن عمر ابن رحو من اعيان بني مرين . وكان الشيخ ابو يحيى زكريا ابن احمد اللحياني يحاصرها في عسكر تونس فأقام معهم مدّة . ثم استوحش ابو يحيى اللحياني من سلطانه بتونس فلحق بطرابلس وساروا جميعاً الى مصر ، وتقدّم السلطان باكرامهم حتى قضوا فرضهم وعادوا الى المغرب . واستمدّ ابو يحيى اللحياني السلطان

الناصر فأمدّه بالاموال والمماليك، وكان سبباً لاستيلائه على الملك بتونس كما نذكره في اخباره ان شاء الله تعالى .

وحشة الناصر من كافليه بيبرس وسلار ولحاقه بالكرك وخلعه والبيعة لبيبرس

ثم عرضت وحشة بين السلطان النـاصر وبين كافليه بيبرس وسلار سنة سبع فامتنع من العلامة على المراسم، وتردّدت بينه وبينهم السعاة بالعتاب، وركب بعض الأمراء في ساحة القلعة من جوف الليـل ودفعتهم الحاميـة وافترقوا . وامتعض السلطان لذلك وازداد وحشة. ثم سعى بكتمر الجوكندار في اصلاح الحال، وحمل السلطان على تغريب بعض الخواص من مماليكه الى القدس. وكان بيبرس ينسب اليهم هذه الفتنة ونشأتها من أجلهم ففرّ بهم السلطان وأعتب الاميرين . ثم اعيد الموالي من القـدس الى محلهم من خدمتهم، واتهم السلطان الجوكندار في سعايته فسخطه وأبعده وبعثه نائباً عن صفد.

ثم غصّ بما هو فيه من الحجر والاستبداد، وطلب الحج فهجره بيبرس وسلار، وسار على الكرك سنة ثمان. وودعه الأمراء واستصحب بعضاً منهم. فلمـا مرّ بالكرك دخل القلعة، وأخرج النائب جمال الدين أقوش الاشرف الى مصر، وبعث عن أهله وولده كانوا مع المحمل الحجازي فعـادوا اليه من العقبة وصرف الامراء

الذين توجهوا معه، وأظهر الانقطاع بالكرك للعبادة، وأذن لهم في اقامة من يصلح لامرهم فاجتمعوا بدار النيابة، وتشاوروا واتفقوا على ان يكون بيبرس سلطاناً عليهم، وسلار على نيابته. وبايعوا بيبرس في شوّال سنة ثمان، ولقبوه المظفر. وقلده الخليفة ابو الربيع، وكتب للناصر بنيابة الكرك، وعينت له اقطاع يختص بها. وقام سيف الدين سلار بالنيابة على عادة من قبله، وأقرّ اهل الوظائف والرتب على مراتبهم. وبعث أهل الشام بطاعتهم واستقر بيبرس في سلطانه، والله تعالى أعلم.

انتقاض الامير بيبرس وعود الناصر الى ملكه

ولما دخلت سنة تسع هرب بعض موالي الناصر فلحقوا بالكرك، وقلق الظاهر بيبرس المظفر وبعث في اثرهم فلم يدركوهم، واتهم آخرون فقبض عليهم، ونشأت الوحشة لذلك. واتصلت المكاتبة من الامراء الذين بالشام الى السلطان بالكرك، وخرج من مكانه يريد النهوض اليهم. ثم رجع ووصل كتاب نائب دمشق أقوش الافرم فسكن الحال، وبعث الجاشنكير بيبرس الى السلطان برسالة مع الامير علاء الدين مغلطاي ايدغلي وقطلوبغا تتضمن الارجاف فثارت لها حفائظه، وعاقب الرسولين، وكاتب امراء الشام يتظلم من بيبرس وأصحابه بمصر ويقول: سلمت لهم في الملك ورضيت بالضنك رجاء الراحة فلم يرجعوا عني، وبعثوا اليّ بالوعيد

وانهم فعلوا ما فعلوا بأولاد المعز ايبك وبيبرس الظاهر ومثل ذلك من القول ، ويستنجدهم ويمتّ اليهم بوسائل التربية والعتق في دفاع هؤلاء عنه ، والا لحقت ببلاد التتر .

وبعث بهذه الرسالة مع بعض الجند كان مستخدماً بالكرك من عهد اقوش الاشرفي ، واقام هنالك وكان مولعاً بالصيد فاتصل بالسلطان في مصايده . وبث اليه ذات يوم شكواه فقال : أنا اكون رسولك الى امراء الشام فبعث اليهم بهذه الرسالة فامتعضوا وأجابوه بالطاعة كما يحب منهم . وسار السلطان الى البلقاء ، وأرسل جمال الدين أقوش الافرم نائب دمشق الى مصر فأخبر الجاشنكير بيبرس بالحال ، واستمدّه بالعساكر للدفاع فبعث اليه بأربعة آلاف من العساكر مع كبار الامراء ، وأزاح عللهم وأنفق في سائر العساكر بمصر ، وكثر الارجاف وشغبت العامة ، وتعين مماليك السلطان للخروج الى النواحي استرابة بمكانهم . ووصل الخبر برجوع السلطان من البلقاء الى الكرك لرأي رآه ، واستراب لرجعته سائر أصحابه وحاشيته . وخاف ان يهجمهم عساكر مصر بما كان يشاع عندهم من اعتزام بيبرس على ذلك .

ثم دسّ السلطان الى مماليكه وشيع اليهم فأجابوه ، وأعاد الكتاب الى نواب الشام : مثل شمس الدين اقسنقر نائب حلب ، وسيف الدين نائب حمص فأجابوه بالسمع والطاعة ، وبعث نائب حلب ولده اليه واستنهضوه للوصول فخرج من الكرك في شعبان

سنة تسع ، ولحق به طائفة من امراء دمشق . وبعث النائب أقوش اميرين لحفظ الطرقات فلحقا بالسلطان . وكتب بيبرس الجاشنكير الى نواب الشام بالوقوف مع جمال الدين اقوش نائب دمشق والاجتماع على السلطان الناصر عن دمشق فأعرضوا ولحقوا بالسلطان وسار أقوش الى البقاع والشقيف ، واستأمن الى السلطان فبعث اليه بالامان مع اميرين من اكابر امرائه .

وسار الى دمشق فدخلها وهي خالصة يومئذ لسيف الدين بكتمر أمير جامدار جاءه من صفد وهاجر الى خدمته فتلقاه وجازاه أحسن الجزاء . ثم وصل أقوش الافرم فتلقاه السلطان بالمبرة والتكرمة ، واقره على نيابة دمشق . واضطربت امور الجاشنكير بمصر ، وخرجت طائفة من مماليك السلطان هاربين الى الشام فسرح في اثرهم العساكر فأدركوهم ، ونال الهاربون منهم قتلًا وجراحة ورجعوا ، وثاب العامة والغوغاء وأحاطوا بالقلعة وجاهروا بالخلعان . وقبض على بعضهم وعوقب فلم يزدهم الا عتوًّا وتمالؤًا . وارتاب الجاشنكير لحاله ، واجتمع الناس للحلف ، وحضر الخليفة وجدد عليه وعليهم الحلف ، وبعث نسخة البيعة لتقرأ بالجامع يوم الجمعة فصاح الناس بهم وهموا ان يحصبوهم على المنبر ، فرجع الى النفقة وبذل المال ، واعتزم على المسير الى الشام .

وقدم اكابر الامراء فلحقوا بالسلطان ، وزاد اضطراب بيبرس

وخرج السلطان من دمشق منتصف رمضان، وقدم بين يديه اميرين من امراء غزة فوصلاها، واجتمعت اليه العرب والتركمان وبلغ الخبر الى الجاشنكير فجمع اليه شمس الدين سلار وبدر الدين بكتوت الجوكندار وسيف الدين السلحدار، وفاوضهم في الامر فرأوا ان الخرق قد اتسع، ولم يبق الا البدار بالرغبة الى السلطان أن يقطعه الكرك او حماة او صهيون، ويتسلم السلطان ملكه فاجمعوا على ذلك، وبعثوا بيبرس الدوادار وسيف الدين بهادر بعد ان اشهد الجاشنكير بالخلع، وخرج من القلعة الى اطفيح بمماليكه فلم يستقر بها، وتقدم قاصداً اسوان واحتمل ما شاء من المال والذخيرة، وخيول الاصطبل.

وقام بحفظ القلعة صاحبه سيف الدين سلار، وكاتب السلطان يطالعه بذلك، وخطب للسلطان على المنابر ودعي باسمه على المآذن، وهتف باسمه العامة في الطرقات. وجهز سلار سائر شعار السلطنة ووصلت رسل الجاشنكير الى السلطان بما طلب فأسعفه بصهيون وردهم اليه بالامان والولاية، ووافى السلطان عيد الفطر بالبركة ولقيه هنالك سيف الدين سلار وأعطاه الطاعة. ودخل السلطان الى القلعة، وجلس باقي العيد بالايوان جلوساً فخماً، واستحلف الناس عامة. وساله سلار في الخروج الى اقطاعه فأذن له بعد أن خلع عليه فخرج ثالث شوّال، وأقام ولده بباب السلطان.

ثم بعث السلطان الامراء الى اخميم فانتزعوا من الجاشنكير ما

كان احتمله من المال والذخيرة واوصلوها الى الخزائن ووصل معهم جماعة من مماليكه كانوا أمراء، واختاروا الرجوع الي السلطان. وولى السلطان سيف الدين بكتمر الجوكندار أمير جاندار نائباً بمصر، وقراسنقر المنصور نائباً بدمشق. وبعث نائبها الافرم نائباً بصرخد، وسيف الدين قفجق نائباً بحلب، وسيف الدين بهادر نائباً بطرابلس، وخرجوا جميعاً الى الشام.

وقبض السلطان على جماعة من الامراء ارتاب بهم، وولى على وزارته فخر الدين عمر بن الخليلي عوضاً عن ضياء الدين ابي بكر ثم انصرف بيبرس الجاشنكير متوجهاً الى صهيون وبها بهادر (١) بها الاشجعي موكل به الى حيث قصد، ورجع عنه الامراء الذين كانوا عنده الى السلطان فاستضاف بعضهم الى مماليكه، واعتقل بعضهم. ثم بدا للسلطان في أمره، وبعث الى قراسنقر وبهادر، وهما مقيان بغزة، ولم ينفصلا الى الشام أن يقبضا عليه فقبضا عليه وبعثا به الى القلعة آخر ذي القعدة فاعتقل ومات هنالك، والله تعالى وليّ التوفيق.

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي أخبار البشر ج ٤ ص ٥٨: ثم إن بيبرس المذكور قصد المسير إلى صهيون حسبما كان قد سأله فبرز من أطفيح إلى السويس وسار إلى الصالحية. ثم سار منها حتى وصل إلى موضع بأطراف غزة يسمى العنصر قريب الداروم، وكان قراسنقر متوجهاً إلى دمشق نائباً بها على ما استقر عليه الحال فوصل إليه المرسوم بالقبض على بيبرس الجاشنكير.

خبر سلار ومآل امره

لما انتقل السلطان الناصر الى ملكه بمصر ، وكان لسلار من السعي في أمره وتمكين سلطانه ما ذكرناه ، وكانت له ذمّة عند السلطان يعتني برعيها له . وكانت الشوبك من اقطاعه فرغب الى السلطان في المسير اليها والتخلي فيها فأذن له ، وخلع عليه وزاده في اقطاعه واقطاع مماليكه ، واتبعه مائة من الطواشية باقطاعهم . وسار من مصر الى الشوبك في شوال سنة ثمان وسبعمائة . ثم بعث له داود المقسور بالكرك مضافاً الى الشوبك وباللواء وبخلعة مذهبة ومركب ثقيل ومنطقة مجوهرة واقام هنالك فلما كانت سنة عشر بعدها نمي الى السلطان عن جماعة من الامراء انهم معتزمون على الثورة وفيهم اخو سلار فقبض عليهم جميعاً وعلى شيع سلار وحاشيته الذين بمصر وبعث علم الدين الجوالي لاستقدامه من الكرك تأنيسا له وتسكينا فقدم في ربيع من السنه واعتقل الى ان هلك في معتقله واستصفيت امواله وذخائره بمصر والكرك ، وكانت شيأ لا يعبر عنه من الاموال والفصوص واللالئ والاقمصة والدروع والكراع والابل . ويقال انه كان يغلّ كل يوم من اقطاعه وضياعه ألف دينار . وأما أوّليّته فانه لما خلص من أسر التتر صار مولى لعلاء الدين علي بن المنصور قلاون ، ولما مات صار لابيه قلاون ، ثم لابنه الاشرف ، ثم

لأخيه محمد بن الناصر. وظهر في دولهم كلها، وكان بينـه وبين لاشين مودة فاستخدم له وعظم في دولته متقرباً في المراكب متحرّياً لمحبة السلطان الى أن انقرض أمره. ويقال انه لما احتضر في محبسه قيل له قد رضي عنك السلطان فوثب قائماً ومشى خطوات ثم مات، والله أعلم.

انتقاض النواب بالشام ومسيرهم الى التتر وولاية تنكز على الشام

كان قفجق نائب حلب قد توفي بعد أن ولاه السلطان فنقل مكانه الى حلب (١) الكرجي من حماة سنة عشر فتظلم الناس منه فقبض عليه، ونقل اليها قراسنقر المنصوري من نيابة دمشق، وولى مكانه بدمشق سيف الدين كراي المنصوري سنـة احدى عشرة. ثم سخطه واعتقله، وولى مكانه بدمشق جمال الدين أقوش الاشرفي نقله اليها من الكرك. وتوفي بها محمد (٢) نائب طرابلس فنقل اليها أقوش الافرم من صرخد. ثم قبض على بكتمر الجوكندار نائب مصر وحبسه بالكرك، وجعل مكانه في الثانية

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي أخبار البشر ج ٤ ص ٦٠: واتفق عند ذلك موت سيف الدين قبجق نائب السلطنة بحلب في يوم السبب سلخ جمادى الأولى، فلما وصل خبر موته إلى الأبواب الشريفة أنعم السلطان بنيابة السلطنة بحلب على استدمر موضع سيف الدين قبجق.

(٢) كذا بياض بالأصل، ولم نعثر في المراجع التي لدينا على الاسم الكامل لنائب طرابلس في تلك السنة.

بيبرس الدوادار. ثم ارتاب قراسنقر نائب حلب فهرب الى البرية واجتمع مع مهنا بن عيسى، ويقال انه استأذن السلطان في الحج فأذن له فلما توسط البرية استوعرها فرجع فمنعه الامراء الذين بحلب من دخولها الا باذن السلطان، فرجع الى الفرات وبعث مهنا بن عيسي شافعاً له عند السلطان فقبله وردّه الى نيابة حلب.

ثم بلغ السلطان أن خربندا ملك التتر زاحف الى الشام فجهز العساكر من مصر وتقدم الي عساكر الشام بأن يجتمعوا معهم بحمص فارتاب قراسنقر، وخرج من حلب وعبر الفرات، ثم راجع نفسه واستأمن السلطان على أن يقيم بالفرات فأقطعه السلطان الشوبك يقيم بها فلم يفعل، وبقي بمكان من الفرات مع مهنا بن عيسى. ثم ارتاب جماعة من الامراء فلحقوا به، وفيهم أقوش الافرم نائب طرابلس، وأمضوا عزمهم على اللحاق بخربندا فوصلوا الى ماردين فتلقاهم صاحبها بالكرامة. وحمل اليهم تسعين ألف درهم ورتب لهم الاتاوات. ثم ساروا الى خلاط الى أن جاءهم اذن خربندا فساروا اليه واستحثوه للشام.

وبلغ الخبر الى السلطان فاتهم الامراء الذين في خدمته بالشام بمداخلة قراسنقر وأصحابه فاستدعاهم وعساكرهم، وبعث على حلب سيف الدين [1] مكان قراسنقر، وعلى طرابلس بكتمر

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي أخبار البشر ج ٤ ص ٦٧: وفيها قرر السلطان سيف الدين سودي الجمدار «الأشرفي ثم الناصري» في نيابة السلطنة بحلب المحروسة موضع قراسنقر.

الساقي مكان أقوش. وبعث على العرب فضل بن عيسى مكان أخيه مهنا. ووصل الامراء الى مصر فقبض عليهم جميعاً وعلى أقوش الاشرفي نائب دمشق وولى مكانه تنكز الناصري سنة اثنتي عشرة، وجعل له الولاية على سائر الممالك الاسلامية. وقبض على نائبه بمصر بيبرس الدوادار وحبسه بالكرك وولى مكانه ارغون الدوادار وعسكر بظاهر القلعة. وارتحل بعد عيد الفطر من السنة فلقيه الخبر أثناء طريقه بأن خربندا وصل الى الرَّحَبَة ونازلها، وانصرف عنها راجعاً فانكفأ السلطان الى دمشق، وفرق العساكر بالشام. ثم سار الى الكرك واعتزم على قضاء فرضه تلك السنة وخرج حاجاً من الكرك. ورجع سنة ثلاث عشرة الى الشام، وبعث الى مهنا بن عيسى يستميله وعاد الرسول بامتناعه. ثم لحق سنة ست عشرة بخربندا وأقطعه بالعراق وأقام هنالك فلم يرجع الا بعد مهلك خربندا، والله سبحانه وتعالى أعلم.

رجوع حماة الى بني المظفر شاهنشاه بن ايوب ثم لبني الافضل منهم وانقراض امرهم

قد كان تقدم لنا أن حماة كانت من اقطاع تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، أقطعه اياها عمه صلاح الدين بن أيوب سنة أربع وسبعين وخمسمائة، فلم تزل بيده الى أن توفي سنة سبع وثمانين وخمسمائة، فأقطعها ابنه ناصر الدين محمداً ولقبه المنصور.

وتوفي سنة سبع عشرة وستمائة بعد عمه صلاح الدين والعادل فوليها ابنه قليج ارسلان ، ويلقب الناصر سنة ست وعشرين ، وكان أخوه المظفر ولي عهد أبيه عند الكامل بن العادل فجهزه بالعساكر من دمشق وملكها من يد أخيه ، وأقام بها الى أن هلك سنة ثلاث وأربعين وولى ابنه محمد ويلقب المنصور ، ولم يزل في ولايتها إلى أن سار يوسف بن العزيز ملك الشام من بني أيوب هارباً الى مصر أيام التتر ، فسار معه المنصور صاحب حماة وأخوه الافضل.

ثم خشي من الترك بمصر فرجع الى هلاكو ، واستمر المنصور الى مصر فأقام بها. وملك هلاكو الشام وقتل الناصر وسائر بني أيوب كما مر. ثم سار قطز الى الشام عندما رجع هلاكو عنه عندما شغل عنه بفتنة قومه فارتجعه من ملكة التتر ، وولى على قواعده وأمصاره ، وردّ المنصور الى حماة فلم يزل والياً عليها . وحضر واقعة قلاون على التتر بحمص سنة ثلاثين ، وكان يتردّد الى مصر سائر أيامه ويخرج مع البعوث الى بلاد الارمن وغيرها. ويعسكر مع ملوك مصر متى طلبوه لذلك. ثم توفي سنة ثلاث وثمانين وأقرّ قلاون ابنه المظفر على ما كان أبوه ، وجرى هو معهم على سننه الى أن توفي سنة ثمان وتسعين عندما بويع الناصر محمد ابن قلاون بعد لاشين ، وانقطع عقب المنصور فولى السلطان عليها قراسنقر من امراء الترك ، نقله اليها من الصبينة وأمره باستقرار بني أيوب وسائر الناس على اقطاعاتهم .

ثم كان استيلاء قازان على الشام ، ورجوعه سنة تسع وتسعين ومسير بيبرس وسلار ، وانتزاع الشام من التتر . وكان كتبغا العادل الذي ملك مصر وخلعه لاشين نائباً بصرخد فجلا في هذه الوقائع وتنصح لبيبرس وسلار ، وحضر معهم بدمشق فولوه على حماة . وغزا بالعساكر بلاد الارمن ، وحضر هزيمة التتر مع الناصر سنة اثنتين وسبعمائة فرجع الى حماة فمات بها . وولى السلطان بعده سيف الدين قفجق ، استدعاه اليها من اقطاعه بالشوبك . وكان الافضل علاء الدين أخو المنصور صاحب حماة توفي أيام أخيه المنصور ، وخلف ولداً اسمه اسمعيل ولقبه عماد الدين ، ونشأ في دولتهم عاكفاً على العلم والادب حتى توفر منهما حظه ، وله كتاب في التاريخ مشهور .

ولما رجع السلطان الناصر من الكرك الى كرسيه وسطا بيبرس وسلار ، راجع نظره في الاحسان الى أهل هذا البيت ، واختار منهم عماد الدين اسمعيل هذا ، وولاه على حماة مكان قومه سنة ست عشرة وسبعمائة . وكان عند رجوعه الى ملكه قد ولّى نيابة حلب سيف الدين قفجق وجعل مكانه بحماة ايدمر الكرجي. وتوفي قفجق فنقل ايدمر من حماة الى حلب مكانه ، وولّى اسمعيل على حماة كما قلناه ولقبه المؤيد ، ولم يزل عليها الى أن توفي سنة اثنتين وثلاثين . وولى الناصر ابنه الافضل محمد برغبة أبيه الى السلطان في ذلك . ثم مات الملك الناصر في ذي الحجة سنة

احدى وأربعين ، وقام بعده بالامر مولاه قوص ، ونصب ابنه أبا بكر محمداً فكان أوّل شيء أحدثه عزل الافضل من حماة . وبعث عليها مكانه صقردمول النائب ، وسار الافضل الى دمشق فمات بها سنة اثنتين وأربعين ، وانقرضت إيالة بني أيوب من حماة ، والبقاء لله وحده لا ربّ غيره ولا معبود سواه .

غزو العرب بالصعيد وفتح ملطية وآمد

ثم خرج السلطان سنة ثلاث عشرة فعسكر بالاهرام مورياً بالنزهة ، وقد بلغه ما نزل بالصعيد من عيث العرب وفسادهم في نواحيه وأضرارهم بالسابلة ، فسرح العساكر في كل ناحية منه ، وأخذ الهلاك منهم مأخذه الى أن تغلب عليهم واستباحهم من كل ناحية وشرد بهم من خلفهم . ثم سرّح العساكر سنة أربع عشرة بعدها الى ملطية وهي للارمن وملكها عنوةً . وسار لذلك تنكز نائب دمشق بعساكر الشام وستة من أمراء مصر ونازلوها في محرّم سنة خمس عشرة ، وبها جموع من نصارى الارمن والعربان وقليل من المسلمين تحت الجزية فقاتلوهم حتى ألقوا باليد ، واقتحموها عنوةً واستباحوها وجاؤا بملكها مع الاسرى فأبقاه السلطان وأنعم عليه . ثم نمي عنه انه يكاتب ملوك العراق فحبسه . ثم بعث السلطان العساكر من حلب سنة خمس عشرة الى عرقية من أعمال آمد ففتحوها ، وجاءت العساكر سنة سبع عشرة ثانية

الى آمد ففتحوها واستباحوها وغنموا منها أموالا جمة. والله تعالى ينصر من يشاء من عباده .

الولايات

وفي سنة خمس عشرة سخط السلطان سيف الدين بكتمر نائب طرابلس الذي وليها بعد أقوش الأفرم وأمدّه به، وسيق معتقلًا الى مصر، وولى مكانه سيف الدين كستاي . ثم هلك فولى مكانه شهاب الدين قرطاي نقله اليها من نيابة حمص ، وولى نيابة حمص سيف الدين اقطاي، ثم قبض سنة ثمان عشرة على طغاي الحسامي من الجاشنكيرية، وصرف نائباً الى صفد مكان بكتمر الحاجب ثم سخطه فأحضره معتقلًا وحبسه بالاسكندرية. وبعث على صفد سيف الدين أقطاي، نقله اليها من حمص، وبعث على حمص بدر الدين بكتوت القرماني والله تعالى أعلم .

العمائر

ابتدأ السلطان سنة احدى عشرة وسبعمائة ببناء الجامع الجديد بمصر وأكمله، ووقف عليه الاوقاف المغلة. ثم أمر سنة أربع عشرة ببناء القصر الابلق من قصور الملك فجاء من أفخر المصانع

الملوكية. وفي سنة ثمان عشرة أمر بتوسعة جامع القلعة فهدم ما حوله من المساكن، وزيد فيه الى الحدّ الذي هو عليه بهذا العهد. ثم أمر في سنة ثلاث وعشرين بعمارة القصور لمنازله بسرياقوس، وبنى بإزائها الخانقاه الكبيرة المنسوبة اليه. وفي سنة ثلاث وثلاثين أمر بعمارة الايوان الضخم بالقلعة، وجعله مجلس ملكه وبيت كرسيه ودعاه دار العدل. والله تعالى أعلم.

حجات السلطان

وحج الملك الناصر محمد بن قلاون في أيام دولته ثلاث حجات أوّلا: سنة ثلاث عشرة عند ما انقرض قراسنقر نائب حلب، وأقوش الأفرم نائب طرابلس، ومهنا بن عيسى أمير العرب. وجاء خربندا الى الشام ورجع من الرحبة فسار السلطان من مصر الى الشام، وبلغه رجوع خربندا فسار من هناك حاجاً، وقضى فرضه سنة ثلاث عشرة ورجع الى الشام.

ثم حج الثانية سنة تسع عشرة، ركب اليها من مصر في أواخر ذي القعدة، ومعه المؤيد صاحب حماة، والامير محمد ابن أخت علاء الدين ملك الهند صاحب دلي[1] ولما قضى حجه انطلق الامير محمد ابن أخت علاء الدين من هناك الى اليمن،

(١) كذا، وهي دلهي.

ورجع الى مصر فأفرج عن رميثة امير مكة من بني حسن ، وعن المعتقلين بمحبسه ، ووصله ووصلهم .

ثم حج الثالثة سنة اثنتين وثلاثين ، ومعه الافضل بن المؤيد صاحب حماة على عادة أبيه في مراكبة السلطان ، وقفل من حجه سنة ثلاث وثلاثين فأمر بعمل باب الكعبة مصفحاً بالفضة ، أنفق فيه خمسة وثلاثين ألف درهم . وفي منصرفه من هذه الحجة مات بكتمر الساقي من أعظم أمرائه وخواصه ، ويقال انه سمه ، وهو من مماليك بيبرس الجاشنكير . وانتقل الى الناصر فجعله أمير السقاة ، وعظمت منزلته عنده ولطفت خلته حتى كانا لا يفترقان ، امّا في بيت السلطان واما في بيته . وكان حسن السياسة في الغاية وخلف بعد وفاته من الاموال والجواهر والذخائر ما يفوت الحصر ، والله تعالى وليّ التوفيق بمنه وكرمه .

اخبار النوبة واسلامهم

قد تقدم لنا غزو الترك الى النوبة أيام الظاهر بيبرس والمنصور قلاون ، لما كان عليهم من الجزية التي فرضها عمرو بن العاص عليهم وقرّرها الملوك بعد ذلك . وربما كانوا يماطلون بها أو يمتنعون من أدائها فتغزوهم عساكر المسلمين من مصر حتى يستقيموا . وكان ملكهم بدنقلة أيام سارت العساكر من عند قلاون اليها سنة ثمانين وستمائة ، واسمه سمامون . ثم كان ملكهم لهذا العهد اسمه آي ، لا

أدري أكان معاقباً لسامون أو توسط بينهما متوسط. وتوفي آي سنة ست عشرة وسبعمائة، وملك بعده في دنقلة أخوه كربيس. ثم نزع من بيت ملوكهم رجل الى مصر اسمه نشلي، وأسلم فحسن اسلامه، وأجرى له رزقاً وأقام عنده. فلما كانت سنة ست عشرة امتنع كربيس من أداء الجزية فجهز السلطان اليه العساكر، وبعث معها عبد الله نشلي المهاجر الى الاسلام من بيت ملكهم، فخام كربيس عن لقائهم وفرّ الى بلد الابواب. ورجعت العساكر الى مصر، واستقرّ نشلي في ملك النوبة على حاله من الاسلام.

وبعث السلطان الى ملك الابواب في كربيس فبعث به اليه وأقام بباب السلطان. ثم إن أهل النوبة اجتمعوا على نشلي وقتلوه بممالأة جماعة من العرب سنة تسع، وبعثوا عن كربيس ببلد الابواب فألفوه بمصر. وبلغ الخبر الى السلطان فبعثه الى النوبة فملكها وانقطعت الجزية باسلامهم. ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة في بلادهم واستوطنوها وملكوها وملأوها عيثاً وفساداً. وذهب ملوك النوبة الى مدافعتهم فعجزوا. ثم ساروا الى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم، وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الاعاجم في تمليك الاخت وابن الاخت فتمزق ملكهم، واستولى اعراب جهينة على بلادهم، وليس في طريقه شيء من السياسة الملوكية للآفة التي تمنع من انقياد بعضهم الى بعض، فصاروا شيعاً لهذا العهد. ولم يبق لبلادهم رسم للملك، وانما هم

الآن رجالة بادية يتبعون مواقع القطر شأن بوادي الاعراب . ولم يبق في بلادهم رسم للملك لما أحالته صبغة البداوة العربية من صبغتهم بالخلطة والالتحام ، والله غالب على أمره ، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده .

بقية اخبار الارمن الى فتح اياس ثم فتح سيس وانقراض امرهم

قد كنا قدمنا أخبار الارمن الى قتل ملكهم هيثوم على يد أيدغدي شحنة التتر ببلاد الروم سنه سبع ، واستقرار الملك بسيس لاخيه أوسير بن ليون . وكان بينه وبين قزمان ملك التركمان مصاف سنة تسع عشرة فهزمه قزمان ، ولم يزل أوسير بن ليون ملكاً عليهم الى سنة اثنتين وسبعين فهلك ونصبوا للملك بعده ابنه ليون صغيراً ابن اثنتي عشرة سنة . وكان الناصر قد طلب أوسير أن ينزل له عن القلاع التي تلي الشام فاتسع وجهز اليه عساكر الشام فاكتسحوا بلاده وخربوها ، وهلك أوسير على أثر ذلك . ثم أمر الناصر كتبغا نائب حلب بغزو سيس فدخل اليها بالعساكر سنة ست وثلاثين ، واكتسح جهاتها وحصر قلعة النقير وافتتحها . وأسر من الارمن عدة يقال بلغوا ثلثمائة ، وبلغ خبرهم الى النصارى باياس فثاروا بمن عندهم من المسلمين وأحرقوهم غضباً للارمن لمشاركتهم في دين النصرانية .

ولم يثبت أن بعث الى السلطـان دمرداش بن جوبان شحنة المغل ببلاد الروم يعرفه بدخوله في الاسلام، ويستنفر عساكره لجهاد نصارى الارمن فاسعفه بذلك، وجهز اليه عساكر الشام من دمشق وحلب وحماة سنة سبع وثلاثـين ونازلوا مدينة اياس ففتحوها وخربوها، ونجا فلّهم الى الجبال فاتبعتهم عساكر حلب وعادوا الى بـلادهم. ثم سـار سنة احدى وستين بندمر الخوازمي نائب حلب لغزو سيس ففتح أذنة وطرطوس والمصيصة، ثم قلعتي كلال والجريدة وسنباط كلا وتمرور. وولى نائبين في أذنة وطرسوس، وعاد الى حلب، وولى بعده على حلب عشقيم النصارى فسار سنة ست وسبعين، وحصر سيس وقلعتها شهرين الى أن نفدت أقواتهم. وجهـدهم الحصار فاستأمنوا ونزلوا على حكمـه فخرج ملكهم النكفور وأمراؤه وعساكره الى عشقيم فبعث بهم الى مصر، واستولى المسلمون على سيس وسائر قلاعها، وانقرضت منها دولة الارمن، والبقاء لله وحده انتهى.

الصلح مع ملوك التتر وصهر الناصر مع ملوك الشمال منهم

كان للتتر دولتان مستفحلتان احداهما دولة بني هلاكو آخذ بغداد والمستولي على كرسي الاسلام بالعراق، واصارها هو وبنوه كرسياً لهم. ولهم مع ذلك عراق العجم وفـارس وخراسان وما وراء النهر، ودولة بني دوشي خـان بن جنكزخان بالشمال متصلة

الى خوارزم بالمشرق الى القرم وحدود القسطنطينية بالجنوب ، والى أرض بلغار بالمغرب . وكان بين الدولتين فتن وحروب كما تحدث بين الدول المجاورة ، وكانت دولة الترك بمصر والشام مجاورة لدولة بني هلاكو ، وكانوا يطمعون في ملك الشام ويرددون الغزو اليه مرة بعد أخرى ، ويستميلون أولياءهم وأشياعهم من العرب والتركمان فيستظهرون بهم عليهم كما رأيت ذلك في أخبارهم . وكانت بين ملوكهم من الجانبين وقائع متعددة ، وحروبهم فيها سجال ، وربما غلبوا من الفتنة بين دولة دوشي وبين بني هلاكو . ولبعدهم عن فتنة بني دوشي خان لتوسط الممالك بين مملكتهم ومملكة مصر والشام فتقع لهم الصاغية اليهم ، وتتجدد بينهم المراسلة والمهاداة في كل وقت ، ويستحث ملك الترك ملك صراي من بني دوشي خان لفتنة بني هلاكو والاجلاب عليهم في خراسان وما اليها من حدود مملكتهم ليشغلوهم عن الشام ، ويأخذوا بحجزتهم عن النهوض اليه .

وما زال ذلك دأبهم من أوّل دولة الترك . وكانت رغبة بني دوشي خان في ذلك أعظم ، يفتخرون به على بني هلاكو . ولما ولي صراي أنبك من بني دوشي خان سنة ثلاث عشرة ، وكان نائباً ببلاد الروم قطلنمير ، وفدت عليه الرسل من مصر على العادة فعرض لهم قطلنمير بالصهر مع السلطان الناصر ببعض نساء ذلك

البيت ، على شرطية الرغبة من السلطان في ظاهر الامر ، والتمهل منهم في امضاء ذلك .

وزعموا أن هذه عادة الملوك منهم ففعل السلطان ذلك ، وردّد الرسل والهدايا أعواماً ستة الى أن استحكم ذلك بينهم ، وبعثوا اليه بمخطوبته طلبناش بنت طغاجي بن هند وابن بكر بن دوشي سنة عشرين ، مع كبير المغل وكان مقلداً يحمل على الاعناق ، ومعهم جماعة من أمرائهم ، وبرهان الدين امام ازبك ومروا بالقسطنطينية فبالغ لشكري في كرامتهم . يقال انه أنفق عليهم ستين ألف دينار ، وركبوا البحر من هنالك الى الاسكندرية .

ثم ساروا بها الى مصر محمولة على عجلة وراء ستور من الذهب والحرير يجرّها كديش يقوده اثنان من مواليها في مظهر عظيم من الوقار والتجلة . ولما قاربوا مصر ركب للقائهم النائبان ارغون وبكتمر الساقي في العساكر وكريم الدين وكيل السلطان ، وأدخلت الخاتون الى القصر ، واستدعي ثالث وصولها القضاة والفقهاء وسائر الناس على طبقاتهم الى الجامع بالقلعة ، وحضر الرسل الوافدون عندهم بعد ان خلع عليهم . وانعقد النكاح بين وكيل السلطان ووكيل ازبك ، وانفضّ ذلك المجمع وكان يوماً مشهوداً .

ووصلت رسل أبي سعيد صاحب بغداد والعراق سنة اثنتين وعشرين وفيهم قاضي توريز يسألون الصلح ، وانتظام الكلمة

واجتماع اليد على اقامة معالم الاسلام من الحج واصلاح السابلة وجهاد العدوّ، فاجاب السلطان الى ذلك، وبعث سيف الدين ايتمش المحمدي لاحكام العقد معهم وامتضاء ايمانهم فوجهه لذلك بهدية سنية، وعاد سنة ثلاث وعشرين ومعه رسل ابي سعيد، ومعه جوبان لمثل ذلك فتم ذلك وانعقد بينهم. وقد كانت قبل ذلك تجددت الفتنة بين أبي سعيد وصاحب صراي نفرة من أزبك صاحب صراي من تغلب جوبان على أبي سعيد وفتكه في المغل.

وكانت بين جوبان وبين سبول صاحب خوارزم وما وراء النهر فتنة ظهر فيها أزبك وأمدّه بالعساكر، فاستولى أزبك على أكثر بلاد خراسان، وطلب من الناصر بعد الالتحام بالصهر المظاهرة على ابي سعيد وجوبان فأجابه الى ذلك. ثم بعث اليه ابو سعيد في الصلح كما قلناه فآثره وعقد له. وبلغ الخبر الى ازبك ورسل الناصر عنده فأغلظ في القول، وبعث بالعتاب. واعتذر له الناصر بأنهم انما دعوه لاقامة شعائر الأسلام، ولا يسع التخلف عن ذلك فقبل. ثم وقعت بينه وبين ابي سعيد مراوضة في الصلح بعد ان استردّ جوبان ما ملكه ازبك من خراسان، فتوادع كل هؤلاء الملوك واصطلحوا ووضعوا اوزار الحرب حيناً من الدهر، الى ان تقلبت الاحوال وتبدّلت الامور، والله مقلب الليل والنهار.

مقتل اولاد بني نمي امراء مكة من بني حسن

قد تقدّم لنا استيلاء قَتادَة على مكة والحجاز من يد الهواشم واستقرارها لبنيه الى أن استولى منهم أبو نمى ، وهو محمد بن أبي سعيد عليّ بن قتادة . ثم توفي سنة اثنتين وسبعمائة وولي مكانه ابناه رميثة وخميصه ، واعتقلا أخويهما عطيفة وأبا الغيث ولما حج الاميران كافلا المملكة بيبرس وسلار هربا اليهما من مكان اعتقالهما وشكيا ما نالهما من رميثة وخميصة فاشكاهما الاميران واعتقلا رميثة وخميصة وأوصلاهما الى مصر ، ووليا عطيفة وأبا الغيث ، وبعثا بهما الى السلطان صحبة الامير ايدمر الكوكبي الذي جاء بالعساكر معهما . ثم رضي السلطان عنهما وولاهما مكان رميثة وخميصة وبعث معهما العساكر ثانياً سنة ثلاث عشرة ، وفرّ رميثة وخميصة عن البلاد ، ورجع العَسكر .

وأقام أبو الغيث وعطيفة فرجع اليهما رميثة وخميصة ، وتلاقوا فانهزم ابو الغيث وعطيفة فسارا الى المدينة في جوار منصور بن حماد فامدهما بني عقبة وبني مهدي ، ورجع الى حرب رميثة وخميصة فاقتتلوا ثانياً ببطن مرو فانهزم أبو الغيث وقتل . واستمر رميثة وخميصة ، ولحق أخوهما عطيفة وسار معهما . ثم تشاجروا سنة خمس عشرة ، ولحق رميثة بالسلطان مستعدياً على أخويه فبعث معه العَساكر ، ففرّ خميصة بعد ان استصفى أهل مكة وهرب

الى السبعَة مدن ، ولحقته العَساكر فاستلحق أهل تلك المدن ولقيهم فانهزموا ونجا خميصة بنفسه .

ثم رجعَت العَساكر فرجع وبعَث رميثة يستنجد السلطان فبعَث اليه العَساكر ففرّ خميصة . ثم رجع واتفق مع أخويه رميثة وعطيفة ، ثم لحق عطيفة بالسلطان سنة ثمان عشرة ، وبعَث معَه العَساكر فتقبضوا على رميثة وأوصلوه معْتقلًا فسجن بالقلعَة . واستقرّ عطيفة بمكة ، وبقي خميصة مشرداً . ثم لحق بملك التتر ملك العِراق خربندا واستنجده على ملك الحجاز فانجده بالعَساكر وشاع بين الناس أنه داخل الروافض الذين عند خربندا في اخراج الشيخين من قبريهما ، وعظم ذلك على الناس . ولقية محمد بن عيسى أخو مهنا حسبة وامتعَاضاً للدين . وكان عند خربندا فاتبعَه واعترضه وهزمه . ويقال انه أخذ منه المعَاول والفؤوس التي أعدوها لذلك . وكان سبباً لرضا السلطان عنه .

وجاء خميصة الى مكة سنة ثماني عشرة ، وبعث الناصر العساكر اليه فهرب وتركها . ثم أطلق رميثة سنة تسع عشرة فهرب الى الحجاز ومعه وزيره علي بن هنجس فرد من طريقه واعتقل ، وأفرج عنه السلطان بعد مرجعه من الحج سنه عشرين . ثم إن خميصة استأمن السلطان سنة عشرين ، وكان معه جماعة من المماليك هربوا اليه فخاموا أن يحضروا معه الى السلطان فاغتالوه وحضروا . وكان السلطان قد أطلق رميثة من الاعتقال فأمكنه

منهم فثأر من المباشر قتل أخيه ، وعفا عن الباقين . ثم صرف السلطان رميثة الى مكة ، وولاه مع أخيه عطيفة وإستمرّت حالهما. ووفد عطيفة سنة احدى وعشرين على الابواب، ومعه قتادة صاحب الينبع يطلب الصريخ على ابن عمه عقيل قاتل ولده فأجابه السلطان وجهز العساكر لصريخه، وقوبل كل منهما بالاكراد وانصرفوا . وفي سنة احدى وثلاثين وقعت الفتنة بمكة وقتل العبيد جماعة من الامراء والترك فبعث السلطان ايدغمش ومعه العساكر فهرب الشرفاء والعبيد وحضر رميثة وبذل الطاعة وحلف متبرئاً مما وقع فقبل منه السلطان وعفا له عنها، واستمرّت حاله على ذلك الى أن هلك سنة (١) وتداولت الامارة بين ابنيه عجلان وبقية . ثم استبدّ عجلان كما نذكره في أخبارهم وورثتها بنوه لهذا العهد كما نذكره(٢) مرتباً في أخبارهم ان شاء الله تعالى .

خبر ملك التكرور

كان ملك السودان بصحراء المغرب في الاقليم الاوّل والثاني منقسماً بين أمم من السودان . أوّلهم مما يلي البحر المحيط أمّة

(١) كذا بياض بالأصل، ولم نعثر على سنة هلاكه في المراجع التي بين أيدينا .
(٢) قوله كما نذكره هذا قد تقدم في المجلد الرابع مفصلاً مع اختلاف يسير في بعض الأسماء ا هـ مصححه .

صوصو ، وكانوا مستولين على غانة ودخلوا في الاسلام أيام الفتح وذكر صاحب كتاب رجار في الجغرافيا انّ بني صالح من بني عبدالله بن حسن بن الحسن كانت لهم بها دولة وملك عظيم، ولم يقع لنا في تحقيق هذا الخبر أكثر من هذا. وصالح من بني حسن مجهول، وأهل غانة منكرون أن يكون عليهم ملك لاحد غير صوصو. ثم يلي أمة صوصو أمة مالي من شرقهم وكرسي ملكهم بمدينة بنى ثم من بعدهم شرقا عنهم أمّة كوكو. ثم التكرور بعدهم، وفيما بينهم وبين النوبة أمّة كانم وغيرها. وتحولت الاحوال باستمرار العصور فاستولى أهل مالي على ما وراءهم وبين أيديهم من بلاد صوصو وكوكو، وآخر ما استولوا عليه بلاد التكرور. واستفحل ملكهم الى الغاية، وأصبحت مدينتهم بنى حاضرة بلاد السودان بالمغرب ودخلوا في دين الاسلام منذ حين من السنين.

وحج جماعة من ملوكهم. وأوّل من حج منهم برمندار، وسمعت في ضبطه من بعض فضلائهم برمندانه، وسبيله في الحج هي التي اقتفاها ملوكهم من بعده. ثم حج منهم منساولي بن ماري جاطة أيام الظاهر بيبرس. وحج بعده منهم مولاهم صاكوره، وكان تغلب على ملكهم وهو الذي افتتح مدينة كوكو. ثم حج أيام الناصر وحج من بعده منهم منسا موسى حسبما ذلك مذكور في أخبارهم عند دول البربر، عند ذكر صنهاجة ودولة لمتونة من شعوبهم.

ولما خرج منسا موسى من بلاد المغرب للحج ملك على طريق الصحراء، وخرج عند الاهرام بمصر، وأهدى الى الناصر هدية حفيلة يقال انّ فيها خمسين ألف دينار، وأنزله بقصر عند القرافة الكبرى وأقطعه اياها ولقيه السلطان بمجلسه، وحدثه ووصله وزوّده وقرب اليه الخيل والهجن، وبعث معه الامراء يقومون بخدمته الى أن قضى فرضه سنة أربع وعشرين ورجع فأصابته في طريقه بالحجاز نكبة تخلصه منها أجله. وذلك أنه ضل في الطريق عن المحمل والركب وانفرد بقومه عن العرب وهي كلها مجاهل لهم، فلم يهتدوا الى عمران ولا وقفوا على مورد، وساروا على السمت الى أن نفذوا عند السويس وهم يأكلون لحم الحيتان اذا وجدوها والاعراب تتخطفهم من اطرافهم الى أن خلصوا.

ثم جدّد السلطان له الكرامة ووسع له في الحباء، وكان أعدّ لنفقته من بلاده فيما يقال مائة حمل من التبر في كل حمل ثلاثة قناطير فنفدت كلها، وأعجزته النفقة فاقترض من أعيان التجار، وكان في صحبته منهم بنو الكويك فأقرضوه خمسين ألف دينار وابتاع منهم القصر الذي أقطعه السلطان وأمضى له ذلك. وبعث سراج الدين الكويك معه وزيره يرد له منه ما أقرضه من المال فهلك هنالك. وأتبعه سراج الدين آخراً بابنه فمات هنالك. وجاء ابنه فخر الدين أبو جعفر بالبعض، وهلك منسا موسى قبل وفاته فلم يظفروا منه بشيء انتهى، والله سبحانه وتعالى اعلم.

انجاد المجاهد ملك اليمن

قد تقدم لنا استبداد علي بن رسول، فلك بعد مهلك سيده يوسف اتسز بن الكامل بن العادل بن ايوب ويلقب المسعود، وكان علي بن رسول استاذ داره ومستولياً على دولته. فلما هلك سنة ست وعشرين وستمائة نصب ابن رسول ابنه موسى الاشرف لملكه وكفله قريباً. واستولى ابن رسول وأورث ملكه باليمن لبنيه لهذا العهد، وانتقل الامر للمجاهر منهم علي بن داود والمؤيد بن يوسف المظفر بن عمر بن المنصور بن علي بن رسول سنة احدي وعشرين. وانتقض عليه جلال الدين ابن عمه الاشرف فظهر عليه المجاهد واعتقله. ثم انتقض عليه عمه المنصور سنة ثلاث وعشرين وحبسه، وأطلق من محبسه واعتقل عمه المنصور. وكان عبد الله الظاهر بن المنصور قائماً بأمر أبيه ومنازلة المجاهد سنة أربع وعشرين فبعث بالصريخ الى الناصر سليمان الترك بمصر، وكان هو وقومه يعطونهم الطاعة.ويبعثون اليهم الاتاوة من الاموال والهدايا وطرف اليمن وماعونه، فجهزهم الناصر صحبة بيبرس الحاجب وطبنال من أعظم أمرائه فساروا الى اليمن، ولقيهم المجاهد بعدن فأصلحوا بين الفريقين على أن تكون (1) ويستقر المجاهد في سلطانه

---

(١) كذا بياض بالأصل في جميع النسخ، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على تصويب هذه العبارة.

باليمن ومالوا على كل من كان سبباً في الفتنة فقتلوهم ودوخوا اليمن وحملوا أهله على طاعة المجاهد، ورجعوا الى محلهم من الابواب السلطانية، والله تعالى ولي التوفيق.

ولاية احمد بن الملك الناصر على الكرك

ولما استفحل ملك السلطان الناصر واستمرّ وكثر ولده طمحت نفسه الى ترشيح ولده لتقرّ عينه بملكهم فبعث كبيرهم أحمد الى قلعة الكرك سنة ست وعشرين، ورتب الامراء المقيمين بوظائف السلطان فسار الى الكرك وأقام بها أربع سنين ممتعاً بالملك والدولة، وأبوه قرير العين بامارته في حياته. ثم استقدمه سنة ثلاثين وأقام فيه سنة الختان واحتفل في الصنيع له، وختن معه من أبناء الامراء والخواص جماعة انتقاهم ووقع اختياره عليهم. ثم صرفه الى مكان امارته بالكرك فأقام بها الى أن توفي الملك الناصر وكان ما نذكره والله تعالى أعلم.

وفاة دمرداش بن جوبان شحنة بلاد الروم ومقتله

كان جوبان نائب مملكة التتر مستولياً على سلطانه أبي سعيد ابن خربندا لصغره، وكانت حاله مع أبيه خربندا قريباً من الاستيلاء فولى على مملكة بلاد الروم دمرداش. ثم وقعت الفتنة بينهم وبين ملك الشمال أزبك من بني دوشي خان على خراسان

وسار جوبان من بغداد سنة تسع وعشرين لمدافعته كما يأتي في أخبارهم. وترك عند السلطان أبي سعيد ببغداد ابنه خواجا دمشق فسعى به أعداؤه وانهوا عنه قبائح من الافعال لم يحتملها له فسطا به وقتله. وبلغ الخبر الى ابيه جوبان فانتقض وعاجله أبو سعيد بالمسير الى خراسان فتفرقت عنه أصحابه، وفرّ فأدرك بهراة وقتل. وأذن السلطان أبو سعيد لاهله أن ينقلوه الى التربة التي اختطها بالمدينة النبوية لدفنه فاحتملوه، ولم يتوقفوا على اذن صاحب مصر فنعهم صاحب المدينة ودفنوه بالبقيع.

ولما بلغ الخبر بمقتله الى ابنه دمرداش في امارته ببلاد الروم خشي على نفسه فهرب الى مصر، وترك مولاه ارتق مقيماً لامر البلد وأنزله بسيواس. ولما وصل الى دمشق وركب النائب لتلقيه وسار معه الى مصر فأقبل عليه السلطان وأحله محل الكرامة، وكان معه سبعة من الامراء ومن العسكر نحو ألف فارس فأكرمهم السلطان وأجرى عليهم الارزاق، وأقاموا عنده.

وجاءت على اثره رسل السلطان أبي سعيد وطلبه بذمّة الصلح الذي عقده مع الملك الناصر، وأوضحوا العلم السلطان من فساد طويته وطوية أبيه جوبان، وسعيهم في الارض بالفساد ما أوجب اعطاءه باليد، وشرط السلطان عليهم امضاء حكم الله تعالى في قراسنقر نائب حلب الذي كان فرّ سنة اثنتي عشرة مع أقوش الافرم الى خربندا وأغروه بملك الشام، ولم يتم ذلك. وأقاموا

عند خربندا ، وولى أقوش الافرم على همذان فات بها سنة ست عشرة فولى صاحبه قرا سنقر مكانه بهمذان. فلما شرط عليهم السلطان قتله كما قتل دمرداش أمضوا فيه حكم الله تعالى وقتلوه جزاء بما كان عليه من الفساد في الارض ، والله متولي جزاءهم. ثم وصل على اثر ذلك ابن السلطان أبي سعيد ، ومعه جماعة من قومه في تأكيد الصلح والاصهار من السلطان فقوبلوا بالكرامة التي تليق بهم ، واتصلت المراسلة والمهاداة بين هذين السلطانين الى أن توفيا ، والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وفاة مهنا بن عيسى امير العرب بالشام واخبار قومه

هذا الحي من العرب يعرفون بآل فضل رحالة ما بين الشام والجزيرة ، وتربة نجد من أرض الحجاز يتقلبون بينها في الرحلتين ، وينتسبون في طيء ، ومعهم أحياء من زبيد وكلب وهُذَيل ومَذْحِج أحلاف لهم. ويناهضهم في الغلب والعدد آل مراد يزعمون أن فضلًا ومراد أبناء ربيعة ، ويزعمون أيضاً أن فضلًا ينقسم ولده بين آل مهنا وآل عليّ ، وأن آل فضل كلهم بأرض حوران فغلبهم عليها آل مراد وأخرجوهم منها فنزلوا حمص ونواحيها . واقامت زبيد من أحلافهم بحوران فهم بها حتى الآن لا يفارقونها .

قالوا : ثم اتصل آل فضل بالدول السلطانية ، وولوهم على أحياء العرب ، وأقطعوهم على اصلاح السابلة بين الشام والعراق

فاستظهروا برياستهم على آل مراد وغلبوهم على المشاتي فصار عامّة رحلتهم في حدود الشام قريباً من التلول والقرى لا ينجعون الى البرية إلا في الاقل. وكانت معهم أحياء من أفاريق العرب مندرجون في لفيفهم وحلفهم من مذحج وعامر وزبيد، كما كان آل فضل إلا أن أكثر من كان مع آل مراد من أولئك الأحياء وأوفرهم عدة بنو حارثة بن سنبس احدى شعوب طيء. هكذا ذكر لي الثقة عندي من رجالاتهم. وبنو حارثة هؤلاء متغلبون لهذا العهد في تلول الشام لا يجاوزونها الى العمران، ورياسة آل فضل لهذا العهد لبني مهنا، وينسبونه هكذا: مهنا بن مانع بن جديلة بن فضل بن بدر بن ربيعة بن علي بن مفرج بن بدر بن سالم ابن جصة بن بدر بن سميع، ويقفون عند سميع.

ويقول رعاعهم أن سميعاً هذا هو الذي ولدته العباسة أخت الرشيد من جعفر بن يحيى البرمكي، وحاشى لله من هذه المقالة في الرشيد وأخته وفي انتساب كبراء العرب من طيء إلى موالي العجم من بني برمك وانسابهم، ثم ان الوجدان يحيل رياسة هؤلاء على هذا الحي ان لم يكونوا من نسبتهم وقد تقدم مثل ذلك في مقدّمة الكتاب: وكان مبدأ رياستهم من أوّل دولة بني أيوب قال العماد الاصفهاني في كتاب البرق السامي: نزل العادل بمرج دمشق، ومعه عيسى بن محمد بن ربيعة شيخ الاعراب في جموع كثيرة انتهى. وكانت الرياسة قبلهم لعهد الفاطميين لبني جراح

من طيء، وكان كبيرهم مفرج بن دغفل بن جراح، وكان من اقطاعه الرملة، وهو الذي قبض على افتكين مولى بني بويه لما انهزم مع مولاه بختيار بالعراق، وجاء به الى المعز فأكرمه ورقاه في دولته.

ولم يزل شان مفرج هكذا وتوفي سنة أربع وأربعمائة وكان من ولده حسان ومحمود وعلي وجران، وولي حسان بعده وعظم صيته. وكان بينه وبين خلفاء الفاطميين نفرة واستجاشة؛ وهو الذي هدم الرملة وهزم قائدهم هاروق التركي وقتله وسبى نساءه وهو الذي مدحه التهامي. وقد ذكر المسبحي وغيره من مؤرخي دولة العبيديين في قرابة حسّان بن مفرج فضل بن ربيعة بن حازم ابن جراح وأخاه بدر بن ربيعة. ولعل فضلًا هذا هو جدّ آل فضل.

وقال ابن الاثير وفضل بن ربيعة بن حازم كان آباؤه اصحاب البلقاء والبيت المقدّس، وكان فضل تارة مع الافرنج وتارة مع خلفاء مصر. ونكره لذلك طغركين أتابك دمشق وكافل بني تتش، وطرده من الشام فنزل على صدقة بن مزيد وحالفه ووصله حين قدم من دمشق بتسعة آلاف دينار. فلما خالف صدقة بن مزيد على السلطان محمد بن ملك شاه سنة خمسمائة وما بعدها، ووقعت بينهما الفتنة اجتمع فضل هذا وقرواش بن شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل، وبعض امراء التركمان كانوا اولياء صدقة فساروا في الطلائع بين يدي الحرب وهربوا الى

السلطان فأكرمهم وخلع عليهم : وأنزل فضل بن ربيعة بدار صدقة ابن مزيد ببغداد حتى اذا سار السلطان لقتال صدقة استأذنه فضل في الخروج الى البرية ليأخذ بحجزة صدقة فأذن له ، وعبر الى الانبار . ولم يرجع للسلطان بعدها ، انتهى كلام ابن الاثير .

ويظهر من كلامه وكلام المسبحي انّ فضلاً هذا وبدراً من آل جراح من غير شك ، ويظهر من سياقة هؤلاء نسبهم انّ فضلاً هذا هو جدهم لانهم ينسبونه فضل بن علي بن مفرج ، وهو عند الآخرين فضل بن علي بن جراح ، فلعل هؤلاء نسبوا ربيعة الى مفرج الذي هو كبير بني الجراح لطول العهد ، وقلة المحافظة على مثل هذا من البادية الغفل . وأما نسبة هذا الحي في طيء فبعضهم يقول : ان الرياسة في طيء كانت لأياس بن قبيصة من بني سنبس بن عمرو بن الغوث بن طيء ، واياس هو الذي ملكه كسرى على الحيرة بعد آل المنذر عندما قتل النُعمان بن المنذر ، وهو الذي صالح خالد بن الوليد على الحيرة ، ولم تزل الرياسة على طيء في بني قبيصة هؤلاء صدراً من دولة الاسلام . فلعل آل فضل هؤلاء وآل الجراح من أعقابهم ، وان كان انقرض أعقابهم فهم من أقرب الحي اليه لانّ الرياسة في الاحياء والشعوب ، انما تتصل في أهل العصبية والنسب كما مرّ أوّل الكتاب .

وقال ابن حزم عند ما ذكر أنساب طيء انهم لما خرجوا من اليمن نزلوا أجأ وسلمى وأوطنوها وما بينهما . ونزل بنو اسد ما

بينهما وبين العراق ، وفضل كثير منهم وهم بنو خارجة بن سعد ابن عبادة من طيء ، ويقال لهم جديلة نسبة الى أمّهم بنت تيم الله وحبيش والاسعد اخوتهم ، رحلوا عن الجبلين في حرب الفساد فلحقوا بحلب وحاضر طيء ، وأوطنوا تلك البلاد ، إلّا بني رمان ابن جندب بن خارجة بن سعد فانهم أقاموا بالجبلين . فكان يقال لاهل الجبلين الجبليون ، ولاهل حلب وحاضر طيء من بني خارجة السهليون انتهى .

فلعل هذه احياء الذين بالشام من بني الجراح ، وآل فضل من بني خارجة هؤلاء الذين ذكر ابن حزم انهم انتقلوا الى حلب ، وحاضر طيء لانّ هذا الموطن أقرب الى مواطنهم لهذا العهد من مواطن بني الجراح بفلسطين من جبل أجأ وسلمى اللذين هما موطن الآخرين . والله أعلم أيّ ذلك يصح من انسابهم . ولنرجع الآن الى سرد الخبر عن رياسة آل فضل أهل هذا البيت منذ دولة بني أيوب فنقول : كان الامير منهم لعهد بني ايوب عيسى بن محمد بن ربيعة أيام العادل كما قلناه ، ونقلناه عن العماد الاصبهاني الكاتب . ثم كان بعده حسام الدين مانع بن خدينة بن غصينة بن فضل ، وتوفي سنة ثلاثين وستمائة ، وولي عليهم بعده ابنه مهنا .

ولما ارتجع قطز ثالث ملوك الترك بمصر ، وملك الشام من يد التتر وهزم عسكرهم بعين جالوت اقطع سلمية لمهنا بن مانع ، وانتزعها من عمل المنصور بن المظفر بن شاهنشاه صاحب حماة ،

ولم أقف على تاريخ وفاة مهنا . ثم ولي الظاهر على احياء العرب بالشام عندما استفحل امر الترك ، وسار الى دمشق لتشييع الخليفة الحاكم عم المستعصم لبغداد ، فولّى على العرب عيسى بن مهنا بن مانع ووفر له الاقطاعات على حفظ السابلة ، وحبس ابن عمه زامل ابن علي بن ربيعة من آل علي لاعناته واعراضه . ولم يزل أميراً على احياء العرب ، وصلحوا في ايامه لانه خالف أباه في الشدّة عليهم . وهرب اليه سنقر الاشقر سنة تسع وتسعين ، وكاتبوا أبغا واستحثوه لملك الشام .

وتوفي عيسى بن مهنا سنة اربع وثمانين فولى المنصور قلاون بعده ابنَه مهنًّا . ثم سار الاشرف بن قلاون الى الشام ونزل حمص ، ووفد عليه مهنًّا بن عيسى في جماعة من قومه فقبض عليه وعلى ابنِه موسى وأخويه محمد وفضل ابني عيسى بن مهنا ، وبعث بهم الى مصر فحبسوا بها حتى أفرج عنهم العادل كتبغا عندما جلس على التخت سنَه اربع وتسعين ، ورجع الى امارته . ثم كان له في ايام الناصر نفرة واستجاشة وميل الى ملوك التتر بالعراق ، ولم يحضر شيئاً من وقائع غازان . ولما انتقض سنْقر وأقوش الأفرم وأصحابهما سنَة اثنَتي عشرة وسبعمائة لحقوا به ، وساروا من عنده الى خربندا . واستوحش هو من السلطان وأقام في احيائه منْقبضاً عن الوفادة .

ووفد أخوه فضل سنــة اثنتي عشرة فرعى له حق وفادته ،

وولاه على العرب مكان أخيه مهنا، وبقي مهنا مشرداً. ثم لحق سنة ست عشرة بخربندا ملك التتر فأكرمه وأقطعه بالعراق. وهلك خربندا في تلك السنة فرجع الى أحيائه، وأوفد ابنيه أحمد وموسي وأخاه محمد بن عيسى مستعتبين للناصر ومتطارحين عليه فأكرم وفادتهم، وأنزلهم بالقصر الابلق وشملهم بالاحسان. وأعتب مهنا ورده على امارته واقطاعه، وذلك سنة سبع عشرة. وحج هذه السنة ابنه عيسى وأخوه محمد وجماعة من آل فضل اثنا عشر ألف راحله. ثم رجع مهنا الى ديدنه في ممالأة التتر والاجلاب على الشام واتصل ذلك منه فنقم السلطان عليه، وسخطه قومه أجمع. وكتب الى نواب الشام سنة عشرين بعد مرجعه من الحج فطرد آل فضل عن البلاد وأدال منهم آل علي عديلة نسبهم.

وولى منهم على أحياء العرب محمد بن أبي بكر، وصرف اقطاع مهنا وولده الي محمد وولده فأقام مهنا على ذلك مدّة. ثم وفد سنة احدى وثلاثين مع الافضل بن المؤيد صاحب حماة متوسلاً به ومتطارحاً على السلطان فاقبل عليه وردّ عليه اقطاعه وامارته. وذكر لي بعض أكابر الامراء بمصر ممن ادرك وفادته أو حدّث عنها أنه تجافى في هذه الوفادة عن قبول شيء من السلطان، حتى انه ساق من النياق المحلوبة واستقاها، وانه لم يغش باب أحد من أرباب الدولة ولا سألهم شيأ من حاجته.

ثم رجع الى أحيائه وتوفي سنة أربع وثلاثين، فولى ابنه مظفر

الدين موسى. وتوفي سنة اثنين وأربعين عقب مهلك الناصر وولي مكانه أخوه سليمان. ثم هلك سليمان سنة ثلاث وأربعين فولي مكانه شرف الدين عيسى ابن عمه فضل بن عيسى. ثم توفي سنة أربع وأربعين بالقدس ودفن عند قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه، وولي مكانه أخوه سيف بن فضل. ثم عزله السلطان بمصر الكامل ابن الناصر سنة ست وأربعين، وولي مكانه مهنا بن عيسى. ثم جمع سيف بن مهنا ولقيه فياض بن مهنا فانهزم سيف. ثم ولى السلطان حسين بن الناصر في دولته الاولى وهو في كفالة بيقاروس أحمد بن مهنا فسكنت الفتنة بينهم. ثم توفي سنة تسع وأربعين فولي مكانه أخوه فياض. وهلك سنة اثنتين وستين فولي مكانه أخوه خيار بن مهنا ولّاه حسين بن الناصر في دولته الثانية.

ثم انتقض سنة خمس وستين وأقام سنين بالقفر ضاحياً الى أن شفع فيه نائب حماة فأعيد الى امارته، ثم انتقض سنة سبعين فولى السلطان الاشرف مكانه ابن عمه زامل بن موسى بن عيسى، وجاء الى نواحي حلب واجتمع اليه بنو كلاب وغيرهم وعاثوا في البلاد، وعلى حلب يومئذ قشتمر المنصوري فبرز اليهم وانتهى الى مخيمهم واستاق نعمهم وتخطى الى الخيام فاستماتوا دونها، وهزموا عساكره وقتل قشتمر وابنه في المعركة، وتولى ذلك زامل بيده، وذهب الى القفر منتقضاً فولى مكانه معيقل بن فضل بن عيسى. ثم بعث معيقل صاحبه سنة احدى وسبعين يستأمن لخيار فأمنه. ثم وفد

خيار بن مهنا سنة خمس وسبعين فرضي عنه السلطـان فأعاده الى امارته. ثم توفي سنة سبع وسبعين فولي أخوه قارة الى أن توفي سنة احدى وثمانين فولي مكانه معيقيل بن فضل بن عيسى، وزامل ابن موسى بن مهنا شريكين في امارتها. ثم عزلا لسنة من ولايتهما، وولي بصير بن جبـار بن مهنا واسمه محمد، وهو لهذا العهد أمير على آل فضل وجميع أحياء طيء، والله تعالى أعلم.

وفاة ابي سعيد ملك العراق وانقراض امر بني هلاكو

ثم توفي أبو سعيد ملك العراق من التتر ابن خربندا بن بغو ابن أبغا بن هلاكو بن طولي خان بن جنكزخان سنة ست وثلاثين وسبعمائة لعشرين سنة من ملكـه ولم يعقب، فانقرض بموته ملك بني هلاكو. وصار الامر بالعراق لسواهم، وافترق ملك التتر في سائر ممالكهم كما نذكر في أخبارهم. ولما استبدّ ببغداد الشيخ حسن من أسباطهم كثر عليه المنازعون فبعث رسله الى الناصر قبل وفاته يستنجده، على أن يسلم له بغداد ويعطي الرهن في العساكر حتى يقضي بها في أعدائه فاجابه الناصر الى ذلك، ثم توفي قريباً فلم يتم والامر لله وحده.

وصول هدية ملك المغرب الاقصى مع رسله وكريمته صحبة الحاج

كان ملك بني مرين بالمغرب الاقصى قد استفحل لهذه العصور، وصار للسلطان أبي الحسن علي بن السلطان أبي سعيد عثمان بن

السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق جدّ ملوكهم، وأسف الى ملك جيرانهم من الدول فزحف الى المغرب الاوسط وهو في ملكة بني عبد الواد اعداء قومه من زناتة، وملكهم أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى بن أبي سعيد عثمان بن السلطان يغمراسن بن زيان جدّ ملوكهم أيضاً، وكرسيه تلمسان سبعة وعشرين شهراً. ونصب عليها المجانيق وادار بالاسوار سياجاً لمنع وصول الميرة والاقوات اليها. وتقرى أعمالها بلداً بلداً فملك جميعها. ثم افتتحها عنوة آخر رمضان سنة سبع وثلاثين، ففض جموعها وقتل سلطانها عند باب قصره كما نذكره في أخبارهم.

ثم كتب للملك الناصر صاحب مصر يخبره بفتحها وزوال العائق عن وفادة الحاج، وانه ناظر في ذلك بما يسهل سبيلهم ويزيل عللهم. وكانت كريمة من كرائم ابيه السلطان أبي سعيد ومن أهل فراشه قد اقتضت منه الوعد بالحج عندما ملك تلمسان. فلما فتحها واذهب عدوّه منها جهز تلك المرأة للحج بما يناسب قرابتها منه، وجهز معها للملك الناصر صاحب مصر هدية فخمة مشتملة على خمسمائة من الجياد المغربيات بعدتها وعدّة فرسانها من السروج واللجم والسيوف وطرف المغرب وماعونه من شتى أصنافه، ومن ثياب الحرير والصوف والكتان وصنائع الجلد حتى ليزعموا أنه كان فيها من أواني الخزف وأصناف الدرّ والياقوت وما يشبهها في سبيل التودّد.

وعرض أحوال المغرب على سلطان المشرق. ولعظم قدر هذه الوافدة عند الناصر أوفد معها من عظماء قومه ووزرائه وأهل مجلسه فوفدوا على الناصر سنة ثمان وثلاثين، وأحلهم بأشرف محل من التكرمة، وبعث من اصطبلاته ثلاثين خطلًا من البغال يحملون الهدية من بحر النيل سوى ما تبعها من البخاتي والجمال. وجلس لهم في يوم مشهود ودخلوا عليه وعرضوا الهدية فعمّ بها أهل دولته احساناً في ذلك المجلس. واستأثر منها على ما زعموا بالدرّ والياقوت فقط. ثم فرّقهم في منازله وأنزلهم دار كرامته وقد هيئت بالفرش والماعون، ووفر لهم الجرايات واستكثر لهم من الازودة.

وبعث أمراء في خدمتهم الى الحجاز حتى قضوا فرضهم في تلك السنة، وانقلبوا الى سلطانهم، فجهز الناصر معهم هدية الى ملك المغرب تشتمل على ثياب الحرير المصنوعة بالاسكندرية، وعين منها الحمل المتعارف في كل سنة لخزانة السلطان، وقيمته لذلك العهد خمسون ألف دينار. وعلى خيمة من خيم السلطان المصنوعة بالشام فيها أمثال البيوت والقباب والكفات مرساة أطرافها في الارض بأوتاد الحديد والخشب كأنها قباب مائلة، وعلى خيمة مؤزر باطنها من ثياب الحرير العراقية وظاهرها من ثياب القطن الصرافية مستجادة الصنعة بين الحدل والاوتاد أحسن ما يراه من البيوت، وعلى صوان من الحرير مربع الشكل يقام بالحدل الحافظ ظله من الشمس. وعلى عشرة من الجياد المقربات الملوكية بسروج ولجم

ملوكية مصنوعة من الذهب والفضة مرصعة باللآلي والفصوص. وبعث مع تلك الجياد خدماً يقومون بنبائها المتعارف فيها. ووصلت الهدية الى سلطان المغرب فوقعت منه أحسن المواقع، وأعاد الكتب والرسل بالشكر واستحكمت المودة بين هذين السلطانين، واتصلت المهاداة الى أن مضيا لسبيلهما، والله تعالى ولي التوفيق.

وفاة الخليفة ابي الربيع وولاية ابنه

قد ذكرنا أيام الظاهر وانه أقام خليفة بمصر من ولد الراشد، وصل يومئذ من بغداد واسمه أحمد بن محمد، وذكرنا نسبه هنالك الى الراشد وأنه بويع له بالخلافة سنة ستين وستمائة، ولقبه الحاكم فلم يزل في خلافته الى أن توفي سنة احدى وسبعمائة وقد عهد لابنه سليمان فبايع له أهل دولة الناصر الكافلون لها. ولقبوه المستكفي فبقي خليفة سائر ايام الناصر. ثم تنكر له السلطان سنة ست وثلاثين لشيء نمي له عن بنيه فأسكنه بالقلعة، ومنعه من لقاء الناس فبقي حولا كذلك. ثم ترك سبيله ونزل الى بيته. ثم كثرت السعاية في بنيه فغربه سنة ثمان وثلاثين الى قوص هو وبنيه وسائر أقاربه. وأقام هنالك الى أن هلك سنة أربعين قبل مهلك الناصر، وقد عهد بالخلافة لابنه أحمد ولقبه الحاكم فلم يمض الناصر عهده في ذلك، لانّ أكثر السعاية المشار اليها كانت فيه فنصب للخلافة بعد المستكفي ابن عمه ابراهيم بن محمد ولقبه الواثق وهلك لاشهر قريبة فاتفق الامراء بعده على امضاء عهد

المستكفي في ابنه احمد فبايعوه سنة احدى وأربعين . وأقام في الخلافة الى سنة ثلاث وخمسين فتوفي وولي أخوه أبو بكر ولقب المعتضد . ثم هلك سنة ثلاث وستين لعشرة أشهر من خلافته ، ونصب بعده ابنه محمد ولقبه المتوكل ونورد من أخباره في أماكنها ما يحضرنا ذكره ، والله سبحانه وتعالى اعلم بغيبه .

نكبة تنكز ومقتله

كان تنكز مولى من موالي لاشين اصطفاه الناصر وقرّبه ، وشهد معه وقائع التتر ، وسار معه الى الكرك وأقام في خدمته مدّة خلعه . ولما رجع الي كرسيه ومهد أمور ملكه ورتب الولاية لمن يرضاه من أمرائه بعث تنكز الى الشام وجعله نائباً بدمشق ومشارفاً لسائر بلاد الروم ، ففتح ملطية ودوّخ بلاد الارمن . وكان يتردّد بالوفادة على السلطان يشاوره وربما استدعاه للمفاوضة في المهمات ، واستفحل في دفاع التتر وكيادهم . ولما توفي ابو سعيد وانقرض ملك بني هلاكو ، وافترق امر بغداد وتورين وكانا معاً يجاورانه ويستنجدانه ، وسخطه بعضهم فراسل السلطان بغشه وادّهانه في طاعته ، وممالأة اعدائه . وشرع السلطان في استكشاف حاله ، وكان قد عقد له على بنته فبعث دواداره باجار يستقدمه للاعراس بها ، وكان عدوًّا له للمنافسة والغيرة فأشار على تنكز بالمقام وتخليه عن السلطان وغشه في النصيحة .

وحذر السلطان منه فبعث الملك الناصر الى طشتمر نائب صفد أن يتوجه الى دمشق ، ويقبض عليه فقبض عليه سنة أربعين لثمان وعشرين سنة لولايته بدمشق . وبعث الملك الناصر مولاه لشمك الى دمشق في العساكر فاحتاط على موجوده ، وكان شيئاً لا يعبر عنه من أصناف الممتلكات ، وجاء به مقيداً فاعتقل بالاسكندرية ، ثم قتل في محبسه ، والله تعالى أعلم .

وفاة الملك الناصر وابنه انوك قبله وولاية ابنه ابي بكر ثم كجك

ثم توفي الملك الناصر محمد بن المنصور قلاون أجد ما كان ملكاً وأعظم استبداداً توفي على فراشه في ذي الحجة آخر احدى وأربعين وسبعمائة بعد أن توفي قبله بقليل ابنه أنوك فاحتسبه . وكانت وفاته لثمان وأربعين سنة من ولايته الاولى في كفالة طنبغا ولاثنتين وثلاثين من حين استبداده بأمره بعد بيبرس . وصفا الملك له ، وولي النيابة في هذه ثلاثة من امرائه بيبرس الدوادار المؤرّخ، ثم بكتمر الجوكندار ثم أرغون الدوادار ، ولم يولِّ أحداً النيابة بعده. وبقيت الوظيفة عطلًا آخر أيامه. وأمّا دواداريته فأيدمر ثم سلار ثم الحلي ، ثم يوسف بن الاسعد ثم بغا ثم طاجار وكتب عنه شرف الدين بن فضل الله ، ثم علاء الدين بن الامير، ثم محيي الدين بن فضل الله ، ثم ابنه شهاب الدين ، ثم ابنه

الآخر علاء الدين . وولي القضاء في دولته تقي الدين بن دقيق العيد ، ثم بدر الدين بن جماعة .

وانما ذكرت هذه الوظائف وان كان ذلك ليس من شرط الكتاب لعظم دولة الناصر وطول أمدها ، واستفحال دولة الترك عندها ، وقدّمت الكتاب على القضاة وان كانوا أحق بالتقديم ، لانّ الكتاب أمس بالدولة فانهم من أعوان الملك . ولما اشتدّ المرض بالسلطان ، وكان قوصون أحظى عظيم من أمرائه فبادر القصر في مماليكه متسلحين ، وكان بشتك يضاهيه فارتاب وسلح أصحابه ، وبدا بينهما التنافس ، ودس بشتك الشكوى الى السلطان فاستدعاهما وأصلح بينهما. وأراد أن يعهد بالملك الى قوصون فامتنع فعهد لابنه أبي بكر ومات ، فال من عماله بشتك الى ولاية أحمد صاحب الكرك ، وأبى قوصون إلّا الوفاء بعهد السلطان .

ثم رجع اليه بشتك بعد مراوضة فبويع أبو بكر ولقب المنصور ، وقام بأمر الدولة قوصون وردفه قطلو بغا الفخري فولوا على نيابة السلطان طقرمرد وبعثوا على حلب طشتمر ، وعلى حمص أخضر عوضاً عن طغراي ، وأقرّوا كتبغا الصالحي على دمشق . ثم استوحش بشتك من استبداد قوصون وقطلو بغا دونه فطلب نيابة دمشق ، وكان يعجب بها من يوم دخلها للحوطة على تنكز فاستعفوه . فلما جاء للوداع قبض عليه قطلو بغا الفخري ، وبعث به الى الاسكندرية فاعتقل بها .

ثم أقبــل السلطان أبو بـكر عــلى لذاته ونزع عن الملك ، وصار يمشي في سـكك المدينة في الليــل متنـكراً مخالطاً للسوقة ، فنـكر ذلك الامراء وخلعه قوصون وقطلو بغا لسبعة وخمسين يوماً من بيعته ، وبعثوا به الى قوص فحبس بها وولوا أخاه كجك ولقبوه الاشرف ، وعزلوا طقرمرد عن النيابة . وقام بها قوصون ، وبعثوا طقرمرد نائباً عــلى حماة وأدالوا به من الافضل بن المؤيد فـكان آخر من وليها من بني المظفر ، وقبضوا على طاجا الدويدار وبعثوا به الى الاسـكندرية فغرق في البحر ، وبعثوا بقتل بشتك في محبسه بالاسـكندرية ، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده .

مقتل قوصون ودولة احمد بن الملك الناصر

لما بلغ الخبر الى الامراء بالشام باستبداد قوصون على الدولة غصوا من مكانه ، واعتزموا على البيعة لاحمد بن الملك الناصر ، وكان يومئذ بالـكرك مقيماً منذ ولاه أبوه امارتهـا كما قدّمنــاه فكاتبه طشتمر نائب حمص وأخضر نائب حلب . واستدعاه الى الملك وبلغ الخبر الى مصر فخرج قطلو بغا في العسـاكر لحصار الـكرك ، وبعثوا الى طنبغــا الصالحي نائب دمشق ، فسار في العساكر الى حلب للقبض على طشتمر نائب حمص ، وأخضر . وكان قطلو بغا الفخري قد استوحش من صاحبه قوصون ، وغص باستبداده عليه . فلما فصل بالجند من مصر بعث ببيعته الى أحمد بن

الملك الناصر بالكرك، وسار الى الشام فأقام دعوته في دمشق ودعا اليها طقرمرد نائب حماة فأجابه وقدم عليه، وانتهى الخبر الى طنبغا نائب دمشق وهو يحاصر حلب فافرج عنها، ودعاه قطلو بغا الى بيعة أحمد فأبى فانتقض عليه أصحابه وسار الى مصر، واستولى قطلو بغا الفخري على الشام أجمع بدعوة أحمد. وبعث الى الامراء بمصر فأجابوا اليها.

واجتمع ايدغمش وأقسنقر السلاري وغازي ومن تبعهم من الامراء على البيعة لاحمد، واستراب بهم قوصون كافل المملكة. وهمّ بالقبض عليهم، وشاور طنبغا اليحياوي من عنده من أصحابه في ذلك فغشوه وخذلوه، وركب القوم ليلاً. وكان ايدغمش عنده بالاصطبل وهو أمير الماصورية، وهم قوصون بالركوب فخذله وثنى عزمه. ثم ركب معهم واتصلت الهيعة ونادى في الغوغاء بنهب بيوت قوصون فنهبوها وخربوها، وخربوا الحمامات التي بناها بالقرافة تحت القلعة. ونهب شيخها شمس الدين الاصفهاني فسلبوه ثيابه، وانطلقت أيدي الغوغاء في البلد، ولحقت الناس منهم مضرات في بيوتهم. واقتحموا بيت حسام الدين الغوري قاضي الحنفية فنهبوه وسبوا عياله. وقادهم اليه بعض من كان يحنق عليه من الخصوم فجرت عليه معرّة من ذلك.

ثم اقتحم ايدغمش وأصحابه القلعة، وتقبضوا على قوصون وبعثوا به الى الاسكندرية فمات في محبسه، وكان قوصون قد

أخرج جماعة من الامراء للقاء طنبغا الصالحي فسار قراسنقر السلاوي في اثرهم، وتقبض عليهم وعلى الصالحي، وبعث بهم جميعاً الى الاسكندرية فيما بعد سنة خمس وأربعين. وبعث لاحمد بن الملك الناصر وطير اليه بالخبر، وتقبض على جماعة من الامراء واعتقلهم. ثم قدم السلطان أحمد من الكرك في رمضان سنة اثنتين وأربعين ومعه طشتمر نائب حمص وأخضر نائب حلب وقطلو بغا الفخري، فولى طشتمر نائباً بمصر وقطلوبغا الفخري بعثه الى دمشق نائباً. ثم قبض على أخضر لشهر أو نحوه. وقبض على ايدغمش وأقسنقر السلاري. ثم ولى ايدغمش على حلب، وبلغ الخبر الى قطلو بغا الفخري قبل وصوله الى دمشق فعدل الى حلب، واتبعته العساكر فلم يدركوه. وتقبض على ايدغمش بحلب وبعث به الى مصر فاعتقل مع طشتمر، وارتاب الامراء بأنفسهم. واستوحش السلطان منهم انتهى والله أعلم.

مسير السلطان احمد الى الكرك واتفاق الامراء على خلعه والبيعة لاخيه الصالح

ولما استوحش الامراء من السلطان وارتاب بهم ارتحل الى الكرك لثلاثة أشهر من بيعته، واحتمل معه طشطمر وايدغمش معتقلين، واستصحب الخليفة الحاكم واستوحش نائب صفد بيبرس الاحمدي. وسار الى دمشق وهي يومئذ فوضى فتلقاه العسكر

وأنزلوه، وبعث السلطان في القبض عليه فأبى من اعطاء يده. وقال انما الطاعة لسلطان مصر، وأما صاحب الكرك فلا. وطالت غيبة السلطان أحمد بالكرك، واضطرب الشام فبعث اليه الامراء بمصر في الرجوع الى دار ملكه فامتنع، وقال هذه مملكتي أنزل من بلادها حيث شئت. وعمد الى طشتمر وايدغمش الفخري فقتلها فاجتمع الامراء بمصر وكبيرهم بيبرس العلاني وارغون الكاملي وخلعوه، وبايعوا لاخيه اسمعيل في محرّم سنة ثلاث وأربعين ولقبوه الصالح. فولي أقسنقر السلاري، ونقل ايدغمش الناصري من نيابة حلب الى نيابة دمشق. وولى مكانه بحلب طقرمرد. ثم عزل ايدغمش من دمشق ونقل اليها طقرمرد، وولى بحلب طنبغا المارداني، ثم هلك المارداني فولي مكانه طنبغا اليحياوي واستقامت أموره، والله تعالى ولي التوفيق.

ثورة رمضان بن الناصر ومقتله وحصار الكرك ومقتل السلطان احمد

ثم أن بعض المماليك داخل رمضان بن الملك الناصر في الثورة بأخيه وواعدوه قبة النصر فركب اليهم، وأخلفوه فوقف في مماليكه ساعة يهتفون بدعوته. ثم استمر هارباً الى الكرك واتبعه العسكر مجدّين السير في الطريق، وجاؤا به فقتل بمصر. وارتاب السلطان بالكثير من الامراء وتقبض على نائبه أقسنقر السلاري

وبعث به الى الاسكندرية فقتل هنالك، وولى مكانه انجاح الملك . ثم سرّح العساكر سنة أربع وأربعين لحصار الكرك مترادفة ونزع بعض العساكر عن السلطان أحمد من الكرك فلحقوا بمصر، وكان آخر من سار من الامراء لحصار الكرك قاري ومساري سنة خمس وأربعين فأخذوا بمخنقه. ثم اقتحموا عليه وملكوه وقتلوه فكان لبث بالملك في مصر ثلاثة أشهر وأياماً، وانتقل الى الكرك في محرّم سنة ثلاث وأربعين الى أن حوصر ومثل به. وتوفي في أيامه طنبغا المارداني نائب حلب، فولي مكانه طنبغا اليحياوي وسيف الدين طراي الجاشنكير نائب طرابلس فولي مكانه اقسنقر الناصري، والله تعالى أعلم .

وفاة الصالح بن الناصر وولاية أخيه الكامل

ثم توفي الملك الصالح اسمعيل بن الملك الناصر حتف أنفه سنة ست وأربعين لثلاث سنين وثلاثة أشهر من ولايته، وبويع بعده أخوه زين الدين شعبان ولقب الكامل وقام بأمره أرغون العلاوي وولي نيابة مصر. وعرض انجاح الملك الى صفد، ثم ردّه من طريقه معتقلًا الى دمشق، وبعث الى القماري الكبير فبعثه الى حبس الاسكندرية، واستدعى طقرمرد نائب دمشق وكجك الاشرف المخلوع بن الناصر الذي ولاه قوصون، وهلك انجاح الملك الجوكندار في محبسه بدمشق انتهى والله أعلم .

مقتل الكامل وبيعة اخيه المظفر حاجي

كان السلطان الكـامل قد أرهف حدّه في الاستبـداد على أهل دولته فراراً مما يتوهم فيهم من الحجر عليه، فتراسل الامراء بمصر والشام، وأجمعوا الادالة منهم. وانتقض طنبغا اليحيـاوي ومن معه بدمشق سنة سبع وأربعين، وبرز في العساكر يريد مصر. وبعث الكـامل منجو اليوسفي يستطلع أخبارهم فحبسه اليحياوي. واتصل الخبر بالكامل فجرّد العساكر الى الشام واعتقل حاجي وأمير حسين بالقلعة، واجتمع الامراء بمصر للثورة، وركبوا الى قبة النصر مع ايدمر الحجازي وأقسنقر الناصري وأرغون شاه فركب اليهم الكـامل في مواليه، ومعه ارغون العلاوي نائبـه فكانت بينهما جولة هلك فيها أرغون العلاوي.

ورجع الكـامل الى القلعة منهزماً، ودخـل من باب السر مختفياً، وقصد محبس أخويه ليقتلهما فحال الخدام دونهما وغلقوا الابواب، وجمع الذخيرة ليحملها فعاجلوه عنها ودخـلوا القلعة وقصدوا حاجي بن الناصر فأخرجوه من معتقله، وجاؤا به فبايعوه ولقبوه المظفر. وافتقدوا الكامل وتهـدّدوا جواريه بالقتل فدلوا عليه، واعتقـل مكان حاجي بالدهشـة، وقتل في اليوم الثاني وأطلق حسين وقـام بأمر المظفر حاجي أرغون شاه الحجازي، وولوا طقتمر الأحمدي نائباً بحلب والصلاحي نائباً بحمص، وحبس

جميع موالي الكامل، وأخرج صندوق من بيت الكامل قيل ان فيه السحر فأحرق بمحضر الامراء، ونزع المظفر حاجي الى الاستبداد كما نزع أخوه فقبض على الحجازي والناصري وقتلهما لاربعين يوماً من ولايته، وعلى ارغون شاه وبعثه نائباً الى صفد.

وجعل مكان طقتمر الاحمدي في حلب تدمر البدري، وولى على نيابتة الحاج أرطاي، وأرهفّ حدّه في الاستبداد. وارتاب الامراء بمصر والشام، وانتقض اليحياوي بدمشق سنة ثمان وأربعين وداخله نواب الشام في الخلاف. ووصل الخبر الى مصر فاجتمع الامراء وتواعدوا للوثوب. ونمي الخبر الى المظفر فأركب مواليه من جوف الليل وطافوا بالقامة، وتداعى الامراء الى الركوب واستدعاهم من الغد الى القصر، وقبض على كل من اتهمه منهم بالخلاف، وهرب بعضهم فأدرك بساحة البلد واعتقلوا جميعاً وقتلوا من تلك الليلة. وبعث بعضهم الى الشام فقتلوا بالطريق وولى من الغد مكانهم خمسة عشرة اميراً ووصل الخبر الى دمشق فلاذ اليحياوي بالمغالطة يخادع بها. وقبض على جماعة من الامراء. وكان السلطان المظفر قد بعث الامير ألجيقا من خاصته الى الشام عندما بلغه انتقاض طنبغا اليحياوي يستطلع أخباره، فحمل الناس على طاعة المظفر وأغراهم باليحياوي حتى قتلوه، وبعثوا برأسه الى مصر وسكنت الفتنة، واستوسق الملك للمظفر والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل المظفر حاجي بن الناصر وبيعة اخيه حسن الناصر ودولته الاولى

قد كنا قدّمنا أنّ السلطان بعث جبقا الى الشام حتى يهده ومحا أثر الخلاف منه، ورجع الى السلطان سنة ثمان وأربعين وقد استوسق أمره فوجد الامراء مستوحشين من السلطان ومنكرين عليه اللعب بالحمام فتنصح له بذلك يريد اقلاعه عنه، فسخط ذلك منه وأمر بالحمام فذبحت كلها. وقال لجبقا أنا أذبح خياركم كما ذبحت هذه فاستوحش جبقا وغدا على الامراء والنائب بيقاروس وثاروا بالسلطان وخرجوا الى قبة النصر وركب المظفر في مواليه والامراء الذين معه قد داخلوا الآخرين في الثورة، ورأيهم واحد في خلعه فبعث اليهم الامير شيخوا يتلطف لهم فأبوا إلا خلعه فجاءهم بالخبر.

ثم رجع اليهم وزحف معهم ولحق بهم الامراء الذين مع المظفر عندما تورّط في اللقاء وحمل عليه بيقاروس فأسلمه أصحابه وأمسكه باليد فذبحه في تربة أمّه خارج القلعة . ودفن هناك ودخلوا القلعة في رمضان من السنة وأقاموا عامّة يومهم يتشاورون فيمن يولونه حتى همّ أكثر الموالي بالثورة والركوب الى قبة النصر، فحينئذ بايعوا حسن بن الملك الناصر ولقبوه الناصر بلقب أبيه فوكل بأخيه حسين ومواليه لنفسه، ونقل المال الذي بالحوش فوضعه بالخزانة .

وقام بالدولة ستة من الامراء وهم : شيخوا وطاز والجبقا وأحمد شادي والشرنخاناه وأرغون الاسماعيلي ، والمستبدّ عليهم جميعاً بيقاروس ، ويعرف بالقاسمي فقتل الحجازي وأقسنقر القائمين بدولة المظفر بمحبسها بالقلعة . وولى بيقاروس نائباً بمصر ، فكان أرقطاي وأرغون شاه نائباً بحلب مكان تدمر البدري . ثم نقله الى دمشق منذ مقتل اليحياوى وولى مكانه بحلب أياس الناصر . ثم تقبض بيقاروس على رفيقه أحمد شادي الشرنخاناه وغرّبه الى صفد وأبعد الجبقا من رفقته وبعثه نائباً على طرابلس . وبعث أرغون الاسماعيلي منهم نائباً على حلب .

وفي هذه السنة وقعت الفتنة بينه وبين مهنا بن عيسى ، ولقيه فهزمه ووفد أحمد أخوه على السلطان فولّاه امارة العرب وهدأت الفتنة بينهم ، ثم هلك سنة تسع وأربعين بعدها وولي أخوه فياض كما مرّ في أخبارهم والله تعالى أعلم .

مقتل ارغون شاه نائب دمشق

كان خبر هذه الواقعة الغريبة أنّ الجبقا بعثوه نائباً على طرابلس ، وسار صحبة اياس الحاجب نائباً على حلب سنة خمسين ، وانتهوا الى دمشق . ونما الى الجبقا عن أرغون شاه أنه تعرض لبعض حرمه بصنيع جمع فيه نسوان أهل الدولة بدمشق فكتب اليه ليلًا وطرقه في بيته . فلما خرج اليه قبض عليه وذبحه في

دبيع ، وصنع مرسوماً سلطانياً دافع به الناس والامراء ، واستصفى أمواله ولحق بطرابلس . وجاء الامر من مصر باتباعه وانكار المرسوم الذي أظهروه فزحفت العساكر من دمشق ، وقبضوا على الجبقا واياس الحاجب بطرابلس وجاؤا بهما الى مصر فقتلا . وولي الشمس الناصري نيابة دمشق مع ارغون شاه ، وصلب ارغون الكافلي ، وذلك في جمادى سنة خمسين . وأصل ارغون شاه من بلاد الصين ، جُلب الى السلطان أبي سعيد ملك التتر ببغداد فأعطاه للامير خواجا نائب جوبان ، وأهداه خواجا للملك الناصر فحظي عنده وقدّمه رأس نوبة ، وزوّجه بنت عبد الواحد . ثم ولاه الكامل استاذ دار ثم عظمت مرتبته أيام المظفر وجعل نائباً في صفد ، ثم في حلب . ولما حبس طنبغا اليحياوي على دمشق بسعاية الجبقا كما مرّ ولّى ارغون شاه بدمشق ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

تاريخ العلامة

ابن خلدون

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوي السلطان الاكبر
وهو تاريخ وحيد عصره
العلامة عبد الرحمن
ابن خلدون المغربي

المجلد الخامس

من تاريخ العلامة ابن خلدون

القسم الخامس

١٠

دار الكتاب اللبناني بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلد الخامس

القسم الخامس

من تاريخ العلامة ابن خلدون

نكبة بيقاروس

ثم انّ السلطان حسن شرع في الاستبداد ، وقبض على منجك اليوسفي استاذ داره وعلى السلحدار واعتقلهما من غير مشورة بيقاروس وأصحابه . وكان لمنجك اختصاص ببيقاروس واخوه معه فارتاب ، واستأذن السلطان في الحج هو وطاز فأذن لهما ، ودس الى طاز بالقبض على بيقاروس وسارا لشأنهما ، فلما نزلا بالينبع قبض طاز على بيقاروس فخرج ورغب اليه ان يتركه يحج مقيداً فتركه . فلما قضى نسكه ورجعوا حبسه طاز بالكرك

بأمر السلطان، وأفرج عنه بعد ذلك، وولي نيابة حلب وانتقض بها كما نذكر بعد ان شاء الله تعالى. وبلغ خبر اعتقاله الى أحمد شادي الشرنخاناه بصفد فانتقض وجهز السلطان اليه العساكر فقبض عليه، وجيء به الى مصر فاعتقل بالاسكندرية، وقام بالدولة مغلطاي من أمرائها، والله تعالى أعلم.

واقعة الظاهر ملك اليمن بمكة واعتقاله ثم اطلاقه

كان ملك اليمن وهو المجاهد علي بن داود المؤيد قد جاء الى مكة حاجاً سنة احدى وخمسين، وهي السنة التي حج فيها طاز وشاع في الناس عنه أنه يروم كسوة الكعبة فتنكر وفد المصريين لوفد اليمنيين، ووقعت في بعض الايام هيعة في ركب الحاج فتحاربوا وانهزم المجاهد وكان بيقاروس مقيداً فأطلقه وأركبه ليستعين به فجلا في تلك الهيعة، وأعيد الى اعتقاله ونهب حاج اليمن. وقيد المجاهد الى مصر فاعتقل بها حتى أطلق في دولة الصالح سنة اثنتين وخمسين، وتوجه معه قشتمر المنصوري ليعيده الى بلاده. فلما انتهى الى الينبع أشيع عنه انه همّ بالهرب فقبض عليه قشتمر المنصوري وحبسه بالكرك. ثم أطلق بعد ذلك وأعيد الى ملكه والله أعلم.

خلع حسن الناصر وولاية اخيه الصالح

لما قبض السلطان حسن على بيقاروس وحبسه وتنكر لاهل دولته ورفع عليهم مغلطاي واختصه، واستوحشوا لذلك وتفاوضوا وداخل طاز وهو كبيرهم جماعة من الامراء في الثورة . وأجابه الى ذلك بيقو الشمسي في آخرين واجتمعوا لخلعه. وركبوا في جمادى سنة اثنتين وخمسين فلم يمانعهم أحد ، وملكوا أمرهم ودخلوا القلعة وقبض طاز على حسن الناصر واعتقله، وأخرج أخاه حسيناً من اعتقاله فبايعه ولقبه الصالح وقام بحمل الدولة . وأخرج بيقو الشمسي الى دمشق وبيقر الى حلب أسيرين ، وانفرد بالامر. ثم نافسه أهل الدولة واجتمعوا على الثورة ، وتولى كبر ذلك مغلطاي ومنكلي وبيبغا القمري ، وركبوا فيمن اجتمع اليهم الى قبة النصر للحرب، فركب طاز وسلطانه الصالح في جموعه وحمل عليهم ففض جمعهم وأثخن فيهم. وقبض على مغلطاي ومنكلي فحبسهما بالاسكندرية ، وأفرج عن منجك وعن شيخو وجعله أتابكه على العساكر وأشركه في سلطانه، وولى سيف الدين ملاي نيابته، واختص سرغتمش ورقاه في الدولة، وقبض على الشمسي المحمدي نائب دمشق ونقل اليها لمكانه ارغون الكاملي من حلب ، وأفرج عن بيقاروس بالكرك وبعثه مكانه الى حلب ثم تغير منجك واختفى بالقاهرة ، والله تعالى أعلم .

انتقاض بيقاروس واستيلاؤه على الشام ومسير السلطان اليه ومقتله

قد تقدّم لنا ذكر بيقاروس وقيامه بدولة حسن الاولى ونكبته في طريقه الى الحج بالكرك ، ولما أطلقه طاز وولاه على حلب أدركته المنافسة والغيرة من طاز واستبداده بالدولة فحدّثته نفسه بالخلاف ، وداخل نواب الشام . ووافقه في ذلك بالكمش نائب طرابلس وأحمد شادي الشرقخاناه نائب صفد ، وخالفه أرغون الكاملي نائب دمشق وتمسك بالطاعة ، وتماقد هؤلاء على الخلاف مع شيخو وسرغتمش في رجب سنة ثلاث وخمسين . ثم دعا بيقاروس العرب والتركمان الى الموافقة فأجابه خبار بن مهنا من العرب ، وقراجا بن العادل من التركمان في جموعها . وبرز من حلب يقصد دمشق فأجفل عنها أرغون النائب الى غزة ، واستخلف عليها الجيقا العادلي ، ووصل بيقاروس فملكها وامتنعت القلعة فحاصرها وكثر العيث من عساكره في القرى . وسار السلطان الصالح وأمراء الدولة من مصر في العساكر في شعبان من السنة ، وأخرج معه الخليفة المعتضد أبا الفتح أبا بكر بن المستكفي ، وعثر بين يدي خروجه على منجك ببعض البيوت لسنة من اختفائه ، فبعث به سر غتمش الى الاسكندرية وبلغ بيقاروس

خروج السلطان من مصر فأجفل عن دمشق، وثار العوام بالتركمان فأثخنوا فيهم .

ووصل السلطان الى دمشق ونزل بالقلعة وجهز العساكر في اتباع بيقاروس فجاؤا بجماعة من الامراء الذين كانوا معه ، فقتل السلطان بعضهم ثالث الفطر وحبس الباقين . وولى على دمشق الامير علياً المارداني ، ونقل منها أرغون الكاملي الى حلب ، وسرّح العساكر في طلب بيقاروس من مغلطاي الدوادار . وعاد الى مصر فدخلها في ذي القعدة من السنة وسار مغلطاي في طلب بيقاروس وأصحابه فأوقع بهم وتقبض على بيقاروس وأحمد وقطلمش وقتلهم ، وبعث برؤسهم الى مصر أوائل سنة أربع وخمسين . وأوعز السلطان الى أرغون الكاملي نائب حلب بأن يخرج في العساكر لطلب قراجا بن العادل مقدم التركمان ، فسار الى بلده البلسين فوجدها مقفرة ، وقد أجفل عنها فهدمها أرغون واتبعه الى بلاد الروم . فلما أحسّ بهم اجفل ولحق بابن ارشا قائد المغل في سيواس ، ونهب العساكر احياءه واستاقوا مواشيه . ثم قبض عليه ابن ارشا قائد المغل وبعث به الى مصر فقتل بها وسكنت الفتنة ، وأطلق المعتقلون بالاسكندرية ، وتأخر منهم مغلطاي ومنجك أياماً . ثم اطلقا وغربا الى الشام ، والله تعالى اعلم .

واقعة العرب بالصعيد

وفي أثناء هذه الفتن كثر فساد العرب بالصعيد وعيثهم ، وانتهبوا الزروع والاموال وتولى كبر ذلك الاحدب ، وكثرت جموعه فخرج السلطان في العساكر سنة أربع وخمسين ومعه طاز. وسار شيخو في المقدمة فهزم العرب واستلحم جموعهم ، وامتلأت ايدي العساكر بغنائمهم . وخلص السلطان من الظهر والسلاح ما لا يعبر عنه . وأسر جماعة منهم فقتلوا وهرب الاحدب حتى استأمن بعد رجوع السلطان ، فأمنه على أن يمتنعوا من ركوب الخيل وحمل السلاح ويقبلوا على الفلاحة ، والله تعالى أعلم .

خلع الصالح وولاية حسن الناصر الثانية

كان شيخو أتابك العساكر قد ارتاب بصاحبه طاز فداخل الامراء بالثورة بالدولة ، وتربص بها الى أن خرج طاز سنة خمس وخمسين الى البحيرة متصيداً ، وركب الى القلعة فخلع الصالح ابن بنت تنكز وقبض عليه وألزمه بيته لثلاث سنين كوامل من دولته . وبايع لحسن الناصر أخيه ، وأعاده الى كرسيه وقبض على طاز فاستدعاه من البحيرة فبعثه الى حلب نائباً . وعزل ارغون الكاملي فلحق بدمشق حتى تقبض عليه سنة ست وخمسين ، وسيق الى الاسكندرية فحبس بها وبلغ الخبر بوفاة الشمسي الاحمدي

نائب طرابلس، وولى مكانه منجك. واستبدّ شيخو بالدولة وتصرّف بالامر والنهي. وولى على مكة عجلان بن رميثة وأفرده بامارتها، وكانت له الولاية والعزل والحلّ والعقد سائر أيامه، واعتمده الملوك من النواحي شرقاً وغرباً بالمخاطبات. وكان رديفه في حمل الدولة سرغتمش من موالي السلطان، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده بمنه.

مهلك شيخو ثم سرغتمش بعده واستبداد السلطان بامره

لم يزل شيخو مستبداً بالدولة وكافلًا للسلطان حتى وثب عليه يوماً بعض الموالي بمجلس السلطان في دار العدل في شعبان سنة ثمان وخمسين، واعتمده في دخوله من باب الايوان وضربه بالسيف ثلاثاً أصاب بها وجهه ورأسه وذراعيه فخرّ لليدين، ودخل السلطان بيته وانفض المجلس. واتصلت الهيعة بالعسكر خارج القلعة فاضطربوا، واقتحم موالي شيخو القلعة الى الايوان يقدمهم خليل ابن قوصون، وكان ربيبه، لان شيخو تزوّج بأمّه فاحتمل شيخو الى منزله. وأمر الناصر بقتل المملوك الذي ضربه فقتل ليومه، وعاده الناصر من الغد وتوجل من الوثبة أن تكون بأمره. وأقام شيخو عليلًا الى أن هلك في ذي القعدة من السنه، وهو أول من سمي الامير الكبير بمصر. واستقلّ سرغتمش رديفه بحمل الدولة. وبعث عن طاز فأمسكه بحلب وحبسه بالاسكندرية، وولى

مكانه الامير علياً المارداني ، نقله اليها من دمشق ، وولى مكانه بدمشق منجك اليوسفي .

ثم تقبض السلطان على سرغتمش في رمضان سنة تسع وخمسين ، وعلى جماعة من الامراء معه مثل : مغلطاي الدوادار ، وطشتمر القاسمي الحاجب ، وطنبغا الماجاري ، وخليل بن قوصون ، ومحا السلحدار وغيرهم . وركب مواليه وقاتلوا مماليك السلطان في ساحة القلعة صدر نهار ، ثم انهزموا وقتلوا واعتقل سرغتمش وجماعته المنكوبون بالاسكندرية ، وقتل بمحبسه لسبعين يوماً من اعتقاله . وتخطت النكبة الى شيعته وأصحابه من الامراء والقضاة والعمال . وكان الذي تولى نكبة هؤلاء كلهم بأمر السلطان منكلي بيبقا الشمسي .

ثم استبدّ السلطان بملكه واستولى على أمره ، وقدم مملوكه بيبقا القمري وجعله أمير ألف . وأقام في الحجابة الجاي اليوسفي ، ثم بعثه الى دمشق نائباً ، واستقدم منجك نائب دمشق . فلما وصل الى غزة استتر واختفى فولى الناصر مكانه بدمشق الامير علياً المارداني ، نقله من حلب ، وولى على حلب سيف الدين بكتمر المؤمني . ثم أدال من علي المارداني في دمشق باستدمر ، ومن المؤمني في حلب بمندمر الحوراني ، وأمره السلطان سنة احدى وستين بغزو سيس وفتح أذنة وطرسوس والمصيصة في حصون أخرى ، وولى عليها ورجع فولاه السلطان نيابة دمشق مكان

استدمر ، وولى على حلب أحمد بن القتمري . ثم عثر بدمشق سنة احدى وستين على منجك بعد أن نـال العقاب بسببه جماعة من الناس . فلما حضر عفا عنه السلطان وأمدّه وخيره في النزول حيث شاء من بلاد الشام . وأقام السلطان بقية دولته مستبداً على رجال دولته وكان يأنس بالعلماء والقضاة ويجمعهم في بيته متبذلاً ، ويفاوضهم في مسائل العلم ، ويصلهم ويحسن اليهم ويخالطهم أكثر ممن سواهم الى أن انقرضت دولته ، والبقاء لله وحده .

ثورة بيبقا ومقتل السلطان حسن وولاية منصور ابن المعظم حاجي في كفالة بيبقا

كان بيبقا هذا من موالي السلطان حسن وأعلاهم منزلة عنده ، وكان يعرف بالخاصكي نسبة الى خواص السلطان . وكان الناصر قد رقّاه في مراتب الدولة وولاه الامارة ، ثم رفعه الى الاتابكية وكان لجنوحه الى الاستبداد كثيراً ما يبوح بشكاية مثل ذلك . فأحضره بعض الليالي بين حرمه وصرفه في جملة من الخدمة لبعض مواليه ، وقادها فأسرّها بيبقا في نفسه واستوحش . وخرج السلطان سنة اثنتين وستين الى كوم برّى وضرب بها خيامه ، وأذن للخاصكي في مخيمه قريباً منه . ثم نمي عنه خبر الانتقاض فأجمع القبض عليه ، واستدعاه فامتنع من الوصول ، وربما أشعره داعيه بالاسترابة فركب اليه الناصر بنفسه فيمن حضره من مماليكه

وخواص أمرائه تاسع جمادى من السنة. وبرز اليه بيبقا وقد أنذر به واعتد له فصدقه القتال في ساحة مخيمه.

وأنهزم أصحاب السلطان عنه ومضى الى القلعة وبيبقا في اتباعه فامتنع الحراس بالقلعة من اخافة طارقة جوف الليل فتسرب في المدينة واختفى في بيت الامير بن الازكشي بالحسينية، وركب الامراء من القاهرة مثل ناصر الدين الحسيني وقشتمر المنصوري وغيرهما لمدافعة بيبقا فلقيهم ببولاق وهزمهم، واجتمع ثانية وثالثة وهزمهم. وتنكر الناصر مع ايدمر الدوادار يحاولان النجاة الى الشام واطلع عليهما بعض المماليك فوشى بهما الى بيبقا فبعث من أحضره فكان آخر العهد به. ويقال إنه امتحنه قبل القتل فدله على أموال السلطان وذخائره، وذلك لست سنين ونصف من تملكه.

ثم نصب بيبقا للملك محمد بن المظفر حاجي ولقبه المنصور، وقام بكفالته وتدبير دولته، وجعل طنبغا الطويل رديفه. وولى قشتمر المنصوري نائباً، وغشتمر أمير مجلس، وموسى الازكشي أستاذ دار. وأفرج عن القاسمي وبعثه نائباً بالكرك، وأفرج عن طاز وقد كان عمي فبعثه الى القدس بسؤاله ثم الى دمشق. ومات بها في السنة بعدها وأقرّ عجلان في ولاية مكة وولّى على عرب الشام جبّار بن مهنا، وأمسك جماعة من الامراء فحبسهم، والله تعالى أعلم.

انتقاض استدمر بدمشق

ولما اتصل بالشام ما فعله بيبقا، وأنه استبدّ بالدولة. وكان استدمر نائباً بدمشق كما قدّمناه امتعض لذلك، واجمع الانتقاض وداخله في ذلك مندمر وألبري ومنجك اليوسفي، واستولى على قلعة دمشق. وسار في العساكر ومعه السلطان المنصور، ووصل الى دمشق واعتصم القوم بالقلعة. وتردّدت بينهما القضاة بالشام حتى نزلوا على الامان بعد ان حلف بيبقا. فلما نزلوا اليه بعث بهم الى الاسكندريه فحبسوا بها، وولى الامير المارداني نائباً بدمشق وقطلوبغا الاحمدي نائباً بحلب مكان أحمد بن القتمري بصفد، وعاد السلطان المنصور وبيبقا الى مصر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة الخليفة المعتضد بن المستكفي وولاية ابنه المتوكل

قد تقدم لنا أن الخليفة المستكفي لما توفي قبل وفاة الملك الناصر عهد لابنه أحمد ولقبه الحاكم، وأن الناصر عدل عنه الى ابراهيم بن محمد عمّ المستكفي ولقبه الواثق. فلما توفي الناصر آخر سنة احدى وأربعين، وأعاد الامراء القائمون بالدولة والامير أحمد الحاكم بن المستكفي ولي عهده، فلم يزل في خلافته الى أن هلك سنة ثلاث وخمسين لاوّل دولة الصالح سبط تنكز. وولي بعده أخوه أبو الفتح أبو بكر بن المستكفي ولقب المعتضد. ثم توفي

سنة ثلاث وستين لعشرة أعوام من خلافته، وعهد الى ابنه أحمد فولي مكانه ولقب المستكفي، والله تعالى أعلم.

خلع المنصور وولاية الاشرف

ثم بدا البيبقا الخاصكي في أمر المنصور محمد بن حاجي فخلعه استرابة به في شعبان سنة أربع وستين لسبعة وعشرين شهراً من ولايته، ونصب مكانه شعبان بن الناصر حسن بن الملك الناصر، وكان أبوه قد توفي في ربيع الآخر من تلك السنه. وكان آخر بني الملك الناصر فمات فولي ابنه شعبان ابن عشر سنين ولقبه الاشرف، وتولى كفالته. وفي سنة خمس وستين عزل المارداني من دمشق؛ وولى مكانه منكلي بغا نقله من حلب، وولى مكانه قطلوبغا الاحمدي. وتوفي قطلوبغا فولى مكانه غشقتمر المارداني. ثم عزل غشقتمر سنة ست وستين فولى مكانه سيف الدين فرجي، وأوعز اليه سنة سبع وستين أن يسير في العساكر لطلب خليل بن قراجا بن العادل أمير التركمان فيحضره معتقلاً، فسار اليه وامتنع في خرت برت فحاصره أربعة أشهر، واستأمن خليل بعدها وجاء الى مصر فأمنه السلطان وخلع عليه، وولاه ورجع الى بلده وقومه، والله تعالى أعلم.

واقعة الاسكندرية

كان أهل جزيرة قبرص من أمم النصرانية وهم من بقايا الروم، وانما ينتسبون لهذا العهد الى الافرنج لظهور الافرنج على سائر أمم النصرانية. وإلّا فقد نسبهم هروشيوش الى كيتم وهم الروم عندهم، ونسب أهل رودس الى دوداتم وجعلهم اخوة كيتم ونسبهما معاً الى رومان. وكانت على أهل قبرص جزية معلومة يؤدّونها لصاحب مصر، وما زالت مقررة عليهم من لدن فتحها على يد معاوية أمير الشام أيام عمر. وكانوا اذا منعوا الجزية يسلط صاحب الشام عليهم أساطيل المسلمين فيفسدون مراسيها ويعيثون في سواحلها حتى يستقيموا لأداء الجزية. وتقدم لنا آنفاً في دولة الترك أن الظاهر بيبرس بعث اليها سنة تسع وستين وستمائة اسطولاً من الشواني، وطرقت مرساها ليلًا فتكسرت لكثرة الحجارة المحيطة بها في كل ناحية.

ثم غلب لهذه العصور أهل جنوة من الافرنج على جزيرة رودس، حازتها من يد لشكري صاحب القسطنطينية سنة ثمان وسبعمائة وأخذوا بمخنقها. وأقام أهل قبرص معهم بين فتنة وصلح، وسلم وحرب، آخر أيامهم. وجزيرة قبرص هذه على مسافة يوم وليلة في البحر قبالة طرابلس منصوبة على سواحل الشام ومصر. واطلعوا بعض الايام على غرة في الاسكندرية وأخبروا حاجبهم،

وعزم على انتهاز الفرصة فيها فنهض في أساطيله واستنفر من سائر الافرنج ، ووافى مرساها سابع عشر من المحرّم سنة سبع وستين في اسطول عظيم يقال بلغ سبعين مركباً مشحونة بالعدة والعدد ، ومعه الفرسان المقاتلة بخيولهم .

فلما أرسى بها قدّمهم الى السواحل وعبى صفوفه ، وزحف وقد غص الساحل بالنظارة برزوا من البلد على سبيل النزهة لا يلقون بالاً لما هو فيه ، ولا ينظرون مغبة أمره لبعد عهدهم بالحرب ، وحاميتهم يومئذ قليلة وأسوارهم من الرماة المناضلين دون الحصون خالية . ونائبها القائم بمصالحها في الحرب والسلم ، وهو يومئذ خليل بن عوام غائب في قضاء فرضه ، فما هو إلّا أن رجعت تلك الصفوف على التعبية ونضحوا العوام بالنبل فأجفلوا متسابقين الى المدينة ، وأغلقوا أبوابها وصعدوا الى الاسوار ينظرون ووصل القوم الى الباب فأحرقوه واقتحموا المدينة ، واضطرب أهلها وماج بعضهم في بعض .

ثم أجفلوا الى جهة البر بما امكنهم من عيالهم وولدهم ، وما اقتدروا عليه من أموالهم ، وسالت بهم الطرق والاباطح ذاهبين في غير وجه حيرة ودهشة . وشعر بهم الاعراب أهل الضاحية فتخطفوا الكثير منهم ، وتوسط الافرنج المدينة ونهبوا ما مروا عليه من الدور وأسواق البر ودكاكين الصيارفة ومودعات التجار ، وملأوا سفنهم من المتاع والبضائع والذخيرة والصامت ، واحتملوا

ما استولوا عليه من السبي والاسرى وأكثر ما فيهم الصبيان والنساء . ثم تسايل اليهم الصريخ من العرب وغيرهم فانكفأ الافرنج الى اساطيلهم وانكمشوا فيها بقية يومهم وأقلعوا من الغد.

وطار الخبر الى كافل الدولة بمصر الامير بيبقا فقام في ركائبه وخرج لوقته بسلطانه وعساكره ، ومعه ابن عوام نائب الاسكندرية منصرفه من الحج ، وفي مقدمته خليل بن قوصون وقطلوبغا الفخري من أمرائه وعزائمهم مرهفة ونياتهم في الجهاد صادقة ، حتى بلغهم الخبر في طريقهم باقلاع العدو فلم يثنه ذلك ، واستمرّ الى الاسكندرية وشاهد ما وقع بها من معرّة الخراب وآثار الفساد ، فأمر بهدم ذلك واصلاحه ، ورجع ادراجه الى دار الملك ، وقد امتلأت جوانحه غيظاً وحنقاً على أهل قبرص فأمر بانشاء مائة اسطول من الاساطيل التي يسمونها القربان معتزماً على غزو قبرص فيها بجميع من معه من عساكر المسلمين بالديار المصرية ، واحتفل في الاستعداد لذلك ، واستكثر من السلاح وآلات الحصار ، وكمل غرضه من ذلك كله في رمضان من السنة لثمانية اشهر من الشروع فيه فلم يقدر على تمام غرضه من الجهاد لما وقع من العوائق كما نقصه ، والله تعالى وليّ التوفيق

ثورة الطويل ونكبته

كان طنبغا الطويل من موالي السلطان حسن ، وكانت وظيفته

في الدولة أمير سلاح وهو مع ذلك رديف بيبقا في أمره ، وكان يؤمل الاستبداد ثم حدثت له المنافسة والغيرة من بيبقا كما حدثت لسائر أهل الدولة عندما استكمل أمره واستفحل سلطانه ، وداخلوا الطويل في الثورة وكان دوادار السلطان ارغون الاشقري وأستاذ دار المحمدي . وبيناهم في ذلك خرج الطويل للسرحة بالعباسية في جمادى سنة سبع وستين ، وفشا الامر بين أهل الدولة فنمي الى بيبقا واعتزم على اخراج الطويل الى الشام ، وأصدر له المرسوم السلطاني بنيابة دمشق وبعث به اليه وبالخلعة على العادة مع أرغون الاشقرى الدوادار وروس المحمدي أستاذ دارمن المداخلين له ، ومعه ارغون الارفي وطنبغا العلائي من أصحاب بيبقا ، فردهم الطويل وأساء اليهم . وواعد بيبقا قبة النصر فهزمهم وقبض على الطويل والاشقري والمحمّدي وحبسوا بالاسكندرية .

ثم شفع للسلطان في الطويل في شهر شعبان من السنة وبعثه الى القدس ، ثم أطلق الاشقري والمحمدي وبعث بهما الى الشام وولى مكان الطويل طيدمر الباسلي ومكان الاشقري في الدويدارية طنبغا الابي بكري . ثم عزله بيبقا العلائي وولى مكانه روس العادل المحمدي . وكان جماعة من الامراء أهل وظائف في الدولة قد خرجوا مع الطويل وحبسوا فولى في وظائفهم أمراء آخرين ممن لم تكن له وظيفة ، واستدعى منكلي بيبقا الشمسي نائب دمشق الى مصر يطلبه فقدم نائباً بحلب مكان سيف الدين برجي ، وآذن

له في الاستكثار من العساكر ، وجعلت رتبته فوق نائب دمشق، وولى مكانه بدمشق اقطمر عبد العزيز انتهى ، والله تعالى أعلم.

المماليك

ثورة المماليك ببيبقا ومقتله واستبداد استدمر

كان طنبغا قد طال استبداده على السلطان وثقلت وطأته على الامراء وأهل الدولة وخصوصاً على مماليكه، وكان قد استكثر من المماليك وأرهف حده لهم في التأديب وتجاوز الضرب فيهم بالعصا الى جدع الانوف واصطلام الآذان فكتموا الامر في نفوسهم وضمائرهم لذلك ووطوا على الغش. وكان كبير خواصه استدمر واقتفان الاحمدي ، ووقع في بعض الايام بمثل هذه العقوبة في أخي استدمر فاستوحش له وارتاب ، وداخل سائر الامراء في الثورة يرون فيها نجاتهم منهم . وخلصوا النجوى مع السلطان فيه واقتضوا منه الاذن . وسرّح السلطان بيبقا الى البحيرة في عام ثمان وسبعين ، وانعقد هؤلاء المماليك المتفاوضون في الثورة بمنزل الطرّانة وبيتوا له فيها ونمي اليه خبرهم ، ورأى العلامات التي قد أعطيها من أمرهم فركب مكراً في بعض خواصه وخاض النيل

الى القاهرة وتقدّم الى نواتية البحر أن يرسوا سفنهم عند العدوة الشرقية ، ويمنعوا العبور كل من يرومه العدوة الغربية .

وخالفه استدمر واقتفان الى السلطان في ليلتهم وبايعوه على مقاطعة بيبقا ونكبته . ولما وصل بيبقا الى القاهرة جمع من كان بها من الامراء والحجاب من مماليكه وغيرهم ؛ وكان بها ايبك البدري أمير ماخورية فاجتمعوا عليه . وكان يقتمر النظامي وارغون ططن بالعباسية سارحين فاجتمعوا اليه فخلع الاشرف ، ونصب أخاه أنوك ولقبه المنصور . وأحضر الخليفة فولاه واستعدّ للحرب وضرب مخيمه بالجزيرة الوسطى على عدوة البحر . ولحق به من كانت له معه صاغية من الامراء الذين مع السلطان بصحابة أو أمر أو ولاية مثل : بيبقا العلائي الدوادار ، ويونس الرمام وكمشيقا الحوي وخليل بن قوصون ويعقوب شاه وقرابقا البدري وابتغا الجوهري .

ووصل السلطان الاشرف من الطرّانة صبيحة ذلك اليوم على التعبية قاصداً دار ملكه ، وانتهى الى عدوة البحر فوجدها مقفرة من السفن فخيم هنالك ، وأقام ثلاثاً وبيبقا وأصحابه قبالتهم بالجزيرة الوسطى ينضحونهم بالنبل ، ويرسلون عليهم الحجارة من المجانيق وصواعق الانقاط ، وعوالم النظارة في السفن الى أن تتوسط فيركبونها ويحرّكونها بالمجاذيف الى ناحية السلطان ، حتى كملت منها عدّة وأكثرها من القربان التي أنشأها بيبقا ، وأجازفيها

السلطان وأصحابه الى جزيرة الفيل . وسار على التعبية ، وقد ملأت عساكره وتابعه بسيط الارض ، وتراكم القتام بالجوّ وغشيت سحابة موكب بيبقا وأصحابه فتقدموا للدفاع وصدقتهم عساكر السلطان القتـال فانفضوا عن بيبقا وتركوه أوحش من وتد في قلاع فولى منهزماً ومرّ بالميدان فصلى ركعتين عند بابه ، واستمرّ الى بيته والعوام ترجمه في طريقه .

وسار السلطان في تعبيته الى القلعة ودخل قصره ، وبعث عن بيبقا فجيء بـه واعتقل بحبس القلعة سائر يومه . فلما غشي الليل ارتاب المماليك بحياته وجاؤا الى السلطـان يطلبونه ، وقد أضمروا الفتك به وأحضره السلطان . وبينما هو مقبل على التضرّع للسلطان ضربه بعضهم فأبان رأسه ، وارتاب من كان منهم خارج القصر في قتله فطلبوا معاينته ولم يزالوا يناولون رأسه من واحد الى واحد حتى رماه آخرهم في مشعل كان بازائه . ثم دفن وفرغ من أمره ، وقام بـأمر الدولة استدمر الناصري ورديفه بيبقا الاحمدي ومعهما تجماس الطازي وقرابقا الصرغتمشي وتغري بردى ، المتولون كبر هذه الفعلة . وتقبضوا على الامراء الذين عدلوا عنهم الى بيبقا فحبسوهم بالاسكندرية . وقد مرّ ذكرهم وعزل خليل بن قوصون والزم بيته وولوا أمراء مكان المحبوسين وأهل وظائف من كانت له . واستقرّ أمر الدولة على ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

واقعة الاجلاب ثم نكبتهم ومهلك استدمر وذهاب دولته

ثم تنافس هؤلاء القائمون بالدولة وحبسوا قرابقا السرغتمشي صاحبهم ، وامتعض له تغري بردي ، وداخل بعض الامراء في الثوره ووافقه ايبك البدري وجماعة معه ، وركب منتصف رجب سنة ثمان وستين للحرب فركب له استدمر وأصحابه فتقبضوا عليهم وحبسوهم بالاسكندرية ، وعظم طغيان هؤلاء الاجلاب وكثر عيثهم في البلد وتجاوزهم حدود الشريعة والملك. وفاوض السلطان أمراءه في شأنهم فأشاروا بمعاجلتهم وحسم دائهم فنبذ السلطان اليهم العهد ، وجلس على كرسيه بالاساطيل ، وتقدّم الى الامراء بالركوب فركب الجائي اليوسفي وطغتمر النظامي وسائر أمراء السلطان ، ومن استخدموه من مماليك يبغا ؛ وتحيز اليهم ايبقا الجلب وبجاس الطازي عن صاحبها استدمر. وركب لقتالهم استدمر وأصحابه وسائر الاجلاب ، وحاصروا القلعة الى أن خرج عند الطلحساه السلطانية فاختل مركز الامراء ، وفارقهم المستخدمون عندهم من مماليك يبغا فانفض جمعهم وانهزموا .

وثبت الجائي اليوسفي وارغون التتر في سبعين من مماليكهم فوقفوا قليلاً ، ثم انهزموا الى قبة النصر ، وقتل دروط ابن أخي الحاج الملك وقبض على ايبقا الجلب جريحاً ، وعلى طغتمر النظامي وعلى بجاس الطازي والجائي اليوسفي وارغون التتر وكثير من

امراء الالوف ومن دونهم. واستولى استدمر وأصحابه الاجلاب على السلطان كما كانوا، وولى مكان المحبوسين من الامراء وأهل الوظائف، وعاد خليل بن قوصون على امرته. وعزل قشتمر عن طرابلس وحبس بالاسكندرية، واستبدل بكثير من أمراء الشام واستمرّ الحال على ذلك بقية السنة والاجلاب على حالهم في الاستهتار بالسلطان والرعية. فلما كان محرم سنة تسع وستين عادوا الي الاجلاب على الدولة، فركب امراء السلطان الى استدمر يشكونهم ويعاتبونهم في شأنهم فقبض على جماعة منهم، كسر بهم الفتنة، وذلك يوم الاربعاء سادس صفر، فلما كان يوم السبت وعاودوا الركوب ونادوا بخلع السلطان فركب السلطان في مماليكه ونحو المائتين. والتف عليهم العوام وقد حنقوا على الاجلاب بشراشرهم فيهم.

وركب استدمر في الاجلاب على التعبية وهم ألف وخمسمائة وجاؤا من وراء القلعة على عادتهم حتى شارفوا القوم فأحجموا ووقفوا وأدلفتهم الحجارة من أيدي العوامّ بالمقاليع، وحملت عليهم العساكر فانهزموا وقبض على أبقا السرغتمشي وجماعة معه فحبسوا بالخزانة. ثم جيء باستدمر أسيراً وشفع فيه الامراء فشفعهم السلطان وأطلقه باقياً على أتابكيته، ونزل الى بيته بقبض الكيس. وكان خليل بن قوصون تولى أتابكاً في تلك الفترة فأمره السلطان ان يباكر به لحبسه من الغد، فركب خليل الى بيته وحمله على الانتقاض

على أن يكون الكرسي لخليل بعلاقة نسبته الى الملك الناصر من أمه. فاجتمع منهم جماعة من الاجلاب وركبوا بالرميلة فركب اليهم السلطان والامراء في العساكر فانهزموا وقتل كثير منهم. وبعثوا بهم الى الاسكندرية فحبسوا بها وقتل كثير ممن أسر في تلك الواقعة منهم، وطيف بهم على الجمال في أقطار المدينة.

ثم تتبع بقية الاجلاب بالقتل والحبس بالثغور القاصية، وكان ممن حبس منهم بالكرك: برقوق العثماني الذي ولي الملك بعد ذلك بمصر، وبركة الجولاني، وطنبغا الجوباني، وجركس الخليلي، ونعنع، وأقاموا كلهم متلفين بين السجن والنفي الى ان اجتمع شملهم بعد ذلك كما نذكره.

واستبدّ السلطان بأمره بعض الشيء وأفرج عن الجائي اليوسفي وطغتمر النظامي وجماعة من المسجونين من امرائه، وولى الجائي أمير سلاح وولى بيبقا المنصوري وبكتمر المحمدي من أمراء الاجلاب في الاتابكية شريكين. ثم نمي عنهما أنهما يرومان الثورة واطلاق المسجونين من الاجلاب والاستبداد على السلطان فقبض عليهما. وبعث عن منكلي‌بغا الشمسي من حلب، وأقامه في الاتابكية. واستدعى أمير علي الماردِاني من دمشق وولاه النيابة، وولى في جميع الوظائف استبدالاً وانشاء بنظره واختياره.

وكان منهم مولاه أرغون الاشرفي. وما زال يرقيه في الوظائف الى أن جعله أتابك دولته وكان خالصته كما سنذكر. وولى على

حلب مكان منكلي بغا طنبغا الطويل وعلى دمشق مكان المارداني بندمر الخوارزمي. ثم اعتقله وصادره على مائة ألف دينار ونفاه الى طرطوس، وولى مكانه منجك اليوسفي نقله اليها من طرابلس وأعاد اليها غشقتمر الماردانى كما كان قبله. ثم توفي طنبغا الطويل بحلب آخر سنة تسع وستين بعد ان كان يروم الانتقاض، فولى مكانه استبغا الأبو بكري. ثم عزله سنة سبعين وولى مكانه قشتمر المنصوري، والله تعالى ولي التوفيق بمنه وفضله.

مقتل قشتمر المنصوري بحلب في واقعة العرب

كان جباز بن مهنا أمير العرب من آل فضل قد انتقض وولى السلطان مكانه ابن عمه نزال بن موسى بن عيسى، واستمرّ جباز على خلافه ووطىء بلاد حلب أيام المصيف، واجتمع اليه بنو كلاب وامتدّت أيديهم على السابلة فخرج اليهم نائب حلب قشتمر المنصوري في عساكره، فأغار على أحيائه واستاق نعمهم ومواشيهم وشره الى اصطلامهم فتذامروا دون أحيائهم، وكانت بينه وبينهم جولة أجلت عن قشتمر المنصوري وابنه محمد قتيلين، ويقال قتلهما يعبر بن جباز، ورجعت عساكر الترك منهزمين الى حلب، وذهب جباز الى القفر ناجياً به، وولى السلطان على العرب معيقيل بن فضل. ثم استأمن له جباز بن مهنا وعاود الطاعة فأعاده السلطان الى امارته، والله تعالى أعلم.

استبداد الجائي اليوسفي ثم انتقاضه ومقتله

لما أذهب السلطان الاشرف أثر الاجلاب من دولته ، وقام بعض الشيء بأمره فاستدعى منكلي بغا من حلب ، وجعله أتابكاً وأمير علي المارداني من دمشق وجعله نائباً . وولى الجائي اليوسفي أمير سلاح ، وولى اصبغا عبد الله دوادار بعد ان كان الاجلاب ولوا في الدوادارية منهم واحداً بعد واحد . ثم سخطه وولى مكانه أقطمر الصباحي ، وعمر سائر الخطط السلطانية بمن وقع عليه اختياره ، ورقى مولاه ارغون شاه في المراتب من واحدة الى أخرى ، الى أن أربى به على الاتابكية كما يأتي . وولى بهادر الجمالي استاذ دار ثم أمير الماخورية تردّد بينهما . ثم استقرّ آخراً في الماخورية وولى محمد بن اسقلاص استاذ دار ، وولى بيبقا النـاصري الحجابه بعد وظائف أخرى نقله منها . وزوّج أمّه الجائي اليوسفي فعلت رتبته بذلك في الدولة ، واستغلظ أمره وأغلظ له الدوادار يوماً في القول فنفي ، وولى مكانه منكوتمر عبد الغني .

ثم عزل سنة اثنتين وسبعين لسنة من ولايته ، وولى السلطان مكانه طشتمر العلائي الذي كان دوادار البيبقا ، واستقرّت الدولة على هذا النمط والجائي اليوسفي مستبدّ فيها ؛ ووصل وفود منجك من الشام سنة أربع وسبعين بما لا يعبر عنه . اشتمل على الخيل والبخاتي المجللة والجمال والهجن والقماش والحلاوات والحلي

والطرف والمواعين، حتى كان فيها من الكلاب الصائدة والسباع والابل ما لم ير مثله في أصنافه. ثم وصل وفود قشتمر المارداني من حلب على نسبة ذلك، والله تعالى أعلم .

انتقاض الجائي اليوسفي ومهلكه واستبداد الأشرف بملكه من بعده

لم تزل الدولة مستقرّة على ما وصفناه الى أن هلك الامير منكلي بغا الأتابك منتصف سنة أربع وسبعين، واستضاف الجائي اليوسفي الاتابكية الى ما كان بيده ورتبته أشد من ذلك كله، وهو القائم المستبد بها. ثم توفيت أمّ السلطان وهي في عصمته فاستحق منها ميراثاً دعاه لؤم الاخلاق فيه الى المماحكة في المخلف وتجافى السلطان له عن ذلك إلّا أنه كان ضيق الصدر شرس الاخلاق فكان يغلظ القول بما يخشن الصدور، فأظلم الجوّ بينه وبين السلطان، وتمكنت فيه السعاية. وذكرت هذه انتقاضه الاول، وذلك أنه كان سخط في بعض النزعات على بعض العوام من البلد فامر بالركوب الى العامة وقتلهم فقتل منهم كثير ونمي الخبر الى السلطان على ألسنة أهل البصائر من دولته، وعذلوه عنده فاستشاط السلطان وزجره وأغلظ له فغضب، وركب الى قبة النصر منتقضاً. وذهب السلطان في مداراة أمره الى الملاطفة واللين .

وكان الاتابك منكلي بغا يوم ذاك حياً فأوعز السلطان اليه فرجع وخلع عليه وأعاده الى أحسن ما كان. فلما بدرت هذه الثانية حذر السلطان بطانته من شأنه، وخرج هو منتقضاً وركب في مماليكه بساحة القلعة. وجلس السلطان وتردّدت الرسل بينهما بالملاطفة فأصرّ واستكبر، ثم أذن السلطان لمماليكه في قتاله وكان أكثرهم من الاجلاب مماليك بيبقا، وقد جمعهم السلطان واستخدمهم في جملة ابنه أمير علي ولي عهده، فقاتلوه في محرّم سنة خمس وتسعين؛ وكان موقفه في ذلك المعترك الى حائط الميدان المتصل بالاساطيل فنفذت له المقاتلة من داخل الاساطيل ونضحوه بالسهام، فتنحى عن الحائط حتى اذا حل مركزه ركبوا خيولهم وخرجوا من باب الاساطيل.

وصدقوا عليه الحملة فانهزم الى بركة الحبش ورجع من وراء الجبل الى قبة النصر، فأقام بها ثلاثاً والسلطان يراوضه وهو يشتط وشيعه يتسللون عنه. ثم بعث اليه السلطان لمة من العسكر ففر أمامهم الى قليوب، واتبعوه فخاض البحر وكان آخر العهد به. ثم أخرج شلوه ودفن وأسف السلطان لمهلكه، ونقل أولاده الى قصره ورتب لهم ولحاشيته الارزاق في ديوانه. وقبض على من اتهمه بمداخلته وأرباب وظائفه فصودروا كلهم وعزلوا وغربوا الى الشام. واستبد السلطان بأمره، واستدعى ايدمر القري الدوادار، وكان نائباً بطرابلس فولاه أتابكاً مكان الجائي ورفع رتبته.

وولى أرغون شاه وجعله أمير مجلس ، وولى سرغتمش من مواليه أمير سلاح ، واختص بالسلطان طشتمر الدوادار وناصر الدين محمد ابن اسقلاص استاذ دار ، فكانت أمور الدولة منقسمة بينهما ، وتصاريفها تجري بسياستهما الى ان كان ما نذكره ، والله تعالى ولي التوفيق .

استقدام منجك للنيابة

كان أمير علي المارداني قد توفي سنة اثنتين وسبعين ، وبقيت وظيفته خلواً المكان الجائي اليوسفي وأحكامه . ولماهلك سنة خمس وسبعين ولى السلطان أقطمر عبد الغني نائباً . ثم بدا له أن يولي في النيابة منجك اليوسفى لما رآه فيه من الأهلية لذلك والقيام به ، ولتقلبه في الامارة منذ عهد الناصر حسن ، وأنه كان من مواليه أخاً لبيبقا روس وطاز وسرغتمش فهو بقية المناجب . فلما وقع نظره عليه بعث في استقدامه بيبقا الناصري من أمراء دولته ، وولى مكانه بندمر الخوارزمي ، وأعاد عشقتمر الى حلب مكانه . ووصل منجك الى مصر آخر سنة خمس وسبعين ومعه مماليكه وحاشيته ، وصهر إلى روس المحمدي فاحتفل السلطان في تكرمته ، وأمر أهل الدولة بالركوب لتلقيه ، فتلقاه الامراء والعساكر وأرباب الوظائف من القضاء والدواوين وأذن له في الدخول من باب السرّ راكباً وخاصة السلطان مشاة بين يديه حتى

نزل عند مقاعد الطواشية بباب القصرحيث يجلس مقدم المماليك.

ثم استدعي الى السلطان فدخل ، وأقبل عليه السلطان وشافهه بالنيابة المطلقة ، وفوّض اليه الولاية والعزل في سائر المراتب السلطانية من الوزراء والخواص والقضاة والاوقاف وغيرها ، وخلع عليه وخرج . ثم قرر تقليده بذلك في الايوان ثاني يوم وصوله فكان يوماً مشهوداً . وولى الاشرف في ذلك اليوم بيبقا الناصري الذي قدم به حاجباً . ثم سافر عشقتمر نائب حلب آخر سنة ست وسبعين بعدها بالعساكر الى بلاد الأرمن ففتح سائر أعمالها ، واستولى على ملكها النكفور بالامان فوصل بأهله وولده الى الابواب السلطانية ورتب لهم الارزاق ، وولى السلطان على سيس وانقرض منها ملك الأرمن . وتوفي منجك آخر هذه السنة فولى السلطان اقتمر الصاجي المعروف بالحلي. ثم عزله ورفع مجلسه وولى مكانه اقتمر الألقني . ثم توفي جبار بن مهنا امير العرب بالشام فولى السلطان ابنه يعبرا مكانه . ثم توفي امير مكة من بني حسن فولى الأشرف مكانه ، واستقرّت الامور على ذلك ، والله اعلم .

الخبر عن مماليك بيبقا وترشيحهم في الدولة

كان السلطان الاشرف بعد أن سطا بمماليك بيبقا تلك السطوة وقسمهم بين القتل والنفي وأسكنهم السجون ، وأذهب أثرهم

من الدولة بالجملة أرجع جملة منهم بعد ذلك. وعاتبة منكلي أبغا في شأنهم، وأنّ في اتلافهم قص جناح الدولة، وانهم ناشئة من الجند يحتاج الملك لمثلهم فندم على من قتل منهم، وأطلق من بقي من المحبوسين بعد خمس من السنين، وسرّحهم الى الشام يستخدمون عند الامراء. وكان فيمن أطلق الجماعة الذين بحبس الكرك وهم: برقون العثماني وبركة الجوباني وطنبقا الجوباني وجركس الخليلي ونعنغ، فأطلقوا الى الشام. ودعامنجك صاحب الشام كبراءهم الى تعليم المماليك ثقافة الرمح، وكانوا بصرائها فأقاموا عنده مدّة. أخبرني بذلك الطنبقا الجوباني أيام اتصالي به قال:

وأقمنا عند منجك الى ان استدعاه السلطان الاشرف وكتب اليه الجائي اليوسفي بمثل ذلك فاضطرب في أيهما يجيبه فيها. ثم أراد أن يخرج من العهدة فردّ الأمر الينا فأبينا الا امتثال أمره فتحير. ثم اهتدى الى ان يبعث الى الجائي اليوسفي، ودس الى قرطاي كافل الأمير علي ابن السلطان وكان صديقه بطلبنا من الجائي بخدمة وليّ العهد، وصانع الجهتين بذلك قال: وصرنا الى وليّ العهد فعرضنا على السلطان ابيه واختصنا عنده بتعليم الثقافة لمماليكه الى أن دعانا السلطان يوم واقعة الجائي وهو جالس بالاسطبل فندبنا لحربه وذكرنا حقوقه وأزاح عللنا بالجياد والاسلحة، فجلبنا في قتله الى ان انهزم، وما زال السلطان بعدها يرعى لنا ذلك ويقدّمنا. انتهى خبر الجوباني.

وكان طشتمر الدوادار قد لطف محله عند الأشرف وخلا له وجهه وكان هواه في اجتماع مماليك يبقا في الدولة يستكثر بهم فيما يؤمله من الاستبداد على السلطان . فكان يشير في كل وقت على الاشرف باستقدامهم من كل ناحية واجتماعهم عصابة للدولة يخادع بذلك عن قصده ؛ وكان محمد بن اسقلاص استاذ دار يساميه في الدولة ويزاحمه في مخالصة الأشرف ولطف المحل عنده ، ينهى السلطان عن ذلك ويحذره مغبة اجتماعهم فغص طشتمر بذلك .

وكان عند السلطان مماليك دونه من مماليكه الخاصكية شباباً قد اصطفاهم وهذّبهم وخالصهم بالمحبة والصهر ورشحهم للمراتب وولى بعضهم . وكان الأكابر من أهل الدولة يفضون اليهم بحاجاتهم ويتوسلون بمساعيهم فصرف طشتمر اليهم وجه السعاية ، وغشي مجالسهم وأغراهم بابن اسقلاص ، وانه يصدّ السلطان أكثر الاوقات عن اغراضهم منه ، ويبعد أبواب الانعام والصلات منه . وصدق ذلك عندهم كثرة حاجاتهم في وظيفته ، وتقرّر الكثير منها عليهم عنده فوغرت صدورهم منه ، وأغروا به السلطان باطباق اغراء طشتمر ظاهراً حتى تمت عليهم نكبته ، وجمعت الكلمة وقبض عليه منتصف جمادى سنة سبع وثمانين ، ونفاه الى القدس فخلا لطشتمر وجه السلطان وانفرد بالتدبير ، واجتمع المماليك البيبقاوية من كل ناحية حتى كثروا أهل الدولة وعمروا مراتبها ووظائفها ، واحتازوها من جوانبها الى ان كان ما نذكره ان شاء الله تعالى والله أعلم .

حج السلطان الاشرف وانتقاض المماليك عليه بالعقبة وما كان مع ذلك من ثورة قرطاي بالقاهرة وبيعة الامير علي ولي العهد ومقتل السلطان اثر ذلك

لما استقرّ السلطان في دولته على أكمل حالات الاستبداد والظهور، واذعن الناس لطاعته في كل ناحية، وأكمل الله له الامتاع بملكه ودنياه، سمت نفسه الى قضاء فرضه، فأجمع الحج سنة ثمان وسبعين، وتجهز لذلك واستكثر من الرواحل المستجادة والازودة المثقلة من سائر الاصناف. واستعد للسفر واحتفل في الابهة بما لم يعهد مثله، واستخلف ابنه ولي العهد في ملكه، وأوصى النائب اكتمر عبد النبي بمباكرة بابه والانتهاء الى مراسمه. وأخرج بني الملك الناصر المحجوبين بالقلعة مع سرد الشيخوني الى الكرك يقيمون به الى منصرفه. وتجهز الخليفة العباسي محمد المتوكل بن المعتضد والقضاة للحج معه، وجهّز جماعة الى الامراء أهل دولته وأزاح عللهم وملأ بمعروفه حقائبهم. وخرج ثاني عشر شوال في المراكب والقطارات يروق الناظرين كثرة ومخافة وزينة، والخليفة والقضاة والامراء حفافيه.

وبرز النظارة حتى العواتق من خدورهن، وتجللت بمركبهم البسيطة وماجت الارض بهم موجاً، وخيم بالبركة منزل الحاج وأقام بها أياماً حتى فرغ الناس من حاجاتهم. وارتحل، فما زال

يتنقل في المنازل الى العقبة. ثم أقام فيها على عادة الحاج، وكان في نفوس المماليك وخصوصاً البيبقاوية وهم الاكثر شجى يتشوقون به الى الاستبداد من الدولة، فتنكروا واشتطوا في اقتضاء أرزاقهم والمباشرون يعللونهم وانتهى امرهم الى الفساد. ثم طلبوا العلوفة المستقبلة الى دار الازلم، فاعتذر المباشرون بأن الاقوات حملت الى الامام فلم يقبلوا، وكشفوا القناع في الانتقاض وباتوا ليلتهم على تعبية. واستدعى الاشرف طشتمر الدوادار، وكان كبيرهم، ففاوضه في الامر ليفل من عزمهم، فأجمل العذر عنهم، وخرج اليهم. فخرجوا، ثم ركبوا من الغد واصطفوا واركبوا طشتمر معهم، ومنعوه من معاودة السلطان. وتولى كبر ذلك منهم مبارك الطازي وسراي تمر المحمدي وبطلقمر العلائي، وركب السلطان في خاصته يظن أنهم يرعوون أو يجنح اليه بعضهم فأبوا إلّا الاحفاف على قتاله.

ونضحوا موكبه بالنبل لما عاينوه فرجع الى خيامه منهزماً. ثم ركب البحر في لفيف من خواصه ومعه أرغون شاه الاتابك وبيبقا الناصري، ومحمد بن عيسى صاحب الدرك من لفائف الاعراب أهل الضاحية، وفي ركابه جماعة الشباب الذين أنشأهم في مخالصته ورشحهم للوظائف في دولته كما مر. وخام الفل الى القاهرة، وقد كان السلطان عندما سافر عن القاهرة ترك بها جماعة من الامراء والمماليك مقيمين في وظائفهم، كان منهم: قرطاي الطازي كافل

أمير علي ولي العهد ، واقتمر الخليلي ، وقشتمر واستدمر السرغتمشي وايبك البدري .

وكان شيطان من المتمردة قد أوحى الى قرطاي بأنه يكون صاحب الدولة بمصر ، فكان يتشوف لذلك ويترصد له . وربما وقع بينه وبين وزير الدولة منازعة في جراية مماليك مكفوله ولي العهد وعلوفاتهم ، وأغلظ له فيها الوزير فوجم وأخذ في أسباب الانتقاض. وداخل في ذلك بعض أصحابه وواعدهم ثالث ذي القعدة ، وتقدّم الى داية وليّ العهد ليلة ذلك اليوم بأن يصلح من شأنه ويفرغ عليه ملابس السلطان ، ويهيئه لجلوس التخت . وركب هو صبيحة ذلك اليوم ووقف بالرميلة عند مصلى العيد . وتناول قطعة من ثوب فنصبها لواء ، وكان صبيان المدينة قد شرعوا في اتخاذ الدبادب والطبيلات للعيد فأمر بتناول بعضها منهم . وقرعت بين يديه وتسايل الناس اليه من كل أوب ، ونزل من كان بطباق القصر وغرفه وبالقاهرة من المماليك ، واجتمعوا اليه حتى كظ ذلك الفضاء .

وجاؤا تعادي بهم الخيل فاستغلظ لفيفهم ، ثم اقتحم القلعة في جمعه من باب الاصطبل الى بيت مكفوله ولي العهد أمير علي عند باب الستارة يطلبونه ، وقضوا على زمام الذود ، وكانوا عدّة حتى حضروا ولي العهد وجاؤا به على الاكتاف الى الايوان فاجلسوه على التخت ، وأحضروا ايدمر نائب القلعة فبايع له ، ثم أنزلوه الى

باب الاصطبل وأجلسوه هناك على الكرسي. واستدعى الامراء القائمين بالقاهرة فبايعوه، وحبس بعضهم بالقلعة. وبعث اكتمر الحلي الى الصعيد يستكشف أحواله، واختص منهم ايبك فجعله رديفاً في دولته. وباتوا كذلك وأصبحوا يسائلون الركبان ويستكشفون خبر السلطان .

وكان السلطان لما انهزم من العقبة سار ليلتين وجاء الى البركة آخر الثانية، وجاءه الخبر بواقعة القاهرة وما فعله قرطاي، وتشاوروا فأشار محمد بن عيسى بقصد الشام، وأشار آخرون بالوصول الى القاهرة. وسار السلطان اليها واستمرّوا الى قبة النصر، وتهافتوا عن رواحلهم بالطلاح وقد أنهكهم التعب وأضناهم السير، فما هو الا أن وقعوا لمناكبهم وجنوبهم وغشيهم النعاس .

وجاء الناصري الى السلطان الاشرف من بينهم فتنصح له بأن يتسلل من أصحابه، ويتسرب في بعض البيوت بالقاهرة حتى يتبين له وجه مذهبه، وانطلق بين يديه فقصد بعض النساء ممن كان ينتاب قصده، واختفى فظن النجاة في ذلك وفارقه الناصري يطلب نفقاً في الارض، وقد كانوا بعثوا من قبة النصر بعض المماليك عنهم روائد يستوضحون الخبر فأصبحوا بالرميلة أمام القلعة وتعرف الناس أنه من الحاج فرفعوه الى صاحب الدولة، وعرض عليه العذاب حتى أخبره عن السلطان، وأنه وأصحابه بقبة النصر مصرعين من غشي النوم فطار اليهم شراد العسكر مع استدمر

السرغتمشي ، والجمهور في ساقتهم حتى وقفوا عليهم في مضاجعهم. وافتقدوا السلطان من بينهم وقتلوهم جميعاً وجاؤا برؤسهم ووجموا لافتقاد السلطان ونادوا بطلبه ، وعرضوا العذاب والقتل على محمد بن عيسى صاحب الدرك، فتبرأ وحبس رهينة من ثقاته. ثم جاءت امرأة الى ايبك فدلته عليه في بيت جارتها فاستخرجوه من ذلك البيت ، ودفعوه الى ايبك فامتحنه حتى دلّهم على الذخيرة والاموال . ثم قتلوه خنقاً وجدّدوا البيعة لابنه الامير عليّ ولقبوه المنصور . واستقلّ بدولته كافله من قبل الأميرة قرطاي ورديفه ايبك البدري ، واستقرّ الامر على ذلك.

مجيء طشتمر من العقبة وانهزامه ثم مسيره الى الشام وتجديد البيعة للمنصور باذن الخليفة وتقديمه

لما انهزم السلطان من العقبة ومضى الى القاهرة اجتمع أهل الثورة على قشتمر ، وألقوا اليه القياد ودعوا الخليفة الى البيعة له فتفادى من ذلك . ومضى الحاج من مكة مع أمير المحمل بهادر الجمالي على العادة . ورجع القضاة والفقهاء الى القدس ، وتوجه طشتمر والامراء الى مصر لتلافي السلطان أو تلفه فلقيهم خبر مهلكه بعجرود ، وما كان من بيعة ابنه واستقلال قرطاي بالملك فثاب لهم رأي آخر في حرب أهل الدولة ، وساروا على التعبية وبعثوا في مقدّمتهم قطلقتمر . ولقي طلائع مصر فهزمهم وسار في

اتباعهم الى ساحة القلعة فلم يشعر الا وقد تورّط في جمهور العسكر فتقبضوا عليه. وكان قرطاي قد بعث عن اقتمر الصاحبي الحنبلي من الصعيد، ويرجع في العساكر لحرب قشتمر وأصحابه فبرز اليهم والتقوا في ساحة القلعة. وانهزم قشتمر الى الكيمان بناحية مصر؛ ثم استأمن فأمنوه واعتقلوه. ثم جمع الناس ليوم مشهود، وحضر الخليفة والامراء والقضاة والعلماء وعقد الخليفة للمنصور بن الاشرف وفوّض اليه. وقام قرطاي بالدولة وقسم الوظائف فولى قشتمر اللفاف واستأمر الصرغتمشي أمير سلاح، وقطلوبغا البدري أمير مجلس، وقرطاى الطازي رأس نوبة واياس الصرغتمشي دوادار، وايبك البدري امير الماخورية، وسردون جركس استاذ دار، واقتمر الحنبلي نائباً وجعل له الاقطاع للاجناد والامراء والنواب. وأفرج عن طشتمر العلائي الدوادار وأقطعه الاسكندرية وأحضر بنيّ الملك الناصر من الكرك مع حافظهم سردون الشيخوني وولاه حاجباً، وكذلك قلوط الصرغتمشي. وأصاب الناس في آخر السنة طاعون الي أوّل سنة تسع وسبعين، فهلك طشتمر اللفاف الأتابك، وولي مكانه قرطاي الطازي في وظيفته. واستدعي بيبقا الناصري من الشام فاختصه الامير الكبير قرطاي بالمخالصة والمشاورة.

نكبة قرطاي واستقلال ايبك بالدولة ثم مهلكه

كان ايبك الغزي هذا قد ردف قرطاي في حمل الدولة من أوّل ثورتهم وقيامهم على السلطان ، فخالصه وخاطه بنفسه في الاصهار اليه . وكان ايبك يروم الاستبداد بشأن أصحابه ، وكان يعرف من قرطاي عكوفه على لذّاته وانقسامه مع ندمائه فعمل قرطاي في صفر سنة تسع وسبعين ضيافة في بيته ، وجمع ندماءه مثل سودون جركس ومبارك الطازي وغيرهم . واهدى له ايبك نبيذاً أذيب فيه بعض المرقدات فباتوا يتعاطونه حتى غلبهم السكر على أنفسهم ولم يفيقوا . فركب ايبك من ليلته ، وأركب السلطان المنصور معه واختار الامر لنفسه ، واجتمع اليه الناس وأفاق قرطاي بعد ثلاث وقد انحلت عنه العقدة ، واجتمع الناس على ايبك فبعث اليه قرطاي يستأمن فأمّنه ، ثم قبض عليه فسيره الى صفد ، واستقل ايبك بالملك والدولة .

ثم بلغه منتصف صفر من السنة انتقاض طشتمر بالشام وانتقاض الامراء هنالك في سائر الممالك على الخلاف معه ، فنادى في الناس بالمسير الى الشام فتجهزوا وسرّح المقدمة آخر صفر مع ابنه أحمد وأخيه قطلوفجاء وفيها من مماليكه ومماليك السلطان وجماعة من الامراء كان منهم الاميران برقوق وبركة المستبدان بعد ذلك. ثم خرج ايبك ثاني ربيع في الساقة بالسلطان والامراء والعساكر

وانتهرا الى بلبيس . وثار الامراء الذين كانوا مع أخيه في المقدّمة ورجع اليه منهزماً فأجفل راجعاً الى القلعة بالسلطان والعساكر.

وخرج عليه ساعة وصوله يوم الاثنين جماعة من الامراء ، وهم قطلتمر العلائي الطويل والطنبقا السلطاني والنعناع وواعدوه قبة النصر ، فسرّح اليهم العساكر مع أخيه قطلوفجا فأوقعوا به وتقبضوا عليه. وبلغ الخبر الى ايبك فسرّح من حضره من الامراء للقائهم ، وهم أيدمر الشمسي واقطمر عبد الغني وبهادر الجمالي ومبارك الطازي في آخرين . ولما تواروا عنه ركب هو هارباً الى كيان مصر ، واتبعه ايدمر القنائي فلم يقف له على خبر. ودخل الامراء من قبه النصر الى الاسطبل ، وامضوا الامراء إلىقطلتمر العلائي وهم يحاذونه ، وأشير عليه بخلع المنصور ، والبيعة لمن يقوم على هذا الأمر من أبناء السلطان فأبى .

ثم وصل صبيحة الثلاثاء الامراء الذين ثاروا فجاء أخو ايبك في مقدّمة العسكر ، وفيهم بيبقا الناظري ودمرداش اليوسفي ، وبلاط من أمراء الالوف وبرقوق وبركة وغيرهما من الطلخانات فنازعوهم الأمر وغلبوهم عليه ، وبعثوا بهم الى الاسكندرية معتقلين . وفوّض الامراء الى بيبقا الناظري فقام بأمرهم وهو شماع وآراؤهم مختلفة . ثم حضر يوم الأحد التاسع مع ربيع ايبك صاحب الدولة ، وظهر من الاختفاء ، وجاء الى بلاط منهم وأحضره عند بيبقا الناظري فبعث به الى الاسكندرية فحبسه بها

وكان بيبقا الناظري يختص برقوق وبركة بالمفاوضة استرابة بالآخرين ، فاتفق رأيهم على ان يستدعى طشتمر من الشام وينصبوه للامارة فبعثوا اليه بذلك وانتظروه .

استبداد الاميرين ابي سعيد برقوق وبركة بالدولة من بعد ايبك ووصول طشتمر من الشام وقيامه بالدولة ثم نكبته

لما تغلب هؤلاء الامراء على الدولة ونصبوا بيبقا الناظري ، ولم يمضوا له الطاعة بقي أمرهم مضطرباً وآراؤهم مختلفة . وكان برقوق وبركة أبصر القوم بالسياسة وطرق التدبير ، وكان الناظري يخالصهما كما مر فتفاوضوا في القبض على هؤلاء المتصدّين للمنازعة ، وكبح شكائمهم وهم : دمرداش اليوسفي ، وترباي الحسيني ، وافتقلاص السلجوقي ، واستدمر بن العثماني في آخرين من نظرائهم . وركبوا منتصف صفر ، وقبضوا عليهم أجمعين وبعثوا بهم الى الاسكندريه فحبسوهم بها ، واصطفوا بلاطاً منهم وولوه الامارة وخلطوه بأنفسهم ، وأبقوا بيبقا الناظري على اتابكيته كما كان ، وأنزلوه من القلعة فسكن بيت شيخو قبالته ، وولى برقوق أمير الماخورية ونزل باب الاصطبل ، وولي بركة الجوباني أمير مجلس ، واستقرّت الدولة على ذلك .

وكان طشتمر نائب الشام قد انتقض واستبد بأمره وجمع

عساكر الشام وأمراءه، واستنفر العرب والتركمان وخيم بظاهر دمشق يريد السير الى مصر. وبرز ايبك من مصر بالسلطان والعساكر يريد الشام لمحاربته فكان ما قدمناه من نكبته وخروج الامراء عليه، ومصيرهم الى جماعة البيبقاوية الظافرين بايبك، ومقدمهم بيبقا الناظري. ثم تفاوض بيبقا الناظري مع برقوق وبركة في استدعاء طشتمر فوافقاه ونظراه رأياً وفيه طلب الصلح من الذين معه وحسم الداء منه بكونهم في مصر فكتبوا اليه بالوصول الى مصر للاتابكية وتدبير الدولة، وانه شيخ البيبقاوية وكبيرهم فسكنت نفسه لذلك، ووضع أوزار الفتنة وسار الى مصر فلما وصلها اختلفوا في أمره وتعظيمه.

وأركبوا السلطان الى الزيدانية لتلقيه ودفعوا الامراء اليه. وأشاروا له الى الاتابكية ووضعوا زمام الدولة في يده فصار اليه التولية والعزل والحل والعقد. وولى بيبقا الناظري أمير سلاح مكان سباطا، وبعثوا بلاطاً الى الكرك لاستقلال طشتمر بمكانه. وولى بندمر الخوارزمي نائباً بدمشق على سائر وظائف الدولة وممالك الشام كما اقتضاه نظره. ووافق عليه استاذ دار برقوق وبركة، وولى ايبك اليوسفي فرتب برقوق رأس نوبة مكان الناظري. واستمر الحال على ذلك، وبرقوق وبركة اثناء هذه الامور يستكثران من المماليك استغلاظاً لشوكتهما، واكتنافاً لعصبيتهما ان يمتد الامير الى مراتبها، فيبذلان الجاه لتابعهما،

ويوفران الاقطاع لمن يستخدم لهما ويخصان بالامرة من يجنح من أهل الدولة اليهما والى ابوابهما. وانصرفت الوجوه عن سواهما.

وارتاب طشتمر بنفسه في ذلك وأغراه أصحابه بالتوثب بهذين الاميرين، فلما كان ذو الحجة سنة تسع وسبعين استعجل أصحابه على غير روية، وبعثوا اليه فأحجم وقعد عن الركوب. واجتمع برقوق وبركة بالاصطبل فركن اليه، وقاتل مماليك طشتمر بالرميلة ساعة من نهار وانهزموا وافترقوا واستأمن طشتمر فأمنوه واستدعوه الى القلعة فقبضوا عليه وعلى جماعة من أصحابه منهم: اطلمش الارغوني ومدلان الناظري وأمير حاج بن مغلطاي ودواداره أرغون. وبعث بهم الى الاسكندرية فحبسوا بها. وبعث معهم بيبقا الناصري كذلك.

ثم أفرج عنه لايام وبعثه نائباً عن طرابلس. ثم أفرج عن طشتمر بعد ذلك الى دمياط، ثم الى القدس الى ان مات سنة سبع وثمانين. واستقامت الدولة للاميرين بعد اعتقالهما، وخلت لهما من المنازعين. وولى الامير برقوق اتابكاً وولى الماخورية الجابي الشمسي، وولى قريبه انيال أمير سلاح مكان بيبقا الناصري، وولى اقمتر العثماني دوادار مكان اطلمش الارغوني. وولى الطنبغا الجوباني رأس نوبة ثانياً ودمرداش أمير مجلس. وتوفي بيبقا النظامي نائب حلب فولى مكانه عشقتمر الماردانى. ثم استأذن عشقتمر فأذن له وحبس بالاسكندرية وولى مكانه بحلب تمرتاش الحسيني

الدمرداشي . ثم أفرج عنه وأقام بالقدس قليلًا . ثم استدعاه بركة وأكرم نزله وبعثه نائباً الى حلب .

ثورة انيال ونكبته

كان انيال هذا امير سلاح وكان له مقام في الدولة وهو قريب الامير برقوق ، وكان شديد الانحراف على الامير بركة ، ويحمل قريبه على منافرته ولا يجيبه الى ذلك فاعتزم على الثورة ، وتحين لها سفر الامير بركة الى البحيرة يتصيد ، فركب الامير برقوق في بعض تلك الايام متصيداً بساحة البلد ، فرأى ان قد خلا له الجو فركب وعمد الى باب الاصطبل فملكه ، ومعه جماعة من مماليكه ومماليك الامير برقوق . وتقبضوا على أمير الماخورية جركس الخليلي . واستدعوا السلطان المنصور ليظهروه للناس فمنعه المقدمون من باب الستارة . وجاء الامير برقوق من صيده ومعه الاتابك الشمسي فوصلوا الى منزله خارج القلعة ، وأفرغوا السلاح على سائر مماليكهم ، وركبوا الى ساحة الاصطبل .

ثم قصدوا الى الباب فأحرقوه وتسلق الامير قرطاي المنصوري من جهة باب السر وفتحه لهم فدخلوا منه ، ودافعوا انيال ، وانتقض عليه المماليك الذين كانوا معه من مماليك الامير برقوق . ورموه بالسهام فانهزم ونزل الى بيته جريحاً . وأحضر الى الامير برقوق فاعتذر له بانه لم يقصد بفعلته إلّا التغلب على بركة فبعث به الى

الاسكندرية معتقلًا ، وأعاد بيبقا الناصري أمير سلاح كما كان ، واستدعي لها من نيابة طرابلس . ووصل الخبر الى بركة فأسرع الكرّ من البحيرة وانتظم الحال ، ونظروا في الوظائف التي خلت في هذه الفتنة فعمروها بمن يقوم بها . واختصوا بها من حسن غناؤه في هذه الواقعة مثل قردم وقرط وذلك سنة احدى وثمانين.

واقام انيال معتقلًا بالاسكندرية . ثم أفرج عنه في صفر سنة اثنتين وثمانين ، وولاه على طرابلس . ثم توفي منكلي بقا الأحمدى نائب حلب فولى انيال مكانه . ثم تقبض عليه آخر السنة وحبس بالكرك وولى مكانه بيبقا الاحمدي فولى مكانه بندمر الخوارزمي . ثم توفي سنة احدى وثمانين جبار بن المهنا أمير العرب بالشام فولي مكانه معيقل بن فضل بن عيسى وزامل بن موسى بن عيسى شريكين ، ثم عزلا وولي بعبر بن جبار .

ثورة بركة ونكبته واستقلال الامير برقوق بالدولة

كان هذا الامير بركة يعادل الامير برقوق في حمل الدولة كما ذكرناه ، وكان أصحابه يقوّضون اليه الاستبداد في الاموال . وكان الامير برقوق كثير التثبت في الامور والميل الى المصالح فيمارضهم في الغالب ، ويضرب على أيديهم في الكثير من الأحوال فغصوا بمكانه ، وأغروا بركة بالتوثب والاستقلال بالأمر وسعوا عنده باشمس من كبار أصحاب الأمير برقوق ، وأنه يحمل

برقوق على مقاطعة بركة ويفسد ذات بينهما ، وأنه يطلب الأمر لنفسه. وقد اعتزم على الوثوب عليهما فجاء بركة بذلك الى الامير برقوق وأراد القبض على اشمس فمنعه الامير برقوق ودفع عنه ، وعظم انحراف بركة على أشمس ثم عن الامير برقوق . وسعى في الاصلاح بينهما الاكابر حتى كمال الدين شيخ التكية ، والخلدي شيخ الصوفية من أهل خراسان . وجاؤا بأشمس الى بركة مستعتباً فأعتبه وخلع عليه .

ثم عاود انحرافه ثانية فسح أعطافه ، وسكن وهو مجمع الثورة والفتك . ثم عاود حاله تلك ثالثة . واتفق أن صنع في بيت الامير برقوق لسرور وليمة في بعض أيام الجمعة في شهر ربيع سنة اثنتين وثمانين ، وحضر عنده أصحاب بركة كلهم وأهل شوكته ، وقد جاءه النصيح بأن بركة قد أجمع الثورة غداة يومه فقبض الامير برقوق على من كان عنده من أصحاب بركة ليقص جناحه منهم . واركب حاشيته للقبض عليه ، واصعد بدلان الناصري على مأذنة مدرسة حسن فنضحه بالنبل في اصطبله ، وركب بركة الى قبة النصر وخيم بها ، ونودي في العامة بنهب بيوته فنهبوها للوقت وخربوها . وتحيز اليه بيبقا الناصري فخرج معه ، وجلس الامير برقوق بباب القلعة من ناحية الاصطبل ، وسرّح الفرسان للقتال . واقتتلوا عامة يومهم فزحف بركة على تعبيتين احداهما لبيبقا الناصري .

وخرج الاق الشعباني للقائه وأشمس للقاء بيبقا الناصري فانهزم أصحاب بركة ، ورجع الى قبة النصر ، وقد اثخنوا بالجراح ، وتسلل أكثرهم الى بيته وأقام الليل ، ثم دخل الى جامع البلدة وبات به . ونمي الى الامير برقوق خبره فأركب اليه الطنبقا الجوباني وجاء به الى القلعة . وبعث به الامير برقوق الى الاسكندرية فحبس بها الى ان قتله النائب بها صلاح الدين بن عزام ، وقتل به في خبر يأتي شرحه ان شاء الله تعالى. وتقبض على بيبقا الناصرى وسائر شيعته من الامراء ، واودعهم السجون الى ان استحالت الاحوال ، وولى وظائفهم من أوقف عليه نظره من امراء الدولة. وأفرج عن انيال الثائر قبله ، وبعثه نائباً على طرابلس ، واستقل بحمل الدولة ، وانتظمت به أحوالها . واستراب سندمر نائب دمشق لصحابته مع بركة فتقبض عليه وعلى أصحابه بدمشق ، وولى نيابة دمشق عشتمر ، ونيابة حلب انيال . وولى اشمس الاتابكية مكان بركة والاق الشعباني أمير سلاح والطنبقا الجوباني أمير مجلس ، وابقا العثماني دوادار ، وجركس الخليلى أمير الماخورية ، والله تعالى ولي التوفيق .

انتقاض اهل البحيرة وواقعة العساكر

كان هؤلاء الظواعن الذين عمروا الدولة من بقايا هوارة ومزاته وزناتة يعمرونها عن تحت أيديهم من هذه القبائل وغيرهم،

ويقومون بخراج السلطان كل سنة في ابانه وكانت الرياسة عليهم حتى في اداء الخراج لبدر بن سلام وآبائه من قبله ، وهو من زناتة احدى شعوب لواتة . وكان للبادية المنتبذين مثل أبي ذئب شيخ أحياء مهرانة وعسرة ، ومثل بني التركية امراء العرب بعقبة الاسكندرية اتصال بهم لاحتياجهم الى الميرة من البحيرة . ثم استخدموا لامراء الترك في مقاصدهم وأموالهم واعتزوا بجاههم، وأسفوا على نظائرهم من هوارة وغيرهم .

ثم حدثت الزيادة في وظائف الجباية كما هي طبيعة الدول فاستثقلوها وحدثتهم أنفسهم بالامتناع منها لما عندهم من الاعتزاز فأرهقوا في الطلب ، وحبس سلام بالقاهرة ، وأجفل ابنه بدر الى الصعيد بالقبلية ، واعترضته هنالك عساكر السلطان فقاتلهم وقتل الكاشف في حربة . وسارت اليه العساكر سنة ثمانين مع الاق الشعباني وأحمد بن بيبقا وانيال قبل ثورته فهربوا وعاثت العساكر في مخلفهم ورجعوا . وعاد بدر الى البحيرة ، وشغلت الدولة عنهم بما كان من ثورة انيال وبركة بعده ، واتصل فساد بدر وامتناعه فخرجت اليه العيساكر مع الاتابك اشمس والامير سلام والجوباني أمير مجلس وغيرهم من الامراء الغربية .

ونزلت العساكر البحيرة ، واعتزم بدر على قتالهم فجاءهم النذير بذلك ، فانتبذوا عن الخيام وتركوها خاوية . ووقفوا على مراكزهم حتى توسط القوم المخيم وشغلوا بنهبه ، فكرّت عليهم

العساكر فكادوا يستلحمونهم، ولم يفلت منهم الا الأقل. وبعث بدر بالطاعة، واعتذر بالخوف وقام بالخراج فرجعت العساكر، وولّى بكتمر الشريف على البحيرة. ثم استبدل منه بقرط بن عمر. ثم عاد بدر الى حاله فخرجت العساكر فهرب أمامها، وعاث القرط فيهم وقتل الكثير من رجالهم وحبس آخرين، ورجع عن بدر اصحابه مع ابن عمه ومات ابن شادي، وطلب الباقي الامان فأمنوا وحبس رجال منهم، وضمن الباقون القيام بالخراج. وأستأمن بدر فلم يقبل فلحق بناحية الصعيد، واتبعته العساكر؛ فهرب واستبيح مخلفه واحياؤه ولحق ببرقة، ونزل على أبي ذئب فأجاره، وأستقام أمر البحيرة. وتمكن قرط من جبايتها، وقتل رحاب وأولاد شادي. وكان قرطاي يستوعب رجالتهم بالقتل. وأقام بدر عند أبي ذئب يتردّد ما بين احيائه وبين الواحات، حتى لقيه بعض أهل الثأر عنده فثأروا منه سنة تسع وثمانين، وذهب مثلًا في الآخرين، والله تعالى أعلم.

مقتل بركة في محبسه وقتل ابن عزام بثأره

كان الامير بركة استعمل أيام امارته خليل بن عزام استاذ داره، ثم اتهمه في ماله وسخطه ونكبه، وصادره على مال امتحنه عليه. ثم اطلقه فكان يطوي له على النكث. ثم صار بركة الى ما صار اليه من الاعتقال بالاسكندرية، وتولى ابن عزام نيابتها فحاول على حاجة نفسه في قتل بركة. ووصل الى القاهرة متبرئاً

من أمره متخوفاً من مغبته ورجع . وقد طوى من ذلك على الدغل . ثم حمله الحقد الكامن في نفسه على اغتياله في جنح الليل فأدخل عليه جماعة متسلحين فقتلوه ، وزعم انه اذن له في ذلك .

وبلغ الخبر الى كافل الدولة الامير برقوق ، وصرّح مماليكه بالشكوى اليه فأنكر ذلك وأغلظ على ابن عزام . وبعث دواداره الامير يونس يكشف عن سببه واحضار ابن عزام فجاء به مقيداً ، وأوقفه على شنيع مرتكبه في بركة فحلف الامير ليقادنّ منه به . وأحضر الى القلعة في منتصف رجب من سنة اثنتين وثمانين ، فضرب بباب القلعة اسواطاً . ثم حمل على جمل مشتهراً وأنزل الى سوق الخيل فتلقاه مماليك بركة فتناولوه بالسيوف ، الى أن تواقعت اشلاؤه بكل ناحية وكان فيه عظة لمن يتعظ ، اعاذنا الله من درك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الاعداء انتهى .

وفاة السلطان المنصور علي بن الاشرف
وولاية الصالح امير حاج

كان هذا السلطان علي بن الاشرف قد نصبه الامير قرطاي في ثورته على أبيه الاشرف وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، فلم يزل منصوراً والامر ينتقل من دولة الى دولة كما ذكرناه الى أن هلك لخمس سنين من ولايته في صفر سنة ثلاث وثمانين ؛ فحضر الامير برقوق ، واستدعى الامراء واتفقوا على نصب أخيه أمير حاج ،

ولقبوه الصالح وأركبوه الى الايوان فأجلسوه على التخت . وقلده الخليفة على العادة ، وجعل الامير برقوق كافله في الولاية والنظر للمسلمين لصغره حينئذ عن القيام بهذه العهدة . وأفتى العلماء يومئذ بذلك ، وجعلوه من مضمون البيعة ، وقرئ كتاب التقليد على الامراء والقضاة والخاصة والعامة في يوم مشهود ، وانفض الجمع وانعقد أمر السلطان وبيعته ، وضرب فيها لـلامير برقوق بسهم والله تعالى مالك الامور .

وصول انس الغساني والد الامير برقوق وانتظامه في الامراء

اصل هذا الامير برقوق من قبيلة جركس الموطنين ببلاد الشمال في الجبال المحيطة بوطء القفجاق والروس واللان من شرقيها المطلة على بسائطهم . ويقال انهم من غسان الداخلين الى بلاد الروم مع أميرهم جبلة بن الايهم ، عندما أجفل هرقل الى الشام ، وسار الى القُسْطَنْطِينِيَّة . وخبر مسيره من أرض الشام ، وقصته مع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه متناقلة معروفة بين المؤرخين . وأما هذا الرأي فليس على ظاهره ، وقبيلة جركس من الترك معروفة بين النسابين ، ونزولهم بتلك المواطن قبل دخول غسان . وتحقيق هذا الرأي ان غسان لما دخلوا مع جَبَلَة الى هِرَقْل أقاموا عنده ويئسوا من الرجوع لبلادهم . وهلك هرقل واضطرب ملك الروم ، وانتشرت الفتنة هنالك في ممالكهم .

واحتاجت غسان الى الحلف للمدافعة في الفتن، وحالفوا قبائل جركس، ونزلوا في بسيط جبلهم من جانبه الشرقيّ مما يلي القسطنطينية، وخالطوهم بالنسب والصهر، واندرجوا فيهم حتى تلاشت احياؤهم. وصاروا الى تلك الاماكن وأووا من البسائط الى الجبال مع جركس فلا يبعد مع هذا أن تكون أنسابهم، تداخلت معهم ممن انتسب الى غسان من جركس وهو مصدق في نسبه، ويستأنس له بما ذكرناه فهو نسبة قوية في صحته والله تعالى أعلم.

وجلب هذا الامير برقوق على عهد الامير بيبقا عثمان قراجا من التجار المعروفين يومئذ بتلك الجهات، فملكه بيبقا وربي في اطباق بيته، وأوى من قصده وشدّ في الرماية والثقافة. وتعلم آداب الملك وانسلخ من جلدة الخشونة، وترشح للرياسة والامارة والسعادة تشير اليه، والعناية الربانية تحوم عليه. ثم كان ما ذكرناه من شأن ممالیك بيبقا ومهلك كبيرهم يومئذ استدمر، وكيف تقسموا بين الجلاء والسجن. وكان الامير برقوق أعزه الله تعالى ممن أدركه التمحيص، فلبث في سجن الكرك خمس سنين بين أصحاب له منهم فكانت تهويناً لما لقي من بوائقه، وشكراً له بالرجوع الى الله ليتم ما قدر الله فيه من حمل امانته واسترعاء عباده.

ثم خلص من ذلك المحبس مع أصحابه، وخلا سبيله فانطلقوا الى الشام، واستخلصهم الامير منجك نائب الشام يومئذ. وكان

بصيراً بجرباً فألقى محبته وعنايته على هذا الامير لما رأى عليه من علامات القبول والسعادة. ولم يزل هناك في خالصته الى أن هجس في نفس السلطان الاشرف استدعاء المرشحين من مماليكه. وهذا الامير يقدمهم وأفاض فيهم الاحسان واستضافهم لولده الامير علي. ولم يكن إلا أيام وقد انتقض الجائي القائم بالدولة، وركب على السلطان، فأحضرهم السلطان الاشرف وأطلق أيديهم في خيوله المقربة وأسلحته المستجادة فاصطفوا منها ما اختاروه وركبوا في مدافعة الجائي، وصدقوه القتال حتى دافعوه على الرميلة.

ثم اتبعوه حتى ألقى نفسه في البحر فكان آخر العهد به. واحتلوا بمكان من أثرة السلطان واختصاصه، فسوّغ لهم الاقطاعات وأطلق لهم الجرايات. ولهذا الامير بين يديه من بينهم مزيد مكانة ورفيع محل، الى أن خرج السلطان الاشرف الى الحج، وكان ما قدّمناه من انتقاض قرطاي واستبداده؛ ثم استبداد ايبك من بعده وقد عظم محل هذا الامير من الدولة، ونما عزه وسمت رتبته. ثم فسد أمر ايبك، وتغلب على الامر جماعة من الامراء مفترقي الاهواء. وخشي العقلاء انتقاض الأمر وسوء المغبة فبادر هذا الامير، وتناول الحبل بيده، وجعل طرفه في يد بركة رديفه فأمسك معه برهة من الايام. ثم اضطرب وانتقض وصار الى ما صار اليه من الهلاك، واستقل الأمير برقوق بحمل الدولة والعناية الربانية تكفله والسعادة تؤاخيه.

وكان من جميل الصنع الرباني له أن كيّف الله غريبة في اجتماع شمل أبيه به؛ فقدم وفد التجار بأبيه من قاصية بلادهم بعد أن أعملوا الحيلة في استخلاصه، وتلطفوا في استخراجه، وكان اسمه أنس فاحتفل ابنه الأمير برقوق من مبرته، وأركب العساكر وسائر الناس على طبقاتهم لتلقيه. واعدّ الخيام بسرياقوس لنزوله فحضروا هنالك جميعاً في ثاني ذي الحجة سنة اثنتين وثمانين. وجلس الامير أنس الوافد صدر المجلس، وهم جميعاً حفافيه من القضاة والامراء، ونصب السماط فطعم الناس وانتشروا.

ثم ركبوا الى البلد وقد زينت الاسواق، وأوقدت الشموع وماجت السكك بالنظارة من عالم لا يحصيهم الا خالقهم. وكان يوماً مشهوداً. وأنزله بالاصطبل تحت المدينة الناصرية، ونظمه السلطان في أقربائه وبني عمه وبني اخوانه، واجتمع شملهم به وفرض لهم الارزاق وقررهم في الوظائف. ثم مات هذا الأب الوافد، وهو الامير أنس رحمه الله في أواسط [1] وثمانين بعد ان أوصى بحجة اسلامه وشرفت مراتب الامارة بمقامه. ودفنه السلطان بتربة الدوادار يونس. ثم نقله الى المدفن بجوار المدرسة التي أنشأها بين القصرين سنة ثمان وثمانين، والله يؤتي الملك من يشاء.

(١) كذا بياض بالأصل ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على هذه السنة.

خلع الصالح امير حاج وجلوس الامير برقوق على التخت واستبداده بالسلطان

كان أهل الدولة من البيبقاوية ــ وممن ولي منهم هذا الأمير برقوق ــ قد طمعوا في الاستبداد ، وظفروا بلذة الملك والسلطان ، ورتعوا في ظل الدولة والامان . ثم سمت أحوالهم الى أن يستقل أميرهم بالدولة ، ويستبد بها دون الاصاغر المنتصبين بالمملكة . وربما أشار بذلك بعض أهل الفتيا يوم بيعة أمير حاج ، وقال لا بدّ أن يشرك معه في تفويض الخليفة الامير القائم بالدولة لتشد الناس الى عقدة محكمة فأمضى الامر على ذلك ، وقام الامير بالدولة فأنس الرعية بحسن سياسته وجميل سيرته . واتفق أن جماعة من الامراء المختصين بهذا الصبي المنصوب غصوا بمكان هذا الامير وتفاوضوا في الغدر به . وكان متولي ذلك منهم أبقا العثماني دوادار السلطان .

ونمي الخبر اليه بذلك فتقبض عليهم ، وبعث أبقا الى دمشق على امارته ، وغرّب الآخرين الى قوص فاعتقلوا هنالك حتى أنفذ الله فيهم حكمه ، واشفق الامراء من تدبر مثل هؤلاء عليهم وتفاوضوا في محو الاصاغر من الدست وقيامه بأمرهم مستقلاً فجمعهم لذلك في تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين . وحضر الخاصة والعامة من الجند والقضاة والعلماء وأرباب الشورى والفتيا وأطبقوا

على بيعته ، وعزل السلطان أمير حـاج فبعث اليه أميرين من الامراء فادخلوه الى بيته ، وتناولوا السيف من يده فأحضروها .

ثم ركب هذا السلطان من مجلسه بباب الاصطبل وقد لبس شعار السلطنة وخلعة الخلافة فدخل الى القصور السلطانية ، وجلس بالقصر الابلق على التخت ، وأتاه الناس ببيعتهم أرسالاً . وانعقد أمره يومئذ ولقب الملك الظـاهر ، وقرعت الطبول وانتشرت البشائر ، وخلع على أمراء الدولة مثل أشمس الأتابك والطنبقا الجوباني أمير مجلس ، وجركس الخليلي أمير المـاخورية وسودون الشيخوني نائباً والطنبقا المعلم أمير سلاح ، ويونس النوروي دوادار وقردم الحسيني رأس نوبة . وعلى كتابه أوحـد الدين بن ياسين كاتب سره ادال به من بدر الدين بن فضل الله كاتب سرّ السلطان من قبل ، وعلى جميع أرباب الوظائف من وزير وكاتب وقاض ومحتسب ، وعـلى مشاهير العلم والفتيا والصوفية . وانتظمت الدولة أحسن انتظام ، وسرّ الناس بدخولهم في ايالة السلطـان يقدر للأمور قدرها ويحكم أواخيها . وأستأذنه الطنبقا الجوباني أمير مجلس في الحج تلك السنة ، وأذن له فانطلق لقضاء فرضه وعاد انتهى ، والله تعالى أعلم .

مقتل قرط وخلع الخليفة ونصب ابن عمه الواثق للخلافة

كان قرط بن عمر من التركمان المستخدمين في الدولة ، وكان

له اقدام وصرامة رقابها الى محل من مرادفة الامراء في وجوههم ومذاهبهم. ودفع الى ولاية الصعيد ومحاربة أولاد الكنز من العرب الجائلين في نواحي اسوان فكان له في ذلك غناء وأحسن في تشريدهم عن تلك الناحية. ثم بعث الى البحيرة والياً عند انتقاض بدر بن سلام وفراره، ومرجع العساكر من تمهيدها فقام بولايتها، وتتبع آثار أولئك المنافقين وحسم عللهم. وحضر في ثورة انيال فجلا في ذلك اليوم لشهامته واقدامه. وكان هو المتولي تسوّر الحائط واحراق الباب الظهراني الذي ولجوا عليه وامسكوه فكان يمت بهذه الوسائل اجمع، والسلطان يرعى له الا انه كان ظلوماً غشوماً فكثرت شكايات الرعايا والمتظلمين به فتقبض عليه لاول بيعته وأودعه السجن.

ثم عفا عنه وأطلقه، وبقي مباكراً باب السلطان مع الخواص والاولياء، وطوى على الغش وتربص بالدولة. ونمي عنه أنه فاوض الخليفة المتوكل بن المعتضد في الانتقاض والاجلاب على الدولة بالعرب المخالفين بنواحي برقة من أهل البحيرة، وأصحاب بدر بن سلام، وأن يفوّض الخليفة الامر الى سوى هـذا السلطان القائم بالدولة. وبانه داخل في ذلك بعض ضعفاء العقول من امراء الترك ممن لا يؤبه له فاحضرهم من غداته، وعرض عليهم الحديث فوجموا وتناكروا وأقر بعضهم واعتقل الخليفة بالقلعة. وأخرج قرط هذا لوقته فطيف به على الجمل مسمراً ابلاغاً في عقابه. ثم سيق الى

مصرعه خارج البلد، وقدّ بالسيف نصفين. وضم الباقون الى السجون، وولى السلطان الخلافة عمر بن ابراهيم الواثق من أقاربه وهو الذي كان الملك الناصر ولى أباه ابراهيم بعد الخليفة أبي الربيع وعزل عن ابنه أحمد كما مرّ، وكان هذا كله في ربيع سنة خمس وثمانين، وولي مكانه أخوه زكريا ولقب المعتصم، واستقرّت الاحوال الى ان كان ما نذكره ان شاء الله تعالى.

نكبة الناصري واعتقاله

كان هذا الناصري من مماليك بيبقا وأرباب الوظائف في أيامه، وكان له مع السلطان الظاهر ذمة وداد وخلة من لدن المربى والعشرة، فقد كانوا أتراباً بها، وكانت لهم دالة عليه لعلوّ سنه. وقد ذكرنا كيف استبدّوا بعد ايبك ونصبوا الناصري اتابكاً ولم يحسن القيام عليها. وجاء طشتمر بعد ذلك فكان معه حتى في النكبة والمحبس. ثم اشخص الى الشام وولي على طرابلس. ثم كانت ثورة انيال ونكبته في جمادى سنة احدى وثمانين فاستقدمهم من طرابلس، وولي أمير سلاح مكان انيال واستخلصه الامير بركة وخلطه بنفسه. وكانت نكبته فحبس معه، ثم أشخص الى الشام. وكان انيال قد أطلق من اعتقاله وولي على حلب سنة اثنتين وثمانين مكان منكلي بقري الأحمدي فاقام بها سنة أو نحوها. ثم نمي عنه خبر الانتقاض فقبض عليه، وحبس بالكرك.

وولى مكانه على حلب بيبقا الناصري في شوال سنة ثلاث وثمانين ، وقعد الظاهر على التخت لسنة بعدها ، واستبد بملك مصر . وكان الناصري لما عنده من الدالة يتوقف في انفاذ أوامره لما يراه من المصالح بزعمه ، والسلطان ينكر ذلك ويحقده عليه . وكان له مع الطنبقا الجوباني أمير مجلس أحد اركان الدولة حلف لم يغن عنه ، وأمر السلطان بالقبض على سولي بن بلقادر حين وفد عليه بحلب فأبى من ذلك صوناً لوفائه بزعمه ، ودس بذلك الى سولي فهرب ونجا من النكبة .

ووفد على السلطان سنة خمس وثمانين وجدّد حلفه مع الجوباني ومع اشمس الاتابك ، ورجع الى حلب . ثم خرج بالعساكر الى التركمان آخر سنة خمس وثمانين دون اذن السلطان فانهزم وفسدت العساكر ، ونجا بعد ثالثة جريحاً وأحقد عليه السلطان هذه كلها . ثم استقدمه سنة سبع وثمانين فلما انتهى الى سرياقوس تلقاه بها استاذ دار فتقبض عليه ، وطير به الى الاسكندرية فحبس بها مدة عامين ، وولى مكانه بحلب الحاجب سودون المظفر ، وكان عيبة نصح للسلطان وعيناً على الناصري فيما يأتيه ويذره ، لانه من وظائف الحاجب للسلطان في دولة الترك خطة البريد المعروفة في الدول القديمة؛ فهو بطانة السلطان بما يحدث في عمله ، ويعترض شجى في صدر من يروم الانتقاض من ولاته . وكان هذا الحاجب سودون هو الذي ينمي أخباره الي السلطان ويطلعه على مكامن مكره ، فلما

حبس الناصري بالاسكندرية ولاه مكانه بحلب وارتاب الجوباني من نكبة الناصري لما كان بينهما من الوصلة والحلف فوجم واضطرب ، وتبين السلطان منه النكر فنكبه كما نذكره بعد ان شاء الله تعالى وأقصاه والله أعلم .

اقصاء الجوباني الى الكرك ثم ولايته على الشام بعد واقعة بندمر

اصل هذا الامير الجوباني من قبائل الترك واسمه الطنبقا ، وكان من موالي يبيقا الخاصكي المستولي على السلطان الاشرف وقد مرّ ذكره ، ربي في قصره وجوّ عزه ولقن الخلال والآداب في كنفه . وكانت بينه وبين السلطان خلة ومصافاة اكسبتها له تلك الكفالة بما كانا رضيعي ثديها ، وكوكبي أفقها ، وتربي مرقاها . وقد كان متصلًا فيما قبله بينهما من لدن المربى في بلادهم واشتمل بعضهم على بعض ، واستحكم الاتحاد حتى بالعشرة أيام التمحيص والاغتراب كما مرّ . فلقد كان معتقلًا معه بالكرك أيام المحنة خمساً من السنين أدال الله لهذا السلطان حزنها بالمسرّة ، والنحوسة بالسعادة والسجن بالملك . وقسمت للجوباني بها شائبة من رحمة الله وعنايته في خدمة السلطان بدار الغربة والمحنـة والقته به في المنزل الخشن لتمظم له الوسائل وتكرم الاذمة والعهود .

انّ الكرام اذا ما أسهلوا ذكروا
من كان يألفهم في المنزل الخشن

ثم كان انطلاقهما الى الشام ومقامهما جميعاً واستدعاؤهما الى دار الملك ورقيهما في درج العز والتغريب كذلك ، وكان للسلطان أصحاب سراة يمتون اليه بمثل هذه الوسائل وينتظمون في سلكها وكان متميز الرتبة عنهم ، سابقاً في مرقى درجات العز أمامهم ، مجلياً في الحلبة التي فيها طلقهم ، الى أن ظفر بالملك واستولى على الدولة ، وهو يستتبعهم في مقاماته ويوطئهم عقبه ويذلل لهم الصعاب فيقتحمونها ، ويجوز لهم الرتب فيستهمون عليها . ثم اقتعد منبر الملك والسلطان ، واستولى على كرسيه ، وقسم مراتب الدولة ووظائفها بين هؤلاء الاصحاب . وآثر الجوباني منهم بالصفاء والمرباع فجعله أمير مجلسه ومعناه ، صاحب الشورى في الدولة، وهو ثاني الأتابك وتلو رتبته . فكانت له القدم العالية من أمرائه وخلصائه ، والحظ الوافر من رضاه وايثاره . وأصبح أحد الاركان التي بها عمد دولته باساطينها ، وأرسى ملكه بقواعدها . الى أن دبت عقارب الحسد الى مهاده ، وحوّمت شباة السعاية على قرطاسه ؛ وارتاب السلطان بمكانه وأعجل الحزم على امهاله فتقبض عليه يوم الاثنين لسبع بقين من سنة سبع وثمانين ، وأودعه بعض حجر القصر عامة يومه .

ثم أقصاه الى الكرك وعواطف الرحمة تنازعه ، وسجايا

الكرم والوفاء تقض من سخطه . ثم سمح وهو بالخير أسمح ، وجنح وهو الى الادنى من الله أمنح ، فسرح اليه من الغد برسوم النيابة على تلك الاعمال فكانت غريبة لم يسمع بمثلها من حلم هذا السلطان واناقه ، وحسن نيته وبصيرته ، وكرم عهده وجميل وفائه . وانطلقت الالسن بالدعاء له ، وامتلأت القلوب بالمحبة . وعلم الاولياء والخاصة والشيع والكافة أنهم في كفالة أمن ولطف وملكة احسان وعدل .

ثم مكث حولا يتعقب أحواله ، ويتتبع سيره وأخباره طاوياً شأنه في ذلك عن سائر الاولياء ، الى أن وقف على الصحيح من أمره ، وعلم خلوص مصادقته وجميل خاوصه . فاخفق سعي الداعين ، وخابت ظنون الكاشحين ، وأداله العتبى من العتاب ، والرضا من النكرى ، واعتقد ان يمحو عنه هواجس الاسترابة والاستيحاش ، ويردّه الى أرفع الامارة . وبينما هو يطوي على ذلك ضميره ، ويناجي سره اذ حدثت واقعة بندمر بالشام فكانت ميقاتاً لبدر السعادة وعلما على فوزه بذلك الحظ كما نذكر ان شاء الله تعالى .

وخبر هذه الواقعة أن بندمر الخوارزمي كان نائباً بدمشق ، وقد مرّ ذكره غير مرّة وأصله من الخوارزمية اتباع خوارزم شاه صاحب العراق عند استيلاء التتر ، وافترقوا عند مهلكه على يد جنكزخان في ممالك الشام ، واستخدموا لبني أيوب والترك أوّل

استبدادهم بمصر . وكان هذا الرجل من أعقاب أصلهم ، وكان له نجابة جذبت بضبعه ، ونصب عند الامراء من سوقه فاستخدم بها الى ان ترشح للولاية في الاعمال ، وتداول امارة دمشق مع منجك اليوسفي وعشقتمر الناصري ، وكان له انتقاض بدمشق عند تغلب الخاصكي وحاصره واستنزله بامانه .

ثم أعيد الى ولايته . ثم تصرّمت تلك الدول وتغلب هذا السلطان على الامر ، ورادفه فيه فولوه على دمشق ، وكانت صاغيته مع بركة . فلما حدث انتقاض بركة كتب اليه والى بقرى بدمشق أولياؤه هنالك بالاستيلاء على القلعة . وكتب برقوق الى نائب القلعة يحذّرهم فركب جنتمر اخ طاز وابن جرجى ومحمد بيك وقاتلوه ثلاثاً . ثم أمسكوه وقيدوه ومعه بقري بن برقش وجبريل مرتبه ، وسيقوا الى الاسكندرية فحبسوا . فلما قتل بركة أطلق بندمر ومن كان حبس من أصحاب بركة مثل : بيبقا الناصري ودمرداش الاحمدي . ثم استخلصه السلطان برقوق ورده الى عمله الاوّل بعد جلوسه على التخت والشام له . وكان جماعاً للاموال شديد الظلامة فيها ، متحيلاً على استخلاصها من أيدي أهلها بما يطرق لهم من أسباب العقاب . مصانعاً للحاشية بماله من حاميته الى ان سئم الناس ايالته ، وترجمت القلوب منه .

وكان بدمشق جماعة من الموسوسين المسامرين لطلب العلم بزعمهم ، متهمون في عقيدتهم بين مجسم ورافضي وحلولي ، جمعت

بينهم انساب الضلال والحرمان ، وقعدوا عن نيــل الرتب بما هم فيه . تلبسوا باظهار الزهد والنكير على الخلق حتى على الدولة في توسعة بطلان الاحكام والجباية عن الشرع الى السياسة التي تداولها الخلفاء ، وأرخص فيها العلماء وأرباب الفتيا وحملة الشريعة بما تمس اليه الحاجة من الوازع السلطاني ، والمعونة على الدفاع .

وقديمـاً نصبت الشرطة الصغرى والكبرى ، ووظيفـة المظالم ببغداد دار السلام ومقرّ الخلافة وايوان الدين والعلم ، وتكلم الناس فيها بما هو معروف ، وفرضت ارزاق العساكر في أثمان البياعات عند حاجة الدولة الاموية ، فليس ذلك من المنكر الذي يعتدّ بتغييره ، فلبس هؤلاء الحمقى على الناس بامثال هذه الكلمات ، وداخـلوا من في قلبه مرض من الدولة . وأوهموا ان قد توثقوا من الحل والعقد في الانتقاض فرية انتحلوها ، وجما انهوه نهايته . وعدوا على كافل القلعة بدمشق وحاميتها يسألونهم الدخول معهم في ذلك لصحابة كانت بين بعضهم وبينه فاعتقلهم وطالع السلطان بأمرهم .

وتحدث الناس أنهم داخلوا في ذلك بندمر النائب بمداخلة بعضهم كابنه محمد شاه . ونمي الخبر بذلك الى السلطـان فارتاب به وعاجـله بالقبض والتوثق منه ومن حاشيته . ثم أخرج مستوفي الاموال بالحضرة لاستخلاص ما احتازه من أموال الرعايا ، واستأثر به على الدولة وأحضر هؤلاء الحمقى ومن بسوء سـيرتهم مقتدون

الى الابواب العالية فقذفوا في السجون ، وكانوا أحق بغير ذلك من انواع العذاب والنكال .

وبعث السلطان لعشقتمر الناصري وكان مقيماً بالقدس أن يخرج نائباً على دمشق فتوجه اليها ، وأقام رسم الامـارة بها أياماً ظهر فيها عجزه ، وبين عن تلك الرتبة قعوده بما أصابه من وهن الكبر وطوارىء الزمانة والضعف ، حتى زعموا أنه كان يحمل على الفراش في بيته الى منعقد حكمه ، فعندها بعث السلطان عن هذا الامير الجوباني ، وقد خلص من الفتن ابريزه وأينع بنفحات الرضا والقبول عوده ، وأفرح بمطـالعة الانس والقرب روعه . فجاء من الكرك على البريد وقد اعدت له أنواع الكرامة ، وهيء له المنزل والركاب والفرش والثياب والآنية والخوان والخرثي والصوان ، واحتفل السلطان لقدومه وتلقيه بما لم يكن في أمله .

وقضى الناس العجب من حلم هذا السلطان وكرم عهده وجميل وفائه ، وتحدث به الركبان . ثم ولاه نيابة دمشق وبعثه لكرسيه مطلق اليد ماضي الحكم عزيز الولاية ، وعسكر بالزيدانية ظاهر القاهرة ثالث ربيع الاول من سنة سبع وثمانين ، وارتحل من الغد وسعادة السلطان تقدمه ورضاه ينقله الى أن قارب دمشق ، والناس يتلقونه أرسالاً . ثم دخل المدينة غرة ربيع الثاني وقد احتفل الناس لقدومه ، وغصت السكك بالمتنزهين ، وتطـاول الى دولته أرباب الحدود . وتحدّث الناس بجمال هذا المشهد الحفيل ، وتناقلوا

خبره. واستقل بولاية دمشق وعناية السلطان تلاحظه، ومذاهب الطاعة والخلوص تهديه بحسن ذكره. وأفاض الناس الثناء في حسن اختياره وجمال مذهبه، وأقام السلطان في وظيفته أحمد ابن الامير بيبقا فكان أمير مجلس، والله غالب على امره.

هدية صاحب افريقية

كان السلطان لهذا العهد بافريقية من الموحدين، ومن أعقاب الامير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي، المستبدّ بافريقية على بني عبد المؤمن ملوك مراكش أعوام خمس وعشرين وستمائة. وهو أحمد بن محمد بن أبي بكر بن يحيى بن ابراهيم أبي زكريا سلسلة ملوك كلهم. ولم تزل ملوك المغرب على القدم ولهذا العهد يعرفون لملوك الترك بمصر حقهم، ويوجبون لهم الفضل والمزية بما خصهم الله من ضخامة الملك وشرف الولاية بالمساجد المعظمة وخدمة الحرمين. وكانت المهاداة بينهم تتصل بعض الاحيان، ثم تنقطع بما يعرض في الدولتين من الاحوال. وكان لي اختصاص بذلك السلطان ومكان من محبسه، ولما رحلت الى هذا القطر سنة أربع وثمانين، واتصلت بهذا السلطان بمصر الملك الظاهر سألني عنه لاول لقيه فذكرته له بأوصافه الحميدة، وما عنده من الحب والثناء، ومعرفة حقه على المسلمين أجمع، وعلى الملوك خصوصاً في

تسهيل سبيل الحج، وحماية البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود، أحسن الله جزاءه ومثوبته.

ثم بلغني أن السلطان بافريقية صدّ أهلي وولدي عن اللحاق بي اغتباطاً بمكاني وطلباً لفيئتي الى بابه، ورجوعي فتطارحت على هذا السلطان في وسيلة شفاعة تسهل منه الاذن فاسعفني بذلك، وخاطبت ذلك السلطان كان الله له، أغبطه بمودة هذا السلطان، والعمل على مواصلته ومهاداته كما كان بين سلفهم في الدولتين فقبل مني، وبادر الى اتحافه بمقرّبات اذ ليس عندنا في المغرب تحفة تطرف بها ملوك الشرق الا الجياد العرب. وأما ما سوى ذلك من انواع الطرف والتحف بالمغرب فكثير لديهم أمثاله، ويقبح أن يطرف عظماء الملوك بالتافه المطروح لديهم.

واختار لتلك سفينته التي أعدها لذلك وأنزل بها أهلي وولدي بوسيلة هذا السلطان أيده الله، لسهولة سبيل البحر وقرب مسافته. فلما قاربوا مرسى الاسكندرية عاقتهم عواصف الرياح عن احتلال السفينة، وغرق معظم ما فيها من الحيوان والبضائع، وهلك أهلي وولدي فيمن هلك. ونفقت تلك الجياد وكانت رائعة الحسن صافية النسب، وسلم من ذلك المهلك رسول جاء من ذلك السلطان لمدّ العهد. وتقرّر المودّة فتلقي بالقبول والكرامة، وأوسع النزل والقرى. ثم اعتزم على العودة الى مرسله فانتقى السلطان ثياباً من الوشيّ المرقوم من عمل العراق والاسكندرية يفوت القيمة

واستكثر منها، واتحف بها السلطان ملك افريقية على يد هذا الرسول على عادة عظماء الملوك في اتحافهم وهداياهم .

وخاطبت ذلك السلطان معه بحسن الثناء على قصده وجميل موقع هديته من السلطان، واستحكام مودته له. واجابني بالعذر من الموقع وأنه مستأنف من الاتحاف للسلطان، واستحكام مودته بما يسره الحال. فلما قدم الحاج من المغرب سنة ثمان وثمانين وصل فيهم من كبار الغرب بدولته، وأبناء الاعاظم المستبدين على سلفه عبيد بن القائد أبي عبدالله محمد بن الحكيم بهدية من المقرّبات، رائقة الحلي رائعة الاوصاف منتخبة الاجناس والانساب، غريبة الالوان والاشكال. فاعترضها السلطان وقابلها بالقبول وحسن الموقع .

وحضر الرسول بكتابه فقري، وأكرم حامله، وانعم عليه بالزاد لسفر الحج . وأوصى أمراء المحمل فقضى فرضه على أكمل الاحوال، وكانت أهم أمنياته . ثم انقلب ظافراً بقصده وأعاده السلطان الى مرسله بهدية نحو من الاولى من أجناس تلك الثياب ومستجادها مما يجاوز الكثرة ويفوت، واستحكمت عقدة المودة بين هذين السلطانين . وشكرت الله على ما كان فيها من أثر مسعاي ولو قل. وكان وصل في جملة الحاج من المغرب كبير العرب من هلال، وهو يعقوب بن علي بن أحمد أمير رياح الموطنين بضواحي قسنطينة وبجاية والزاب في وفد من بنيه واقربائه. ووصل في

جملتهم أيضاً عون بن يحيى طالب بن مهلهل من الكعوب أحد شعوب سُلَيم الموطنين بضواحي تونس والقيروان والجريد وبنو أبيه ، فقضوا فرضهم أجممون ، وانقلبوا الى مواطنهم أواسط شهر ربيع الآخر من سنة تسع وثمانين ، واطردت أحوال هذه الدولة على أحسن ما يكون ، والله متولي أمرها بمنه وكرمه انتهى .

حوادث مكة وامرائها

قد تقدم لنا ان ملك مكة سار في هذه الاعصار لبني قتادة من بني مطاعن الهواشم بني حسن ، وذلك منذ دولة الترك . وكان ملكهم بها بدوياً ، وهم يعطون الطاعة لملك مصر ، ويقيمون مع ذلك الدولة العباسية للخليفة الذي ينصبه الترك بمصر الى أن استقرّ أمرها آخر الوقت لأحمد بن عجلان من رميثة بن أبي نمى أعوام سنة ستين وسبعمائة بعد أبيه عجلان ، فأظهر في سلطان عدلًا وتعففا عن أموال الناس ، وقبض أيدي أهل العيث والظلم وحاشيتهم وعبيدهم وخصوصاً عن المجاورين . وأعانه على ذلك ما كان له من الشوكة بقوّة أخواله ، ويعرفون بني عمر من اتباع هؤلاء السادة ومواليهم ، فاستقام أمره وشاع بالعدل ذكره ، وحسنت سيرته . وامتلأت مكة بالمجاورين والتجار حتى غصت بيوتها بهم .

وكان عنان ابن عمه مقامس بن رميثة ومحمد ابن عمه مقامس

ابن رميثة ينفسون عليه ما آتاه الله من الخير ، ويجدون في أنفسهم اذ ليس يقسم لهم برضاهم في أموال جبايته فتنكروا له . وهموا بالانتقاض فتقبض عليهم ، وكان لهم حلف مع أخيه محمد بن عجلان فراوده على تركهم أو حبسهم فحبسوا ولبثوا في محبسهم ذلك حولا أو فوقه . ثم نقبوا السجن ليلاً وفرّوا فأدركوا من ليلتهم وأعيدوا الى محبسهم وأفلت منهم عنان بن مقامس ، ونجا الى مصر سنة ثمان وثمانين صريخاً بالسلطان . وعن قليل وصل الخبر بوفاة أحمد بن عجلان على فراشه ، وأن أخاه كبيش بن عجلان نصب ابنه محمداً مكانه وقام بأمره ، وانه عمد الى هؤلاء المعتقلين فسمهم صوناً للامر عنهم لمكان ترشيحهم فنكر السلطان ذلك وسخطه من فعلاتهم وافتياتهم . ونسب الى كبيش وانه يفسد بالفساد بين هؤلاء الاقارب .

ولما خرج الحاج سنة ثمان وثمانين ، أوصى أمير حاج بعزل الصبيّ المنصوب ، والاستبدال عنه بابن عنان بن مقامس ، والقبض على كبيش . ولما وصل الحاج الى مكة وخرج الصبيّ لتلقي المحمل الخلافيّ ، وقد أرصد الرجال حفافيه للبطش بكبيش وأميره المنصوب فقعد كبيش عن الحضور ، وجاء الصبيّ وترجل عن فرسه لتقبيل الخف من راحلة المحمل على العادة فوثب به أولئك المرصدون طعناً بالخناجر يظنونه كبيشاً . ثم غابوا فلم يوقف لهم على خبر ، وتركوه طريحاً بالبطحاء . ودخل الامير الى الحرم فطاف وسعى ،

وخلع على عنان بن مقامس الامارة على عادة من سلف من قومه. ونجا كبيش الى جدّة من سواحل مكة .

ثم لحق بأحياء العرب المنتبذين ببقاع الحجاز صريخاً فقعدوا عن نصرته وفاء بطاعة السلطان ، وافترق أمره وخذله عشيره ، وانقلب الامير بالحاج الى مصر فعنفه السلطان على قتله الصبيّ فاعتذر بافتيات أولئك الرجال عليه فعذره . وجاء كبيش بعد منصرف الحاج ، وقد انضم اليه أوباش من العرب فقعد بالمرصد يخيف السابلة والركاب والمسافرين . ثم زحف الى مكة وحاصرها أوّل سنة تسع وثمانين ، وخرج عنان بن مقامس بعض الايام وبارزه فقتله ، واضطرب الامر بمكة وامتدّت أيدي عنان والاشرار معه الى أموال المجاورين فتسلطوا عليها ، ونهبوا زرع الامراء هنالك ، وزرع السلطان للصدقة . وولى السلطان علي بن عجلان ، واعتقله حسماً لمادّة طوارق الفساد عن مكة ، واستقرّ الحال على ذلك الى أن كانت فتنة الناصر كما نذكر ان شاء الله تعالى انتهى .

انتقاض منطاش بملطية ولحاقه بسيواس ومسير العساكر في طلبه

كان منطاش هذا وتمرتاي الدمرداشي الذي مرّ ذكره أخوين لتمراز الناصري من موالي الملك الناصر محمد بن قلاون ، وربيا في

كفالة أمّها. وكان اسم تمرتاي محمداً، وهو الاكبر، واسم منطاش أحمد وهو الأصغر. واتصل تمرتاي بالسلطان الاشرف وترقى في دولته في الوظائف الى أن ولي بحلب سنة ثمانين، وكانت واقعته مع التركمان. وذلك انه وفد عليه أمراؤهم فقبض عليهم لما كان من عيثهم في النواحي، واجتمعوا فسار اليهم وأمدّه السلطان بعساكر الشام وحماة، وانهزموا أمامهم الى الدربند. ثم كرّوا على العساكر فهزموها ونهبوها في المضايق وتوفي تمرتاي سنة اثنتين وثمانين، وكان السلطان الظاهر برقوق يرعى لهما هذا الولاء فولّى منطاش على ملطية.

ولما قعد على الكرسي واستبدّ بالسلطان بدت من منطاش علامات الخلاف فهمّ به. ثم راجع ووفد وتنصل للسلطان، وكان سودون باق من أمراء الالوف خالصة للسلطان، ومن أهل عصبيته. وكان من قبل ذلك في جملة الامير تمرتاي فرعا لمنطاش حق أخيه، وشفع له عند السلطان وكفل حسن الطاعة منه، وأنه يخرج على التركمان المخالفين ويحسم علل فسادهم. وانطلق الى قاعدة عمله بملطية. ثم لم تزل آثار العصيان بادية عليه، وربما داخل أمراء التركمان في ذلك ونمي الخبر الى السلطان فطوى له، وشعر هو بذلك فراسل صاحب سيواس قاعدة بلاد الروم، وبها قاضٍ مستبدّ على صبيّ من أعقاب بني أرتنى ملوكها من عهد

هلاكو قد اعصوصب عليه بقية من احيـاء التتر الذين كانوا حامية هنالك مع الشحنة فيها كما نذكره .

ولما وصلت رسل منطاش ، وكتبه الى هـذا القـاضي بادر باجابته ، وبعث رسلًا وفداً من أصحابه في اتمام الحديث معـه فخرج منطاش الى لقائهم ، واستخلف عـلى ملطية دواداره ، وكان مغفلًا فخشي مغبة ما يرومه صاحبه من الانتقاض فلاذ بالطاعة ، وتبرّأ من منطاش ، وأقام دعوة السلطان في البلد . وبلغ الخبر الى منطاش فاضطرب. ثم استمرّ وسار مع وفد القاضي الى سيواس ؛ فلما قدم عليه وقد انقطع الحبل في يده أعرض عنه ، وصار الى مغالطة السلطان عما أتاه من مداخلة منطاش ، وقبض عليه وحبسه. وسرح السلطان سنة تسع وثلاثين عساكره مع يونس الدوادار وقردم رأس نوبة ، والطنبقا الرماح أمير سلاح ، وسودون باق من أمراء الالوف . وأوعز الى الناصري فأتى وطلب أن يخرج معهم بعساكره ، والى انيال اليوسفي من أمراء الالوف بدمشق وساروا جميعاً .

وكان يومئذ ملك التتر بما وراء النهر وخراسان تمر من نسب جفطاي قد زحف الى العراقين واذربيجـان ، وملك توريز عنوة واستباحها ، وهو يحاول ملك بغداد. فسارت هذه العساكر توري بغزوه ودفاعه ، حتى اذا بلغوا حلب أتى اليهم الخبر بأن تمر رجع بعساكره لخارج خرج عليه بقاصية ما وراء النهر ، فرجعت عساكر

السلطان الى جهة سيواس ، واقتحموا تخومها على حين غفلة من أهلها. فبادر القاضي الى اطلاق منطاش لوقته. وقد كان أيام حبسه يوسوس اليه بالرجوع عن موالاة السلطان وممالأته. ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب حتى جنح الى قوله فبعث لاحياء التتر الذين كانوا ببلاد الروم فيئة ابن اريتا بن أول ، فسار اليهم واستجاشهم على عسكر السلطان ، وحذرهم استئصال شأفتهم باستئصال ملك ابن اريتا وبلده.

ووصلت العساكر خلال ذلك الى سيواس فحاصروها أياماً وضيقوا عليها ، وكادت ان تلقي باليد. ووصل منطاش اثر ذلك باحياء التتر فقاتلهم العساكر ودافعوهم ، ونالوا منهم. وجلّى الناصري في هذه الوقائع ، وأدرك العساكر الملل والضجر من طول المقام ، وبطء الظفر ، وانقطاع الميرة بتوغلهم في البلاد وبعد الشقة ، فتداعوا للرجوع ودعوا الامراء الية فجنح لذلك بعضهم فانكفؤا على تعبيتهم. وسار بعض التتر في اتباعهم فكروا عليهم واستلحموهم وخلصوا الى بلاد الشام على احسن حالات الظهور ونية العود ليحسموا علل العدوّ ، ويمحوا أثر الفتنة ، والله تعالى أعلم.

نكبة الجوباني واعتقاله بالاسكندرية

كان الامراء الذي حاصروا سيواس قد لحقهم الضجر والسآمة

من طول المقام ، وفزع قردم والطنبقا [1] المعلم منهم الى الناصري مقدم العساكر بالشكوى من السلطان فيما دعاهم اليـه من هذا المرتكب ، وتفاوضوا في ذلك ملياً ، وتـداعوا الى الافراج عن البلد بعـد أن بعثوا الى القاضي بها واتخذوا عنده يداً بذلـك . وأوصوه بمنطاش والابقاء عليه ليكون لهم وقوفاً للفتنة . وعلم يونس الدوادار أنهم في الطاعة فلم يسعه خلافهم ففوّض لهم . ولما انتهى الى حلب غدا عليه دمرداش من أمرائهـا فنصح له بأن الجوباني نائب دمشق مداخل للناصر في تمريضه في الطاعة ، وأنهما مصرّان على الخلاف . وقفل يونس الى مصر فقص عـلى السلطان نصيحته ، واستـدعى دمرداش فشافه السلطان بذلك واطلع منه على جلي الخبر في شأنهما .

وكان للجوباني مماليك أوغاد قد أبطرتهم النعمة ، واستهواهم الجاه ، وشرهوا الى التوثب وهو يزجرهم فصـاروا الى اغرائه بالحاجب يومئذ طرنطاي ، فقعد في بيته عن المجلس السلطاني ، وطير بالخبر الى مصر فاستراب الجوباني وسابقه بالحضور عنـد السلطان لينضح عنه ما علق به من الاوهام ، وأذن له في ذلك فنهض من دمشق على البريد في ربيع سنة تسعين . ولما انتهى الى سرياقوس أزعج اليه استاذ داره بهادر المنجكي فقبض عليه ، وطير به السفن الى الاسكندرية . وأصبح السلطـان من الغد فقبض على قردم

(١) كذا بالأصل ، يرد هذا الاسم تارة الطنبقا وطوراً الطنبغا . وهو لقب تركي .

والطنبقا المعلم، وألحقهما به فحبسوا هنالك جميعاً. وانحسم ما كان يتوقع من انتقاضهم. وولى السلطان مكان الجوباني بدمشق طرنطاي الحاجب، ومكان قردم بمصر ابن عمه مجماس ومكان المعلم دمرداش، واستمر الحال على ذلك.

فتنة الناصري واستيلاؤه على الشام ومصر واعتقال السلطان بالكرك

لما بلغ الناصري بحلب اعتقال هؤلاء الامراء استراب واضطرب، وشرع في أسباب الانتقاض، ودعا اليه من يتشيع الشر وسماسرة الفتن من الامراء وغيرهم فأطاعوه، وافتتح أمره بالنكير للامير سودون المظفري والانحراف عنه لما كان منه في نكبته واغراء السلطان به ثم ولايته مكانه. ومن وظائف الحاجب في دولة الترك: خطة البريد المعروفة في الدول القديمة، فهو يطالع السلطان بما يحدث في عمله، ويعترض شجى في صدر من يريد الانتقاض من ولاته. فأظلم الجوّ بين هؤلاء الرهط وبين المظفري، وتفاقم الامر وطير بالخبر الى السلطان فأخرج للوقت دواداره الاصغر تلكتمر ليصلح بينهما، ويسكن الثائرة. وحينما سمعوا بمقدمه ارتابوا وارتكبوا في امرهم، وقدم تلكتمر فتلقاه الناصري وألقى اليه كتاب السلطان بالندب الى الصلح مع الحاجب، والاغضاء له

فأجاب بعد أن التمس من حقائب تلكتمر مخاطبة السلطان وملاطفته للامراء حتى وقف عليه .

ثم غلب عليه أولئك الرهط من أصحابه بالفتك بالحاجب فأطاعهم ، وباكرهم تلكتمر بدار السعادة ليتم الصلح بينهم وتذهب الهواجس والنفرة فدعاه الناصر الى بعض خلواته . وبينما هو يحادثه واذا بالقوم قد وثبوا على الحاجب وفتكوا به . وتولى كبر ذلك أنبقا الجوهري ، واتصلت الهيعة فوجم تلكتمر ، ونهض الى محل نزوله . واجتمع الامراء الى الناصري واعصوصبوا عليه . ودعاهم الى الحلعان فأجابوا ، وذلك في محرم سنة احدى وتسعين .

واتصل الخبر بطرابلس ، وبها جماعة من الامراء يرومون الانتقاض منهم بدلار الناصري عميد الفتن فتولى كبرها ، وجمع الذين تمالؤا عليها وعمدوا الى الايوان السلطاني المسمى بدار السعادة، وقبضوا على النائب وحبسوه ، ولحق بدلار الناصرى في عساكر طرابلس وأمرائها . وفعل مثل ذلك أهل حلب وحمص وسائر ممالك الشام . وسرح السلطان العساكر لقتالهم . فسار ايتمش الاتابك ، ويونس الدوادار ، والخليلي جركس أمير الماخورية وأحمد ابن يبقا أمير مجلس ، وايدكاز صاحب الحجاب فيمن اليهم من العساكر . وانتخب من ابطال مماليكهم وشجعانهم خمسمائة مقاتل ، واستضافهم الى الخليلي وعقد لهم لواءه المسمى بالشاليش ، وأزاح

عللهم وعلل سائر العساكر. وساروا على التعبية منتصف ربيع السنة.

وكان الناصري لما فعل فعلته بعث عن منطاش وكان مقيماً بين أحياء التتر منذ رجوع العساكر عن سيواس، فدعاه ليمسك معه حبل الفتنة والخلاف فجاء وملأه مبرة واحساناً، واستنفر طوائف التركمان والعرب، ونهض في جموعه يريد دمشق، وطرنطاي نائبها يواصل تعريف السلطان بالاخبار، ويستحث العساكر من مصر على خلع نائبها الامير الصفوي وبينه وبين الناصر علاقة وصحبة؛ فاستترابوا به وتقبضوا عليه، ونهبوا بيته وبعثوا به حبيساً الى الكرك وولوا مكانه محمد باكيش بن جند التركماني، كان مستخدماً عند بندمر هو وأبوه، وولي لهذا العهد على نابلس وما يجاورها فنقلوه الى غزة.

ثم تقدّموا الى دمشق واختاروا من القضاة وفداً أوفدوه على الناصري وأصحابه للاصلاح فلم يجيبوا، وأمسكوا الوفد عندهم وساروا للقاء. ولما تراءى الجمعان بالمرج نزع أحمد بن بيبقا وايدكاز الحاجب ومن معهما الى القوم فساروا معهم، واتبعهم مماليك الامراء، وصدق القوم الحملة على من بقي فانفضوا ولجأ ايتمش الى قلعة دمشق فدخلها، وكان معه مكتوب السلطان بذلك متى احتاج اليه. وذهب يونس حيران وقد أفرده مماليكه فلقيه عنقا أمير الامراء وكان عقد له بعض النزعات أيام سلطانه

فتقبض عليه، وأحيط بجركس الخليلي ومماليك السلطان حوله، وقد أبلوا في ذلك الموقف، واستلحم عامّتهم فخاص بعض العدوّ اليه وطعنه فأكبه، ثم احتز رأسه. وذهب ذلك الجمع شعاعاً وافترقت العساكر في كل وجه، وجيء بهم أسرى من كل ناحية.

ودخل الناصري وأصحابه دمشق لوقتهم واستولوا عليها، وعاثت عساكرهم من العرب والتركمان في نواحيها. وبعث اليهم عنقا يستأذنهم فى أمر يونس فأمر بقتله فقتله وبعث اليهم برأسه. وأوعزوا الى نائب القلعة بحبس ايتمش عنده، وفرّقوا المحبوسين من أهل الواقعة على السجون بقلعة دمشق وصفد وحلب وغيرها. وأظهر ابن باكيس دعوته بغزة وأخذ بطاعتهم، ومرّ به أنيال اليوسفي من أمراء الالوف بدمشق ناجياً من الوقعة الى مصر فقبض عليه وحبسه بالكرك. واستعدّ السلطان للمدافعة وولى دمرداش أتابكاً مكان ايتمش وقرماش الجندار دوادار مكان يونس، وعمر سائر المراتب عمن فقد منها، وأطلق الخليفة المعتقل المتوكل بن المعتضد، وأعاده الى خلافته وعزل (١) المنصوب مكانه.

وأقام الناصري وأصحابه بدمشق أياماً ثم أجمعوا المسير الى مصر ونهضوا اليها بجموعهم، وعميت أنباؤهم حتى أطلت مقدمتهم على بلبيس. ثم تقدّموا الى بركة الحاج وخيموا بها

(١) كذا بياض بالأصل، ويتضح مما سيأتي أن الخليفة المعزول هو: أمير حاج بن الأشرف.

لسبع من جمادى الاخيرة من السنة . وبرز السلطَان في مماليكه ووقف امام القلعة بقية يومه والناس يتسايلون الى الناصري من العساكر ومن العامة حتى غصت بهم بسائط البركة واستأمن أكثر الامراء مع السلطان الى الناصري فأمنهم وأطلع السلطان على شأنهم ، وسارت طائفة من العسكر وناوشوهم القتال وعادوا منهزمين الى السلطان . وارتاب السلطان بأمره وعاين انحلال عقدته فدس الى الناصري بالصلح ، وبعث اليه بالملاطفه وأن يستمرّ على ملكه ويقوم بدولته خدمه وأعوانه . وأشار بأن يتوارى بشخصه ان يصيبه أحد من غير البيبقاوية بسوء . فلما غشيه الليل . أذن لمن بقي معه من مماليكه في الانطلاق ودخل الى بيته . ثم خرج متنكراً وسرى في غيابات المدينة .

وباكرهم الناصري وأصحابه القلعة فاستولوا عليها ، ودعوا امير حاج ابن الاشرف فأدوه الى التخت كما كان ونصبوه للملك ولقبوه المنصور ، وبادروا باستدعاء الجوباني والامراء المعتقلين بالاسكندرية فأغذوا السير ووصلوا ثاني يومهم . وركب الناصري واصحابه للقائهم وأنزل الجوباني عنده بالاصطَبل وأشركه في امره وأصبحوا ينادون بطَلب السلطَان الظاهر بقية يومهم ذلك ومن الغد حتى دلّ عليه بعض مماليك الجوباني وحين رآه قبل الارض وبالغ في الادب معه ، وحلف له على الامان ، وجاء به الى القلعة فأنزله بقاعة الفضة ، واشتوروا في امره . وكان حرص

منطاش وزلار على قتله أكثر من سواهما. وأبى الناصري والجوباني الا الوفاء بما اعتقد معهم؛ واستقرّ الجوباني اتابك، والناصري رأس النوبة الكبرى، ودمرداش الأحمدي أمير سلاح، وأحمد بن بيبقا أمير مجلس، والابقا العثماني دوادار، وانبقا الجوهري استاذ دار. وعمرت الوظائف والمراتب.

ثم بعثوا زلار نائباً على دمشق وأخرجوه اليها وبعثوا كتبغا البيبقاوي على حلب، وكان السلطان قد عزله عن طرابلس واعتقله بدمشق، فلما جاء في جملة الناصري بعثه على حلب مكانه. وقبضوا على جماعة من الامراء فيهم النائب سودون باق وسودون الطرنطاي فحبسوا بعضهم بالاسكندرية، وبعثوا آخرين الى الشام فحبسوا هنالك وتتبعوا مماليك السلطان فحبسوا أكثرهم، وأشخصوا بقيتهم الى الشام يستخدمون عند الامراء.

وقبضوا على استاذ دار محمود قهرمان الدولة وقارون القصري فصادروه على ألف ألف درهم. ثم أودعوه السجن. وهم مع ذلك يتشاورون في مستقرّ السلطان بين الكرك وقوص والاسكندرية حتى أجمعوا على الكرك وورّوا بالاسكندرية حذراً عليه من منطاش. فلما أزف مسيره قعد له منطاش عند البحر رصداً وبات عامة ليله، وركب الجوباني مع السلطان من القلعة وأركب معه صاحب الكرك موسى بن عيسى في لمة من قومه يوصلونه الى الكرك. وسار معه برهة من الليل مشيعاً. ثم رجع وشعر منطاش

من أمره وطوى علي الغش وأخذ ثياب الثورة كما يذكر، ونجا السلطان الى الكرك في فلّ من غلمانه ومواليه ووكل الناصري به حسن الكشكي من خواصه وولاه على الكرك وأوصاه بخدمته ومنعه ممن يرومه بسوء، فتقدمه الى الكرك وأنزله القلعة وهيأ له النزول بما يحتاج اليه، وأقام هنالك حتى وقع من لطائف الله في أمره ما يذكر بعد أن شاء الله تعالى. وجاء الخبر أن جماعة من مماليك الظاهر كانوا مختفين منذ الوقعه فاعتزموا على الثورة بدمشق، وأنهم ظفروا بهم وحبسوا جميعاً ومنهم أيبقا الصغير، والله تعالى أعلم.

ثورة منطاش واستيلاؤه على الامر ونكبة الجوباني وحبس الناصري والامراء اليبقاوية بالاسكندرية

كان منطاش منذ دخل مع الناصري الى مصر متربصاً بالدولة طاوياً جوانحه على الغدر لانهم لم يوفروا حظه من الاقطاع، ولم يجعلوا له اسماً في الوظائف حين اقتسموها ولا راعى له الناصري حق خدمته ومقارعته الاعداء. وكان ينقم عليه مع ذلك ايثاره الجوباني واختصاصه فاستوحش وأجمع الثورة، وكان مماليك الجوباني لما حبس أميرهم وانتقض الناصري بحلب لحقوا به وجاؤا في جملته، واشتملوا على منطاش فكان له بهم في ذلك السفر أنس وله اليهم صفو، فداخل جماعة منهم في الثورة وحملهم على

صاحبهم ، وتطفل على الجوباني في المخالصة بغشيان مجلسه وملابسة ندمائه وحضور مائدته. وكان البيبقاوية جميعاً ينقسمون على الناصري ويرون أنه مقصر في الرواتب والاقطاع ، وطووا من ذلك على النكث ودعاهم منطاش الى التوثب فكانوا اليه أسرع وزينوه له وقعدوا عنه عند الحاجة .

ونمي الخبر الى الناصري والجوباني فعزموا على اشخاص منطاش الى الشام فتمارض وتخلف في بيته أياماً يطاولهم ليحكم التدبير عليهم. ثم عدا عليه الجوباني يوم الاثنين وقد أكمن في بيته رجالاً للثورة فقبضوا على الجوباني وقتلوه لحينه. وركب منطاش الى الرميلة فنهب مراكب الامراء بباب الاصطبل ، ووقف عند مأذنة المدرسة الناصرية وقد شحنها ناشبة ومقاتلة مع أمير من أصحابه ، ووقف في حمايتهم ، واجتمع اليه من داخله في الثورة من الاشرفية وغيرهم واجتمع اليه من كان بقي من مماليك الظاهر ، واتصلت الهيعة فركب الامراء البيبقاوية من بيوتهم . ولما أفضوا الى الرميلة وقفوا ينظرون مآل الحال ، وبرز الناصري من الاصطبل فيمن حضر ، وأمر الامراء بالحملة عليهم فوقفوا فأحجم هو عن الحملة وتخاذل أصحابه وأصحاب منطاش .

ومال الى الناصري مماليك الجوباني لنكبة صاحبهم فهدّدهم منطاش بقتله فافترقوا ، وتحاجز الفريقان آخر النهار وباكروا شأنهم من الغد . وحمل الناصري فانهزم . وأقاموا على ذلك ثلاثاً وجموع

منطَاش في تزايد. ثم انفض الناس عن النـاصري عشية الاربعاء لسبعين يوماً من دخول القلعة. واقتحمها عليه منطَاش ونهب بيوته وخزائنه، وذهب الناصري حيران وأصحابه يرجعون عنه. وباكر البيبقاوية مجلس منطَاش من الغـد فقبض عليهم وسيق من تخلف منهم عن الناصري أفذاذاً، وبعث بهم جميعاً الى الاسكندرية. وبعث جماعـة ممن حبسهم الناصري الى قوص ودمياط. ثم جدد البيعة لامير حاج المنصور. ثم نادى في مماليك السلطَان بالعرض، وقبض على جماعة منهم وفر الباقون. وبعث بالمحبوسين منهم الى قوص، وصادر جماعة من أهل الاموال، وأفرج عن محمود استاذ دار وخلع عليه ليوليه في وظيفته.

ثم بدا له في أمره وعاود مصادرته وامتحـانه واستصفى منه أموالاً عظيمة. يقال ستين قنطَاراً من الذهب. ولما استقل بتدبير الدولة عمر الوظـائف والمراتب وولى فيهـا بنظره، وبعث عن الاشقتمري من الشـام، وكان أخوه تمرتاي قد آخى بينهما فولاه النيابة الكبرى، وعن استدمر بن يعقوب شاه فجعله أمير سلاح، وعن انبقا الصفويّ فولاه صاحب الحجاب. واختص الثلاثة بالمشورة وأقامهم أركـاناً للدولة. وكان ابراهيم بن بطَلقتمر أمير جندار قد داخله في الثورة فرعى له ذلك وقدّمه في أمراء الالوف. ثم بلغه انه تفاوض مع الامراء في الثورة به واستبداد السلطَان فقبض عليه، ثم اشخصه الى حلب على امارته هناك، وكان قد

اختص ارغون السمندار والقى عليه محبته وعنايته فغشيه الناس وباكروا بابه وعظم في الدولة صيته. ثم نمي عنه أنه من المداخلين لابراهيم امير جندار فسطا به وامتحنه ان له على هؤلاء المداخلين لابراهيم فلاذ بالانكار واقام في محبسه، وافرج عن سودون النائب فجاء الى مصر فألزمه بيته واستمر الحال على ذلك انتهى.

ثورة بذلار بدمشق

ولما بلغ الخبر الى بذلار بدمشق باستقلال منطاش بالدولة أنف من ذلك وارتاب وداخلته الغيرة، اجمع الانتقاض وكاتب نواب الممالك بالشام في حلب وغيرها يدعوهم الى الوفاق فأعرضوا عنه وتمسكوا بطاعتهم. وكان الامير الكبير بدمشق جنتمر أخو طاز يداخل الامراء هنالك في التوثب به وتوثق منهم للدولة؛ وبلغ الخبر الى بذلار فركب في مماليكه وشيعته يروم القبض عليه فلم يتمكن من ذلك، واجتمعوا وظاهرهم عامّة دمشق عليه، فقاتلوه ساعة من نهار. ثم أيقن بالغلب والهلكة فألقى بيده وقبضوا عليه، وطيروا بالخبر الى منطاش وهو صاحب الدولة فأمر باعتقاله وهلك مريضاً في محبسه، وولى منطاش جنتمر نيابة دمشق، واستقرّت الاحوال على ذلك. والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

خروج السلطان من الكرك وظفره بعساكر الشام وحصاره دمشق

ولما بلغ الخبر الى السلطان الظاهر بالكرك بأن منطاش استقل بالدولة وحبس البيبقاوية جميعاً وأدال منهم بأصحابه أهمته نفسه وخشي غائلته، ولم يكن عند منطاش لاول استقلاله أهمّ من شأنه وشأن السلطان فكتب الى حسن الكشكي نائب الكرك بقتله، وقد كان الناصري أوصاه في وصيته حين وكله به ان لا يمكنه ممن يرومه بسوء فتجافى عن ذلك واستدعى البريدي، وفاوض أصحابه وقاضي البلد وكاتب السر فأشاروا بالتحرّز من دمه جهد الطاقة. فكتب الى منطاش معتذراً بالخطر الذي في ارتكابه دون اذن السلطان والخليفة فأعاد عليه الكتاب مع كتاب السلطان والخليفة بالاذن فيه، واستحثه في الاجهاز عليه فأنزل البريدي وعلله بالوعد وطاوله يرجو المخلص من ذلك، وكانوا يطوون الامر عن السلطان شفقة واجلالاً فشعر بذلك، وأخلص اللجأ الى الله والتوسل بابراهيم الخليل لانه كان يراقب مدفنه من شباك في بيته.

وانطلق غلمانه في المدينه حتى ظفروا برجال داخلوهم في حسن الدفاع عن السلطان، وأفاضوا فيهم فأجابوا وصدقوا ما عاهدوا عليه. واتعدوا لقتال البريدي، وكان منزله بازاء السلطان فتوافوا ببابه ليلة العاشر من رمضان وهجموا عليه فقتلوه ودخلوا برأسه الى السلطان وشفار سيوفهم دامية. وكان النائب حسن الكشكي

يفطر على سماط السلطَان تأنيساً لهم ، فلما رآهم دهش وهموا بقتله فأجاره السلطَان ، وملك السلطَان أمره بالقلعة وبايعه النائب وصعد اليه أهل المدينة من الغد فبايعوه

ووفد عليه عرب الضاحية من بني عقبة وغيرهم فأعطوه طاعتهم ، وفشا الخبر في النواحي فتساقط اليه مماليكه من كل جهة ، وبلغت أخباره الى منطاش فأوعز الى ابن باكيش نائب غزة ان يسير في العساكر الى الكرك ، وتردّد السلطان بين لقائه والنهوض الى الشام. ثم أجمع المسير الى دمشق فبرز من الكرك منتصف شوّال فعسكر بالقبة وجمع جموعه من العرب ، وسار في ألف أو يزيدون من العرب والترك وطوى المراحل الى الشام . وسرّح جنتمر نائب دمشق العساكر لدفاعه فيهم أمراء الشام وأولاد بندمر فالتقوا بشقحب ، وكانت بينهم واقعة عظيمة أجلت عن هزيمة أهل دمشق ، وقتل الكثير منهم وظفر السلطان بهم ، واتبعهم الى دمشق ونجا الكثير منهم الى مصر .

ثم أحس السلطان بان ابن باكيش وعساكره في اتباعه ، فكرّ اليهم وأسرى ليلته وصبحهم على غفلة في عشر ذي القعدة فانهزموا ، ونهب السلطان وقومه جميع ما معهم وامتلأت أيديهم واستفحل أمره ، ورجع الى دمشق ونزل بالميدان . وثار العوام وأهل القبيبات ونواحيها بالسلطان ، وقصدوه بالميدان فركب ناجياً وترك أثقاله فنهبها العوام وسلبوا من لقوه من مماليكه ، ولحق بقبة يلبغا فأقام

بها واغلقوا الابواب دونه ، فأقام يحاصرهم الى محرم سنة ثنتين وتسعين . وكان كمشيقا الحموي نائب حلب قد أظهر دعوته في عمله وكاتبه بذلك عندما نهض من الكرك الى الشام كما نذكره . ولما بلغه حصاره لدمشق تجهز للقائه واحتمل معه ما يزيح علل السلطان من كل صنف وأقام له ابهة . ووصل انيال اليوسفي وقجماش ابن عمّ السلطان وجماعة من الامراء كانوا محبوسين بصفد ، وكان مع نائبها جماعة من مماليك السلطان يستخدمون فغدروا به ، وأطلقوا من كان من الامراء في سجن صفد كما نذكر ولحقوا بالسلطان . وتقدمهم انيال وهو محاصر لدمشق فأقاموا معه ، والله تعالى أعلم .

ثورة المعتقلين بقوص ومسير العساكر اليهم واعتقالهم

ولما بلغ الخبر الى الامراء المحبوسين بقوص خلاص السلطان من الاعتقال واستيلاؤه على الكرك ، واجتماع الناس اليه ،فثاروا بقوص أوائل شوّال من السنة وقبضوا على الوالي بها وأخذوا من مودع القاضي ما كان فيه من المال . وبلغ خبرهم الى مصر فسرّح اليهم العساكر . ثم بلغه أنهم ساروا الى اسوان وشايعوا الوالي بها حسن ابن قرط فلحن[1] لهم بالوعد ، وعرض بالوفاق فطمعوا واعتزموا

---

(١) لحن أي أشار قال الشاعر:

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا — واللحن يفهمه ذوو الألباب

ورحم الله المؤرخ غلبت عليه صناعة الترسل فكان كتابه هذا كتاب تاريخ وأدب فهو نعم الأدب اهـ . من خط الشيخ العطار.

ان يسيروا من وادي القصب من الجهة الشرقية الى السويس ، ويسيروا من هناك الى الكرك . ولما وصل خبر ابن قرط أخرج منطاش سندمر بن يعقوب شاه ثامن وعشرين [١] من السنة وانكفأ جموعه وسار على العدوة الشرقية في جموعه لاعتراضهم فوصل الى قوص . وبادر ابن قرط فخالفه الى منطاش بطاعته فأكرمه وردّه على عمله فوافى ابن يعقوب شاه بقوص ، وقد استولى على النواحي واستنزل الامراء المخالفين . ثم قبض عليهم وقتل جميع من كان معهم من مماليك السلطان الظاهر ومماليك ولاة الصعيد . وجاء بالامراء الى مصر فدخل بهم منتصف ذي الحجة من السنة ، فأفرج عن أربعة منهم سوماي اللاى وحبس الباقين. والله تعالى أعلم.

ثورة كمشيقا بحلب وقيامه بدعوة السلطان

قد كنا قدّمنا أنّ الناصري ولى كمشيقا رأس نوبة نيابة حلب، ولما استقلّ منطاش بالدولة ارتاب ودعاه بذلار لما ثار بدمشق الى الوفاق فامتنع . ثم بلغه الخبر بخلاص السلطان من الاعتقال بالكرك فأظهر الانتقاض ، وقام بدعوة السلطان ، وخالفه ابراهيم بن أمير جندار . واعصوصب عليه اهل باقوسا من أرباض حلب فقاتلهم كمشيقا جميعا وهزمهم . وقتل القاضي ابن أبي الرضا وكان معه

(١) كذا بياض بالأصل ومكان البياض اسم الشهر ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على اسم هذا الشهر.

في ذلك الخلاف، واستقل بأمر حلب وذلك في شوال من السنة. ثم بلغه أنّ السلطان هزم عساكر دمشق وابن باكيش، وانه مقيم بقبة يلبغا محاصراً لدمشق بعد ان نهبوا أثقاله وأخرجوه من الميدان فتجهز من حلب اليه في العساكر والحشود، وجهز له جميع ما يحتاج اليه من المال والاقمشة والسلاح والخيل والابل وخيام الملك بفرشها وماعونها وآلات الحصار، وتلقاه السلطان وبالغ في تكرمته وفوض اليه الاتابكية والمشورة، وقام معه محاصراً لدمشق.

واشتدّ الحصار على أهل دمشق بعد وصوله واستكثار السلطان من المقاتلة وآلات الحصار، وخرب كثيراً من جوانبها بحجارة المجانيق وتصدّعت حيطانها وأضرم كثيراً من البيوت على اربابها فاحترقت، واستولى الخراب والحريق على القبيبات أجمع، وتفاحش فيها واشتدّ أهل القتال والدفاع من فوق الاسوار. وتولى كبر ذلك منهم قاضي الشافعية أحمد بن القرشي بما اشار عليهم، وفاه أهل العلم والدين بالنكير فيه. وكان منطاش لما بلغه حصار دمشق بعث طنبقا الحلي دوادار الاشرف بمدد من المال يمدّ به العساكر هنالك وأقام معهم. ثم بعث جنتمر الى أمير آل فضل يعير بن جبار يستنجد به فجاء لقتالهم، وسار كمشيقا نائب حلب فلقيه وفض جموعه، وأسر خادمه وجاء به أسيراً، فمن عليه السلطان

وأطلقه وكساه وحمله وردّه الى صاحبه. واستمر حصار دمشق الى ان كان ما نذكره ان شاء الله تعالى.

ثورة انيال بصفد بدعوة السلطان

كان انيال لما انهزم يوم واقعة دمشق فرّ الى مصر ومرّ بغزة فاعتقله ابن باكيش وحبس بالكرك، فلما استولى الناصري أشخصه الى صفد فحبس بها مع جماعة من الامراء وولى على صفد قلطبك النظامي فاستخدم جماعة من مماليك برقوق، واتخذ منهم بلبغا السالمي دوادار، فلما بلغه خلاص السلطان من الاعتقال ومسيره الى الشام داخل بلبغا مماليك استاذه قطلوبقا في الخلاف واللحاق بالسلطان. وهرب منهم جماعة فركب قطلوبقا في اتباعهم وأبقى بلبقا السالمي دوادار وحاجب صفد؛ فاطلقوا انيال وسائر المحبوسين من السلطان، فملك انيال القلعة ورجع قطلوبقا من اتباع الهاربين فوجدهم قد استولو وامتنعوا. وارتاب من مماليكه فسار عن صفد ونهب بيته ومخلفه، ولحق بالشام فلقي الامراء المنهزمين أمام السلطان بشقحب قاصدين مصر فسار معهم، ولحق انيال بالسلطان من صفد بعد ان ضبطها واستخلف عليها واقام مع السلطان والله تعالى أعلم.

مسير منطاش وسلطانه امير حاجي الى الشام وانهزامهم ودخول منطاش الى دمشق وظفر السلطان الظاهر بامير حاجي والخليفة والقضاة وعوده لملكه

ولما تواترت الاخبار بهزيمة عساكر الشام وحصار السلطان الظاهر دمشق وظهور دعوته في حلب وصفد وسائر بلاد الشام. ثم وصلت العساكر المنهزمون وأولاد بندمر ونائب صفد واستحثوه، وتواترت كتب جنتمر نائب دمشق وصريخه، أجمع منطاش أمره حينئذ على المسير الى الشام فتجهز ونادى في العساكر، وأخرج السلطان والخليفة والقضاة والعلماء سابع عشر ذي الحجة سنة احدى وتسعين، وخيموا بالريدانية[1] من ناحية القاهرة حتى أزاح العلل. واستخلف على القاهرة دواداره صراي تمر، وأطلق يده في الحل والعقد والتولية والعزل. واستخلف على القلعة بكا الاشرفي وعمد الى خزانة من خزائن الذخيرة بالقلعة فسدّ بابها ونقبها من اعلاها حتى صارت كهيئة الجب، ونقل اليها من كان في سجنه من أهل دولة السلطان.

ونقل سودون النائب الى القلعة فأنزله بها وأمر بالقبض على من بقي من مماليك السلطان حيث كانوا، فتسربوا في غيابات المدينة ولاذوا بالاختفاء. وأوعز بسدّ كثير من أبواب الدروب

(١) الريدانية بالراء المهملة المسماة الآن بالحصوة خارج القاهرة. من خط الشيخ العطار.

بالقاهرة فسدّت. ورحل في الثاني والعشرين من الشهر بالسلطان وعساكره على التعبية وطووا المراحل، ونمي اليه أثناء طريقه أنّ بعض مماليك السلطان المستخدمين عند الامراء يجمعون على التوثب ومداخلون لغيرهم فأجمع السطوة بهم ففرّوا ولحقوا بالسلطان. ولما بلغ خبر مسيرهم السلطان وهو محاصر دمشق ارتحل في عساكره الى لقائهم ونزل قريباً من شقحب، وأصبحوا على التعبية وكمشيقا بعساكر حلب في ميمنة السلطان ومنطاش قد عبى جيشه.

وجعل السلطان أمير حاجي والخليفة والقضاة والرملة من ورائهم، ووقف معهم تمارتمر رأس نوبة، وسندمر بن يعقوب شاه أمير سلاح. ووقف هو في طائفة من مماليكه وأصحابه في حومة المعترك. فلما تراءى الجمعان حمل هو وأصحابه على ميمنة السلطان ففضوها، وانهزم كمشيقا الى حلب ومرّوا في اتباعه؛ ثم عطفوا على مخيم السلطان فنهبوه وأسروا قجماش ابن عمه كان هنالك جريحاً. ثم حطم السلطان على الذي فيه أمير حاجي والخليفة والقضاة فدخلوا في حكمه، ووكل بهم واختلط الفريقان وصاروا في عمى من أمرهم، والسلطان في لمة من فرسانه يخترق جوانب المعترك ويحطم الفرسان ويشردهم في كل ناحية، وشرّاد مماليكه وأمرائه يتساقطون اليه حتى كثف جمعه.

ثم حمل على بقية العسكر وهم ملتئمون على الصفدي فهزمهم ولحقوا بدمشق وضرب خيامه بشقحب. ولما وصل منطاش الى

دمشق أوهم النائب جنتمر أن الغلب له وأن السلطان أمير حاجي على الاثر، ونادى في العساكر بالخروج في السلاح لتلقيه، وخرج من الغد مورياً بذلك فركب اليهم السلطان في العساكر فهزمهم وأثخن فيهم واستلحم كثيراً من عامة دمشق. ورجع السلطان الى خيامه. وبعث أمير حاجى بالتبري من الملك والعجز عنه والخروج اليه من عهدته؛ فأحضر الخليفة والقضاة فشهدوا عليه بالخلع وعلى الخليفة بالتفويض الى السلطان والبيعة له والعود الى كرسيه. وأقام السلطان بشقحب تسعاً واشتد كلب البرد وافتقدت الاقوات لقلة الميرة، فأجمع العود الى مصر ورحل يقصدها. وبلغ الخبر الى منطاش فركب لاتباعه، فلما أطل عليه أحجم ورجع واستمر السلطان لقصده، وقدم حاجب غزة للقبض على ابن باكيش فقبض عليه. ولما وافى السلطان غزة ولى عليها مكانه وحمله معتقلاً، وسار وهو مستطلع لاحوال مصر حتى كان ما نذكره ان شاء الله تعالى.

ثورة بكا والمعتقلين بالقلعة واستيلاؤهم عليها بدعوة السلطان الظاهر وعوده الى كرسيه بمصر وانتظام امره

كان منطاش لما فصل الى الشام بسلطانه وعساكره كما مر واستخلف على القاهرة دواداره سراي تمر وأنزله بالاصطبل، وعلى القلعة بكا الأشرفي ووكله بالمعتقلين هنالك فأخذوا أنفسهم بالحزم

والشدة . وبعد أيام نمي اليهم أن جماعة من مماليك السلطان مجتمعون للثورة وقد داخلوا مماليكهم فبيتوهم وقبضوا عليهم بعد جولة دافع فيها المماليك عن أنفسهم. ثم تقبضوا على من داخلهم من مماليكهم وكانوا جماعة كثيرة، وحدثت لهم بذلك ريبة واشتداد في الحزم، فنادوا بالوعيد لمن وجد عنده أحد من مماليك السلطان، ونقلوا ابن أخت السلطان من بيت أمه الى القلعة وحبسوه، وأوعزوا بقتل الامراء المعتقلين بالفيوم، فقتلوا وعميت عليهم أنباء منطاش والعساكر، وبعثوا من يقتص لهم الطريق ويسائل الركبان واعتزموا على قتل المسجونين بالقلعة.

ثم تلاوموا في ذلك ورجعوا الى التضييق عليهم ومنع المترددين بأقواتهم؛ فضاقت أحوالهم وضجروا وأهمتهم أنفسهم. وفي خلال ذلك عثر بعضهم على منفذ الى سرب تحت الارض يفضي الى حائط الاصطبل ففرحوا بذلك وتنسموا ريح الفرج، ولما أظلتهم ليلة الاربعاء غرّة صفر سنة اثنتين وتسعين مروا في ذلك السرب فوجدوا فيه آلة النقب فنقبوا الحائط، وأفضوا الى أعلى الاسطبل وتقدم بهم خاصكي من أكابر الخاصكية، وهجموا على الحراس فثاروا اليهم فقتلوا بعضهم بالقيود من أرجلهم، وهرب الباقون ونادوا شعبان بكا نائب القلعة يوهمون أنه انتقض .

ثم كسروا باب الاسطبل الاعلى والاسفل، وأفضوا الى منزل سراي تمر فأيقظه لغطهم، وهلع من شأن بكا فارمى نفسه من

السور ناجياً، ومرّ بالحاجب قطلو بقا ولحق بمدرسة حسن. وقد كان منطَاش أنزل بها ناشبة من التركمان لحماية الاسطَبل وأجرى لهم الارزاق، وجعلهم لنظر تنكز رأس نوبة. ثم هجم أصحاب بكا على بيت سراي تمر فنهبوا ماله وقماشه وسلاحه، وركبوا خيله واستولوا على الاسطَبل وقرعوا الطُبول ليلتهم. وقاتلهم بكا من الغد. وسرب الرجال الى الطُبلخانات فلكها ثم أزعجوه عنها. وزحف سراي تمر وقطلو بقا الحاجب الى الاسطَبل لقتالهم، وبرزوا اليهم فقاتلوهم واعتصموا بالمدرسة. واستولى بكا على امره وبعث الى باب السر من المدرسة ليحرقه فاستأمن اليه التركمان الذين به فأنزلهم على الامان، وسرب اصحابه في البلد لنهب بيوت منطَاش وأصحابه فعاثوا فيها وتسلل اليه مماليك السلطَان المختفون بالقاهرة فبلغوا ألفاً او يزيدون.

ثم استأمن بكا من الغد فأمنه سودون النائب وجاء به الى الناصري أمير سلاح ودمرداش وكان عنده فحبسهما بكا. ثم وقف سودون على مدرسة حسن والارض تموج بعوالم النظارة فاستنزل منها سراي تمر وقطلو بغا الحاجب فنزلا على امانه. وهم العوالم بهما فحال دونهما وجاء بهما بكا فحبسهما. وركب سودون يوم الجمعة في القاهرة ونادى بالامان والخطبة للسلطَان فخطَب له من يومه، وأمر بكا بفتح السجون واخراج من كان فيها في حبس منطَاش وحكام تلك الدولة. وهرب الوالي حسن بن

الكوراني خوفاً على نفسه لما كان شيعة لمنطَاش على مماليك السلطَان.

ثم عثر عليه بكا وحبسه مع سائر شيعة منطَاش ، وأطلق جميع الامراء الذين حبسهم بمصر ودمياط والفيوم . ثم بعث الشريف عنان بن مقامس أمير بني حسن بمكة وكان محبوساً ، وخرج معهم فبعثه مع أخيه ايبقا على الهجن لاستكشاف خبر السلطَان . ووصل يوم الاحد بعدها كتاب السلطان مع ابن صاحب الدرك سيف بن محمد بن عيسى العائدي باعداد الميرة والعلوفة في منازل السلطَان على العادة . وقص خبر الواقعة وأن السلطان توجه الى مصر وانتهى الى الرملة . ثم وصل ايبقا اخو بكا يوم الاربعاء ثامن صفر بمثل ذلك ، وتتابع الواصلون من عسكر السلطان ، ثم نزل بالصالحية وخرج السلطان لتلقيه بالعكرشة .

ثم اصبح يوم الثلاثاء رابع صفر في ساحة القلعة ، وقلّده الخليفة وعاد الى سريره . ثم بعث عن الأمراء الذي كان حبسهم منطاش بالاسكندرية وفيهم الناصري والجوباني وابن بيبقا وقراد مرداش وابغا الجوهري وسودون باق وسودون الطرنطاي وقردمر المعلم في آخرين متعدّدين ، واستعتبوا للسلطان فأعتبهم وأعادهم الى مراتبهم ، وولى أنيال اليوسفي اتابكا والناصري أمير سلاح ، والجوباني رأس نوبة وسودون نائباً ، وبكا دوادار وقرقماش استاذدار ، وكمشيقا الخاصكي أمير مجلس ، وتطلميش أمير الماخورية ،

وعلاء الدين كاتب سر الكرك كاتب سرّه بمصر، وعمر سائر المراتب والوظائف.

وتوفي قرقماش فولى محمود استاذ داره الأول، ورعى له سوابق خدمته ومحنة العدوّ له في محبته، وانتظم أمر دولته واستوثق ملكه. وصرف نظره الى الشام وتلافيه من مملكة العدوّ وفساده والله تعالى أعلم.

ولاية الجوباني على دمشق واستيلاؤه عليها من يد منطاش ثم هزيمته ومقتله وولاية الناصري مكانه

لما استقرّ السلطان على كرسيه بالقاهرة، وانتظمت أمور دولته صرف نظره الى الشام وشرع في تجهيز العساكر لازعاج العدو منه، وعين الجوباني لنيابة دمشق ورياسة العساكر، والناصري لحلب لان السلطان كان عاهد كمشيقا على اتابكية مصر، وعين قرا دمرداش لطرابلس ومأموناً القاعطاوي لحماة؛ فولى في جميع ممالك الشام ووظائفه وأمرهم بالتجهيز. ونودي في العساكر بذلك وخرجوا ثامن جمادى الاولى من سنة اثنتين وتسعين. وكان منطاش قد اجتهد جهده في طي خبر السلطان بمصر عن امرائه وسائر عساكره، وما زال يفشو حتى شاع وظهر بين الناس؛ فانصرف هواهم الى السلطان. وبعث في اثناء ذلك الامير يماز تمر نائباً على حلب؛ فاجتمع أهل كانفوسا وحاصر كمشيقا بالقلعة نحواً من خمسة أشهر، وشدّ

حصارها وأحرق باب القلعة والجسر، ونقب سورها من ثلاثة مواضع. واتصل القتال بين الفريقين في احد الانقاب لشهرين على ضوء الشموع.

ثم بعث العساكر الى طرابلس مع ابن ايماز التركماني فحاصرها وملكوها من يد سندمر حاجب حجابها، وكان مستولياً عليها بدعوة الظاهر. ولما ملكها ولى عليها قشتمر الاشرفي. ثم بعث العساكر الى بعلبك مع محمد بن سندمر في نفر من قرابته وجنده فقتلهم منطاش بدمشق أجمعين. ثم اوعز الى قشتمر الاشرفي نائب طرابلس بالمسير الى حصار صفد فسار اليها، وبرز اليه جندها فقاتلوه وهزموه، فجهز اليها العساكر مع أبقا الصفدي كبير دولته فسار اليها في سبعمائة من العساكر. وقد كان لما تيقن عنده استيلاء السلطان على كرسيه بمصر جنح الى الطاعة والاعتصام بالجماعة، وكاتب السلطان بعزمه ووعده؛ فلما وصل الى صفد بعث الى نائبها بطاعته، وفارق أصحاب منطاش ومن له هوى فيه وصفوا اليه وبات ليلته بظاهر صفد. وارتحل من الغد الى مصر فوصلها منتصف جمادى الاخيرة، وأمراء الشام معسكرون مع الجوباني بظاهر القلعة فأقبل السلطان عليه وجعله من أمراء الالوف.

ولما رجع أصحابه من صفد الى دمشق اضطرب منطاش وتبين له تنكر الناس وارتاب بأصحابه، وقبض على جماعة من الامراء وعلى جنتمر نائب دمشق وابن جرجي من امراء الالوف وابن

ففجق الحاجب، وقتله والقاضي محمد بن القرشي في جملة من الأعيان واستوحش الناس ونفروا عنه واستأمنوا الى السلطان، مثل محمد بن سندمر وغيره. وهرب كاتب السر بدر الدين بن فضل الله وناظر الجيش. وقد كانوا يوم الواقعة على شقحب لحقوا بدمشق يظنون أن السلطان يملكها يومه ذلك فبقوا في ملكة منطاش وأجمعوا الفرار مرّة بعد أخرى فلم يتهيأ لهم. وشرع منطاش في الفتك بالمنتمين الى السلطان من المماليك المحبوسين بالقلعة وغيرهم، وذبح جماعة من الجراكسة وهمّ بقتل اشمس فدفعه الله عنه. وارتحل الامراء من مصر في العساكر السلطانية الى الشام مع الجوباني يطوون المراحل، والامراء من دمشق يلقونهم في كل منزلة هاربين اليهم، حتى كان آخر من لقيهم ابن نصير أمير العرب بطاعة أبيه، ودخلوا حدود الشام.

ثم ارتبك منطاش في أمره واستقر الخوف والهلع والاسترابة بمن معه فخرج منتصف جمادى الاخيرة هارباً من دمشق في خواصه وأصحابه، ومعه سبعون حملًا من المال والاقمشة. واحتمل معه محمد بن اينال وانتقض عليه جماعة من المماليك فرجعوا به الى ابيه، وكان يعبر بن جبار أمير آل فضل مقيماً في احيائه ومعه أحياء آل مرو وأميرهم عنقا، فلحق بهم هنالك منطاش مستجيراً فأجاروه ونزل معهم.

ولما فصل منطاش عن دمشق خرج اشمس من محبسه وملك القلعة ومعه مماليك السلطان معصوصبون عليه، وأرسل الى الجوباني بالخبر فاغذّ السير الى دمشق وجلس بموضع نيابته، وقبض على من بقي من أصحاب منطاش وخدمه مع من كان حبس هو معهم ووصل الطنبقا الحلبي ودمرداش اليوسفي من طرابلس. وكان منطاش استقدمهم وهرب قبل وصولهم، وبلغ الخبر الى ايازتمر وهو يحاصر حلب وأهل كانفوسا معصوصبون عليه فأجفل، ولحق بمنطاش وركب كمشيقا من القلعة اليهم بعد أن أصلح الجسر، وأركب معه الحجاب وقاتل أهل كانفوسا ومن معهم من أشياع منطاش ثلاثة أيام. ثم هزموهم، وقتل كمشيقا منهم أكثر من ثمانمائة وخرب كانفوسا فاصبحت خراباً وعمر القلعة وحصنها وشحنها بالاقوات.

وبعث الجوباني العساكر الى طرابلس وملكوها من يد قشتمر الأشرفي نائب منطاش من غير قتال وكذلك حماة وحمص. ثم بعث الجوباني نائب دمشق وكافل الممالك الشامية الى يعبر بن جبار أمير العرب باسلام منطاش واخراجه من احيائه فامتنع واعتذر، فبرز من دمشق بالعساكر ومعه الناصري وسائر الامراء. ونهض الى مصر فلما انتهوا الى حمص اقاموا بها وبعثوا الى يعبر يعتذرون اليه فلج واستكبر وحال دونه. وبعث اليه اشمس خلال ذلك من دمشق بأن جماعة شيعة بندمر وجنتمر يرومون الثورة فركب

الناصري الى دمشق، وكبسهم وأثخن فيهم ورجع الى العسكر وارتحلوا الى سلمية.

واستمرّ يعبر في غلوائه وتردّدت الرسل بينهما فلم تغن. ثم كانت بين الفريقين حرب شديدة، وحملت العساكر على منطاش والعرب فهزموهم الى الخيام، واتبع دمرداش منطاش حتى جاوز به الحيّ وارتحلت العرب، وحملوا بطانتهم على العسكر؛ فلم يثبتوا لحملتهم. وكان معهم آل علي بجموعهم فنهبوهم من ورائهم وانهزموا. وأفرد الجوباني مماليكه فأسره العرب وسيق الى يعبر فقتله، ولحق الناصري بدمشق وأسر جماعة من الامراء، وقتل منهم ايبقا الجوهري ومأمون المعلم في عدد آخرين، ونهب العرب مخيمهم واثقالهم. ودخل الناصري الى دمشق فبات ليلته وباكر من الغد آل علي في أحيائهم فكبسهم واستلحم منهم جماعة فثار منهم بما فعلوه في الواقعة. ثم بعث اليه السلطان بنيابة دمشق منتصف شعبان من السنة، فقام بأمرها وأحكم التصريف في حمايتها، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

اعادة محمود الى استاذية الدار واستقلاله في الدولة

هذا الرجل من ناشئة الترك وولدانهم ومن أعقاب كراي المنصوري منهم، شب في ظل الدولة ومرعى نعمها ونهض بنفسه الى الاضطلاع والكفاية، وباشر كثيراً من أعمال الامراء والوزراء

حتى أوفى على ثنية النجابة ، وعرضته الشهرة على اختيار السلطان فعجم عوده ونقد جوهره . ثم الحق به اغراض الخدمة ببابه فأصاب شاكلة الرمية ومضى قدماً في مذاهب السلطان مرهف الحدّ قوي الشكيمة فصدق ظنه وشكر اختياره . ثم دفعه الى معانية الجبس وشد الدواوين من وظائف الدولة فجلا فيهما .

وهلك خلال ذلك استاذ الدار بهادر المنجكي سنة تسعين فأقامه السلطان مكانه قهرماناً لداره ودولته ونظارته على دواوين الجباية من قراب اختياره ونقده ، جماعة للاموال غواصاً على استخراج الحقوق السلطانية ، قاروناً للكنوز اكسيراً للنقود مغناطيساً للقنية ، يسابق اقلام الكتاب ويستوفي تفاصيل الحساب بمدارك الهامه ، وتصور صحيح وحدس ثاقب لا يرجع الى حذاقة الكتاب ولا إلى أيسر الاعمال ، بل يتناول الصعاب فيذللها ويحوم على الاغراض البعيدة فيقربها . وربما يحاضر بذكائه في العلوم فينفذ في مسائلها ، ويفحم جهابذتها موهبة من الله اختصه بها ونعمة أسبغ عليه لبوسها . فقام بما دفع اليه السلطان من ذلك وأدرّ خروج الجباية فضاقت أفنية الحواصل والخزائن بما تحصل وتسرّب اليها وكفى السلطان مهمّه في دولته ومماليكه ورجاله بما يسوغ لهم من نعمه ، ويوسع من أرزاقه وعطائه ، حتى أزاح عللهم بتوالي انفاقه ، وقرّت عين السلطان باصطناعه ، وغص به الدواوين والحاشية ففوّقوا اليه سهام

السعاية وسلطوا عليه السنة المتظلمين فخلص من ذلك خلوص الابريز، ولم تعلق به ظنة ولا حامت عليه ريبة.

ثم طرق الدولة ما طرقها من النكبة والاعتقال واودعته المحنة غيابات السجون، وحفت به أنواع المكاره واصطلمت نعمته واستصفيت أمواله في المصادرة والامتحان، حتى زعموا ان الناصري المتغلب يومئذ استأثر منه بخمسة قناطير من دنانير الذهب، ومنطاش بعده بخمسة وخمسين. ثم خلص ابريزه من ذلك السبك وأهل قمره بعد المحاق، واستقل السلطان من نكبته وطلع بافق مصره وتمهد أريكة ملكه، ودفعه لما كان بسبيله فأحسن الكرّة في الكفاية لمهمه، وتوسيع عطاياه وأرزاقه وتمكين أحوال دولته. وتسربت الجباية من غير حساب ولا تقرير الى خزائنه، وأحسن النظر في الصرف والخرج بحزمه وكفايته، حتى عادت الامور الى احسن معهودها بيمن تعبيته وسديد رأيه وصلابة عوده وقوة صرامته، مع بذل معروفه وجاهه لمن تحت يده، وبشاشته وكفايته لغاشيته. وحسن الكرامة لمنتابه ومقابلة من يأتي اليه بكرم مقاصده فأصبح طرازاً للدولة وتاجاً للخواص.

وقذفه المنافسون بخطا السعايات فزلت في جهات حلم السلطان وجميل اغتباطه وتثبته، حتى أعيتهم المذاهب وانسدت عليهم الطرق، ورسخت قدمه في الدولة واحتل من السلطان بكرم العهد والذمة، ووثق بغنائه واضطلاعه فرمى اليه مقاليد الامور،

وأوطأ عقبه أعيان الخاصة والجمهور، وأفرده في الدولة بالنظر في الامور حسباناً وتقديراً وجمعاً وتقريراً وكنزاً موفراً وصرفاً لا يعرف تبذيراً وبطراً وفي الانهاء بالعزل والاهانة مشهوراً مع ما يمتاز به من الامر والشأن، وسموّ مرتبته على مرّ الازمان. وهو على ذلك لهذا العهد عند سفر السلطان الى الشام لمدافعة سلطان المغل كما مرّ ذكره، والله متولي الامور لا رب غيره.

مسير منطاش ويعبر الى نواحي حلب وحصارها ثم مفارقة يعبر وحصاره عنتاب ثم رجوعه

ولما انهزمت العساكر بسلمية كما قلنا ارتحل يعبر في أحيائه ومعه منطاش وأصحابه الى نواحي حلب، وسار يعبر الى بلد سرمين من أقطاعه ليقسمها في قومه على عادتهم، وكان كمشيقا نائب حلب قد أقطعها الجند من التركمان في خدمته. فلما وافاها يعبر هربوا الى حلب فلقوا في طريقهم أحمد بن المهدار في العساكر وقد نهض الى يعبر فرجعوا عنه، ولقيهم علي بن يعبر فقاتلوه وهزموه وقتلوا بعض اصحابه صبراً، ورجع يعبر الى أحيائه وارتحلوا الى حلب فحاصروها وضيقوا عليها أيام رمضان. ثم راجع يعبر نفسه وراسل كمشيقا نائب حلب في الطاعة واعتذر عما وقع منه وطوق الذنب بالجوباني وأصحابه أهل الواقعة، وسأل الأمان مع

حاجبه عبد الرحمن فأرسله كمشيقا الى السلطان، وأخبره بما اشترط يعبر فأجابه السلطان الى سؤاله.

وشعر بذلك منطاش بمكانه من حصار حلب فارتاب وخادع يعبر الى الغارة على التركمان بقربهم، فأذن للعرب في المسير معه، وسار معه منهم سبعمائة. فلما جاوز الدربند أرجلهم عن الخيل وأخذها ولحق بالتركمان ونزل بمرعش بلد أميرهم سولي، ورجع العرب مشاة الى يعبر فارتحل الى سبيله راجعاً، وسار منطاش الى عنتاب من قلاع حلب، ونائبها محمد بن شهري فملكها واعتصم نائبها بالقلعة أياماً. ثم ثبت منطاش وأثخن في أصحابه وقتل جماعة من أمرائه، وكانت العساكر قد جاءت من حلب وحماة وصفد لقتاله فهرب الى مرعش وسار منها الى بلاد الروم، واضمحل أمره. وفارقه جماعة من أصحابه الى العساكر وراجعوا طاعة السلطان آخر ذي القعدة من سنة اثنتين وسبعين. وبعث سولي بن دلقادر أمير التركمان في عشر ذي الحجة يستأمن الى السلطان فأمنه وولاه على البلستين كما كان. والله سبحانه وتعالى أعلم.

قدوم كمشيقا من حلب

قد كان تقدم لنا أن كمشيقا الحموي رأس نوبة بيبقا كان نائباً بطرابلس، وان السلطان عزله وحبسه بدمشق، فلما استولى الناصري على دمشق أطلقه من الاعتقال وجاء في جملته الى مصر.

فلما ولي على ممالك الشام وأعمالها ولاه على حلب مكانه منتصف احدى وسبعين. ولما استقل السلطان من النكبة وقصد دمشق كما مرّ أرسل كمشيقا اليه بطاعته ومشايعته على أمره، وأظهر دعوته في حلب وما اليها من أعماله. ثم سار السلطان الى دمشق وحاصرها وامدّة كمشيقا بجميع ما يحتاج اليه. ثم جاءه بنفسه في عساكر حلب صريخاً، وحمل اليه جميع حاجاته وازاح علله وأقام له رسوم ملكه، وشكر السلطان أفعاله في ذلك وعاهده على أتابكية مصر.

ثم كانت الواقعة على شقحب فانهزم كمشيقا الى حلب فامتنع بها، وحاصره يمازتمر أتابك منطاش أشهراً كما مرّ. ثم هرب منطاش من دمشق الى العرب فأفرج يمازتمر عن حلب. ثم كانت واقعة الجوباني ومقتله وزحف منطاش ويعبر الى حلب فحاصروها مدّة. ثم وقع الخلاف بينهما وهرب منطاش الى بلاد التركمان، ورجع يعبر الى بلدة سلمية، واستأمن الى السلطان ورجع الى طاعته منتصف شوّال. ولما أفرجوا عن حلب نزل كمشيقا من القلعة ورمّ خرابها وخرّب بانقوسا واستلحم أهلها، وأخذ في أصلاح أسوار حلب ورمّ ما ثلم منها وكانت خراباً من عهد هلاكو. وجمع له أهل حلب ألف ألف درهم للنفقة فيه، وفرغ منه لثلاثة أشهر.

ولما استوسق أمر السلطان وانتظمت دولته بعث اليه يستدعيه

في شهر ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين، وولى مكانه في حلب قرا دمرداش نقله اليها من طرابلس وولى مكانه انيال الصغير، فسار كمشيقا من حلب ووصل مصر تاسع صفر سنة ثلاث وتسعين، فاهتز له السلطان وأركب الامراء للقائه مع النائب. ثم دخل الى السلطان فحياه وبالغ في تكرمته وتلقاه بالرحب، ورفع مجلسه فوق الاتابك انيال، وأنزله بيت منجك وقد هيأ فيه الفرش والماعون والخرثى ما فيه للمنزل. ثم بعث اليه بالاقمشة وقرّب اليه الجياد بالمراكب الثقيلة، وتقدم للامراء أن يتحفوه بهداياهم فتناغوا في ذلك وجاؤا من وراء الغاية، وحضر في ركابه من أمراء الشام الطنبقا الاشرفي وحسن الكشكي، فأكرمهما السلطان واستقرّ كمشيقا بمصر في أعلى مراتب الدولة الى أن توفي انيال الاتابك في جمادى أربع وتسعين فولاه السلطان مكانه كما عاهده عليه بشقحب، وجعل اليه نظر المارستان على عادة الاتابكية، واستمر على ذلك لهذا العهد. والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه.

استقدام ايتمش

كان ايتمش النجاشي أتابك الدولة قد نكبه السلطان وسار في العساكر الى الشام منتصف ربيع احدى وتسعين لقتال الناصري وأصحابه، لما انتقض عليه وكانت الواقعة بينهم بالمرج من نواحي دمشق، وانهزمت العساكر ونجا ايتمش الى قلعة دمشق ومعه

كتب السلطان في دخولها متى اضطر اليه، فامتنع بها وملكها الناصري من الغد بطاعة نائبها ابن الحمصي فوكل بايتمش وأقام حبيساً موسعاً عليه. ثم سار الناصري الى مصر وملكها، وعاد السلطان الى كرسيه في صفر سنة اثنتين وتسعين كما فصل ذلك من قبل. وايتمش في أثناء ذلك كله محبوس بالقلعة. ثم زحف الجوباني في جمادى الأخيرة وخلص ايتمش من اعتقاله، وفتق مماليك السلطان السجن الذي كانوا فيه بقلعة دمشق وخرجوا واعصوصبوا على ايتمش قبل مجيء الجوباني. وبعث اليه بالخبر، وبعث الجوباني الى السلطان بمثل ذلك فتقدم اليه السلطان بالمقام بالقلعة حتى يفرغ من أمر عدوّه.

ثم كان بعد ذلك واقعة الجوباني مع منطاش والعرب ومقتله وولاية الناصري على دمشق مكانه. ثم افترق العرب وفارقهم منطاش الى التركمان، وانتظمت ممالك الشام في ملكة السلطان، واستوسق ملكه واستفحلت دولته، فاستدعى الامير ايتمش من قلعة دمشق، وسار لاستدعائه قنوباي من مماليك السلطان ثامن ربيع الاوّل سنة ثلاث وتسعين، ووصل الى مصر رابع جمادى الاولى من السنة. ووصل في ركابه حاجب الحجاب بدمشق ومعه الامراء الذين حبسوا بالشام، منهم جنتمر نائب دمشق وابنه وابن أخته واستاذ داره طنبقا ودمرداش اليوسفي نائب طرابلس،

والطنبقا الحلي والقاضي أحمد بن القريشي، وفتح الدين بن الرشيد، وكاتب السرّ في ست وثلاثين نفراً من الامراء وغيرهم.

ولما وصل أيتمش قابله السلطان بالتكرمة والرحب وعرض الحاجب المساجين الذي معه ووبخ السلطان بعضهم. ثم حبسوا بالقلعة حتى نفذ فيهم قضاء الله، وقتلوا مع غيرهم ممن أوجبت السياسة قتلهم. والله تعالى مالك الامور لا رب سواه انتهى.

هدية افريقية

كان السلطان قد حصل بينه وبين سلطان افريقية أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي حفص الموحدي مودّة والتئام، وكانت كثيراً ما تجدّدها الهدايا من الجانبين، ونذكرها ان شاء الله تعالى. ولما بلغ الخبر الى تونس بما كان من نكبة السلطان وما كان من امره، امتعض له هذا السلطان بتونس وتفجع لشأنه، وأقام يستطلع خبره ويستكشف من الجار التي تحضر الى مصر من أهل تونس أنباءه، حتى وقف على الجلي من أمره وما كيف الله من أسباب السعادة في خلاصه وعوده الى كرسيه، فملأ السرور جوانحه. وأوفد عليه بالتهنئة رسوله بهدية من المقربات على سبيل الوداد مع خالصة من كبراء الموحدين محمد بن علي بن أبي هلال، فوصل في العشر الأواخر من رمضان سنة اثنتين وتسعين فتلقاه السلطان بالكرامة، وركب محمود استاذ داره ليتلقاه عند

نزوله من البحر بساحل بولاق ، وأنزل ببيت طشتمر بالرميلة قبالة الاصطبل ، وأجريت عليه النفقة بما لم يجر لامثاله . ورغب من السلطان في الحج فحج وأصحب هدية الى مرسله من ثياب الوشي والديباج والسلاح بما لم يعهد مثلها ، وانصرف آخر ربيع سنة ثلاث وتسعين والله تعالى أعلم بغيبه .

حصار منطاش دمشق ومسير السلطان من مصر اليه وفراره ومقتل الناصري

لم يزل منطاش شريداً عند التركمان منذ فارق العرب ، ولما كان منتصف سنة ثلاث وتسعين اعتزم على قصد دمشق ، ويقال ان ذلك كان باغراء الناصري يخادعه بذلك ليقبض عليه ؛ فسار منطاش من مرعش على نواحي حلب وتقدّم خبره الى حماة فهرب نائبها الى طرابلس . ودخل منطاش حماة ونادى فيها بالامان ، ثم سار منها الى حمص كذلك ثم الى بعلبك ؛ وهرب نائبها الى دمشق فخرج الناصري نائب دمشق في العساكر لمدافعته ، وسار على طريق الزبداني فخالفه منطاش الى دمشق . وقدم اليها أحمد شكار ابن أبي بندر فثار شيعة الخوارزميّة والبندمرية ، وفتحوا له أبواب البلد ومرّ باصطبلات فقاد منها نحواً من ثمانمائة فرس .

وجاء منطاش من الغد على أثره فنزل بالقصر الابلق ، وأنزل الامراء الذين معه في البيوت حوالي القصر وفي جامع شكن

وجامع بيبقا ، وشرع في مصادرة الناس والفريضة عليهم وأقام يومه في ذلك ، وإذا بالناصري قد وصل في عساكره فاقتتلوا عشية ذلك اليوم مرات ومن الغد كذلك. وأقام كل واحد منهما في حومته والقتال متصل بينهما سائر رجب وشعبان. ولما بلغ الخبر الى السلطان ارتاب بالناصري واتهمه بالمداهنة في أمر منطاش. وتجهز لقصد الشام ونادى في العساكر بذلك عاشر شعبان وقتل أهل الخلاف من الامراء المحبوسين ، وأشخص البطّالين من الامراء الى الاسكندرية ودمياط ، وخرج يوم عشرين شعبان فخيم بالريدانية حتى أزاح علل العساكر وقضوا حاجاتهم.

واستخلف على القاهرة الاتابك كمشيقا الحموي وأنزله الاصطبل ، وجعل له التصرّف في التولية والعزل. وترك بالقاهرة من الامراء جماعة لنظر الاتابك وتحت أمره ، وأنزل النائب سودون بالقلعة وترك بها ستمائة من مماليكه الاصاغر ، وأخرج معه القضاة الاربعة والمفتين. وارتحل غرة رمضان من السنة بقصد الشام. وجاء الخبر رابع الشهر بأن منطاش لما بلغه مسيرة السلطان من مصر هرب من دمشق منتصف شعبان مع عنقا بن [1] أمير آل مراء الصريخ بمنطاش فكانت بينهما وقعة انهزم فيها الناصري ، وقتل جماعة من أمراء الشام نحو خمسة عشر فيهم ابراهيم بن منجك وغيره.

---

(١) كذا بياض بالأصل، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على اسم والد عنقا.

ثم خرج الناصري من الغد في اتباع منطاش؛ وقد ذكر له أن الفلاحين نزحوا من نواحي دمشق، واحتاطوا به فركب اليه منطاش ليقاتله؛ ففارقه أتابكه يماز تمر الى الناصري في اكثر العساكر، وولى هارباً. ورجع الناصري الى دمشق وأكرم يماز تمر وأجمل له الوعد، وجاءه الخبر بأن السلطان قد دخل حدود الشام؛ فسار ليلقاه فلقيه بقانون. وبالغ السلطان في تكرمته، وترجل حين نزوله وعانقه واركبه بقربه ورده الى دمشق. ثم سار في أثره الى أن وصل دمشق، وخرج الناصري ثانية ودخل الى القلعة ثاني عشر رمضان من السنة والامراء مشاة بين يديه، والناصري راكب معه يحمل الخبز على رأسه. وبعث يعبر في كتاب نائب حماة بالعذر عما وقع منه، وانه اتهم الناصري في أمر منطاش فقصد حسم الفتنة في ذلك.

واستأمن السلطان وضمن له احضار منطاش من حيث كان فأمنه، وكتب اليه باجابة سؤاله. ولما قضى عيد الفطر برز من دمشق سابع شوّال الى حلب في طلب منطاش، ولقيه أثناء طريقه رسول سولي بن دلقار أمير التركمان بهديته واستئمانه وعذره عن تعرضه لسيس، وانه يسلمها لنائب حلب فقبل السلطان منه وأمّنه ووعده بالجميل.

ثم وفد عليه أمراء آل مهنا وآل عيسى في الطاعة ومظاهرة السلطان على منطاش ويعبر، وأنهما نازلان بالرَّحبة من تخوم الشام

فأكرم السلطان وفادتهم وتقبل طاعتهم، وسار الى حلب ونزل بالقلعة منها ثاني شوّال. ثم وصل الخبر الى السلطان بأن منطاش فارق يعبر او مرّ ببلاد ماردين فواقعته عساكر هنالك، وقبضوا على جماعة من أصحابه، وخلص هو من الواقعة الى سالم الرودكاري من أمراء التركمان، فقبض عليه وأرسل الى السلطان يطالعه بشأنه ويطلب بعض أمراء السلطان قرا دمرداش نائب حلب في عساكره الى سالم الرودكاري لاحضار منطاش، واتبعه بالناصري.

وأرسل الاتابك الى ماردين لاحضار من حصل من أصحاب منطاش وانتهى انيال الى رأس العين، وأتى أصحاب سلطان ماردين وتسلم منهم أصحاب منطاش. وكتب سلطانهم بأنه معتمل في مقاصد السلطان ومرتصد لعدوه. وانتهى قرا دمرداش الى سالم الرودكاري وأقام عنده أربعة أيام في طلب منطاش وهو يماطله، فأغار قرا دمرداش عليه ونهب أحياءه وفتك في قومه، وهرب هو ومنطاش الى سنجار. وجاء الناصري على أثر ذلك ونكر على دمرداش ما أتاه وارتفعت الملاحّة بينهما حتى همّ الناصري به ورفع الآلة بضربه، ولم يحصل أحد منهم بطائل، ورجعوا بالعساكر الى السلطان. وكتب اليه سالم الرودكاري بالعذر عن أمر منطاش، وأن الناصري كتب اليه وأمره بالمحافظة على منطاش، وان فيه زبوناً للترك، فجلس السلطان بالقلعة جلوساً ضخماً سادس ذي الحجه من السنة، واستدعى الناصري فوبخه.

ثم قبض عليه وعلى ابن أخيه كشلي ورأس نوبة شيخ حسن، وعلى أحمد بن الهمدار الذي امكنه من قلعة حلب وأمر بقتله وقشتمر الاشرفي الذي وصل من ماردين معهم. وولى على نيابة دمشق مكانه بكا الدوادار، واعطى اقطاعه لقرا دمرداش وأمره بالمسير الى مصر. وولى مكانه بحلب حلبان رأس نوبة، وولى أبا يزيد دوادارا مكان بكا ورعى له وسائله في الخدمة وتردّده في السفارة بينه وبين الناصري أيام ملك الناصري. وأجلب على مصر وأشار عليه الناصري بالانتفاء كما ذكرناه، فاختفى عند أصحاب أبي يزيد هذا بسعايته في ذلك. ثم ارتحل من حلب ووصل الى دمشق منتصف ذي الحجة، وقتل بها جماعة من الامراء أهل الفساد يبلغون خمسة وعشرين، وولى على العرب محمد بن مهنا وأعطى اقطاع يعبر لجماعة من التركمان، وقفل الى مصر.

ولقيه الاتابك كمشيقا والنائب سودون والحاجب سكيس. ثم دخل الى القلعة على التعبية منتصف المحرم سنة أربع وتسعين في يوم مشهود، ووصل الخبر لعاشر دخوله بوفاة بكا نائب دمشق فولى مكانه سودون الطرنطاي. ثم قبض في منتصف صفر على قرا دمرداش الاحمدي وهلك في محبسه، وقبض على طنبقا المعلم وقردم الحبشي. وجاء الخبر أواخر صفر من السنة بأن جماعة من المماليك مقدمهم ايبقا دوادار وبذلار. ولما هلك بكا واضطرب أصحابه وهرب بعضهم، عمد هؤلاء المماليك الى قلعة دمشق وهجموا عليها

وملكوها، ونقبوا السجن وأخرجوا المعتقلين به من أصحاب الناصري ومنطاش وهم نحو المائة.

وركبت العساكر اليها وحاصروها ثلاثاً، ثم هجموا على الباب فاحرقوه ودخلوا الى القلعة فقبضوا عليهم أجمعين وقتلوهم وفرّ ايبقا دوادار وبذلار في خمسة نفر، وانحسمت عللهم. ثم وصل الخبر آخر شعبان من السنة بوفاة سودون الطرنطاي فولى السلطان مكانه كمشيقا الاشرفي أمير مجلس، وولى مكان كمشيقا أمير شيخ الحاجكي انتهى. والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل منطاش

كان منطاش فرّ مع سالم الرودكاري الى سنجار وأقام معه أياماً، ثم فارقه ولحق بيعبر فأقام في احيائه، وأصهر اليه بعض أهل الحي بابنته فتزوّجها واقام معهم. ثم سار أول رمضان سنة أربع وتسعين وعبر الفرات الى نواحي حلب، وأوقعت به العساكر هنالك وهزموهم وأسروا جماعة من اصحابه. ثم طال على يعبر أمر الخلاف، وضجر قومه من افتقاد الميرة من التلول فأرسل حاجبه يسأل الامان، وانه يمكن من منطاش على أن يقطع أربع بلاد منها المعرة، فكتب له الدوادار أبو يزيد على لسانه بالاجابة الى ذلك. ثم وفد محمد بن [1] سنة خمس وتسعين فأخبر أنه كان

(١) كذا بياض بالأصل في جميع النسخ ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على اسم والد محمد.

مقيماً بسلمية في احيائه ومعه التركمان المقيمون بشيزر فركبوا اليهم وهزموهم، وضرب بعض الفرسان منطاش فاكبه وجرحه ولم يعرف في المعركة لسوء صورته بما أصابه من الشظف والحفاء، فأردفه ابن يعبر ونجا به وقتل منهم جماعة: منهم ابن بردعان وابن انيال، وجيء برأسيهما الى دمشق. وأوعز السلطان الى أمراء الشام ان يخرجوا بالعساكر وينفوه الى اطراف البلاد لحمايتها حتى يرفع الناس زروعهم.

ثم زحف يعبر ومنطاش في العساكر اول جمادى الاخيرة من السنة الى سلمية فلقيهم نائب حلب ونائب حماة فهزموهما ونهبوا حماة، وخالفهم نائب حلب الى احياء يعبر فأغار عليها ونهب سوادها واموالها واستاق نعمها ومواشيها، وأضرم النار فيما بقي. وأكمن لهم ينتظر رجوعهم. وبلغهم الخبر بحماة فاسرعوا الكر الى أحيائهم فخرج عليهم الكمناء واثخنوا فيهم، وهلك بين الفريقين خلق من العرب والامراء والمماليك.

ثم وفد على السلطان أواخر شعبان عامر بن طاهر بن جبار طائعاً للسلطان ومنابذاً لعمه، وذكوان بن يعبر على طاعة السلطان وانهم يمكنون من منطاش متى طلب منهم؛ فأقبل عليه السلطان وأثقل كاهله بالاحسان والمواعيد، ودس معه الى بني يعبر بامضاء ذلك ولهم ما يختارونه. فلما رجع عامر ابن عمهم طاهر بمواعيد السلطان تفاوضوا مع آل مهنا جميعاً ورغبوهم فيما عند السلطان

ووصفوا ما هم فيه من الضنك وسوء العيش بالخلاف والانحراف عن الطاعة. وعرضوا علـى يعبر بأن يجيبهم الى احدى الحسنيـين من امساك منطاش أو تخلية سبيلهم الى طاعة السلطان، ويفارقهم هو الى حيث شاء من البلاد فجزع لذلك ولم يسعه خلافهم، وأذن لهم في القبض على منطاش وتسليمـه الى نواب السلطان فقبضوا عليه، وبعثوا الى نائب حلب فيمن يتسلمه.

واستحلفوه على مقاصدهم من السلطان لهم ولابيهم يعبر فحلف لهم وبعث اليهم بعض أمرائه فأمكنوه منه، وبعثوا معه الفرسان والرجاله حتى اوصلوه، ودخل الى حلب في يوم مشهود وحبس بالقلعة. وبعث السلطـان أميراً من القاهرة فاقتحمه وقتله وحمل رأسه وطاف به في ممالك الشام. وجاء به الى القاهرة حادي عشر رمضان سنة خمس وتسعين فعلقت على باب القلعة، ثم طيف بهـا مصر والقاهرة وعلقت على باب زويلة، ثم دفعت الى اهله فدفنوها آخر رمضان من السنة. والله وارث الارض ومن عليهـا وهو خير الوارثين.

حوادث مكة

قد كان تقدّم لنا أنّ عنان بن مقابس ولّاه السلطان على مكة بعد مقتل محمد بن أحمد بن عجلان في موسم سنة ثمـان وثمانين، وان كنيش بن عجلان أقام على خلافه وحاصره بمكة فقتل في

حومة الحرب سنة تسع بعدها. وساء أثر عنان وعجز من مغالبة الاشراف من بني عمــه وسواهم. وامتدّت أيديهم الى أمــوال المجاورين وصادروهم عليها ونهبوا الزرع الواصل في الشواني من مصر الى جدة للسلطان والامراء والتجــار، ونهبوا تجــار اليمن وساءت أحوال مكة بهم وبتابعهم. وطلب الناس من السلطان اعادة بني عجلان لامارة مكة.

ووفد على السلطان بمصر سنة تسع وثمانين صبيّ من بني عجلان اسمه علي فولاه على امارة مكة، وبعثه مع أمير الحاج وأوصاه بالاصلاح بين الشرفاء. ولما وصل الامير الى مكة وكان بها يومئذ قرقماش خشي الاشراف منه، واضطرب عنان وركب للقائه. ثم توجس الخيفة وكرّ راجعاً واتبع الاشراف، واجتمعوا على منابذة علي بن عجلان وشيعته من القواد والعبيد. ووفد عنان بن مقامس على السلطان سنة تسعين فقبض عليه وحبسه، ولم يزل محبوساً الى ان خرج مع بكا عند ثورته بالقلعة في صفر سنة اثنتين وتسعين. وبعثه مع أخيه ايبقا يستكشف خبر السلطان كما مرّ.

وأنتظم أمر السلطان بسعاية بكا في العود الى امارته رعياً لما كان بينهما من العشرة في البحر، وأسعفه السلطان بذلك وولاه شريكاً لعلي بن عجلان في الامارة فأقاما كذلك سنتين، وأمرهما مضطرب والاشراف معصوصبون على عنان، وهو عاجز عن الضرب

على أيديهم؛ وعلي بن عجلان مع القواد كذلك، وأهل مكة على وجل من أمرهم في ضنك من اختلاف الايدي عليهم.

ثم استقدمهم السلطان سنة أربع وتسعين فقدموا اول شعبان من السنة فاكرمها ورفع مجلسها، ورفع مجلس علي على سائرهم. ولما انقضى الفطر ولى علي بن عجلان مستقلاً واستبلغ في الاحسان اليه بأصناف الاقمشة والخيول والمالك والحبوب، وأذن له في الجراية والعلوفة فوق الكفاية. ثم ظهر عليه بعد شهر وقد أعد الرواحل ليلحق بمكة هارباً فقبض عليه وحبسه بالقلعة، وسار علي بن عجلان الى مكة وقبض على الاشراف لتستقيم امارته. ثم خودع عنهم فأطلقهم فنفروا عنه ولم يعاودوا طاعته فاضطرب أمره وفسد رأيه، وهو مقيم على ذلك لهذا العهد. والله غالب على امره انه على كل شيء قدير.

وصول احياء من التتر وسلطانهم الى صاحب بغداد واستيلاؤه عليها وسير السلطان بالعساكر اليه

كان هؤلاء التتر من شعوب الترك وقد ملكوا جوانب الشرق من تخوم الصين الى ما وراء النهر، ثم خوارزم وخراسان وجانبيها الى سجستان وكرمان جنوباً وبلاد القفجاق وبلغار شمالاً، ثم عراق العجم وبلاد فارس واذربيجان وعراق العرب والجزيرة وبلاد الروم الى ان بلغوا حدود الفرات، واستولوا على الشام

مرة بعد أخرى كما تقدّم في أخبارهم، ويأتي ان شاء الله تعالى. وكان أول من خرج منهم ملكهم جنكزخان أعوام عشر وستمائة، واستقلوا بهذه الممالك كلهـا. ثم انقسمت دولته بين بنيهم فيهـا فكان لبني دوشي خان منهم بلاد القفجاق وجانب الشمال بأسره، ولبني هلاكو بن طولي خان خراسان والعراق وفارس واذربيجان والجزيرة والروم، ولبني جفطَاي خوارزم وما اليها.

واستمرت هذه الدول الثلاث الى هذا العهد في مائة وثمانين سنة انقرض فيها ملك بني هلاكو في سنة أربعين من هذه المائة بوفاة أبي سعيد آخرهم ولم يعقب، وافترق ملكه بين جماعة من أهل دولته في خراسان واصفهان وفارس وعراق العرب واذربيجان وتوريز وبلاد الروم: فكانت خراسان للشيخ ولي، واصفهان وفارس وسجستان للمظفر الازدي وبنيه وخوارزم واعمالها الى تركستان لبني جفطَاي، وبلاد الروم لبني ارشا مولى من موالي مرداش بن جوبان، وبغداد واذربيجان والجزيرة للشيخ حسن بن حسين بن أيبغا بن ايكان ــ وايــكان سبط أرغو بن أبغـا بن هلاكو ــ ولبنيه، وهو من كبار المغل في نسبه.

ولم يزل ملكهم المفترق في هذه الدول متناقلًا بين أعقابهم الى ان تلاشى واضمحل. واستقر ملك بغداد واذربيجـان والجزيرة لهـذا العهد لأحمد بن أويس بن الشيخ حسن سبط ارغو كما في أخبار يأتي شرحها في دول التتر بعد. ولمـا كان في هذه العصور

ظهر بتركستان وبخارى فيما وراء النهر امير اسمه تمر في جموع من المغل والتتر ينسب هو وقومه الى جفطاي، لا أدري هو جفطاي ابن جنكزخان او جفطاي آخر شعوب المغل، والاوّل اقرب لما قدّمته من ولاية جفطاي بن جنكزخان على بلاد ما وراء النهر لعهد ابيه. وإن اعترض معترض بكثرة هذا الشعب الذي مع تمر، وقصر المدة. ان هذه المدة من لدن جفطاي تقارب مائتي سنة، لان جفطاي كان لعهد ابيه جنكز خان يقارب الاربعين، فهذه المدة أزيد من خمسه من العصور، لان العصر أربعون سنة. وأقل ما يتناسل من الرجل في العصر عشرة من الولد فاذا ضوعفت العشرة بالضرب خمس مراتب كانت مائة ألف.

وان فرضنا أن المتناسلين تسعة لكل عصر بلغوا في الخمسة عصور الى نحو من سبعين ألفاً، وان جعلناها ثمانية بلغوا فوق الاثنين وثلاثين، وان جعلناهم سبعة بلغوا ستة عشر الفاً. والسبعة أقل ما يمكن من الرجل الواحد لا سيما مع البداوة المقتضية لكثرة النسل. والستة عشر الفاً عصابة كافية في استتباع غيرها من العصائب حتى تنتهي الى غاية العساكر. ولما ظهر هذا فيما وراء النهر عبر الى خراسان فملكها من يد الشيخ ولي صاحبها أعوام أربعه وثمانين بعد مراجفات وحروب. وهرب الشيخ ولي الى توريز فصمد اليه تمر في جموعه سنة سبع وثمانين وملك توريز واذربيجان

وخربها ، وقتل الشيخ ولي في حروبه ، ومرّ باصبهان فأعطوه طاعة معروفة .

واطل بعد توريز على نواحي بغداد فأرجفوا منه ، وواقعت عساكره باذربيجان جموع الترك أهل الجزيرة والموصل . وكانت الحروب بينهم سجالاً . ثم تأخر الى ناحية اصفهان وجاءه الخبر بخارج خرج عليه من قومه يعرف بقمر الدين تطمش ملك الشمال من بني دوشي خان بن جنكزخان ، وهو صاحب كرسي صراي أمده بأمواله وعساكره فكرّ راجعاً الى بلده ، وعميت أنباؤه الى سنة خمس وتسعين . ثم جاءت الاخبار بأنه غلب قمر الدين الخارج عليه ومحا أثر فساده ، واستولى على كرسي صراي فكر تمر راجعاً وملكها .

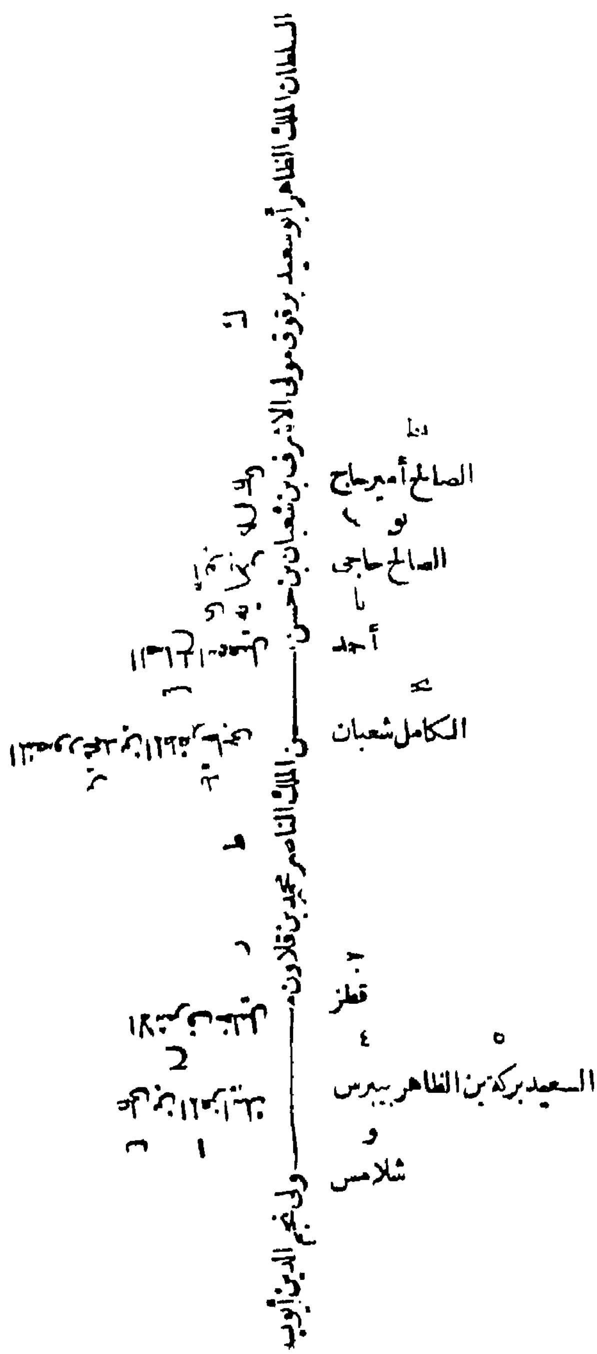
ثم خطا الى أصفهان وعراق العجم وفارس وكرمان فملك جميعها من يد بني المظفر اليزدي بعد حروب هلك فيها ملوكهم وبدّدت جموعهم . وراسله صاحب بغداد أحمد بن أويس وصانعه بالهدايا والتحف فلم يغن عنه ؛ وما زال يخادعه بالملاطفة والمراسلة الى ان فتر عزم أحمد وافترقت عساكره فصمد اليه يغذ السير حتى انتهى الى دجلة ، وسبق النذير الى أحمد ، فأسرى من ليله ومرّ بجسر الحلة فقطعه . وصبح مشهد علي ووافى تمر وعساكره دجلة يوم الحادي والعشرين من شوّال سنة خمس وتسعين ، وأجازوا دجلة سبحاً ودخلوا واستولوا عليها .

وبعث العساكر في اتباع أحمد فلحقوا باعقابه، وخاضوا اليه النهر عند الجسر المقطوع وأدركوه بالمشهد فكرّ عليهم في جموعه، وقتل الامير الذي كان في اتباعه ورجعوا عنه بعد أن كانوا استولوا على جميع أثقاله ورواحله بما فيها من الاموال والذخيرة، فرجعوا بها ونجا أحمد الى الرحبة من تخوم الشام فأراح بها وطالع نائبها السلطان بأمره، فأخرج اليه بعض خواصه بالنفقات والازواد ليستقدمه فقدم به الى حلب آخر ذي القعدة فأراح بها. وطرقه مرض أبطأ به عن مصر. وجاءت الاخبار بأنّ تمرعاث في مخلفه واستصفى ذخائره واستوعب موجود أهل بغداد بالمصادرات لاغنيائهم وفقرائهم حتى مستهم الحاجة. وأقفرت جوانب بغداد من العيث. ثم قدم أحمد بن أويس على السلطان بمصر في شهر ربيع سنة ست وتسعين مستصرخاً به على طلب ملكه والانتقام من عدوّه فأجاب السلطان صريخه، ونادى في عساكره بالتجهز الى الشام، وقد كان تمر بعد ما استولى على بغداد زحف في عساكره الى تكريت فأولى المخالفين وعثاء الحرابة، ورصد السابلة وأناخ عليها بجموعه أربعين يوماً فحاصرها حتى نزلوا على حكمه وقتل من قتل منهم، ثم خربها وأسرها.

ثم انتشرت عساكره في ديار بكر الى الرُها ووقفوا عليها ساعة من نهار فملكوها وأشفوا نعمتها وافترق أهلها. وبلغ الخبر الى السلطان فخيم بالريدانية أياماً أزاح فيها علل عسكره وأفاض

العطاء في مماليكه . واستوعب الحشد من سائر أصناف الجند . واستخلف على القاهرة النائب مودود وارتحل الى الشام على التعبية ، ومعه أحمد بن أويس صاحب بغداد بعد أن كفاه مهمه وسرب النفقات في تابعه وجنده .

ودخل دمشق آخر جمادى الاولى وقد كان أوعز الى حلبان نائب حلب بالخروج الى الفرات واستيعاب العرب والتركمان للاقامة هنالك رصداً للعدو . فلما وصل الى دمشق وفد عليه حلبان وطالعه بمهماته وما عنده من أخبار القوم ، ورجع لانفاذ أوامره والفصل فيما يطالعه فيه . وبعث السلطان على أثره العساكر مدداً له مع كمشيقا الاتابك وتلكمش أمير سلاح وأحمد بن بيبقا ، وكان العدو قد شغل بحصار ماردين فأقام عليها أشهراً ؛ ثم ملكها وعاثت عساكره فيها وامتنعت عليه قلعتها فارتحل عنها الى ناحية بلاد الروم ، ومر بقلاع الاكراد فأغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها . والسلطان لهذا العهد - وهو شعبان سنة ست وتسعين - مقيم بدمشق مستجمع للوثبة به متى استقبل جهته ، والله ولي الامور . وهذا آخر ما انتهت اليه دولة الترك بانتهاء الايام وما يعلم أحد ما في غد ، والله مقدر الامور وخالقها .


السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق مولى الأشرف بن شعبان بن حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون ولي نجم الدين أيوب
الصالح أمير حاج
الصالح حاجي
أحمد
الكامل شعبان
قطز
السعيد بركة بن الظاهر بيبرس
شلامش

دولة بني رسول

الخبر عن دولة بني رسول مولى بني ايوب الملوك باليمن بعدهم ومبدا امرهم وتصاريف احوالهم

قد كان تقدّم لنا كيف استولى بنو أيوب على اليمن واختلف عليها الولاة منهم الى ان ملكها من بني المظفر شاهنشاه بن أيوب حافده سليمان بن [1] ابن المظفر وانتقض أيام العادل سنة اثنتي عشرة وستمائة فأمر العادل ابنه الكامل خليفته على مصر ان يبعث ابنه يوسف المسعود الى اليمن، وهو أخو الصالح ويلقب بالتركي اطس ويقال اقسنس، وقد تقدم ذكر هذا اللقب، فملكها المسعود من يد سليمان وبعث به معتقلاً الى مصر. وهلك في جهاد الافرنج بدمياط سنة سبع وأربعين. وهلك العادل أخو المسعود سنة خمس عشرة وستمائة، وولي بعده ابنه الكامل وجدد العهد الى يوسف المسعود على اليمن. وحج المسعود سنة تسع عشرة وكان من خبره تأخير أعلام الخليفة عن اعلامه ما مرّ في اخبار دولتهم.

ثم جاء سنة عشرين الى مكة وأميرها حسن بن قتادة من بني

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي أخبار البشر لأبي الفداء ج ٤ ص ١١٦: سليمان بن سعد الدين شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب.

مطاعن احدى بطون بني حسن فجمع لقتاله وهزمه المسعود، وملك مكة وولى عليها. ورجع الى اليمن فأقام به، ثم طرقه المرض سنة ست وعشرين؛ فارتحل الى مكة واستخلف على اليمن علي بن رسول التركماني أستاذداره. ثم هلك المسعود بمكة لاربع عشرة سنة من ملكه، وبلغ خبر وفاته الى ابيه وهو محاصر دمشق. ورجع ابن قتادة الى مكة. ونصب علي بن رسول على اليمن موسى ابن المسعود ولقبه الاشرف، واقام مملكاً على اليمن الى ان خلع. وخلف المسعود ولد آخر اسمه يوسف، ومات وخلفه ابنه واسمه موسى؛ وهو الذي نصبه الترك بعد ايبك ثم خلعوه. ثم خلع بن رسول موسى الاشرف بن المسعود واستبدّ بملك اليمن وأخذ بدعوة الكامل بمصر، وبعث أخويه رهناً على الطاعة.

ثم هلك سنة تسع وعشرين وولى ابنه المنصور عمر بن علي ابن رسول. ولما هلك علي بن منصور ولى بعده الكامل ابنه عمر. ثم توفي الكامل سنة خمس وثلاثين وشغل بنو أيوب بالفتنة بينهم فاستغلظ سلطان عمر باليمن وتلقب المنصور، ومنع الاتاوة التي كان يبعث بها الى مصر، فأطلق صاحب مصر العادل بن الكامل عمومته الذين كان أبوه رهنهم على الطاعة لينازعوه في الامر فغلبهم وحبسهم. وكان أمر الزيدية بصعدة قد خرج من بني الرسي وصار لبني سليمان بن داود كما مرّ في اخبارهم. ثم بويع من بني الرسي احمد بن الحسين من بني الهادي يحيى بن الحسن

ابن القاسم الرسي، بايع له الزيدية بحصن ملا، وكانوا من يوم أخرجهم السليمانيون من صفد قد أووا الى جبل مكانه. فلما بويع أحمد بن الحسين هذا لقبوه الموطىء وكان تحصن بملا، وكان الحديث شائعاً بين الزيدية بأن الامر يرجع الى بني الرسي.

وكان أحمد فقيهاً أديباً عالماً بمذهب الزيدية مجتهداً في العِبادة. وبويع سنة خمس وأربعين وستمائة. وأهمّ عمر بن رسول شأنه فشمر لحربه وحاصره بحصن ملا مدة، ثم أفرج عنه، وجهز العساكر لحصاره من الحصون المجاورة له. ولم يزل قائماً بأمره الى ان وثب عليه سنة ثمان وأربعين جماعة من مماليكه بممالأة بني أخيه حسن فقتلوه لثمان عشرة سنة من ولاية المظفر يوسف بن عمر. ولما هلك المنصور علي بن رسول كما قلناه قام بالامر مكانه ابنه المظفر شمس الدين يوسف، وكان عادلاً محسناً وفرض الاتاوة عليه لملوك مصر من الترك لما استقلوا بالملك، وما زال يصانعهم بها ويعطيهم اياها. وكان لأول ملكه امتنع عليه حصن الدملوة فشغل بحصاره، وتمكن أحمد الموطىء الثائر بحصن ملا من الزيدية من أعقاب بني الرسي فملك عشرين حِصْناً من حُصون الزيدية. وزحف الى صفد فملكها من يد السليمانيين، ونزل له أحمد المتوكل إمام الزيدية منهم فبايعه وأمنه. ولما كانوا في خطابة لم يزل في كل عصر منهم إمام كما ذكرناه في اخبارهم قبل.

ولم يزل المظفر والياً على اليمن الى ان هلك بغتة سنة أربع

وتسعين لست واربعين سنة من ملكة الأشرف عمر بن المظفر يوسف. ولما هلك المظفر يوسف كما قلناه وولي بعده ابنه الاشرف ممهد الدين عمر، وكان أخوه داود والياً على الشِّحْر فدعاه لنفسه ونازعه الامر، فبعث الاشرف عساكره وقاتلوه وهزموه وقبضوا عليه وحبسه. واستمرّ الاشرف في ملكه الى ان سمّته جاريته فمات سنة ست وتسعين لعشرين شهراً من ولايته (١) أخوه داود بن المظفر المؤيد يوسف. ولما هلك الاشرف بن عمر بن المظفر يوسف اخرجوا اخاه مؤيد الدين داود من معتقله، وولوه عليهم ولقبوه المؤيد. وافتتح امره بقتل الجارية التي سمت اخاه.

وما زال يواصل ملوك الترك بهداياه وصلاته وتحفه والضريبة التي قررها سلفه، وانتهت هديته سنة احدى عشرة وسبعمائة الى مائتي وقر بعير بالثياب والتحف وطرف اليمن ومائتين من الجمال والخيل. ثم بعث سنة خمس عشرة بمثل ذلك، وفسد ما بينه وبين ملوك الترك بمصر. وبعث بهديته سنة ثمان عشرة فردوها عليه. ثم هلك سنة احدى وعشرين وسبعمائة لخمس وعشرين سنة من ملكه. وكان فاضلاً شافعي المذهب، وجمع الكتب من سائر الامصار فاشتملت خزانته على مائة ألف مجلد، وكان يتفقد العلماء بصلاته ويبعث لابن دقيق العيد فقيه الشافعية بمصر جوائزه. ولما توفي

(١) كذا بياض بالأصل، وفي أخبار البشر ج ٤ ص ٣٣: وتوفي والملك المؤيد داود في الاعتقال مقيداً.

المؤيد داود سنة احدى وعشرين كما قلناه قام بملكه ابنه المجاهد سيف الدين علي ابن اثنتي عشرة سنة ، والله وارث الارض ومن عليها .

ثورة جلال الدين بن عمر الأشرف وحبسه

ولما ملك المجاهد علي شغل بلذاته وأساء السيرة في أهل المناصب الدينية بالعزل والاستبدال بغير حق فنكره أهل الدولة ، وانتقض عليه جلال الدين ابن عمه عمر الاشرف وزحف اليه ، وكانت بينهما حروب ووقائع كان النصر فيها للمجاهد ، وغلب على جلال الدين وحبسه ، والله تعالى أعلم .

ثورة جلال الدين ثانيا وحبس المجاهد وبيعة المنصور ايوب بن المظفر يوسف

وبعد ان قبض المجاهد على جلال الدين ابن عمه الاشرف وحبسه لم يزل مشتغلا بلهوه عاكفاً على لذاته، وضجر منه اهل الدولة وداخلهم جلال الدين في خلعه فوافقوه ، فرحل الى (١)

(١) كذا بياض بالأصل، وفي تاريخ أخبار البشر ج ٤ ص ٩١: وفيها ـ سنة (٧٢٢) ـ ليلة الثلاثاء في ذي الحجة توفي بمرض ذات الجنب بتعز الملك المؤيد هزبر الدين داود بن المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول، فاتفق أرباب الدولة وأقاموا ولده علي ولقب الملك المجاهد سيف الإسلام بن داود المذكور، وهو إذ ذاك أول ما قد بلغ. ثم خرج عليه عمه الملك المنصور أيوب ولقبه زين الدين أخو داود في سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة فملك اليمن واعتقل ابن أخيه سيف الإسلام. وقعد المنصور في مملكة اليمن دون ثلاثة أشهر. ثم هجم من العسكر وأخرجوا سيف الإسلام وأعادوه إلى ملك اليمن واعتقلوا عمه المنصور أيوب، وبقي أمر مملكة اليمن مضطرباً غير منتظم الأحوال.

سنة اثنتين وعشرين فخرج جلال الدين من محبسه وهجم عليه في بعض البساتين ، وفتك بحرمه وقبض عليه ، وبايع لعمه المنصور ايوب بن المظفر يوسف واعتقل المجاهد عنده في نفر واطلق جلال الدين ابن عمه. والله تعالى اعلم بغيبه .

خلع المنصور ايوب ومقتله وعود المجاهد الى ملكه ومنازعة الظاهر بن المنصور ايوب له

ولما حبس المجاهد بقلعة تعز واستقل المنصور بالملك اجتمع شيعة المجاهد وهجموا على المنصور في بيته بتعز وحبسوه ، واخرجوا المجاهد واعادوه الى ملكه ، ورجع اهل اليمن لطاعته. وكان اسد الدين عبدالله بن المنصور ايوب بالدملوة فعصى عليه وامتنع بها. وكتب اليه المجاهد يهدّده بقتل ابيه فلج واتّسع الخرق بينهما ، وعظمت الفتنة وافترق عليهما العرب ، وكثر عيثهم وكثر الفساد. وبعث المنصور من محبسه الى ابنه عبدالله ان يسلم الدملوة خوفاً على نفسه من القتل فأبى عبدالله من ذلك واساء الرد على ابيه . ولما يئس المجاهد منه قتل اباه المنصور ايوب بن المظفر في محبسه ، واجتمع اهل الدملوة وكبيرهم الشريف ابن حمزة وبايعوا اسد الدين عبدالله بن المنصور ايوب ، وبعث عسكراً مع الشهاب الصفوي الى زبيد فحاصروها وفتحوها .

وجهز المجاهد عسكره اليها مع قائده علي بن الدوادار ،

ولما قاربوا زبيد أصابهم سيل وبيتهم اهل زبيد فنالوا منهم واسروا امراءهم . وانهم المجاهد قائده علي بن الدوادار بمداخلة عدوه فكتب اليه أن يسير الى عدن لتحصيل مواليها ، وكتب الى والي عدن بالقبض عليه ، ووقع الكتاب بيد الظاهر فبعث به الى الدوادار فرجع الى عدن وحاصرها وفتحها . وخطب بها للظاهر سنة ثلاث وعشرين وملك عدن بعدها . ثم استمال صاحب صنعاء وخوص فقاموا بدعوة الظاهر ، وبعث المجاهد الى مذحج والاكراد يستنجدهم فلم ينجدوه ، وهو بحصن المعدية ، وكتب الظاهر الى أشراف مكة وقاضيها نجم الدين الطبري بأن الامر قد استقر له باليمن ، والله تعالى ولي التوفيق لا رب سواه .

وصول العساكر من مصر مددا للمجاهد
واستيلاؤه على امره وصلحه مع الظاهر

ولما غلب الظاهر بن المنصور أيوب على قلاع اليمن وانتزعها من المجاهد وحاصره بقلعة المعدية ، بعث المجاهد سنة أربع وعشرين يصريخه الى السلطان بمصر من الترك الناصر محمد بن قلاون سنة خمس وعشرين ، فبعث اليه العساكر مع بيبرس الحاجب وانيال من أمراء دولته ، ووصلوا اليه سنة خمس وعشرين فسار اليهم المجاهد من حصن المعدية بنواحي عدن الى تعزّ فاستأمن اليه أهلها فأمنهم وراسلوا الظاهر في الصلح فأجاب على أن تكون له الدملوة ،

وتحالفوا على ذلك. وطلب أمراء الترك الشهاب الصفوي الذي أنشأ الفتنة بين المجاهد والظاهر فامتنع من اجابتهم فركب بيبرس وهجم عليه في خيمته وقتله بسوق الخيل بتعزّ وأثخنوا في العصاة على المجاهد في كل ناحية حتى أطاعوا، وتمهد له الملك ورجعت العساكر الى مصر سنة ست وعشرين، والله سبحانه وتعالى أعلم.

نزول الظاهر للمجاهد عن الدملوة ومقتله

ولما استقام الامر للمجاهد باليمن واستخلفه الظاهر على الدملوة أخذ المجاهد في تأنيسه واحكام الوصلة به حتى اطمأن، وهو يفتل له في الذروة والغارب حتى نزل له عن الدملوة، وولى عليها من قبله، وصار الظاهر في جملته. ثم قبض عليه وحبسه بقلعة تعِز. ثم قتله في محبسه سنة أربع وثلاثين، والله تعالى أعلم.

حج المجاهد علي بن المؤيد داود وواقعته مع امراء مصر واعتقاله بالكرك ثم اطلاقه ورجوعه الى ملكه

ثم حج المجاهد سنة احدى وخمسين أيام حسن الناصري الاولى وهي السنة التي حج فيها طاز كافل المملكة أميراً، وحج بيبقاروس الكافل الآخر مقيداً لان السلطان أمر طاز بالقبض عليه في طريقه فلما قبض عليه رغب منه أن يخلي سبيله لاداء فرضه فأجابه وحج مقيداً. وجاء المجاهد ملك اليمن للحج وشاع عنه أنه يروم كسوة

الكعبة فتنكر أمراء مصر وعساكرها لاهل اليمن. ووقعت في بعض الايام هيعة في ركب اليمن فتحاربوا وانهزم وذهب سواده وركب أهل اليمن كافة، وأطلق بيبقاروس للقتال، فجلا في تلك الوقعة وأعيد الى اعتقاله. وحمل المجاهد الى مصر معتقلاً فحبس ثم أطلق سنة اثنتين وخمسين في دولة الصالح. وبعثوا معه قشتمر المنصوري الى بلاده. فلما انتهى الى الينبع ظهر عليه قشتمر بأنه يروم الهرب فردّه وحبسه بالكرك. ثم أطلق بعد ذلك وأعيد الى ملكه وأقام على مهاداة صاحب مصر ومصانعته الى أن توفي سنة ست وستين لاثنتين وأربعين سنة من ملكه.

ولاية الافضل عباس بن المجاهد علي

ولما توفي المجاهد سنة ست وستين ولي بعده ابنه عباس، واستقام له ملك اليمن الى أن هلك سنة ثمان وسبعين لاثنتي عشرة سنة من ملكه، والله تعالى أعلم.

ولاية المنصور محمد بن الافضل عباس

ولما توفي الافضل عباس بن المجاهد سنة ثمان وسبعين، ولي بعده ابنه المنصور محمد واستولى على أمره. واجتمع جماعة من مماليكه سنة اثنتين وثمانين للثورة به وقتله، واطلع على شأنهم

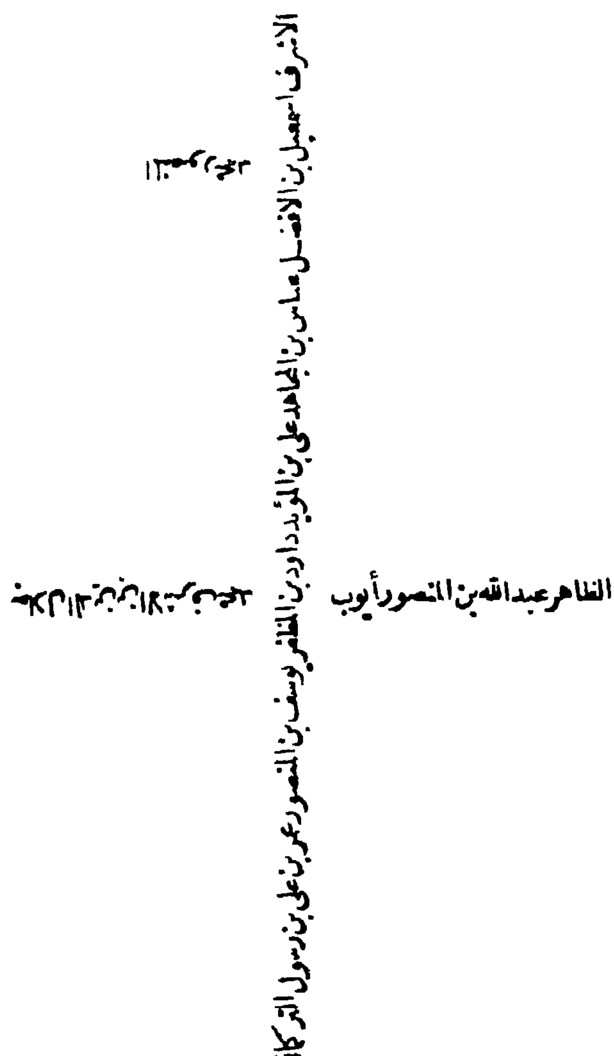
فهربوا الى الدملوة، وأخذهم العرب في طريقهم وجاؤا بهم وعفا عنهم واستمرّ في ملكه الى أن هلك، والله تعالى أعلم.

ولاية اخيه الأشرف بن الأفضل عباس

ولما توفي المنصور محمد بن الافضل سنة [1] ولي أخوه الاشرف اسمعيل واستقام أمره وهو صاحب اليمن لهذا العهد لسنة ست وتسعين، والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين.

---

(١) كذا بياض بالأصل ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على هذه السنة.


الأشرف اسمعيل بن الأفضل عباس بن المجاهد علي بن المؤيد داود بن المظفر يوسف بن المنصور عمر بن علي بن رسول التركماني
الظاهر عبدالله بن المنصور أيوب

الخبر عن دولة التتر من شعوب الترك وكيف تغلبوا على الممالك الإسلامية وانتزوا على كرسي الخلافة ببغداد وما كان لهم من الدول المفترقة وكيف أسلموا بعد ذلك ومبدأ أمورهم وتصاريف أحوالهم

قد تقدّم لنا ذكر التتر وأنهم من شعوب الترك، وأن الترك كلهم ولد كومر بن يافث على الصحيح، وهو الذي وقع في التوراة. وتقدّم لنا ذكر أجناس الترك وشعوبهم وعددنا منهم الغزّ الذين منهم السلجوقية والهياطلة الذين منهم القلج، وبلاد الصغد قريباً من سمرقند ويسمون بها أيضاً. وعددنا منهم الخطا والطغرغر وهم التتر، وكانت مساكن هاتين الامتين بارض طمغاج، ويقال انها بلاد تركستان وكاشغر وما اليها من وراء النهر وهي بلاد ملوكهم في الاسلام، وعددنا منهم الخزلجية والغور والخزر والخفشاخ وهم القفجاق ويمك والعلان. ويقال الآن وجركس واركش. وعدّ صاحب روجار في كتابه على الجغرافيا المَسَسَة والتغزغزية والخرخيرية والكيماكية والخزلجية والخزر والخلخ وبلغار ويمناك وبرطاس وسنجرت وخرجان وأنكر، وذكر مساكن أنكر في بلاد البنادقه من أرض الروم. وجمهور هذه الامم من الترك فيما وراء النهر شرقاً الى البحر المحيط بين الجنوب والشمال من الاقاليم الاوّل الى السابع، والصين في وسط بلادهم.

وكان الصين أوّلاً لبني صيني اخوانهم من بني يافث. ثم صار لهم واستولوا على معظمه إلّا قليلًا من أطرافه على ساحل البحر، وهم رحالة كما مرّ في ذكرهم أوّل الكتاب، وفي دولة السلجوقية وأكثرهم في المفازة التي بين الصين وبلاد تركستان. وكان لهم قبل الاسلام دولة، ولهم مع الفرس حروب مذكورة وملكهم لذلك العهد في بني فراسيان. وكان بينهم وبين العرب لاول الفتح حروب طويلة قاتلوهم على الاسلام، فلم يجيبوا فأثخنوا فيهم، وغلبوهم على أطراف بلادهم وأسلم ملوكهم على بلادهم، وذلك من بعد القرن الاوّل. وكانت لهم في الاسلام دولة ببلاد تركستان وكاشغر، ولا أدري من أي شعوبهم كان هؤلاء الملوك.

وقد قيل فيهم أنهم من ولد فراسيان ولا يعرف شعب فراسيان فيهم، وكان هؤلاء الملوك يلقبون بالخاقان بالخاء والقاف سمة لكل من يملك منهم، مثل كسرى للفرس وقيصر للروم. وأسلم ملوكهم بعد صدر من الملة على بلادهم وملكهم فأقاموا بها، وكان بينهم وبين بني سامان الملوك القائمين فيما وراء النهر بدولة بني العباس حرب وسلم اتصلت حالهم عليها الى أن تلاشت دولتهم ودولة بني سامان جميعاً. وقام محمود بن سبكتكين من موالي بني سامان بدولتهم وملكهم فيما وراء النهر وخراسان.

وقد ظهر لذلك العهد بنو سُلجوق وغلبوا ملوك الترك على أمرهم وأصبحوا في عداد ولاتهم شأن الدول البادية الجديدة مع

الدول القديمة الحاضرة، ثم قارعوا بني سبكتكين وغلبوهم على ملكهم فيما بعد المائة الرابعة واستولوا على ممالك الاسلام باسرها، وملكوا ما بين الهند ونهاية المعمور في الشمال وما بين الصين وخليج القُسْطَنْطِينِيَّة في الغرب، وعلى اليمن والحجاز والشام، وفتحوا كثيراً من بلاد الروم واستفحلت دولتهم بما لم تنته اليه دولة بعد العرب والخلفاء في الملة. ثم تلاشت دولتهم وانقرضت بعد مائتين من السنين شأن الدول وسنة الله في العباد.

وكانوا بعد خروج السلجوقية الى خراسان قد خلفتهم في بلاد بضواحي تركستان وكاشغر من أمم الترك أمّة الخطا، ومن ورائهم أمّة التتر ما الى تركستان وحدود الصين. ولم يقدر ملوك الخانية بتركستان على دفاعهم لعجزهم عن ذلك فكان أرسلان خان بن محمد بن سليمان ينزلهم مسالح على الدروب ما بينه وبين الصين، ويقطعهم على ذلك ويوقع بهم على الفساد والعيث. ثم زحف من الصين ملك الترك الاعظم كوخان سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، ولحقت به أمم الخطا ولقيهم الخان محمود بن محمد بن سليمان بن داود ابن بقراخان صاحب تركستان وما وراء النهر من الخانية، وهو ابن أخت السلطان سنجر ابن ملك شاه صاحب خراسان من ملوك السلجوقية فهزموه. وبعث بالصريخ الى خاله سنجر، فاستنفر ملوك خراسان وعساكر المسلمين وعبر جيحون للقائهم. وسارت اليه أمم الترك والخطا وتواقعوا في صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة، وانهزم

سنجر وأسرت زوجته ثم أطلقها كوخان ملك الترك ، واستولى على ما وراء النهر.

ثم مـات كوخان سنة سبع وثلاثين وملكت بعده بنته ، ثم ماتت فملكت بعدها أمّها زوجة كوخان وابنه محمد. ثم انقرض ملكهم واستولى الخطَا على ما وراء النهر . ثم غلب على خوارزم علاء الدين محمد بن تكش كما قدّمناه ، ويلقب هو وأبوه بخوارزم شاه. وكان ملوك الخانية ببلادهم فيما وراء النهر فاستصرخوا به على الخطا لما كثر من عيثهم وفسادهم ، فأجاب صريخهم وعبر النهر سنة ست وستمائـة ، وملكهم يومئذ كبير السنّ بصير في الحرب فلقيهم فهزمـوه ، وأسر خوارزم شاه ملكهم طانيكوه وحبسه بخوارزم ، وملك سائر بلاد الخطا الى أوركندا ، وأنزل بها نوابه وزوّج أخته من الخان صاحب سمرقند ، وأنزل معه شحنة كما كانت للخطا وعاد الى بلاده .

وثار ملك الخانية بالشحنة بعد رجوعه بسنة وقتلهم ، وهمّ بقتل زوجته أخت خوارزم شاه وحاصره بسمرقند واقتحمها عليه عنوة وقتله في جماعة من أقاربه ، ومحا أثر الخانية وملكهم ممـا وراء النهر ، وأنزل في سائر البلد نوابه . وكانت أمة التتر من وراء الخطَا هؤلاء قـد نزلوا في حدود الصين مـا بينها وبين تركستان ، وكان ملكهم كشلي خان ، ووقع بينهم وبين الخطا من العداوة والحروب ما يقع بين الامم المتجاورة . فلما بلغهم ما

فعله خوارزم شاه بالخطا أرادوا الانتقام منهم ، وزحف كشلي خان في أمم التتر الى الخطا لينتهز الفرصة فيهم ، فبعث الخطا الى خوارزم شاه يتلطفون له ويسألونه النصر من عدوّهم قبل أن يستحكم أمره وتضيق عنه قدرتهم وقدرته . وبعث اليه كشلي ملك التتر بمثل ذلك فتجهز يوهم كل واحد من الفريقين أنه له وأقام منتبذاً عنهما ، وقد تواقعوا وانهزم الخطا فمال مع التتر عليهم واستلحموهم في كل وجه. ولم ينج منهم الا قليل تحصنوا بين جبال في نواحي تركستان ، وقليل آخرون لحقوا بخوارزم شاه فكانوا معه .

وبعث خوارزم شاه الى كشلي خان ملك التتر يعتدّ عليه بهزيمة الخطا ، وأنها انما كانت بمظاهرته فأظهر له الاعتراف وشكره . ثم نازعه في بلادهم وأملاكهم ، وبعث خوارزم شاه بحربهم . ثم علم أنه لا طاقة له بهم فمكث يراوغهم عن اللقاء ، وكشلي خان يعذله في ذلك وهو يغالطه ، واستولى كشلي خان خلال ذلك على كاشغر وبلاد تركستان وساغون. ثم عمد خوارزم شاه الى الشاش وفرغانة واسبيجاب وقاشان وما حولها من المدن التي لم يكن في بلاد الله أنزه منها ولا أحسن عمارة فجلا أهلها الى بلاد المسلمين، وخرب جميعها خوفاً أن يملكها التتر بعد ذلك. وخرج على كشلي خان طائفة أخرى يعرفون بالمغل ، وملكهم جنكزخان فشغل كشلي خان بحربهم عن خوارزم شاه، وعبر

النهر الى خراسان، ونزل خوارزم الى أن كان من أمره ما نذكره، والله سبحانه وتعالى أعلم .

استيلاء التتر على ممالك خوارزم شاه فيما وراء النهر وخراسان ومهلك خوارزم شاه وتولية محمد بن تكش

ولما رحل السلطان الى خراسان استولى على الممالك ما بينه وبين بغداد من خراسان ومازندان وباميان وغزنة الى بلاد الهند، وغلب الغورية على ما بأيديهم. ثم ملك الري واصفهان وسائر بلاد الجبل وسار الى العراق، وبعث الى الخليفة في الخطبة كما كانت لملوك بني سلجوق فامتنع الخليفة من ذلك كما مرّ ذلك كله في أخبار دولتهم. ثم عاد من العراق سنة ست عشرة وستمائة واستقرّ بنيسابور فوفدت عليه رسل جنكزخان بهدية من نقرة المعدنين ونوافج المسك وحجر اليشم والثياب الخطائية المنسوجة من وبر الابل البيض، ويخبر أنه ملك الصين وما بينها من بلاد الترك، ويطلب الموادعة والاذن للتجار بالتردد لمتاجرهم من الجانبين وكان في خطابه اطراء السلطان خوارزم شاه بأنه مثل أعز أولاده فاستنكف السلطان من ذلك وامتعض له وأجمع عداوته، واستدعى محموداً الخوارزمي من رسل جنكزخان واصطنعه ليكون عيناً له على صاحبه، واستخبره عما قاله في كتابه من أنه ملك الصين .

واستولى على مدينة طوغاج فصدّق له ذلك وسأله عن مقدار العساكر فقللها وغشه في ذلك. ثم نكر عليه الخطاب بالولد. ثم صرف الرسل بما طلبوه من الموادعة والاذن للتجار، ووصل على أثر ذلك بعض التجار من بلادهم الى أطرار وبها أنيال خان ابن خال السلطان خوارزم شاه فعثره على أموالهم، ورفع الى السلطان أنهم عيون على البلاد وليسوا بتجار فأمره بالاحتياط عليهم ففعل، وأخذ أموالهم وقتلهم خفية. وفشا الخبر الى جنكز خان فبعث بالنكير على السلطان في ذلك وقال له: إن كان فعله انيال خان فابعثه اليّ وتهدّده على ذلك في كتابه فانزعج السلطان لها وقتل الرسل.

وبلغ الخبر الى جنكزخان فسار في العساكر الى بلاده، وجبى السلطان من سمرقند خراج سنتين حصن به أسوار سمرقند، وجبى ثالثة استخدم بها الفرسان لحمايتها. ثم سار للقاء جنكزخان فكانت بينهما واقعة عظيمة هلك فيها كثير من الفريقين فكبسهم وهو غائب عنهم، ورجع خوارزم شاه الى جيحون وأقام عليه وفرّق عساكره في أعمال ما وراء النهر: بخارى وسمرقند وترمذ. وأنزل آبنايخ من أكبر أمرائه وأصحاب دولته في بخارى وجعلهم لنظره. ثم جاء جنكزخان اليه فعبر النهر مجفلاً وقصد جنكزخان اطرار فحاصرها وملكها غلاباً واسر أميرها انيال خان الذي قتل التجار فأذاب الفضة في أذنيه وعينيه. ثم حاصر بخارى وملكها

على الامان وقاتلوا معه القلعة حتى خربها . ثم غـدر بهم فقتلهم وسباهم وفعل مثل ذلك في سمرقند سنة تسع عشرة .

ثم كتب كتباً الى امراء خوارزم شاه قرابة امه كأنها اجوبة عن كتبهم اليه باستدعائه والبراءة من خوارزم ، وذمه بعقوق أمه، فبسط آمالهم في كتبه ، ووعد تركان خان أم السلطان . وكانت في خوارزم فوعدها بزيارة خراسان وأن تبعث من يستخلفه على ذلك . وبعث بالكتب من يعترض بها للسلطان . فلما قرأها ارتاب بأمه وبقرابتها .فاستوحشوا ، ووقع التقاطع والنفرة . ولما استولى جنكزخان على ما وراء النهر ، ونجا نائب بخارى في الفـلّ أجفل السلطان وعبر جيحون ، ورجع عنه طوائف الخطا الذين كانوا معه وتخاذل الناس ، وسرّح جنكزخان العساكر في أثره نحواً من عشرين ألفاً كانوا يسمونهم التتر المغربة لتوغلهم في البلاد غربي خراسان الى بلاد القفجاق ، ووصل السلطان الى نيسابور فلم يلبث بها ، وارتحل الى مازندران والتتر في أثره .

ثم انتهى الى همذان فكبسوه هنـالك وفرقوا جموعه ، ونجا الى جبال طبرستان فأقام بقرية بساحل البحر في فل من قومه . ثم كبسه التتر أخرى فركب البحر الى جزيرة في بحيرة طبرستان وخاضوا في أثره فغلبهم الماء ورجعوا ، وأقام خوارزم شاه بالجزيرة ومرض بها ؛ ومات سنة سبع عشرة وستمائة ، وعهد لابنه جلال الدين سكري . ولما بلغ خبر اجفاله الى أمه تركان خاتون بخوارزم

خرجت سارية واعتصمت بقلعة ايلاز من مازندران ، ورجع التتر عن اتباع خوارزم شاه فافتتحوا قلاع مازندران وملكوها وملكوا قلعة ايلاز صلحاً ، وأسروا أم السلطان وبناته وتزوّجهن التتر ، وتزوج دوشي خان بن جنكزخان واحدة ، وبقيت تركيان خاتون أسيرة عندهم في ذل وخمول . والله سبحانه وتعالى أعلم .

مسير التتر المغربة بعد خوارزم شاه الى العراق واذربيجان واستيلاؤهم عليها الى بلاد قفجاق والروس وبلاد الخزر

ولما رجع التتر المغربة من اتباع خوارزم شاه سنة سبع عشرة عادوا الى همذان وانستقوا ما مروا عليه ، وصانعهم أهل همذان بما طلبوه . ثم ساروا الى سنجار كذلك ، ثم الى قومس فامتنعوا منهم وحاصروها وملكوها غلاباً وقتلوا أكثر من أربعين ألفاً . ثم ساروا الى اذربيجان وصانعهم صاحب تبريز وانصرفوا الى موقان ومرّوا ببلاد الكرج فاكتسحوها ، وجمعوا لهم فهزموهم وأثخنوا فيهم وذلك آخر سنة سبع عشرة . ثم عادوا الى مراغه فملكوها عنوةً في صفر سنة ثمان عشرة واستباحوها ورحلوا عنها الى اربل ، وبها مظفر الدين كوكبري . واستمدّ صاحب الموصل فأمده بالعساكر . ثم استدعاهم الخليفة الناصر الى دقوقا للمدافعة عن

العراق مع عساكره وولى عليهم مظفر الدين صاحب اربل فخام عن لقائهم وخاموا عن لقائه .

وساروا الى همذان وبها شحنتهم فامتنعوا من مصانعتهم ، وقاتلوهم فملكوها عنوة واستباحوها واستلحموا أهلها ؛ ورجعوا الى اذربيجان فملكوا أردبيل واستباحوها وخربوها وساروا الى تبريز ، وقد فارقها أزبك بن البهلوان الى نقجوان فصانعوهم بالامان ؛ وساروا الى بيلقان وملكوها عنوةً وأفحشوا في القتل والمثلة واكتسحوا جميع الضاحية . ثم ساروا الى كنجة قاعدة أرّان فصانعهم أهلها فساروا الى بلاد الكرج فهزموهم وحاصروهم بقاعدتهم تفليس ، وردهم كثرة الاوعار عن التوغل فيها .

ثم قصدوا دربند شروان وحاصروا مدينة سماجي ودخلوه عنوة وملكوه واستباحوه ، وأعجزهم الدربند عن المسير فراسلوا شروان في الصلح ، فبعث اليهم رجالا من أصحابه فقتلوا بعضهم وقتلوا الباقين أذلاء . وأفضوا من الدربند الى ارض أسحمة ، وبها من القفجاق واللاز والغز وطوائف من الترك مسلمون وكفار أمم لا تحصى . ولم يطيقوا مغالبتهم لكثرتهم فرجعوا الى التضريب بينهم حتى استولوا على بلادهم . ثم اكتسحوها وأوسعوهم قتلًا وسبياً ، وفرّ أكثرهم الى بلاد الروس وراءهم واعتصم الباقون بالجبال والغياض . وانتهى التتر الى مدينتهم الكبرى سرداق على بحر نيطش المتصل بخليج القسطنطينية ، وهي مادتهم وفيها تجارتهم

فملكها التتر وافترق أهلها في الجبال. وركب اهلها البحر الى بلاد الروم في ايالة بني قليج أرسلان.

ثم سار التتر سنة عشرين وستمائة من بلاد قفجاق الى بلاد الروس المجاورة لها، وهي بلاد فسيحة وأهلها يدينون بالنصرانية فساروا الى مدافعتهم في تخوم بلادهم، ومعهم جموع من القفجاق أياماً. ثم انهزموا وأثخن فيهم التتر قتلاً وسبياً ونهباً، وركبوا السفن هاربين الى بلاد الاسلام وتركوا بلادهم فاكتسحها التتر. ثم عادوا عنها وقصدوا بلغار آخر السنة. واجتمع أهلها وساروا للقائهم بعد ان أكمنوا لهم، ثم استطردوا أمامهم وخرج عليهم الكمناء من خلفهم فلم ينج منهم الا القليل. وارتحلوا عائدين الى جنكزخان بأرض الطالقان، ورجع القفجاق الى بلادهم واستقروا فيها. والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

مسير جنكزخان الى خراسان وتغلبه على اعمالها وعلى خوارزم شاه

كان جنكز خان بعد أن أجفل خوارزم شاه من جيحون، ومسير التتر المغربة في طلبه ملك سمرقند فبعث عسكراً الى ترمذ، وعسكراً الى خوارزم وعسكراً الى خراسان. وكان عسكر خوارزم أعظمها لأنها كرسي الملك ومأوى العساكر، وبعث مع العساكر ابنه جغطاي واركطاي فحاصروها خمسة أشهر، وامتنعت

فأمدّهم جنكزخان بالعساكر متلاحقة، وملكوها ناحية ناحية الى أن استوعبوا. ثم نقبوا السدّ الذي يمنع ماء جيحون عنها فسال اليها جيحون فغرقها، وتقسم أهلها بين السند والعراق، هكذا قال ابن الاثير. وقال النسابي كاتب جلال الدين: إن دوشي خان عرض عليهم الامان وخرجوا اليه فقتلهم أجمعين، وذلك في محرّم سنة سبع عشرة وعاد دوشي خان والعساكر الى جنكز خان فوجدوه بالطالقان.

وأما عسكر ترمذ فساروا اليها وملكوها وتقدّموا الى كلابة من قلاع جيحون فملكوها وخربوها، وعسكر فرغانة كذلك. وأما عسكر خوارزم فعبروا الى بلخ وملكوها على الامان سنة سبع عشرة وأنزلوا بها شحنة. ثم ساروا الى الزوزان وايدحور ومازندران فملكوها وولوا عليها. ثم ساروا الى الطالقان وحاصروا قلعة صاركوه وكانت منيعة، وجاءهم جنكز خان بنفسه بعد امتناعها ستة أشهر فحاصروها أربعة أشهر أخرى. ثم أمر بنقل الخشب والتراب ليجتمع به تل يتعالى به البلد. فلما استيقنوا الهلكة فتحوا الباب وصدقوا الحملة فنجا الخيالة وتفرّقوا في البلاد والشعاب، وقتل الرجالة ودخل التتر فاستباحوها. وبعث جنكز خان عسكراً الى سبا مع صهره قفجاق نون فقتل في حصارها ثم ملكوها فاستباحوها وخربوها.

ويقال قتل فيها أكثر من سبعين ألفاً. ثم بعث جنكز خان

في العساكر الى مدينة مرو، وقد كان الناجون من هذه الوقائع انزووا اليها فاجتمعوا بظاهرها أكثر من مائتي ألف لا يشكون في الظفر، فلما زحف اليهم التتر ولوا منهزمين وأثخنوا فيهم. ثم حاصروا البلد خمسة أشهر واستنزلوا أميرها على الامان. ثم قتلوهم جميعاً وحضر جنكز خان قتلهم. يقال قتل فيها سبعمائة ألف. ثم ساروا الى نيسابور فاقتحموها عنوةً وقتلوا وعاثوا، ثم الى طرابلس كذلك. ثم ساروا الى هراة فملكوها على الامان وأنزلوا عندهم الشحنة وعادوا الى جنكزخان بالطالقان، وهو يرسل العساكر والسرايا في نواحي خراسان حتى أتوا عليها تخريباً، وذلك كله سنة سبع عشرة، والله تعالى أعلم.

اجفال جلال الدين ومسير التتر في اتباعه وفراره الى الهند

ثم بعث العساكر في طلب جلال الدين، وقد كان بعد مهلك أبيه وخروج تركمان خاتون من خوارزم سار اليها وملكها، واجتمع اليه الناس. ثم نمي اليه أنّ قرابة تركمان خاتون وهم البياروتية مالوا الى أخيه يولغ شاه وابن أختهم، وانهم يريدون الوثوب بجلال الدين ففرّ ولحق بنيسابور. وجاءت عساكر التتر الى خوارزم فأجفل يولغ شاه وأخواه ليلحقوا به بنيسابور فأدركهم التتر، وهم محاصرون قلعة قندهار فأستلحمهم. ثم سار الى غزنة فملكها من يد الثوار الذين استولوا عليها أيام هذه الفتنة، وذلك سنة ثمان عشرة.

ولحق به أمراء أبيه الذين تغلبوا على نواحي خراسان في هذه الفتنة ، وازعجهم التتر عنها فحضروا مع جلال الدين كبسة التتر بقلعة قندهار. ولحق فلّهم بجنكزخان . وبعث ابنه طولي خان لقتال جلال الدين فهزمه جلال الدين وقتله . ولحق الفلّ من عساكره بجنكزخان فسار في أمم التتر ولقي جلال الدين فانهزم ولم يفلت من التتر إلّا الأقل ورجع جلال الدين فنزل على نهر السند ، وقد كان جماعة من أمرائه انعزلوا عنه يوم الواقعة الاولى بسبب الغنائم فبعث اليهم يستألفهم فعاجله جنكز خان ، وقاتله ثلاثاً ثم هزمه واعترضه نهر السند، فاقتحمه وخلص الى السند بعد أن قتل حرمه أجمعين ، وذلك سنة ثمان عشرة . والله تعالى أعلم .

اخبار غياث الدين بن خوارزم شاه مع التتر

كان خوارزم شاه قد قسم الملك بين ولده : فجعل العراق لغورنشاه ، وكرمان لغياث الدين تمرشاه فلم ينفذ اليها أيام أبيه . فلما فرّ خوارزم شاه الى ناحية الري لقيه ابنه غورنشاه صاحب العراق . ثم كانت واقعة التتريه على حدوى ، ولحق خوارزم شاه بجزيرة طبرستان ، ولحق غورنشاه بكرمان . ثم رجع واستولى على اصفهان وعلى الري . ثم زحف التتر اليه وحاصروه بقلعة أوند وقتلوه ، وكان أخوه غياث الدين بكرمان ، وملكه بينه وبين بقا طرابلسي اتابكه ، وفرّ الى ناحية اذربيجان . واستولى غياث

الدين على العراق ومازندران وخوزستان فأقطع بقاطرابلسي همذان. ثم سار غياث الدين الى أذرَبيجان فصانعه صاحبها أزبك بن البهلوان، ولحق به من كان متغلباً من أمراء أبيه بخراسان. وكان ابنايخ خان نائب بخارى قد تغلب بعد الواقعة على نسا ونواحيها وجرجان، وعلى شيروان وعامّة خراسان. وكان تكين بهلوان متغلباً على مرو فعبر جيحون سنة سبع عشرة وكبس شحنة التتر، واتبعوه الى شيروان ولقوا ابنايخ خان على جرجان فهزموه. ونجا فلُّهم الى غياث الدين على العراق والري وما وراءها في الجنوب من موكان واذربيجان، وبقيت خوارزم طوائف، وفي كل ناحية منها متغلِّب، وعساكر التتر في كلّ وقت تدوّخ بلاد العراق وغياث الدين منهمك في لذاته. والله تعالى أعلم.

رجوع جلال الدين من الهند واستيلاؤه على العراق وكرمان واذربيجان ثم زحف التتر اليه

ثم رجع جلال الدين من الهند سنة احدى وعشرين، واستولى على ملك أخيه غياث الدين بالعراق وكرمان، وبعث الى الخليفة يطلب الخطبة فلم يسعف فاستعد لمحاربته. وقد كانت بلاد الريّ من بعد تخريب التتر المغربة لما عاد اليها بعض أهلها وعمروها فبعث اليها جنكزخان عسكراً من التتر فخربوها ثانية، وخربوا سلوة وقم وقاشان؛ وأجفل امامهم عسكر خوارزم شاه من همذان

فخربوها واتبعوهم فكبسوهم في حدود أذْرَبيجان. ولحق بعضهم بتبريز والتتر في اتباعهم فصانعهم صاحبها أزبك بن البهلوان، وبعث بهم الى التتر الذين في اتباعهم بعد أن قتل جماعة منهم. وبعث برؤسهم وبالاموال على سبيل المصانعة فرجعوا عن بلاده.

وسار جلال الدين الى اذربيجان سنة اثنتين وعشرين فملكها وكانت له فيها أخبار ذكرناها في دولته. ثم بلغ السلطان جلال الدين أن التتر زحفوا من بلادهم وراء النهر الى العراق فنهض من تبريز للقائهم في رمضان سنة خمس وعشرين، ولقيهم على اصفهان، وانفض عنه أخوه غياث الدين في طائفة من العساكر. وانهزمت ميسرة التتر وسار السلطان في اتباعهم وقد اكمنوا له واحاطوا به واستشهد جماعة؛ ثم صدق عليهم الحملة فأفرجوا له ومضى لوجهه، وانهزمت العساكر الى فارس وكرمان واذربيجان ورجع المتبعون للتتر من قاشان فوجدوه قد انهزم فافترقوا اشتاتاً ولحق السلطان باصفهان بعد ثمانية أيام، فوجد التتر يحاصرون اصفهان فبرز اليهم في عساكرها وهزمهم واتبعهم الى الري، وبعث العساكر في اتباعهم الى خراسان، ورجع الى اذربيجان وأقام بها وكانت له فيها أخبار مذكورة في دولته. والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير التتر الى اذربيجان واستيلاؤهم على تبريز ثم واقعتهم مع جلال الدين بآمد ومقتله

كان التتر لما استقروا فيما وراء النهر عمروا تلك البلاد واختطوا قرب خوارزم مدينة عظيمة تعوض عنها، وبقيت خراسان خاوية. واستبد بالمدن فيها طوائف من الامراء اشباه الملوك يعطون الطاعة للسلطان جلال الدين منذ جاء من الهند. وانفرد جلال الدين بملك العراق وفارس وكرمان واذربيجان وأرّان وما الى ذلك. وبقيت خراسان مجالاً لغزاة التتر وعساكرهم؛ وسارت طائفة منهم سنة خمس وعشرين الى اصفهان، وكانت بينهم وبين جلال الدين الواقعة كما مر. ثم زحف جلال الدين الى خلاط وملكها. وزحف اليه صاحبها الاشرف بن العادل من الشام وعلاء الدين كيقباد صاحب بلاد الروم، وأوقعوا به كما مرّ في أخباره سنة سبع وعشرين، الواقعة التي أوهنت منه وحلت عرى ملكه. وكان علاء الدين مقدم الاسماعيلية بقلعة ألموت عدواً لجلال الدين بما أثخن في بلاده، وقرّر عليه وظائف الاموال فبعث الى التتر يخبرهم أن الهزيمة أوهنته ويحثهم على قصده، فسار الى اذربيجان أول سنة ثلاث وعشرين.

وبلغ الخبر الى السلطان بمسيرهم فرحل من تبريز الى موقان وأقام بها في انتظار شحنة خراسان ومازندران، وشغل بالصيد

فكبسه التتر ونهبوا معسكره، وخلص الى نهر راس من أرّان. ثم رجع الى اذربيجان وشتى بما هان. ثم جاءه النذير بمسير التتر اليه فرحل الى أران وتحصن بها، وثار أهل تبريز لما بلغهم خبر الوقعة الاولى بمن عندهم من عساكر الخوارزمية وقتلوهم، ومنعهم رئيسهم الطغرياني من طاعة التتر. ووصل للسلطان جلال الدين ثم هلك قريباً فسلموا بلادهم للتتر، وكذا فعل أهل كنجة وأهل سلماس.

ثم سار السلطان الى كنجة وارتجعها وقتل المعترضين للثورة فيها؛ وسار الى خلاط واستمد الاشرف بن العادل صاحب الشام فعلله بالمواعيد. وسار الى مصر ويئس من انجاده فبعث الى جيرانه من الملوك يستنجدهم مثل صاحب حلب وآمد وماردين. وجرد عسكراً الى بلاد الروم في خرت برت وملطية واذربيجان فاقتحموها لما بين صاحبها كيقباد وبين الاشرف من الموالاة فاستوحش جميع الملوك من ذلك وقعدوا عن نصرته.

وجاءه الخبر وهو بخلاط أن التتر زحفوا اليه فاضطرب في رحله، وبعث أتابكه اوترخان في أربعة آلاف فارس طليعة فرجع وأخبره أن التتر رجعوا من حدود ملاذكرد، وأشار عليه قومه بالمسير الى اصفهان. وزين له صاحب آمد قصد بلاد الروم وأطمعه في الاستيلاء عليها ليتصل بالقفجاق ويستظهر بهم على التتر، ووعده الامداد بنفسه يروم الانتقام من صاحب الروم لما ملك من قلاعه

فخيم الى رأيه وعدل عن اصفهان ونزل بآمد. وبعث اليه التركمان بالنذير وأنهم رأوا نيران التتر فاتهم خبرهم. وصبحه التتر على آمد منتصف شوّال سنة ثمان وعشرين وأحاطوا بخيمته، وحمل عليهم اتابكه اوترخان و كشفهم عن الخيمة.

وركب السلطان وأسلم أهله وسواده، ورد أوترخان العساكر وانتبذ ليتوارى عن عين العدو. وسار اوترخان الى اصفهان واستولى عليها الى أن ملكها التتر من يده سنة تسع وثلاثين. وذهب السلطان منجفلاً وقد امتلأت الدربندات والمضايق بالمفسدين من غير صنوفهم بالقتل والنهب، فأشار عليه أوترخان بالرجوع فرجع الى قرية من قرى ميافارقين، ونزل في بيدرها وفارقه اوترخان الى حلب. وهجم التتر على السلطان بالبيدر وقتلوا من كان معه، وهرب فصعد جبل الاكراد وهم مترصدون الطرق للنهب فسلبوه وهموا بقتله.

وشعر بعضهم أنه السلطان فمضى به الى بيته ليخلصه الى بعض النواحي، ودخل البيت في مغيبه بعض سفلتهم وهو يريد الثأر من الخوارزمية بأخ له قتل بخلاط فقتله، ولم يغن عنه أهل البيت. ثم انتشر التتر بعد هذه الواقعة في سواد آمد وأرزن وميافارقين وسائر ديار بكر فاكتسحوها وخربوها، وملكوا مدينة أسعرد عنوةً فاستباحوها بعد حصار خمسة أيام، ومرّوا بميافارقين فامتنعت، ثم وصلوا الى نصيبين فاكتسحوا نواحيها، ثم الى سنجار وجبالها

والخابور. ثم ساروا الى ايدس فأحرقوهـا، ثم الى أعمال خلاط فاستباحوا هاكرى وأرجيش. وجاءت طائفة أخرى من اذربيجان الى أعمال اربل ومرّوا في طريقهم بالتركمان الأيوبيّة والاكراد الجوزقان فنهبوا وقتلوا، وخرج اليهم والي اربل مستمداً إهلها وعساكر الموصل فلم يدركوهم فعادوا وبقيت البلاد قاعاً صفصفاً. والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين.

التعريف بجنكزخان وقسمة الاعمال بين ولده وانفراده بالكرسي في قراقوم(١) وبلاد الصين

هذا السلطان جنكز خان هو سلطان التتر لعهده ثمّ من المغل احد شعوبهم، وفي كتاب لشهاب الدين بن فضل الله: أنه من قبيله أشهر قبائل المغل وأكبرهم، وزايه التي بين الكاف والخاء ليست صريحة وانما هي مشتملة بالصاد فينطق بها بين الصاد والزاي. وكان اسمه تمرجين ثم أصاروه جنكز، وخان تمام الاسم وهو بمعنى الملك عندهم. وأمّا نسبته فهي هكذا: جنكز بن بيسوكي بن بهادر ابن تومان برتيل خان بن تومينه بن باد سنقر بن تيدوان ديوم بن بقا ابن مودنجه؛ احد عشر اسماً أعجمياً صعبة الضبط وهذا منحاها.

(١) قراقوم بفتح القاف والراء المهملة وألف وقاف مضمومة وواو ساكنة وميم، معناه الرمل الأسود بالتركية. قال ابن سعيد: وقراقوم كانت قاعدة التتر، وفي جهاتها بلاد المغل، وهم خالصة التتر ومنها خاناتهم. من تقويم البلدان لأبي الفداء.

وفي كتاب ابن فضل الله فيما نقله عن شمس الدين الأصفهاني امام المعقولات بالمشرق أخذها عن اصحاب نظير الدين الطوسي قال : انّ مودنجه اسم امرأة وهي جدتهم من غير أب .

قالوا : وكانت متزوجة وولدت ولدين اسم أحدهما بكتوت والآخر بلكتوت ، ويقال لولدها بنو الدلوكية . ثم مات زوجها وتأيمت وحملت وهي أيم فنكر عليها قرباؤها فذكرت أنها رأت بعض الايام نوراً دخل في فرجها ثلاث مرّات ، وطرأ عليها الحمل بعده . وقالت لهم إن في حملها ثلاثة ذكور ، فان صدق ذلك عند الوضع والا فافعلوا ما بدا لكم . فوضعت ثلاثة توائم من ذلك الحمل فظهرت براءتها بزعمهم ، اسم أحدهم : برقد والآخر قونا والثالث نجعو ، وهو جدّ جنكزخان الذي في عمود نسبه كما مرّ ، وكانوا يسمونهم النورانيين نسبه الى النور الذي ادعته . ولذلك يقولون جنكزخان ابن الشمس .

وأمّا أوليته فقال يحيى بن أحمد بن علي النسابي كاتب جلال الدين خوارزم شاه في تاريخ دولته : انّ مملكة الصين متسعة ودورها مسيرة تسعة أشهر ، وهي منقسمة من قديم الزمان على تسعة أجزاء كل جزء منها مسيرة شهر . ويتولى ملك كل جزء منها ملك يسمى بلغتهم خان ، ويكون نائباً على الخان الأعظم . قال : وكان الاعظم الذي عاصر خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش يقال له طرخان توارثها عن آبائه ، وكان مقيماً بطوغاج ،

وهي وسط الصين. وكان جنكز خان من أولئك الخانات الستة، وكان من سكان البدو ومن أهل النجدة والشرف، وكان مشتاه فارعون من بلاد الصين. وكان من خاناتهم أيضاً ملك آخر اسمه دوشي خان كان متزوجاً بزوجة جنكزخان، واتفقت وفاته فحضر جنكز خان يوم وفاة زوجها دوشي خان فولته مكانه وحملت قومها على طاعته.

وبلغ الخبر الى الخان الاعظم طرخان فنكر ذلك وزحف اليهم فقاتلوه وهزموه وغلبوه على اثر بلاده. ثم صالحهم عليها وأقام متغلباً. ثم مات بقية الخانات الستة وانفرد جنكز خان بأمرهم جميعاً، وأصبح ملكهم، وكان بينه وبين خوارزم شاه من الحروب ما قدمناه. وفي كتاب ابن فضل الله محكياً عن الصاحب علاء الدين عطاء وحدّثه به قال: كان ملك عظيم من التتر في قبيلة عظيمة من قبائلهم يدعى أزبك خان، وكان مطاعاً في قومه فاتصل به جنكز خان فقرّبه واستخلصه ونافسه قرابة السلطان، وسعوا به عنده حتى استفسدوه عليه وطوى له وتربص به. وسخط أزبك خان على مملوكين عنده فاستجار بجنكز خان فأجارهما وضمن لهما أمانه، وأطلعاه على رأي السلطان فيه فاستوحش وحذر وثبة السلطان فأجفل أمامه واتبعه السلطان في عساكره. فلما أدركه كرّ عليه جنكز خان فهزمه وغنم سواده وما معه.

ثم استمرّت العداوة وانتبذ عن السلطان واستألف العساكر

والأتباع، وأفاض فيهم الاحسان فأشتدت شوكته، ودخل في طاعته قبيلتان عظيمتان من المغل وهما أورات ومنفورات فعظمت جموعه، واحسن الى المماوكين اللذين حذراه من أزبك خان، ورفع رتبتهما وكتب لهما العهود بما اختاراه، وكتب فيها ان يستمر ذلك لهما الى تسعة بطون من أعقابهما. ثم جهز العساكر لحرب أزبك خان فهزمه وقتله، واستولى على مملكة التتر باسرها. ولما توطأ أمره تسمى جنكز خان، وكان اسمه تمرجين كما مرّ. وكتب لهم كتاباً في السياسة سماه السياسة الكبيرة ذكر فيه أحكام السياسة في الملك والحروب والاحكام العامّة شبه أحكام الشرائع.

وأمر أن يوضع في خزانته وان تختص بقرابته، ولم يكن يؤتى بمثله وإنما كان دينه ودين آبائه وقومه المجوسية حتى ملكوا الارض، واستفحلت دولتهم بالعراق والشمال وما وراء النهر، وأسلم من ملوكهم من هداه الله للاسلام كما نذكره ان شاء الله تعالى، فدخلوا في عدد ملوك الاسلام الى ان انقرضت دولتهم وانقضت أيامهم. والبقاء لله وحده.

وأما ولده فكثير وهو الذي يقتضيه حال بداوته وعصبيته، إلّا أن المشهور منهم أربعة أولهم: دوشي خان ويقال جرجي، وثانيهم جغطاي ويقال كداي، وثالثهم أوكداي ويقال اوكتاي، ورابعهم طولي بين التاء والطاء. والثلاثة الاول لأم واحدة وهي اوبولي بنت تيكي من كبار المغل. وعد شمس الدين الاصفهاني الاربعه

فقال : جرجي و كداي وطولي وأو كداي . وقال نظام الدين يحيى ابن الحليم نور الدين عبد الرحمن الصيادي كاتب السلطان أبي سعيد ، فيما نقله عنه شهاب الدين بن فضل الله : ان كـداي هو جغطاي وجرجي هو طوشي . فلما ملك جنكزخان البلاد قسم الممالك فكان لولده طوشي بلاد فيلاق الى بلغار وهي دست القفجاق ، وأضاف اليه أرّان وهَمَذان وتبريز ومراغه وعيرلان وكتاي حدود آمد وقوباق ، وما ادري تفسير هذه ، وجعله ولي عهده .

وعين لجغطاي من الأيقور الى سَمَرْقَند وبخارى وما وراء النهر ، ولم يعين لطولي شيئاً . وعين لاخيه اوتكين نوى بلاد أبخت ، ولا أدري معنى هذا الاسم . ولما استفحل ملكه واستولى على هذه الممالك جلس على التخت ، وانتقل الى وطنه القديم بين الخطا والايقور ، وهي تركستان وكاشغر . وفي ذلك الوطن مدينة قراقوم وبها كان كرسيه ؛ ومكانه بين أعمال ولده مكان المركز من الدائرة . وكان كبير ولده طوشي ويقال دوشي ومات في حياته ، وخلف من الولد ناخوا وبركة وداوردة وطوقل ، هكذا قال ابن الحكيم . وقال شمس الدين : ناظو وبركة فقط . ومات طولي أيضاً في حياته في حربه مع جلال الدين خوارزم شاه بنواحي غزنة وخلف من الولد منكوقبلاي وازبيك وهلاكو . والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم .

(طوشي)

أوكداي

جغطاي طولي - (صاحب التخت) (كداي)

(تمرجين)

دوشي خان بن جنكزخان بن يسوكي بن بهادر بن تومان بن برتل خان بن تومنه بن بادسنقر بن بيدوان دوغ

(الـــــوانير)

بوزنجر بن

بن قيان بن مودودجه

يونس سانجي

موذو باغي

بنو الدوالكية

وهي امرأة ولدت بزعمهم من غير زوج

ملوك التخت بقراقوم من بعد جنكزخان

قال ابن فضل الله : ولما هلك جنكزخان استقل اوكداي بالتخت وبدست القفجاق وما معه ، وكان اصغر ولده . وانتقل الى قراقوم بمكانهم الاصلي فاعطى وقراياق التي كانت بيده لابنه كفود ، ولم يتمكن كداي وهو جفطاي من مملكة ما وراء النهر ونازع ناظو بن دوشي خان في اران وهمذان وتبريز ومراغة ، وبعث اميراً من أمرائها لحمل أموالها والقبض على عماله بها . وقد كان ناظو كتب اليهم بالقبض على ذلك الامير فقبضوا عليه وحملوه الى ناظو فطحنه . وبلغ ذلك الى كفود فسار الى ناظو في ستمائة ألف من العساكر . وهلك قبل ان يصل اليه بعشر مراحل ؛ فبعث القوم الى ناظو ان يكون صاحب التخت فأبى ، وجعله لاخيه منكوفان بن طولي وبعثه اليه واخويه معــه قبلاي وهلاكو ، وبعث معهم أخاه بركة بن طولي في مائة ألف من العساكر ليجلسه على التخت . فلما عاد من بخارى لقي الشيخ شمس الدين الباخوري من اصحاب نجم الدين كبير الصوفية فأسلم على يده وتأكدت صحبته معه ، وحرضه على التمسك بطاعة الخليفة ومكاتبته المعتصم ومبايعته ومهاداته .

وترددت الرسل بينه وبــين المعتصم وتأكدت الموالاة ، واستقل منكوفان بالتخت وولى اولاد جفطاي عمه على ما وراء

النهر امضاء لوصية جنكزخان لابيهم التي مات دونها. ووفد عليه جماعة من اهل قزوين وبلاد الجبل يشكون ما نزل بهم من ضرر الاسماعيلية وفسادهم فجهز اخاه هلاكو لقتالهم واستئصال قلاعهم فمضى لذلك، وحسن لاخيه منكوفان الاستيلاء على اعمال الخليفة فأذن له فيه، وبلغ ذلك بركة فنكره على اخيه ناظو الذي ولى منكوفان لما كان بين بركة والمعتصم من الولاية والوصلة بوصية الشيخ الباخوري، فبعث ناظو الى أخيه هلاكو بالنهي عن ذلك، وان لا يتعدى مكانه. وبلغته رسل ناظو بذلك وهو فيما وراء النهر قبل ان يفصل بالعساكر، فاقام سنين امتثالا لامره حتى مات ناظو، وتولى بركة مكانه فاستأذن اخاه منكوفان ثانية، وسار لقصد الملاحدة واعمال الخليفة فأوقع بالملاحدة وفتح قلاعهم واستلحمهم، واوقع بأهل همذان واستباحهم لميلهم الى بركة وأخيه ناظو.

ثم سار الى بركة بدست القفجاق فزحف اليه بركة في جموع لا تحصى، والتقيا واستمر القتل في أصحاب هلاكو، وهمّ بالهزيمة. ثم حال نهر الكر بين الفريقين وعاد هلاكو في البلاد واستحكمت العداوة بينهما. وسار هلاكو الى بغداد فكانت له الواقعة المشهورة كما مر ويأتي في أخبار دولته انشاء الله تعالى. وفي كتاب ابن فضل الله فيما نقله عن شمس الدين الاصفهاني: أن هلاكو لم يكن مستقلًا بالملك، وانما كان نائباً عن اخيه

منكوفان . ولا ضربت السكة باسمه ولا ابنه أبغا ، وانما ضربها منهم ارغو حين استقل ؛ فجعل اسمه في السكة مع اسم صاحب التخت . قال : وكان شحنة صاحب التخت لا يزال ببغداد الى أن ملك قازان فطرد الشحنة وأفرد اسمه في السكة. وقال : ما ملكت البلاد الا بسيفي وبيت جنكزخان يرون أنّ بني هلاكو انما كانوا ثواراً ، وجنكزخان لم يملك طولي شيئاً ، وان اخاه منكوفان الذي ولاه عليها انما بعثه نائباً ، مع انّ منكوفان انما ولاه ناظو ابن دوشي خان كما مرّ .

قال : ونقل عن ثقاة أنـه لم يبق هلاكو من يحقق نسبه لكثرة ما وقع فيهم من القتل غيرة على الملك ، ومن نجا طلب الاختفاء بشخصه فخفي نسبه ، الا ما قيل في محمل المنسوب الى الى بجرحى . قال شمس الدين الاصفهاني ،ونقله عن امير كبير منهم ان اول من استقل بالتخت جنكزخان ، ثم ابنه اوكداي ، ثم ابنه كفود بن اوكداي ثم منكوفان بن طولي ، ثم اخوه اربيكان، ثم اخوهما قبلاي ، ثم دمرفاي ويقال تمرفاي . ثم تربى كيزي ثم كيزقان ، ثم سندمردقان بن طرمالا بن جنكمر بن قبلاي بن طولي ، انتهى كلام ابن فضل الله .

وعن غيره أنّ منكوفان جهز عساكر التتر أيام ملكه على التخت الى بلاد الروم سنة (١) مع أمير من أمراء المغل اسمه

(١) كذا بياض بالأصل، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على هذه السنة .

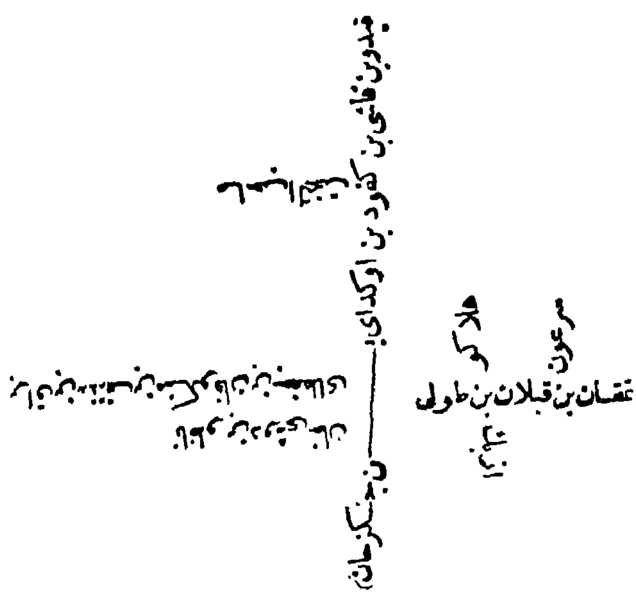
بيكو فملكها من يد بني قليج ارسلان كما هو مذكور في أخبارهم فاقامت في طاعة القان الى أن انقرض أمر المغل منها. ثم بعث منكوفان العساكر لغزو بلاد الخطا مع أخيه قبلاي بعد ان عهد له بالخانيَّة. ثم سار على اثره بنفسه وأستخلف أخاه الآخر ازبك على كرسي قراقوم، وهلك منكوفان في طريقه ذلك على نهر الطاي من بلاد الغور سنة ثمان وخمسين فجلس ازبك على التخت، وعاد قبلاي من بلاد الخطا؛ فزحف اليه ازبك فهزمه الى بعض النواحي، واستأثر بالغنائم عن اخوته وقومه فمالوا الي قبلاي، واستدعوه فجاء وقاتل أخاه ازبك فغلبه وتقبض عليه وحبسه، واستقر في الغانية.

وبلغ الخبر الى هلاكو وهو في الشام عند ما استولى عليه فرجع لما كان يؤمله من الغانية. ولما انتهى الى جيحون بلغه استقلال أخيه قبلاي في الغانية وتبين له عجزه عنه فسالمه وقنع بما في يده ورجع الى العراق. ثم نازع قبلاي في الغانية لآخر دولته سنة سبع وثمانين بعض بني أوكداي صاحب التخت الأول، وهو قيدو بن قاشي بن كفود بن أوكداي .ونزع اليه بعض أمراء قبلاي، وزينوا له ذلك فسار له وبعث قبلاي العساكر للقائه مع ابنه ثمقان فهزمه قيدو ورجع منهزماً الى أبيه فسخطه وطرده الى بلاد الخطا ومات هنالك. وسلط قبلاي على قيدو، وكان غلب على ما وراء النهر براق بن سنتف بن منكوفان بن جغطاي من

بني جفطاي ملوك ما وراء النهر بوصية أبيهم جنكزخان فغلبه براق واستولى على ما وراء النهر.

ثم هلك قبلاي صاحب التخت سنة ثمان وثمانين وملك ابنه سرتموق. هذا ما انتهى الينا من أخبار ملوك التخت بقراقوم من بني جنكزخان، ولم نقف على غيرها.

والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه



ملوك بني جفطاي بن جنكزخان
بتركستان وكاشغر وما وراء النهر

هذا الاقليم هو مملكة الترك الاولى قبل الاسلام، وأسلم ملوكهم على تركستان وكاشغر فأقاموا بها. وملك بنو سامان

نواحي بخارى وسمرقند واستبدّوا، ومنها كان ظهور السُلجوقِيّه والتَتر من بعدهم. ولما استولى جنكزخان على البلاد أوصى بهذه المملكة لابنه جفطاي، ولم يتم ذلك في حياته. ومات جفطاي دونه فلما ولي منكوفان بن طولي على التخت ولى أولاد جفطاي عمه على ما وراء النهر امضاء لوصية جنكزخان لابيهم التي مات دونها، وولى منكوفان. فلما هلك ولّى أخوه هلاكو ابنه مبارك شاه. ثم غلب عليهم قيدو بن قاشي بن كفود بن اوكداي بن جنكزخان وانتزع ما وراء النهر من أيديهم، وكان جدّه كفوك صاحب التخت.

وبعده ولي منكوفان. فلما ولي قيدو نازع صاحب التخت يومئذ وهو قبلاي، وكانت بينهما حروب، وأعان قبلاي في خلالها بني جفطاي على استرجاع ملكهم. وولي منهم براق بن سنتف بن منكوفان بن جفطَاي، وأمدّه بالعساكر والاموال فغلب قيدو بن قاشي بن كفود بن اوكداي بن جنكزخان، وانتزع من صاحب التخت يومئذ واستبد بملك آبائه.

ثم هلك فولي من بعده دوا، ثم من بعد دوا بنون له أربعة واحداً بعد واحد وهم: كجك ثم اسعا ثم كبك ثم انجكداي. ثم ولي بعد الاربعة دواتمر، ثم ترماشين ثم توزون بن اوما كان ابن منكوفان بن جفطاي وتخلل هؤلاء من توثب على الملك ولم ينتظم له، مثل: سيساور بن أركتم بن بغاتمر بن براق، ولم يزل ملكهم

بعد ترماشين مضطرباً الى أن ملك منهم جنقصو بن دواتمر بن حلو ابن براق بن سنتف، كانوا كلهم على دين المجوسية، وخصوصاً دين جنكزخان وعبادته الشمس. وكان فيما يقال على دين النجشية فكان بنو جغطاي يعضون عليها بالنواجذ ويتبعون سياسته مثل أصحاب التخت. فلما صار الملك الى ترماشين منهم أسلم رحمه الله سنة خمس وعشرين وسبعمائة وجاهد وأكرم التجار المتردّدين. وكانت تجار مصر ممنوعين من بلاده، فلما بلغهم ذلك قصدوها فحمدوها. ولما انقرضت دول بني جنكزخان وتلاشت في جميع النواحي ظهر في أعقاب دولة بني جغطاي هؤلاء بسمرقند وما وراء النهر ملك اسمه تمر، ولا أدري كيف كان يتصل نسبه فيهم، ويقال انه من غير نسبهم، وانما هو متغلب على صبي من اعقاب ملوكهم اسمه طغتمش أو محمود درج اسمه بعد مهلك أبيه، واستبدّ عليه وانه من أمرائهم.

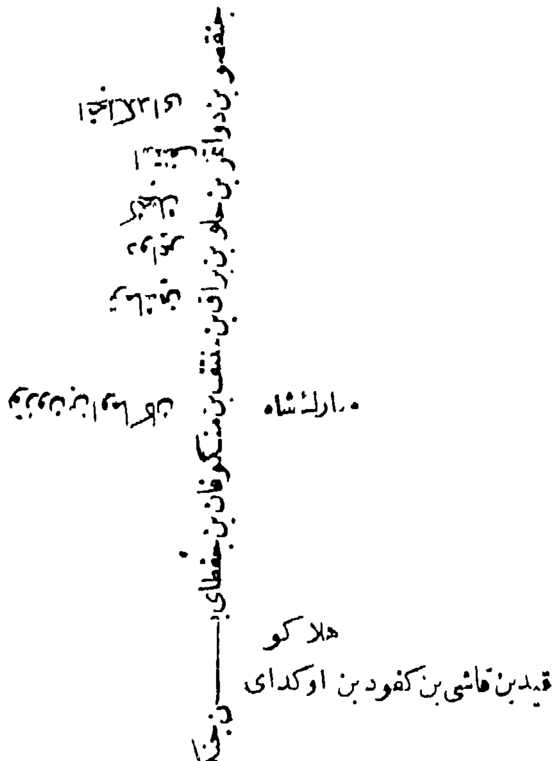
وأخبرني من لقيته من أهل الصين أن أباه أيضاً كان في مثل مكانه من الامارة والاستبداد، وما أدري أهو طينة في نسب جغطاي أو من أحلافهم واتباعهم. وأخبرني الفقيه برهان الدين الخوارزمي، وهو من علماء خوارزم وأعيانها قال: كان لعصره وأول ظهوره ببخارى رجل يعرف بحسن من امراء المغل، وآخر بخوارزم من ملوك صراي أهل التخت يعرف بالحاج حسن الصوفي تهيأ وزحف الى بخارى فملكها من يد حسن، ثم الى خوارزم

وطالت حروبه مع الحاج حسن الصوفي وحاصرها مراراً. وهلك حسن خلال ذلك وولي أخوه يوسف؛ فملكها تمر من يده وخربها في حصار طويل. ثم كلف بعمارتها وبناء ما خرب منها، وانتظم له الملك بما وراء النهر ونزل قجارى. ثم زحف الى خراسان فملك هراة من يد صاحبها وأظنه من بقايا ملوك الغورية.

ثم زحف الى مازندان وطال تمرسه وحروبه مع صاحبها الشيخ ولي الى أن ملكها عليه سنة أربع وثمانين. ولحق الشيخ ولي بتوريز الي ان ملكها تمر سنة ثمان وثمانين فهلك في حروبه معها. ثم زحف الي اصفهان فآتوه طاعة ممرّضة وخالفه في قومه كبير من أهل نسبه يعرف بعمر الدين، وامدّه طغطمش صاحب التخت بصراي فكرّ راجعاً وشغل بحربه الى ان غلبه ومحا أثره. وغلب طغطمش على ما بيده من البلاد.

ثم زحف الى بغداد سنة خمس وتسعين فأجفل عنها ملكها أحمد بن أويس بن الشيخ حسن المتغلب عليه بعد بني هلاكو، فلحق أحمد ببر الشام سنة ست وتسعين، واستولى تمر على بغداد والجزيرة وديار بكر الى الفرات. واستعد ملك مصر للقائه ونزل الفرات فأحجم عنه وتأخر عنه الى قلاع الاكراد واطراف بلاد الروم، وأناخ على قراباغ ما بين اذربيجان والابواب ورجع خلال ذلك طغطمش صاحب التخت الى صراي وملكه؛ فسار اليه تمر أول سنة سبع وتسعين وغلبه على ملكه وأخرجه عن سائر ممالكه

ثم وصل الخبر آخر السنــة بظفره بطغطمش وقتله اياه واستيلائه على جميع أعماله ، والحال على ذلك لهذا العهد والله وارث الارض ومن عليها . وفي خبر العجم أن ظهوره سنة « عذب » يعنون سنة اثنين وسبعين وسبعمائة بحساب الجُمَّل في حروف هذه اللفظة . والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه .



الخبر عن ملوك بني دوشي خان من التتر ملوك خوارزم ودست القفجاق ومبادئ امورهم وتصاريف احوالهم

قد تقدّم لنا أن جنكزخان عين هذه البلاد لابنه دوشي خان وملكه عليها، وهي مملكة متسعة في الشمال آخذة من خوارزم الى ناركند وصفد وصراي الى مدينة ماجرى وأزّان وسرادق وبلغار وباشقرد وجدلمان، وفي حدود هذه المملكة مدينة باكو من مدن شروان وعندها باب الحديد ويسمونه دمرقفو وتمر حدود هذه المملكة في الجنوب الى حدود القسطنطينية، وهي قليلة المدن كثيرة العمارة، والله تعالى أعلم.

دوشي خان بن جنكزخان

وأوّل من وليها من التتر دوشي خان، فلم يزل ملكاً عليهـا الى أن هلك كما مرّ.

ناظو خان بن دوشي خان

ولما هلك دوشي خان ولي مكانه ابنه ناظو خان، ويقال صامر خان ومعناه الملك المنير فلم يزل ملكاً عليهـا الى أن هلك سنة خمسين وستمائة.

طرطو بن دوشي خان

ولما هلك ناظو ولي أخوه طرطو فأقام ملكاً سنتين، وهلك سنة اثنتين وخمسين. ولما هلك ولي مكانه أخوه بركة. هكذا نقل ابن فضل الله عن ابن الحكيم. وقال المؤيد صاحب حماة في تاريخه: انه لما هلك طرطو هلك من غير عقب، وكان لأخيه ناظو خان ولدان وهما تدان وبركة، وكان مرشحاً للملك فعدل عنه أهل الدولة وملكوا أخاه بركة. وسارت أمّ تدان الى هلاكو عندما ملك العراق تستحثه لملك قومها فردّوها من الطريق وقتلوها واستمر بركة في سلطانه انتهى. فنسب المؤيد بركة الى ناظو خان بن دوشي خان وابن الحكيم على ما نقل ابن فضل الله، جعله ابن دوشي خان نفسه.

وذكر المؤيد قصة اسلامه على يد شمس الدين الباخوري من أصحاب نجم الدين، وان الباخوري كان مقيماً ببخارى وبعث الى بركة يدعوه الى الاسلام فأسلم، وبعث اليه كتابه باطلاق يده في سائر أعماله بما شاء فردّه عليه، وأعمل بركة الرحلة الى لقائه فلم يأذن له في الدخول حتى تطارح عليه أصحابه، وسهلوا الأذن لبركة فدخل وجدد الاسلام. وعاهده الشيخ على اظهاره الاسلام وأن يحمل عليه سائر قومه فحملهم، واتخذ في جميع بلاده المساجد والمدارس، وقرّب العلماء والفقهاء ووصلهم. وسياق القصة على ما

ذكره المؤيد يدل على ان اسلامه كان أيام ملكه. وعلى ما ذكر ابن الحكيم أنّ اسلامه كان أيام أخيه ناظو، ولم يذكر ابن الحكيم طرطو وانما ذكر بعد ناظو أخاه بركة. ولم نقف على تاريخ لدولتهم حتى يرجع اليه، وهذا ما أدّى اليه الاجتهاد.

وما بعدها مأخوذ من تاريخ المؤيد صاحب حماة من بني المظفر ابن شاهنشاه بن أيوب قال: ثم بعث بركة أيام سلطانه أخاه ناظو الى ناحية الغرب للجهاد، وقاتل ملك اللمان من الافرنج فانهزم ورجع ومات أسفاً. ثم حدثت الفتنة بين بركة وبين قبلاي صاحب التخت، وانتزع بركة الخاقانية من أعمال قبلاي وولّى عليها سرخاد ابن أخيه ناظو، وكان على دين النصرانية. وداخله هلاكو في الانتقاض على عمه بركة الى أخيه قبلاي صاحب التخت ويقطعه الخاقانية وما يشاء معها. وشعر بركة بشأنه وأن سرخاد يحاول قتله بالسم فقتله. وولى الخاقانية أخاه مكانه، وأقام هلاكو طالباً بثأر سرخاد، ووقعت الحرب بينه وبين بركة على نهر آمد سنة ستين. ثم هلك هلاكو سنة ثلاث وستين. وولى ابنه ابغا فسار الى حربه وسرّح بركة للقائه سنتاي بن بانيضان بن جفطاي، ونوغية ابن تتر بن مغل بن دوشي خان. فلما التقى الجمعان أحجم سنتاي ورجع منهزماً، وانهزم ابغا أمام نوغية وأثخن في عساكره. وعظمت منزلة نوغية عند بركةو سخط بركة سنتاي وساءت منزلته عنده الى أن هلك بركة سنة خمس وستين. والله سبحانه وتعالى أعلم.

منكوتمر بن طغان بن ناظو خان

ولما هلك بركة ملك الدست بالشمال ملك مكانه منكوتمر بن طغان بن ناظو خان بن دوشي خان، وطالت أيامه، وزحف سنة سبعين الى القسطنطينية لجدة وجدها على الاشكر ملكها فتلقاه بالخضوع والرغبة، ورجع عنه. ثم زحف سنة ثمانين الى الشام في مظاهرة أبغا بن هلاكو، ونزل بين قيسارية وابلستين من بلاد الروم. ثم أجاز الدربند ومرّ بابغا وهو منازل الرَّحَبَة وتقدم مع أخيه منكوتمر بن هلاكو الى حماة فنازلوها، وزحف اليهم المنصور قلاون ملك مصر والشام من دمشق، ولقيهم بظاهر حمص. وكانت الدائرة على ملوك التتر. وهلك خلق من عساكرهم وأسر آخرون وأجفل ابغا من منازلة الرحبة ورجعوا الى بلادهم منهزمين.

وهلك على أثر ذلك منكوتمر ملك الشمال، ومنكوتمر بن هلاكو سنة احدى وثمانين. ولما هلك منكوتمر ملك مكانه ابنه تدان وجلس على كرسي ملكهم بصراي فأقام خمس سنين. ثم ترهب وخرج عن الملك سنة ست وثمانين، وانقطع الى صحبة المشايخ الفقراء. ولما ترهب تدان بن منكوتمر وخرج عن الملك ملك مكانه اخوه قلابغا، وأجمع على غزو بلاد الكرك. واستنفر نوغية ابن تتر بن مغل بن دوشي خان، وكان حاكما على طائفة من بلاد الشمال، وله استبداد على ملوك بني دوشي خان؟ فنفر معه في

عساكره وكانت عظيمة. ودخلوا جميعاً بلاد الكرك وأغاروا عليها وعاثوا في نواحيها وفصلوا منها. وقد تمكن فصل الشتاء، وملك السلطان مسافة اعتسف فيها البيداء، وهلك أكثر عساكره من البرد والجوع وأكلوا دوابهم.

وسار نوغيتة من أقرب المسالك فنجا الى بلاده سالماً من تلك الشدة فاتهمه السلطان قلابغا بالادهان في أمره، وكان ينقم عليه استبداده حتى انه قتل امرأة كنجك، وكانت متحكمة في أيام أبيه وأخيه، وشكت الى نوغيتة فأمر بقتلها خنقاً، وقتل أميراً كان في خدمتها اسمه بيطرا فتنكر له قلابغا وأجمع الفتك به، وأرسل يستدعيه لما طوى له عليه. ونمي الخبر بذلك الى نوغيتة فبالغ في اظهار النصيحة والاشفاق على السلطان، وخاطب أمه بأن عنده نصائح يودّ لو ألقاها الى السلطان في خلوة فثنت ابنها عن رأيه فيه، وأشارت عليه باستدعائه والاطلاع على ما عنده. وجاء نوغيتة وقد بعث عن جماعة من اخوة السلطان قلابغا كانوا يميلون اليه، ومنهم طغطاي وبولك وصراي وتدان بنو منكوتمر بن طغان فجاؤا معه وقد توقفوا لما هجم السلطان قلابغا، وركب للقاء نوغيتة في لمة من عسكره، وجاء نوغيتة وقد أكمن له طائفة من العسكر فلما التقيا تحادثا ملياً، وخرج الكمناء واحاطوا بالسلطان وقتلوه سنة تسعين وستمائة واقبل طغطاي ابن منكوتمر.

ولما قتل قلابغا ولوا مكانه طغطاي لوقته، ورجع نوغيتة الى

بلاده . وبعث الى طغطاي في قتل الامراء الذين داخلوا قلابغا في قتله فقتلهم طغطاي أجمعين . ثم تنكر طغطاي لنوغيشه لما كان عليه من الاستبداد ، وأنف طغطاي منه ، وأظلم الجوّ بينهما . واجتمع أعيان الدولة الى نوغيشة فكان يوغر صدرهم على طغطاي ، وأصهر الى طاز بن منجك منهم بابنته؛ فسار اليه ولقيه نوغيشة فهزمه واعترضه نهر مل فغرق كثير من عسكره ، ورجع نوغيشة عن اتباعه. واستولى على بلاد الشمال ، وأقطع سبطه قراجا ابن طشتمر سنة ثمان وسبعين مدينة القرم.وسار اليها لقبض أموالها فأضافوه وبيتوه وقتلوه من ليلته.

وبعث نوغيشة العساكر الى القرم فاستباحوها وما يجاورها من القرى والضياع وخرب سائرها . وكان نوغيشة كثير الايثار لاصحابه، فلما استبد بأمره آثر ولده على الامراء الذين معه وأحسوا عليهم . وكان رديفه من ملك المغل أياجى بن قرمش وأخوه قراجا . فلما آثر ولده عليهما نزعا الى طغطاي في قومهما ، وسار ولد نوغيشة في اتباعهما فرجع بعضهم واستمرّ الباقون ، وقتل ولد نوغيشه من رجع معه من أصحاب أياجي وقراجا وولدهم ، فامتعض لذلك أمراء المغل الذين معه ، ولحقوا بطغطاي واستحثوه لحرب نوغيشة فجمع . وسار اليه سنة تسع وتسعين بكوكانلك فانهزمت عساكر نوغيشة وولده . وقتل في المعركة وحمل رأسه الى طغطاى فقتل قاتله وقال : السوقة لا تقتل الملوك .

واستبيح معسكر نوغيشة وبيع سباياهم وأسراهم في

الاقطار، وكان بمصر منهم جماعة استرقوا بها وانتظموا في ديوان جندها. ولما هلك نوغيشة خلفه في أعماله ابنه جكك، وانتقض عليه أخوه فقتله فاستوحش لذلك أصحابه وأجمعوا الفتك به. وتولى ذلك تائبه طغرلجاي وصهره على أخته طاز بن منجك. ونمي الخبر بذلك اليه وهو في بلاد اللاز والروس غازياً فهرب ولحق ببلاده. ثم لحق به عسكره فعاد الى حربهم وغلبهم على البلاد. ثم أمدّهما طغطاي على جكا بن نوغيشة فانهزم ولحق ببلاد أولاق، وحاول الامتناع ببعض القلاع من بلاد أولاق وفيها صهره، فقبض عليه صاحب القلعة، واستخدم بها لطغطاي فأمره بقتله سنة احدى وسبعمائة. ونجا أخوه طراي وابنه قراكسك شريدين. وخلا الجو لطغطاي من المنازعين والمخالفين، واستقرّت في الدولة قدمه، وقسم أعماله بين أخيه صراي بغا وبين ابنيه.

وأنزل منكلي بغا من ابنيه في عمل نهر طنا مما يلي باب الحديد. ثم رجع صراي بن نوغيشة من مقرّه واستذم بصراي بغا أخي طغطاي فأذمه وأقام عنده. فلما أنس به كشف له القناع عما في صدره واستهواه للانتقاض على أخيه طغطاي، وكان أخوهما أزبك أكبر منه، وكان مقيماً عند طغطاي، فركب اليه صراي بغا ليفاوضه في الشأن فاستعظمه، وأطلع عليه أخاهما طغطاي فأمره لوقته باحضار أخيه صراي بغا وصراي بن نوغيشة، وقتلهما واستضاف عمل أخيه صراي بغا لابنه ايل بهادر. ثم بعث في طلب قراكسك بن نوغيشة

فأبعد في ناحية الشمال ، واستخدم ببعض الملوك هنالك . ثم هلك سنة تسع وسبعمائة أخوه بذالك وابنه ايل بهادر ، وهلك طغطاي بعدهما سنة اثنتي عشرة ، والله تعالى أعلم .

ازبك بن طغرلجاي بن منكوتمر

ولما هلك طغطاي بايع نائبه قطلتمر لأزبك ابن أخيه طغرلجاي باشارة الخاتون تنوفالون زوج أبيه طغرلجاي ، وعاهده على الاسلام فأسلم واتخذ مسجداً للصلاة . وأنكر عليه بعض أمرائه فقتله وتزوج الخاتون بشالون ، وكانت المواصلة بين طغطاي وبين ملوك مصر . ومات طغطاي ورسله عند الملك الناصر محمد بن قلاون فرجعوا الى أزبك مكرمين وجدد أزبك الولاية معه وحببه قطلتمر في بعض كرائمهم يرغبه ، وعين له بنت بذالك أخي طغطاي وتكررت الرسالة في ذلك الى أن تم الامر ، وبعثوا بكريمتهم المخطوبة الى مصر فعقد عليها الناصر وبني بها كما مرّ في أخباره . ثم حدثت الفتنة بين أزبك وبين أبي سعيد ملك التتر بالعراق من بني هلاكو ، وبعث ازبك عساكره الى أذربيجان .

وكان بنو دوشي يدعون أن توريز ومراغة لهم ، وأن القان لما بعث هلاكو لغزو بلاد الاسماعيلية وفتح بغداد استكثر من العساكر ، وسار معه عسكر أهل الشمال هؤلاء وقرّرت لهم العلوفة بتوريز . ولما مات هلاكو طلب بركة من ابنه أبغا أن

يأذن له في بناء جامع تبريز ودار لنسج الثيـاب والطرز فأذن له فبناهما وقام بذلك. ثم اصطلحوا وأعيدت فادعى بنو دوشي خان أن توريز ومراغة من اعمالهم، ولم يزالوا مطالبين بهذه الدعوة. فلما وقعت هذه الفتنـة بين أزبك وأبي سعيد افتتـح أمره بغزو موقان فبعث العساكر اليها سنة تسع عشرة فاكتسحوا نواحيها ورجعوا.

وجمع جوبان على دولته وتحكمه في بني جنكزخان، وانه يأنف ان يكون براق بن سنتف بن منكوفان بن جفطاي ملكاً على خوارزم فأغزاه أزبـك فلك خراسان، وأمدّه بالعساكر مع نائبه قطلتمر وسار سيول لذلك. وبعث أبو سعيد نائبـه جوبان لمدافعتها فلم يطق، وغلب سيول على كثير من خراسان وصالحه جوبان عليها. وهلك سيول سنة عشرين. ثم عزل ازبك نائبه قطلتمر سنة احدى وعشرين وولي مكانه عيسى كوكز، ثم ردّه سنة أربع وعشرين الى نيابته.

ولم تزل الحرب متصلة بين أزبك وأبي سعيـد الى أن هلك أبو سعيد سنة ست وثلاثين، ثم هلك القان في هذه السنة. ولما هلك أزبك بن طغرلجاي ولي مكانه ابنه جاني بك، وكان أبو سعيد قد هلك قبله كما قلناه ولم يعقب. وولي مكانه على العراق الشيخ حسن من أسباط أبغا بن هلاكو. وافترق الملك في عمالاتهم طوائف، وردّد جاني بك العساكر الى خراسان الى ان ملكها سنة

ثمان وخمسين. ثم زحف الى اذربيجان وتوريز وكان قد غلب عليها الشيخ الصغير ابن دمرداش بن جوبان واخوه الاشرف من بعده كما يذكر في اخبارهم ان شاء الله تعالى. فزحف جاني بك في العساكر الى اذربيجان بتلك المطالبه التي كان سلفه يدعون بها فقتل الاشرف واستولى على توريز واذربيجان وانكفأ راجعاً الى خوزستان بعد ان ولى على توريز ابنه بردبيك، واعتل جاني بك في طريقه ومات.

بردبيك بن جاني

ولما اعتل جاني في ذهابه من توريز الى خراسان طير أهل الدولة الخبر الى ابنه بردبيك، وقد استخلفه في توريز فولى عليها أميراً من قبله، واغذ السير الى قومه ووصل الى صراي وقد هلك أبوه جاني فولوه مكانه، واستقل بالدولة. وهلك لثلاث سنين من مهلكه.

ماماي المتغلب على مملكة صراي

ولما هلك بردبيك خلف ابنه طغطمش غلاماً صغيراً، وكانت أخته بنت بردبيك تحت كبير من أمراء المغل اسمه ماماي وكان متحكماً في دولته. وكانت مدينة القرم من ولايته وكان يومئذ غائباً بها، وكان جماعة من أمراء المغل متفرقين في ولايات الاعمال

بنواحي صراي ففرقوا الكلمة واستبدوا بأعمالهم، فتغلب حاجي شركس على ناحية منج طرخان، وتغلب أهل خان على عمله وايبك خان كذلك، وكانوا كلهم يسمون أمراء المسيرة. فلما هلك بردبيك وانقرضت الدولة واستبدّ هؤلاء في النواحي خرج ماماي الى القرم ونصب صبياً من ولد أزبك القان اسمه عبدالله، وزحف به الى صراي؛ فهرب منها طغطمش ولحق بمملكة أرض خان في ناحية جبال خوارزم الى مملكة بني جفطاي بن جنكزخان في سمرقند وما وراء النهر، والمتغلب عليها يومئذ السلطان تمر من امراء المغل وقد نصب صبياً منهم اسمه محمود وطغطمش وتزوج أمه واستبدّ عليه، فأقام طغطمش هناك.

ثم تنافس الامراء المتغلبون على أعمال صراي، وزحف حاجي شركس صاحب عمل منج طرخان الى ماماي فغلبه على صراي فملكها من يده. وسار ماماي الى القرم فاستبدّ بها. ولما زحف حاجي شركس من عمله بعث أرض خان عساكره من نواحي خوارزم فحاصروا منج طرخان، وبعث حاجي العساكر اليهم مع بعض أمرائه فأعمل الحيلة حتى هزمهم عن منج طرخان، وفتك بهم وبالامير الذي يقودهم. وشغل حاجي شركس بتلك الفتنة، فزحف اليه ايبك خان وملك صراي من يده واستبد بها أياماً. ثم هلك وولى بعده بصراي ابنه قاريخان. ثم زحف اليه أرض خان من جبال خوارزم فغلبه عن صراي وهرب قاريخان بن ايبك خان

وعادوا الى عملهم الأول، وأستقرّ أرض خان بصراي وماماي بالقرم ما بينه وبين صراي في مملكته، وكان هذا في حدود أعوام سنة ست وسبعين، وطغطمش في خلال ذلك مقيم عند السلطان تمر فيما وراء النهر.

ثم طمحت نفس طغطمش الى ملك آبائه بصراي فجهز معه السلطان تمر العساكر وسار بها، فلما بلغ جبال خوارزم اعترضه هنالك عساكر أرض خان فقاتلوه، وانهزم ورجع الى تمر. ثم هلك أرض خان قريباً من منتصف تلك السنة فخرج السلطان تمر بالعساكر مع طغطمش مدداً له إلى حدود عمله، ورجع واستمر طغطمش فاستولى على أعمال أرض خان بجبال خوارزم. ثم سار الى صراي وبها عمال أرض خان، فملكها من أيديهم واسترجع ما تغلب عليه ماماي من ضواحيها، وملك أعمال حاجي شركس في منج طرخان واستنزع جميع ما كان بأيدي المتغلبين ومحا أثرهم، وسار الى ماماي بالقرم فهرب أمامه ولم يوقف على خبره ثم صح الخبر بهلكه من بعد ذلك واستوسق الملك بصراي وأعمالها لطغطمش بن بردبيك كما كان لقومه.

حروب السلطان تمر مع طغطمش صاحب صراي

قد ذكرنا فيما مرّ ظهور هذا السلطان تمر في دولة بني جقطاي، وكيف أجاز من بخارى وسمرقند الى خراسان أعوام أربعة وثمانين

وسبعمائه فنزل على هراة ، وبها ملك من بقايا الغورية فحاصرها وملكها من يده . ثم زحف الى مازندران وبها الشيخ ولي تغلب عليها بعد بني هلاكو فطالت حروبه معه الى ان غلبه عليها ، ولحق الشيخ ولي بتوريز في فلّ من أهل دولته . ثم طوى تمر الممالك طيا وزحف الى أصفهان فآتاه ابن المظفر بها طاعته ، ثم الى توريز سنة سبع وثمانين فملكها وخربها ، وكان قد زحف قبلها الى دست القفجاق بصراي فملكها من يد طغطمش وأخرجه عنها فأقام بأطراف الأعمال حتى أجاز تمر الى اصبهان فرجع الى كرسيه . وكان للسلطان تمر قريع في قومه يعرف بقمر الدين فراسله طغطمش صاحب صراي وأغراه بالانتقاض على تمر وأمدّه بالاموال والعساكر فعاث في تلك البلاد ، وبلغ خبره الى تمر منصرفه من فتحه فكر راجعا ، وعظمت حروبه مع قمر الدين الى ان غلبه وحسم علته ، وصرف وجهه الى شأنه الاوّل . وقرّر الزحف الى طغطمش وسار طغطمش للقائه ومعه اغلان بلاط من أهل بيته ، فداخله تمر وجماعة الامراء معه ، واستراب بهم طغطمش وقد حان اللقاء وتصافوا للحرب فصدم ناحية من عسكر تمر ، وصدم من لقي فيها وتبدد عياله ، وافترق الامراء الذين داخلوا تمر وساروا الى الثغور فاستولوا عليها .

وجاء طغطمش الى صراي فاسترجعها وهرب اغلان بلاط الى القرم فملكها وزحف اليه طغطمش في العساكر فحاصرها ، وخالفه ارض خان الى صراي فملكها فرجع طغطمش وانتزعها من يده .

ولم تزل عساكره تختلف الى القرم وتعاهدها بالحصار الى ان ملكها وظفر باغلان بلاط فقتله. وكان السلطان تمر بعد فراغه من حروبه مع طغْطمش سار الى اصفهان فملكها أيضاً واستوعب ملوك بني المظفر وعاملهم بالقتل وانتظم له أعمالهم جميعاً في مملكته. ثم زحف الى بغداد فملكها من يد أحمد بن أويس سنة خمس وتسعين كما مرّ ذكره.

ولحق أحمد بالسلطان الظاهر صاحب مصر مستصرخاً به فخرج معه في العساكر وانتهى الى الفرات، وقد سار تمر عن بغْداد الى ماردين فحاصرها وملكها وامتنعت عليه قلعتها فعاج من هنالك الى حصون الاكراد، ثم الى بلاد الارمن ثم الى بلاد الروم. وبعث السلطان الظاهر صاحب مصر العساكر مدداً لابن أويس فسار الى بغْداد وبها شرذمة من عسكر تمر فملكها من أيديهم. ورجع الملك الظاهر الى مصر وقد أظلّ الشتاء، ورجع تمر الى نواحي أعماله فأقام في عمل قراباق ما بين اذربيجان وهمذان والابواب. ثم بلغ الخبر الى تمر فسار من مكانه ذلك الي محاربة طغْطمش، وعميت أنباؤه مدّة. ثم بلغ الخبر آخر سنة سبع وتسعين الى السلطان بأن تمر ظفر بطغْطمش وقتله واستولى على سائر أعماله. والله غالب على أمره انتهى.

ملوك غزنة وباميان من بني دوشي خان

كانت اعمال غزنة وباميان هذه قد صارت لدوشي خان وهي من اعمال ما وراء النهر من جانب الجنوب، وتتاخم سجستان وبلاد الهند، وكانت في مملكة بني خوارزم شاه فلكها التتر لأول خروجهم من ايديهم. وملكها جنكزخان لابنه دوشي خان وصارت لابنه أردنو ثم لابنه انبجي بن أردنو. وهلك على رأس المائة السابعة وخلف من الولد بيان وكبك ومنغطاي، وانقسمت الاعمال بينهم، وكان كبيرهم بيان في غزنة، وقام بالملك بعد انبجي ابنه كبك، وانتقض عليه أخوه بيان واستمدّ بطغطاي صاحب صراي فأمدّه بأخيه بذالك، واستنجد كبك بقندو فأمدّه ولم يغن عنه وانهزم ومات سنة تسع وسبعمائة. واستولى بيان على الاعمال وأقام بغزنة، وزحف اليه قوشناي ابن أخيه كبك واستمدّ بقندو، وغلب عمه على غزنة. ولحق بيان بطغطاى، واستقرّ قوشناى بغزنة، ويقال أنّ الذي غلب عليها انما هو أخوه طغطاي، ولم نقف بعد على شيء من أخبارهم. والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم.

ملوك التخت بصراي

طقطمش بن جاني بك بن ازبك بن طغرلجا بن منكو تمر بن طغان بن باطو خان بن دوشي خان بن جنكز خان

قلابقا

طقطاي

صرخو

بركة

اردوا بن قبجي بن كبك بن تمشلاي

مغنطاي

دولة بني هولاكو

دولة بني هلاكو ملوك التتر بالعراقيين وخراسان
ومبادىء امورهم وتصاريف احوالهم

قد تقدم لنا أن جنكزخان عهد بالتخت وهو كرسي الملك بقراقوم لابنه اوكداي ، ثم ورثه من بعده كفود بن أوكداي وان الفتنة وقعت بينه وبين صاحب الشمال من بني جنكزخان وهو ناظو بن دوشي خان صاحب التخت بصراي ، وسار اليه في جموع المغل والتتر وهلك في طريقه. وسلم المغل الذين معه التخت لناظو فامتنع من مباشرته بنفسه ، وبعث اليه أخاه منكوفان ، وبعث معه بالعساكر اخويه الاخرين قبلاي وهلاكو ومعهما أخوهما بركة ليجلسه على التخت ، فاجلسه سنة خمسين . وذكرنا سبب اسلام بركة عند مرجعه ، وان منكوفان استقل بالتخت وولى بني جفطاي بن جنكزخان على بلاد ما وراء النهر امضاء لوصية جنكزخان. وبعث اخاه هلاكو لتدويخ عراق العجم وقلاع الاسماعيلية ويسمون الملاحدة ، والاستيلاء على ممالك الخليفة .

هلاكو بن طولي

ولما بعث منكوفان اخاه الى العراق فسار لذلك سنة اثنتين وخمسين وستمائة، وفتح الكثير من قلاعهم وضيق بالحصار مخنقهم وولى خلال ذلك في كرسي صراي بالشمال بركة بن نـاطو بن دوشي خان فحدثت الفتنة بينه وبين هلاكو، ونشأت من الفتنة الحرب وسار بركة ومعه نوغان بن ططر بن مغل بن دوشي خان والتقوا على نهر نول وقد جمد ماؤه لشدة البرد، وانخسف من تحته فانهزم هلاكو وهلك عامة عسكره. وقد ذكرنا اسباب الفتنه بينهما. ثم رجع هلاكو الى بلاد الاسماعيلية وقصد قلعة الموت، وبها صاحبها علاء الدين فبلغه في طريقه وصية مـن ابن العلقمي وزير المستعصم ببغداد في كتاب ابن الصلايا صاحب اربل يستحثه للمسير الى ببغداد، ويسهل عليه امرها لما كان ابن العلقمي رافضياً هو واهل محلته بالكرخ. وتعصب عليهم اهـل السنة وتمسكوا بان الخليفة والدوادار يظاهرونهم، واوقعوا باهل الكرخ.

وغضب لذلك ابن العلقمي ودس الى ابن الصلايا باربل وكان صديقاً له بان يستحث التتر لملك بغداد، واسقط عامة الجند يوه بأنه يصانع التتر بعطائهم وسار هلاكو والتتر الى بغداد. واستنفر بنحو مقدم التتر ببلاد الروم فيمن كان معه من العساكر فامتنع اولا ثم اجاب وسار اليه. ولما اطل هلاكو على بغداد في عساكره

برز للقائه ايبك الدوادار في عساكر المسلمين فهزموا عساكر التتر، ثم تراجع التتر فهزموهم واعترضهم دون بغداد بثوق انبثقت في ليلتهم تلك من دجلة فحالت دونها فقتلوا اجمعين. وهلك ايبك الدوادار واسر الامراء الذين معه، ورجعوا الى البلد فحاصروها مدة. ثم استأمن ابن العلقمي للمستعصم ولنفسه املًا بان هلاكو يستبقيه فخرج اليه في موكب من الاعيان وذلك في محرم سنة ست وخمسين.

وقُبِضَ على المستعصم فشدخ بالمعاول في عدل تجافياً عن سفك دمه بزعمهم. ويقال إنّ الذى أحصي فيها من القتلى ألف ألف وثلثمائة ألف. واستولوا من قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يحصره العدد والضبط، وألقيت كتب العلم التي كانت في خزائنهم بدجلة معاملة بزعمهم لما فعله المسلمون بكتب الفرس عند فتح المدائن، واعتزم هلاكو على اضرام بيوتها ناراً فلم يوافقه أهل مملكته. واستبقى ابن العلقمي على الوزارة ولرتبة ساقطة عندهم، فلم يكن قصارى أمره إلّا الكلام في الدخل والخرج متصرفاً من تحت آخر، أقرب الى هلاكو منه، فبقي على ذلك مدّة ثم اضطرب وقتله هلاكو.

ثم بعث هلاكو بعد فتح بغداد بالعساكر الى ميافارقين وبها الكامل محمد بن غازي بن العادل فحاصروها سنين حتى جهد الحصار اهلها. ثم اقتحموها عنوة واستلحموا حاميتها. ثم بعث

اليه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ابنــه ركن الدين اسمعيل بالطاعة والهدية فتقبله ، وبعثه الى القان الاعظم منكوفان بقراقوم، وأبطأ عـلى لؤلؤ خبره فبعث بالولدين الآخرين شمس الدين اسحق وعــلاء الدين بهدية أخرى ورجعوا اليــه بخبر ابنه وقرب ايابه ، فتوجه لؤلؤ بنفسه الى هلاكو ولقيه باذربيجان ، وحضر حصار ميافارقين . وجاءه ابنه ركن الدين من عند منكوفان بولاية الموصل وأعمالها .

ثم هلك سنة سبع وخمسين وولي ابنه ركن الدين اسمعيــل ويلقب الصالح . وبعث هلاكو عسكراً الى اربل فحاصرها ستة أشهر وامتنعت ، فأفرجت عنها العساكر فاغتنم ابن الصلايا الفرصة، ونزل عنها لشرف الدين الكردي ، ولحق بهلاكو فقتله . وكان صاحب الشام يومئذ الناصر بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين . فلما بلغه استيلاء هلاكو على بغداد بعث اليه ابنه بالهدايا والمصانعة والعــذر عن الوصول بنفسه لمكان الافرنج من سواحل الشام فقبل هديته وعذره ، ورجع ابنــه بالمواعيد . ولم يتم لهلاكو الاستيلاء على الجزيرة وديار بكر وديار ربيعة ، وانتهى ملكه الى الفرات وتاخم الشام . وعبر الفرات سنة ثمان وخمسين فلك البيرة ووجد بها السعيد أخا الناصر بن العزيز معتقلاً فأطلقه ورده الى عمله بالضبينة وبانياس .

ثم سار الى حلب فحاصرها مدة ، ثم ملكها ومنّ عليه وأطلقه ،

ووجد بها المعتقلين من البحرية مماليك الصالح أيوب الذين حبسهم الناصر وهم: سنقر الاشقر وتنكز وغيرهما؛ فأطلقهم وكان معهم أمير من أكابر القفجاق لحق به واستخدم له فجعلهم معه، وولى على البلاد التي ملكها من الشام. ثم جهز العساكر الى دمشق، وارتحل الناصر الى مصر ورجع عنه الصالح بن الاشرف صاحب حمص الى هلاكو فولاه دمشق وجعل نوابه بها لنظره. وبلغ الناصر الى هلاكو. ثم استوحش الخليفة من قطز سلطان مصر لما كان بينهما من الفتنة فخرج الى هلاكو فأقبل عليه، واستشاره في انزال الكتائب بالشام؛ فسهل له الامر في عساكر مصر ورجع الى رأيه في ذلك، وترك نائبه كيبغا من أمراء التتر في خف من الجنود فبعث كيبغا الى سلطان مصر. وأساء رسله بمجلس السلطان في الخطاب بطلب الطاعة فقتلهم، وسار الى الشام فلقي كيبغا بعين جالوت فانهزمت عساكر التتر، وقتل كيبغا اميرهم، والسعيد صاحب الضبينة أخو الناصر كان حاضراً مع التتر فقبض عليه وقتل صبراً.

ثم بعث هلاكو العساكر الى البيرة والسعيد بن لؤلؤ على حلب ومعه طائفة من العساكر؛ فبعث بعضهم لمدافعة التتر فانهزموا وحنق الامراء على السعيد بسبب ذلك وحبسوه وولوا عليهم حسام الدين الجوكندار. وزحف التتر الى حلب فأجفل عنها واجتمع مع صاحبها المنصور على حمص، وزحفوا الى التتر فهزموهم.

وسار التتر الى افامية فحاصروها وهابوا ما وراءها ، وارتحلوا الى بلادهم. وبلغ الخبر الى هلاكو؟ فقتل الناصر صاحب دمشق لاتهامه اياه فيما اشار به من الاستهانة بأهل مصر. وكان هلاكو لما فتح الشام سنة ثمان وخمسين بلغه مهلك أخيه القان الاعظم منكوقان في مسيره الى غزو بلاد الخطا فطمع في القانية، وبادر لذلك فوجد أخاه قبلاي قد استقل فيها بعد حروب بدت بينه وبين أخيه أزبك تقدم ذكرها في أخبار القان الاعظم، فشغل بذلك عن أمر الشام.

ثم لما يئس من القانية قنع بما حصل عنده من الاقاليم والاعمال ورجع الى بلاده. والاقاليم التي حصلت بيده:

اقليم خراسان كرسيه نيسابور، ومن مدنه طوس وهَراة وتِرمِذ وبَلْخ وهَمَذان ونَهاوَنْد وكنجة.

وعراق العجم كرسيه أصفهان، ومن مدنه قَزوين وقُمّ وقَاشان وشهرزور وسِجِسْتان وطَبَرِستان وطلان وبلَاد الاسماعيلية.

وعراق العرب كرسيه بغداد، ومن مدنه الدينَور والكوفة والبصرة.

أذرَبيجان وكرسيه توريز، ومن مدنه حَرّان وسلماس وقفجاق.

خوزستان كرسيها ششتر ومن مدنها الاهواز وغيرها.

فارس كرسيها شيراز، ومن مدنها كش ونعمان ومحمل رزّون والبحرين.

ديار بكر كرسيها الموصل ، ومن مدنها ميافارقين ونصيبين وسنجار وأسعَرْد ودبيس وحَرّان والرُها وجزيرة ابن عمر .

بلاد الروم كرسيها قونية ، ومن مدنها ملطية وأقصرا وأورنكار وسيواس وانطاكية والملايا .

ثم اجلاه احمد الحاكم خليفة مصر فزحف الى بغداد ، وهذا الحاكم هو عم المستعصم. لحق بمصر بعد الواقعة ، ومعه الصالح بن لؤلؤ بعد أن ازاله التتر من الموصل فنصب الظاهر بيبرس أحمد هذا في الخلافة سنة تسع وخمسين ، وبعثه لاسترجاع بغداد ، ومعه الصالح بن لؤلؤ على الموصل . فلما أجازوا الفرات وقاربوا بغداد كبسهم التتر ما بين هيث وغانة فكبسوا الخليفة ، وفرّ ابن لؤلؤ وأخوه الى الموصل فنازلهم التتر سبعة أشهر ، ثم اقتحموها عليهم عنوةً وقتلوا الصالح . وخشي الظاهر بيبرس غائلة هلاكو . ثم إن بركة صاحب الشمال قد بعث الى الظاهر سنة ستمائة وسبعين باسلامه فجعلها الظاهر وسيلة للوصلة معه والانجاد ، وأغراه بهلاكو لما بينهما من الفتنة ؛ فسار بركة لحربه وأخذ بحجزته عن الشام . ثم بعث هلاكو عساكر التتر لحصار البيرة ومعه درباي من أكابر أمراء المغل ، وأردفه بابنه أبغا . وبعث الظاهر عساكره لانجاد أهلها فلما أطلوا على عسكر درباي وعاينهم أجفل وترك المخيم والآلة ولحق بابغا منهزماً فاعتقله وسخطه . ثم هلك هلاكو سنة اثنتين وستين لعشر سنين من ولايته العراق والله أعلم .

ابغا بن هلاكو

ولما هلك هلاكو ولي مكانه ابنه أبغا ، وسار لاول ولايته لحرب بركة صاحب الشمال فسرّح اليه بركة العساكر مع قريبه نوغاي بن ططر بن مغل بن دوشي خان، ومع سنتف بن منكوفان ابن جفطاي بن جنكزخان ، وخام سنتف عن اللقاء ورجع منهزماً وأقام نوغاي؛ فهزم أبغا وأثخن في عساكره وعظمت منزلته بذلك عند بركة . ثم بعث سنة احدى وسبعين عساكره مع درباي لحصار البيرة ، وعبر الظاهر اليهم الفرات وهزمهم ، وقتل أميرين مع درباي ولحق درباي بأبغا منهزماً فسخطه ، وأدال منه بابطاي . وفي سنة اثنتين وسبعين زحف أبغا الى تكدار بن موجي بن جفطاي بن جنكز خان وكان صاحبه فاستنجد بابن عمه براق بن سنتف بن منكوفان بن جفطاي فأمدّه بنفسه وعساكره . واستنفر أبغا عساكر الروم وأميرهم طمقان والبرواناة ، والتقى الجمعان ببلاد الكرج فانهزم تكدار ولجأ الى جبل هنالك حتى استأمن أبغا فأمنه ، وعهد ان لا يركب فرساً فارهاً ولا يمس قوساً .

ثم نمي الى أبغا أنّ الظاهر صاحب مصر سار الى بلاد الروم فبعث العساكر اليها مع قائدين من قواد المغل ، وهما تدوان وتغوا فسارا ، وملك الظاهر قيسارية من تخوم بلادهم . وبلغ

الخبر الى أبغا فجاء بنفسه الى موضع الهزيمة وعاين مصارع قومه ، ولم يسمع ذكراً لاحد من عسكر البرواناة انه صرع فاتهمه ، وبعث عنه بعد مرجعه فقتله. ثم سار أبغَا سنة ثمانين وعبر الفرات ونازل الرحبة وبعث الى صاحب ماردين فنزل معه هناك. وكان منكوتمر ابن اخي بركة ملك صراي فسار بعساكره من المغل وحشود الكرج والارمن والروم، ومر بقيسارية وابلسين، واجاز الدربند الى الرحبة فنازلها. وبعث أبغَا اليه بالعساكر مع اخيه منكوتمر بن هلاكو، واقام هو على الرحبة. وزحف الظاهر من مصر في عساكر المسلمين فلقيهم التتر على حمص. وانهزم التتر هزيمة شنعاء هلك فيها عامة عساكرهم، واجفل ابغَا من حصار الرحبة، وهلك اخوه منكوتمر بن هلاكو مرجعه من تلك الواقعة يقال مسموماً، وانه مر ببعض امرائه بجزيرة تسمى موموّاغا كان يضطغن له ببعض الفعلات فسقاه سماً عند مروره به، وهرب الى مصر فلم يدركوه وأنهم قتلوا ابناءه ونساءه. ثم هلك أبغَا سنة احدى بعدها ويقال مسموماً أيضاً على يد وزيره الصاحب شمس الدين الجوني مشير دولته وكبيرها، حمله الخوف على ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

تكدار بن هلاكو ويسمى أحمد

ولما توفي أبغَا كما ذكرناه، وكان ابنه أرغوغاثياً بخراسان

فبايع المغل لاخيه تكدار فأسلم وتسمى أحمد . وخاطب بذلك الملوك لعصره ، وأرسل الى مصر يخبرهم ويطلب المساعدة ، وجاء بذلك قاضي سيواس قطب الدين الشيرازي وأتابك بلاد الروم وابن الصاحب من وراء ماردين . وكان أخوه قنقرطاي مع صمغان الشحنة فبعث تكدار عن أخيه فامتنع من الاجابة . وأجاره غياث الدين كنخسرو صاحب بلاد الروم فتوعده تكدار فخاف منه ، وسار هو وقنقرطاي الى تكرار فقتل أخاه وحبس غياث الدين وولى مكانه أخاه عز الدين ، وأدال من صمغان الشحنة باولاطو من أمراء المغل . ثم جهز العساكر الى خراسان لقتال أخيه أرغو فسار اليهم أرغو وكبسهم ، وهزمهم وفتك فيهم فسار تكدار بنفسه فهزم أرغو وأسره وأثخن في عساكره ، وقتل اثني عشر أميراً من المغل فاستوحش أهل معسكره وكانوا ينقمون عليه اسلامه فثاروا عليه وقتلوا نائبه . ثم قتلوه سنة اثنتين وثمانين وبعثوا الى أرغو بن ابغا بطاعتهم والله تعالى أعلم .

ارغو بن ابغا

ولما ثار المغل على تكدار وقتلوه وبعثوا بطاعتهم الى أرغو فجاء وولوه أمرهم فقام بسلطانه ، وقتل غياث الدين كنخسرو صاحب بلاد الروم في محبسه، أتهمه بمداهنته في قتل عمه قنقرطاي وتقبض لأوّل ولايته على الوزير شمس الدين الجوني ، وكان متهماً

بأبيه وعمه فقتله ، وولى على وزارته سعد اليهودي الموصلي ولقبه سعد الدولة ، وكان عالماً بالحكمة . وولى ابنيه قازان وخربندا على خراسان لنظر نيروز أتابكه . ولما فرغ من أمور ملكه وكان قد عدل عن دين الاسلام ، وأحب دين البراهمة من عبادة الاصنام وانتحال السحر والرياضة له . ووفد عليه بعض سحرة الهند فركب له دواء لحفظ الصحة واستدامتها فأصابه منه صرع فمات سنة سبعين ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

كتخاتو بن ابغا

ولما هلك أرغو بن ابغا ، وابناه قازان وخربندا غائبان بخراسان اجتمع المغل على اخيه كتخاتو فبايعوه وقدموه للملك . ثم ساءت سيرته وأفحش في المناكر واباحة الحرمات والتعرض للغلمان من ابنائهم . وكان في عسكره بيدو بن عمر طرغاي بن هلاكو فاجتمع اليه أمراء المغل وبايعوه سرّاً ، وشعر بهم كتخاتو ففرّ من معسكره الى جهة كرمان ، وساروا في اثره فأدركوه بأعمال غانة ، وقتلوه سنة ثلاث وتسعين لثلاث سنين وأشهر من ولايته . والله تعالى أعلم .

بيدو بن طرغاي بن هلاكو

ولما قتل أمراء المغل كتخاتو بن ابغا بايعوا مكانه لابن عمه

بيدو بن طرغاي بن هلاكو ، وكان قازان بن أرغو بخراسان فساو لحرب بيدو ومعه الاتابك نيروز فلما تقاربا للقاء تردّد الناس بينهما في الصلح ، على أن يقيم نيروز الاتابك عند بيدو ، واصطلحا وعاد قازان. ثم أرسل نيروز الاتابك الى قازان يستحثه فسار من خراسان. ولما بلغ الخبر الى بيدو فاوض فيه نيروز الاتابك فقال: انا اكفيكه فصبر حتى أتى اليه فسرّحه. ولما وصل الى قازان أطلعه على شأن أمراء بيدو وأنهم راغبون عنه، وحرضه على المسير فامتعض لذلك بيدو وسار للقائهم فلما التقى الجمعان انتقض عليه أمراؤه بمداخلة نيروز فانهزم، ولحق بنواحي همذان فأدرك هناك، وقتل سنة خمس وتسعين لثمانية أشهر من ملكه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

قازان بن ارغو

ولما انهزم بيدو وقتل، ملك على المغل مكانة قازان بن أرغو فجعل أخاه خربندا والياً على خراسان، وجعل نيروز الاتابك مدبراً لمملكته. وسعى لاول أمره في التدبير على طرغاي من أمرائه ومواليه من المغل الذي داخل بيدو في قتل كتخاتو الذي تولى كبر ذلك فخافه طرغاي على نفسه، وكان نازلا بين بغداد والموصل فبعث الى كتبغا العادل صاحب مصر والشام يستأذنه في اللحاق به. ثم ولى قازان على ديار بكر أميراً من أشياعه اسمه

مولان فهزمه وقتل الكثير من أصحابه، ونجـا الى الشام وبعث كيبغا من تلقاه وجاء به الى مصر ودخل مجلس الملك. ورفع مجلسه فيها قبل أن يسلم واستقر هو وقومه الاويراتية بمصر وأقطع لهم. وكان ذلك داعياً الى الفتنة بين الدولتين.

ثم قتل قازان الاتابك نيروز، وذلك أنه استوحش من قازان وكاتب لاشين سلطان مصر والشام المتولي بعد كيبغا. وأحس نيروز بذلك فلحق بهراة مستجيراً بصاحبها، وهو فخر الدين بن شمس الدين كرت صاحب سجستان فقبض عليه فخر الدين وأسلمه الى قطلو شاه فقتله. وقتل قازان بعد ذلك أخويه ببغداد وهما حاجي ولكري، وقفل السفير اليه بالكتاب من مصر. ثم كان بعد ذلك مفر شلامس بن ايال ثم منجو الى مصر وكان اميراً في بلاد الروم على الطومار المحجر فيها، ــ والطومار عندهم عبارة عن مائة ألف من العساكر ــ عن قازان فارتاب به، وأرسل الى لاشين يستأذنه في اللحاق به.

وبعث قازان العساكر اليه فقاتلوه وانفض عنه أكثر أصحابه ففرّ الى مصر، وترك أهله وولده وبعث معه صاحب مصر العساكر لتلقي أهله، ومرّوا بسيس فاعترضه عساكر التتر هنالك فهزموه، وقتلوا أمير مصر الذي معه، واعتصم هو ببعض القلاع فاستنزلوه منها وبعثوا به الى قازان فقتله. وأقام أخوه قطقطو بمصر في جملة عسكرها ونشأت بهذه كلها الفتن بين قازان وأهل مصر، ونزع

اليه أمراء الشام فلحق نائب دمشق وبكتمر نائب حلب وألبكي الظاهري وعزاز الصالحي واسترابوا بسلطانهم الناصر محمد بن قلاون فلحقوا بـه واستحثوه الى الشام. وسار سنة تسع وسبعين في عساكر المغل والارمن ومعه نائبه قطلو شاه ومولي.

وجاء الملك الناصر من مصر في عساكر المسلمين. ولما انتهى الى غزة اطلع على تدبير بعض المماليك عليه من أصحاب كيبغا ومداخلة الامراء الذين هاجروا من المغل الى مملكة مصر لهم في ذلك، فسبق جميعهم وارتحل الى حمص للقاء التتر. ثم سار فصبحهم بمرج المروج والتقى الجمعان، وكانت الدبرة على المسلمين، واستشهد منهم عدد. ونجا السلطان الى مصر، وسار قازان على التعبية فملك حمص، واستوعب مخلف السلطان فيها. ثم تقدم الى دمشق فملك المدينة وتقدم الى قفجاق لجبـاية أموالها ولحصار القلعة وبها علاء الدين سنجر المنصور فامتنع وهدم ما حولها من العمران، وفيها دار السعادة التي بها ايوان الملك.

وسار قازان الى حلب فملكهـا وامتنعت عليه القلعة وعاثت عساكره في البلاد، وانتهت غاراتهم الى غزة. ولما امتنعت عليه القلاع ارتحل عائداً الى بلده، وخلف قطلوشاه في عساكره لحماية البلد وحصار القلعة، ويحيى بن جلال الدين لجباية الاموال. وترك قفجاق على نيابة دمشق وبكتمر على نيابة حلب وحمص وحماة؛ وكر الملك الناصر راجعاً الى الشام بعد ان جمع العساكر وبث

العطاء وأزاح العلل ، وعلى مقدّمته سرمز الجاشنكير وسلار كافلا مملكته فتقدموا الى حدود الشام وأقام هو بالصالحية . واستأمن لهما قفجاق وبكتمر النائبان بدمشق وحلب ، وراجعا طاعة السلطان واستولى سرمز وسلار على الشام ورجع قطلوشاه الى العراق . ثم عاود قازان المسير الى الشام سنة اثنتين وسبعين وعبر الفرات ، ونزل على الرَّحَبَة ، وكاتب أهل الشام يخادعهم . وقدم قطلوشاه فأغار على القدس ، وبها أحياء التركمان فقاتلوه ونالوا منه وتوقفوا هنالك . وسار الناصر من مصر في العساكر ثالث شعبان ، ولقي قطلوشاه بمرج الصُّفّر فهزمه بعد حرب شديدة ، وسار في اتباعهم الى الليل فاعتصموا بجبل في طريقهم ، وبات المسلمون يحرسونهم ثم تسللوا وأخذ القتل منهم كل مأخذ ، واعترضهم الوحل من أمامهم من بثوق بثقت لهم من نهر دمشق ، فلم ينج منهم أحد وقدم الفل على قازان بنواحي كيلان ومرض هنالك ، ومات في ذي الحجة من السنة ، ويقال انه مات أسفاً ، والله تعالى اعلم بالصواب .

خربندا بن ارغو

ولما هلك قازان ولي بعده أخوه خربندا وابتدأ أمره بالدخول في دين الاسلام وتسمى بمحمد ، وتلقب غياث الدين ، وأقر قطلوشاه على نيابته . ثم جهزه لقتال الكرد في جبال كيلان ،

وقاتلهم فهزموه وقتلوه ، وولى مكانه جوبان بن تدوان ، وأقام في سلطانه حسن الدين معظماً للخلفاء وكتب أسماءهم على سكته ثم صحب الروافض فساء اعتقاده وحذف ذكر الشيخين من الخطبة ، ونقش أسماء الائمة الاثني عشر على سكته . ثم أنشأ مدينة بين قَزوين وهَمَذان وسماها السلطانية ونزلها واتخذ بها بيتاً لطيفاً بلبن الذهب والفضة ، وأنشأ بأزائها بستاناً جعل فيه أشجار الذهب بثمر اللؤلؤ والفصوص ، وأجرى اللبن والعسل أنهاراً ، وأسكن به الغلمان والجواري تشبيهاً له بالجنة ، وأفحش في التعرض لحرمات قومه . ثم سار الى الشام سنة ثلاث عشرة ، وعبر الفرات ونزل الرَحَبة ورجع . ثم هلك ويقال مات مسموماً على يد بعض أمرائه سنة ست عشرة ، والله تعالى أعلم .

ابو سعيد بن خربندا

ولما هلك خربندا خلف ابنه أبا سعيد طفلاً صغيراً ابن ثلاث عشرة سنة فاستصغره جوبان ، وأرسل الى أزبك ملك الشمال بصراي يستدعيه لملك العراقين فحذره نائبه قطلقتمر من ذلك ، وبايع جوبان لأبي سعيد بن خربندا على صغره وبدأ أمره بقتل أبي الطيب رشيد الدولة فضل الله بن يحيى الهمذاني المتهم بقتل أبيه فقتله . وكان مقدّماً في العلوم وسرياً في الغاية ، وله تاريخ جمع فيه أخبار التتر وأنسابهم وقبائلهم وكتبه مشجراً كما في

كتابنا هذا . وكان جوبان يومئذ بخراسان يقاتل عليها سيول بن براق بن سنتف بن ماسان بن جفطاي صاحب خوارزم ، أغراه ازبك صاحب الشمال بخراسان وأمدّه بعساكره . وكان جوبان موافقاً له ، فلما هلك خربندا طمع سيول في الاستيلاء على خراسان وكاتب أمراء المغل بدولة أبي سعيد يرغبهم فأطمعوه فسار جوبان الى الاردن ومعناه بلغتهم العسكر والمخيم .

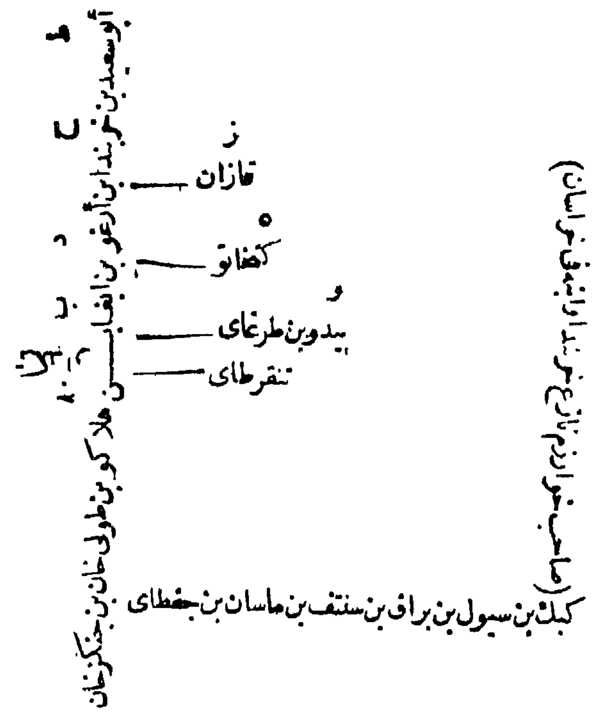
وانتهى الى ابي سعيد خبر أمرائه فقتل منهم أربعين ، ورجع جوبان الى خراسان سنة ثمان عشرة ، وقد استولى سيول عليها وعلى طائفة من عراق العجم . وبعث اليه ازبك صاحب الشمال نائبه قطلقتمر مدداً في العساكر فلقيهم جوبان ، وكانت بينهم حروب . وانتزع جوبان ما ملكه سيول من بلاد خراسان وصالحه على ما بقي ورجع . ثم سار ازبك ملك الشمال الى مراغة فأغار عليها وغنم ورجع ، وأتبعه جوبان في العساكر فلم يدركه وهلك سيول سنة عشرين ، وارتجع ابو سعيد ما كان بيده من خراسان. وكان ازبك صاحب الشمال ينقم على أبي سعيد استبداد جوبان عليه وتحكمه في بني جنكزخان ، ويحرض اهل النواحي على جوبان ويتوقع له المهالك . وأوصل الملوك في النواحي للمظاهرة على جوبان وسلطانه ابي سعيد ، حتى لقد ضاهر صاحب مصر على مثل ذلك ، ولم يتم الصلح لابي سعيد معه كما مرّ في اخبارهم .

وجهز ازبك العساكر سنة عشرين لحرب جوبان فحاصرهم المدني بنهر كوزل الذي في حدود ملكهم فرجعوا . ثم جهز جيشاً آخر مع قطلقتمر نائبه ، وكان جوبان نائب ابي سعيد قد ولّى على بلاد الروم ابنه دمرداش فزحف سنة احدى وعشرين الى بلاد سيس وافتتح منها قلاعاً ثلاثاً وخربها . وبعث الى الملك النـاصر يطلب المظاهرة في جهاد الارمن بسيس فبعث السلطان عساكره سنة اثنتين وعشرين ومعهم من المتطوّعة عدد ، وحاصروا سيس . ثم انعقد الصلح سنة ثـلاث وعشرين بعدهـا بين الملك الناصر وبين أبي سعيد واستقامت الاحوال ، وحج أكابر المغـل من قرابة أبي سعيد ملك التتر بالعراقين ، واتصلت المهاداة بينهما وسار نائبه جوبان سنة خمس وعشرين الى خراسان في العساكر ، وقد زحف اليه كبك بن سيول فجرت بينهما حروب ، وانهزم جوبان ، واستولى كبك على خراسان .

ثم كبسه جوبان فهزمـه وأثخن في عساكره ، وغلبه عـلى خراسان فعادت الى ملكة أبي سعيد . وبينما جوبان مشتغل بتلك الفتنة والحروب في نواحي خراسان اذ بلغه الخبر بأن السلطان أبا سعيد تقبض على ابنه خواجا دمشق ، فلما بلغه الخبر بذلك انتقض وزحف اليه أبو سعيد فافترق عنه أصحابه ، ولحق بهراة فقتل بها سنة ست وعشرين . وأذن أبو سعيد لولده ان ينقـلوا شلوه الى تربته التي بناها بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ،

ونقلوه فلم يقدر دفنه بها . وتوقف أمير المدينة على اذن السلطان بمصر في ذلك فدفن بالبقيع . ولما بلغ خبر جوبان لابنه دمرداش وهو أمير ببلاد الروم انزعج لذلك ، ولحق بمصر فيمن معه من الامراء والعساكر .

وأقبل السلطان الملك الناصر عليه وأحله محل التكرمة ، وجاءت على أثره رسل أبي سعيد يطلب حكم الله فيه لسعيه في الفساد والفتنة . وأجابه السلطان الى ذلك على أن يفعل مثل ذلك في قراسنقر النازع اليهم من أمراء الشام ، فأمضى ذلك فيهما جزاء بما قدّمت أيديهما . ثم تأكدت أسباب المواصلة والالتحام بين هذين السلطانين بالاصهار والمهاداة واتصل ذلك ، وانقطع زبون العرب وفسادهم بين المملكتين . وهلك السلطان ابو سعيد سنة ست وثلاثين ولم يعقب ، ودفن بالسلطانية ، واختلف أهل دولته . وانقرض الملك من بني هلاكو وافترقت الاعمال التي كانت في ملكهم وأصبحت طوائف في خراسان وفي عراق العجم وفارس ، وفي اذربيجان كله في عراق العرب وفي بلاد الروم كما نذكر ذلك . والله وارث الارض ومن عليها واليه يرجعون .



اضطراب دولة بني هلاكو وانقسام الملك طوائف في اعمالهم وانفراد الشيخ حسن ببغداد واستيلاء بنيه معها على توريز وما كان لهم فيها من الملك والدولة وابتدائها ومصايرها

ولما هلك أبو سعيد بن خربندا ملك التتر بكرسي بغداد سنة ست وثلاثين ولم يعقب، نصب امراء المغل الوزير غياث الدين، وخلع اورخان. ونصب للملك موسى خان من اسباطهم، وقام بدولته الشيخ حسن بن حسين بن بيبقا بن املكان، وهو ابن عمة

السلطان أبي سعيد سبط ارغو بن أبغا. انزله أبو سعيد بقلعة كانج من بلاد الروم ووكل به. فلما هلك أبو سعيد وانحل عقاله وذهب أبو نور بن ماس عفى عليها، وبلغه شأن أهل الدولة ببغداد فلم يرضه ونهض اليها فقتل علي ماسا القائم بالدولة، وعزل موسى خان الملك، ونصب مكانه محمد بن عنبرجي، وهو الذي تقدم في ملوك التخت صحة نسبه الى هلاكو. واستولى الشيخ حسن على بغداد وتوريز. ثم سار اليه حسن بن دمرداش من مكان امارته وأمارة أبيه ببلاد الروم، وغلبه على توريز وقتل سلطانه محمد بن عنبرجي، ولحق الشيخ حسن ببغداد واستقرّ حسن بن دمرداش في توريز، ونصب للملك أخت السلطان أبي سعيد اسمها صالبيك وزوجها لسليمان خان من أسباط هلاكو، واستقل بملك توريز وكان يعرف بالشيخ حسن الصغير لان صاحب بغداد كان يشاركه في اسمه وهو أسنّ، وأُدخل في نسب الخان فميز بالكبير وميز هذا بالصغير.

ولما استقل حسن الصغير بالملك والخان عنده عجز عنه الشيخ حسن الكبير، وغلبته أمم التركمان بضواحي الموصل الى سائر بلاد الجزيرة. فيقال انه أرسل الى الملك الناصر صاحب مصر بأن يملكه بغداد ويلحق به فيقيم عنده، وطلب منه أن يبعث عساكره لذلك على أن يرهن فيهم ابنه فلم يتم ذلك لما اعترضه من الاحوال. وافترقت مملكة بني هلاكو فكان هو ببغداد والصغير بتوريز

وابن المظفر بعراق العجم وفارس والملك حسين بخراسان . واستولى على أكثرها ملك الشمال أزبك صاحب التخت بصراي من بني دوشي خان بن جنكزخان . ثم استوحش الشيخ حسن من سلطانه سليمان خان فقتله واستبد . ثم هلك الشيخ حسن الصغير بن دمرداش بتوريز سنة أربع وأربعين ، وملك مكانه أخوه الاشرف . ثم هلك الشيخ حسن الكبير ببغداد سنة سبع وخمسين ، والله تعالى أعلم .

اويس بن الشيخ حسن

ولما هلك الشيخ حسن الكبير ببغداد ولي مكانه ابنه أويس ، وكان بتوريز الاشرف بن دمرداش فزحف اليه ملك الشمال جاني بك بن أزبك سنة ثمان وخمسين ، وملكها من يده . ورجع الى خراسان بعد أن استخلف عليها ابنه واعتقل في طريقه فكتب أهل الدولة الى ابنه بردبيك يستحثونه للملك ، فأغذ السير اليهم وترك بتوريز عاملها أخبجوخ فسار اليه أويس صاحب بغداد وغلبه عليها وملكها . ثم ارتجعها منه أخبجوخ وأقام بها فزحف اليه ابن المظفر صاحب اصفهان وملكها من يده وقتله . وانتظم في ملكه عراق العجم وتوريز وتستر وخوزستان . ثم سار أويس فانتزعها من يد ابن المظفر واستقرّت في ملكه ، ورجع الى بغداد وجلس على التخت واستفحل أمره . ثم هلك سنة ست وسبعين حسين بن أويس ، وقد خلف بنين خمسة ، وهم : الشيخ حسن وحسين

والشيخ علي وأبو يزيد وأحمد. وكان وزيره زكريا، وكبير دولته الامير عادل، كان كافلاً لحسين ومن اقطاعه السلطانية فاجتمع أهل الدولة وبايعوا لابنه حسين بتوريز وقتلوا الشيخ حسن، وزعموا أن أباهم أويساً أوصاهم بقتله.

وكان الشيخ علي بن أويس ببغداد فدخل في طاعة أخيه حسين وكان قنبر علي بادك من أمرائهم نائباً بتستر وخوزستان فبايع لحسين وبعث اليه بطاعته، واستولى على دولته بتوريز زكريا وزير ابيه. وكان اسمعيل ابن الوزير زكريا بالشام هارباً أمام أويس فقدم على ابيه زكريا، وبعث به الى بغداد ليقوم بخدمة الشيخ علي فاستخلصه واستبدّ عليه، فغلب شجاع بن المظفر على توريز وارتجعها منه. ولما استقل حسين بتوريز كان بنو المظفر طامعين في ولايتها وقد ملكوها من قبل كما مرّ، وانتزعها أويس منهم. فلما توفي اويس سار شجاع الى توريز في عساكره فاجفل عنها حسين بن اويس الى بغداد، واستولى عليها شجاع، ولحق حسين بأخيه الشيخ علي ووزيره اسمعيل ببغداد مستجيشاً بهما فسرحوا معه العساكر، ورجع ادراجه اليها؛ فهرب عنها شجاع الى خوزستان وحصن ملكه بها واستقرّ فيها.

مقتل اسمعيل واستيلاء حسين على بغداد ثم ارتجاعها منه

كان اسمعيل مستبداً على الشيخ علي ببغداد كما قدّمناه فتوثب

به جماعة من أهل الدولة منهم : مبـارك شاه وقنبر وقرا محمد ، فقتلوه وعمه أمير أحمد منتصف احدى وثمانين واستدعوا قنبر علي بادك من تستر فولوه مكان اسمعيل ، واستبد على الشيخ علي ببغداد ونكر حسين عليهم ما آتوه ، وسار في عساكره من توريز الى بغداد ففارقها الشيخ علي وقنبر علي بادك الى تستر . واستولى حسين على بغـداد واستمدّه فاتهمه بمالأة أخيه الشيخ عـلي ولم يمده ، ونهض الشيخ علي من تستر الى واسط ، وجمع العرب من عبادان والجزيرة فأجفل أحمد من واسط الى بغداد ، وسار الشيخ علي في اثره فاجفل حسين الى توريز واستوسق ملك بغـداد للشيخ علي واستقرّ كل ببلده ، والله تعالى أعلم .

انتقاض أحمد واستيلاؤه على توريز ومقتل حسين

ولما رجع حسين من بغداد الى توريز عكف على لذاته وشغل بلهوه ، واستوحش منه أخوه احمد فلحق باردبيل ، وبها الشيخ صدر الدين . واجتمع اليه من العساكر ثلاثة آلاف أو يزيدون ، فسار الى توريز وطرقها على حين غفلة فملكها . واختفى حسين أياماً ثم قبض عليه احمد وقتله ، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده .

انتقاض عادل ومسيره لقتال احمد

كان الامير عادل والياً على السلطانية وكانت من أقطاعه ، فلما بلغه مقتل حسين امتعض له ، وكان عنده أبو يزيد بن اويس فسارا الى شجاع بن المظفر اليزدي صاحب فارس يستصرخانه على الامير أحمد بن اويس ، فبعث العساكر لصريخهما وبرز الامير أحمد للقائهم . ثم تقاربوا واتفقوا أن يستقرّ أبو يزيد في السلطانية اميراً، ويخرج الامير عادل عن مملكتهم ويقيم عند شجاع بفارس ، واصطلحوا على ذلك . وعاد ابو يزيد الى السلطانية فأقام بها وأضرّ امراؤه وخاصته بالرعايا فدسوا بالصريخ الى احمد بتوريز فسار في العساكر اليه ، وقبض عليه وكحله وتوفي بعد ذلك ببغداد .

مقتل الشيخ علي واستيلاء احمد على بغداد

لما قتل احمد اخاه حسيناً جمع الشيخ علي العساكر واستنفر قرا محمد امير التركمان بالجزيرة ، وسار من بغداد يريد توريز فبرز احمد للقائه واستطرد له لما كان منه، فبالغ في اتباعه الى ان خفت عساكره فكرّ مستميتاً . وكانت جولة اصيب فيها الشيخ علي بسهم فمات ، وأسر قرامحمد فقتل. ورجع احمد الى توريز واستوسق له ملكها . ونهض اليه عادل بن السلطان ابي سعيد يروم فرصة فيه فهزمه . ثم سار احمد الى بغداد وقد كان استبد بها بعد مهلك

الشيخ علي خواجا عبد الملك من صنائعهم بدعوة أحمد. ثم قام الامير عادل في السلطانية بدعوة أبي يزيد وبعث الى بغداد قائداً اسمه برسق ليقيم بها دعوته فاطاعه عبد الملك وأدخله الى بغداد. ثم قتله برسق ثاني يوم دخوله واضطرب البلد شهراً.

ثم وصل أحمد من توريز وخرج برسق القائد لمدافعته فانهزم، وجيء به الى احمد اسيراً فحبسه ثم قتله، وقتل عادل بعد ذلك وكفى احمد شره. وانتظمت في ملكه توريز وبغداد وتستر والسلطانية وما اليها، واستوسق امره فيها. ثم انتقض عليه اهل دولته سنة ست وثمانين، وسار بعضهم الى تمر سلطان بني جغطاي بعد ان خرج من وراء النهر بملكه يومئذ، واستولى على خراسان فاستصرخه على احمد فأجاب صريخه، وبعث معه العساكر الى توريز فأجفل عنها احمد الى بغداد واستبد بها ذلك الثائر، ورجع تمر الى مملكته الاولى. وطمع طقطمش ملك الشمال من بني دوشي خان في انتزاع توريز من يد ذلك الثائر فسار اليها وملكها، وزحف تمر في عساكره سنة سبع وثمانين الى اصفهان، وبعث العساكر الى توريز فاستباحها وخربها واستولى على تستر والسلطانيه، وانتظمها في اعماله وانفرد أحمد ببغداد وأقام بها.

استيلاء تمر على بغداد ولحاق احمد بالشام

كان تمر سلطان المغل بعد أن استولى على توريز خرج عليه

خارج من قومه في بلاده يعرف بقمر الدين ، فجاءه الخبر عنه ، وأنّ طغطمش صاحب كرسي صراي في الشمال أمدّه بأمواله وعساكره فكرّ راجعاً من أصبهان الى بلاده ، وعميت أنباؤه الى سنة خمس وسبعين . ثم جاءت الاخبار بأنه غلب قمر الدين الخارج عليه ومحا أثر فساده . ثم استولى على كرسيّ صراي وأعمالها . ثم خطا الى أصفهان وعراق العجم والريّ وفارس وكرمان فملك جميعها من بني المظفر اليزدي ، بعد حروب هلك فيها ملوكهم وبادت جموعهم . وشدّ أحمد ببغداد عزائمه وجمع عساكره وأخذ في الاستعداد ؛ ثم عدل الى مصانعته ومهاداته فلم يغن ذلك عنه ، وما زال تمر يخادعه بالملاطفة والمراسلة الى أن فتر عزمه وافترقت عساكره فنهض اليه يغذّ السير في غفلة منه حتى انتهى الى دجلة ، وسبق النذير الى احمد فأسرى بغلس ليله ، وحمل ما أقلته الرواحل من امواله وذخائره وخرّق سفن دجلة ، ومرّ بنهر الحلة فقطعه ، وصبح مشهد علي .

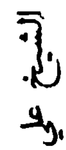
ووافى تمر وعساكره دجلة في حادي عشر شوّال سنة خمس وتسعين ، ولم يجد السفن فاقتحم بعساكره النهر ودخل بغداد واستولى عليها وبعث العساكر في اتباع أحمد ؛ فساروا الى الحلة وقد قطع جسرها فخاضوا النهر عندها ، وأدركوا أحمد بمشهد علي واستولوا على أثقاله ورواحله فكر عليهم في جموعه واستماتوا . وقتل الامير الذي كان في اتباعه ورجع بقية التتر عنهم ، ونجا

احمد الى الرحبة من تخوم الشام فأراح بها ، وطالع نائبها السلطان بأمره فسرّح بعض خواصه لتلقيه بالنفقات والازواد ، وليستقدمه فقدم به الى حلب وأراح بها . وطرقه مرض ابطأ به عن مصر .

وجاءت الاخبار بأن تمر عاث في مخلفه واستصفى ذخائره واستوعب موجود اهل بغداد بالمصادرات لاغنيائهم وفقرائهم حتى مستهم الحاجة ، وأقفرت جوانب بغداد من العيث . ثم قدم احمد بن أويس على السلطان بمصر في شهر ربيع سنة ست وتسعين مستصرخاً به على طلب ملكه والانتقام من عدوّه فأجاب السلطان صريخه ، ونادى في عسكره بالتجهز الى الشام . وقد كان تمر بعد ما استولى على بغداد زحف في عساكره الى تكريت مأوى المخالفين وعش الحرابة ورصد السابلة ، وأناخ عليها بجموعه أربعين يوماً فحاصرها حتى نزلوا على حكمه ، وقتل من قتل منهم . ثم خربها وأقفرها وانتشرت عساكره في ديار بكر الى الرُها ، وقفوا عليها ساعة من نهار فملكوها وانتسفوا نعمها ، وبلغ الخبر الى السلطان فخيم بالزيدانية أياماً أزاح فيها علل عساكره ، وأفاض العطاء في مماليكه ، واستوعب الحشد من سائر أصناف الجند واستخلف على القاهرة النائب سودون . وارتحل الى الشام على التعبية ومعه أحمد بن أويس بعد أن كفاه مهمه ، وسرب النفقات في تابعه وجنده ، ودخل دمشق آخر جمادى الاولى .

وقد كان أوعز الى جلبان صاحب حلب بالخروج الى الفرات

واستنفار العرب والتركمان للاقامة هناك رصداً للعدوّ . فلما وصل الى دمشق وفد عليه جلبان وطالعه بمهاته وما عنده من أخبار القوم ، ورجع لانفاذ أوامره والفصل فيما يطالعه فيه . وبعث السلطان على أثره العساكر مدداً له مع كمشيقا الأتابك وتكلتمش امير سلاح وأحمد بن بيبقا . وكان العدو تمر قد شغل بحصار ماردين فأقام عليها أشهراً وملكها . وعاثت عساكره فيها واكتسحت نواحيها ، وامتنعت عليه قلعتها فارتحل عنها الى ناحية بلاد الروم ؛ ومرّ بقلاع الاكراد فأغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها ، والسلطان لهذا العهد وهو شعبان سنة ستمائة وتسعين مقيم بدمشق مستجمع لنطاحه والوثبة به متى استقبل جهته . والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق بمنه وكرمه .



أحمد بن أويس ابن الشيخ حسن بن اقبغا بن ايلكان سبط ارغو بن ابغا

الشيخ حسن أبو زيد

الخبر عن بني المظفر اليزدي المتغلبين على اصفهان وفارس بعد انقراض دولة بني هلاكو وابتداء امورهم ومصايرها

كان أحمد المظفر من أهل يزد وكان شجاعاً واتصل بالدولة أيام أبي سعيد فولوه حفظ السابلة بفارس ، وكان منها مبدأ أمرهم . وذلك أنه لما توفي أبو سعيد سنة ست وثلاثين وسبعمائة ولم يعقب اضطربت الدولة ومرج أمر الناس ، وافترق الملك طوائف . وغلب أزبك صاحب الشمال على طائفة من خراسان فملكها . واستبدّ بهراة الملك حسين واللان محمود فرشحه من أهل دولة السلطان أبي سعيد عاملاً على أصفهان وفارس فاستبدّ بأمره واتخذ الكرسي بشيراز الى أن هلك ، وولي بعده ابنه أبو اسحق امير شيخ سالكاً سبيله في الاستبداد . وكانت له آثار جميلة وله صنف الشيخ عضد الدين كتاب المواقف ، والشيخ عماد الدين الكاشي شرح كتاب المفتاح وسموها باسمه .

وتغلب أيضاً محمد بن المظفر على كرمان ونواحيها فصارت بيده . وطمع في الاستيلاء على فارس . وكان أبو اسحق أمير شيخ قد قتل شريفاً من أعيان شيراز فنادى بالنكير عليه ليتوصل الى غرض انتزاع الملك من يده . وسار في جموعه الى شيراز ، ومال اليه أهل البلد لنفرتهم عن أمير شيخ لفعلته فيهم فأمكنوه من البلد وملكها ، واستولي على كرسيها . وهرب أبو اسحق

أمير شيخ الى أصفهان وأتبعه ففرّ منه أيضاً وملك اصفهان، وبثّ الطلب في الجهات حتى قبض عليه وقتله قصاصاً بالشريف الذي قتله بشيراز، وكان له من الولد اربعة: شاه ولي ومحمود وشجاع وأحمد. وتوفي شاه ولي أيام ابيه وترك ابنيه منصوراً ويحيى، وملك ابنه محمود اصفهان وابنه شجاع شيراز وكرمان. واستبدّ عليه محمود وشجاع وخلفاه في ملكه سنة ستين وكحلاه.

وتولى ذلك شجاع، وسار اليه محمود من اصفهان بعد ان استجاش بأويس بن حسن الكبير فأمدّه بالعساكر سنة خمس وستين، وملك شيراز. ولحق شجاع بكرمان من أعماله وأقام بها واختلف عليه عماله، ثم استقاموا على طاعته. ثم جمع بعد ثلاث سنين ورجع الى شيراز، ففارقها أخوه محمد الى اصفهان، وأقام بها الى أن هلك سنة ست وسبعين فاستضافها شجاع الى اعماله، وأقطعها لابنه زين العابدين وزوجه بابنة أُوَيْس التي كانت تحت محمود. وولّى على مردى ابن أخيه شاه ولي. ثم هلك شجاع سنة سبع وثمانين واستقل ابنه زين العابدين باصفهان وخلفه في شيراز وفارس منصور ابن اخيه شاه ولي.

وكان عادل كبير دولة بني اويس بالسلطانية كما مرّ، ولحق به منصور بن شاه ولي هارباً من شيراز أمام عمه زين العابدين فحبس، ثم فرّ من محبسه ولحق بأحمد بن اويس مستصرخاً به فصارخه وأنزله بتُسْتَر من أعماله. ثم سار منها الى شيراز ففارقها عمه زين

العابدين الى اصفهان، وأخوه يحيى بيزد وعمها أحمد بن محمد المظفر بكرمان. ثم زحف تمر سلطان التتر من بني جفطاي بن جنكزخان سنة ثمان وثمانين، وملك توريز وخربها كما مرّ في اخباره فاطاعه يحيى صاحب يزد، وأحمد صاحب كرمان.

وهرب زين العابدين من اصفهان وملكها عليه تمر فلحق بشيراز، ورجع تمر الى بلاده فيما وراء النهر وعميت انباؤه الى سنة خمس وتسعين، فزحف الى بلاد فارس. وجمع منصور بن شاه ولي العساكر لحربه فخادعه تمر بولايته وانكفأ راجعاً الى هَراة فافترقت عساكر منصور بن شاه ولي، وجاءت عيون تمر بخبر افتراقها اليه فأغذ السير، وكبس منصور بن شاه ولي بظاهر شيراز وهو في قل من العساكر لا يجاوزون ألفين، فهرب الكثير من أصحابه الى تمر واستمات هو والباقون وقاتلوا اشد قتال. وفقد هو في المعركة فلم يوقف له على خبر، وملك تمر شيراز واستضافها الى اصفهان، وولى عليها من قبله. وقتل أحمد بن محمد صاحب كرمان وابنيه وولّى على كرمان من قبله، وقتل يحيى بن شاه ولي صاحب يزد وابنيه، وولّى على يزد من قبله واستلحم بني المظفر، واستصفى زين العابدين بن شجاع بن محمود وهرب ابنه فلحق بخاله أحمد بن أويس وهو لهذا العهد مقيم معه بمصر. والله وارث الارض ومن عليها واليه يرجعون.

زين العابدين بن شجاع بن محمود بن محمد بن المظفر اليزدي
صاحب كرمان
منصور بن شاه ولي صاحب شيراز وفارس

الخبر عن بني ارتنا ملوك بلاد الروم من المغل بعد بني هلاكو والالمام بمبادىء امورهم ومصايرهم

قد سبق لنا ان هذه المملكة كانت لبني قليج ارسلان من ملوك السُلْجُوقِيّة، وهم الذين أقاموا فيها دعوة الاسلام وانتزعوها من يد ملوك الروم أهل قُسْطَنْطِينِيّة واستضافوا اليها كثيراً من أعمال الارض ومن ديار بكر، فانفسحت أعمالهم وعظمت ممالكهم. وكان كرسيهم بقونية، ومن اعمالها أقْصُر وانطاكية والعلايا وطُغْرُل ودَمَرْلو وقرا حصار. ومن ممالكهم أذْرَبيجان ومن اعمالها: أقْشَهْر وكامِخ، وقلعة كمونية، ومن ممالكهم قيسارية، ومن أعمالها: نكرة [1] وعَداقِلِيّة ومنال. ومن ممالكهم أيضاً سيواس واعمالها ملكوها من يد الوانشمند كما مرّ في أخبارهم، ومن اعمالها: نكسار واقاسية وتوقات وقمنات وكنكرة كورية وسامسون وصَغْوى وكَسْحونيَة وطرخلوا وبرلوا.

(١) كذا، والمشهور في أيامنا: أنقره، وهي الآن عاصمة الجمهورية التركية.

ومما استضافوه من بلاد الارمن خلاط وأزمينية الكبرى واني[1] وسلطان وارجيس واعمالها . ومن ديار بكر : خرت برت ومَلَطْيَة وسمساط ومسارة فكانت لهم هذه الاعمال وما يتصل بها من الشمال الي مدينة بورصه ، ثم الى خليج القسطنطينية . واستفحل ملكهم فيها وعظمت دولتهم . ثم طرقها الهَرَم والفشل كما يطرق الدول . ولما استولى التتر على ممالك الاسلام ، وورثوا الدول في سائر النواحي ، واستقرّ التخت الاعظم لمنكوفان أخي هلاكو .

وجهز عساكر المغل سنة أربع وخمسين وستمائة الى هذه البلاد ، وعليهم بيكو من أكابر أمرائهم . وعلى بلاد الروم يومئذ غياث الدين كنخسرو بن علاء الدين كيقباد وهو الثاني عشر من ملوكهم ، من وُلْد قَطَلْمِش فنزلوا على أرزن الروم ، وبها سنان الدين ياقوت مولى علاء الدين فملكوها بعد حصار شهرين واستباحوها . وتقدموا أمامهم ، ولقيهم غياث الدين بالصحراء على أَقْشَهْر وزَنْجان ، وانهزم غياث الدين واحتمل ذخيرته وعياله ، ولحق بقونية ، واستولى بيكو على مخلفه . ثم سار الى قيسارية فملكوها . وهلك غياث الدين اثر ذلك ، وملك بعده ابنه علاء الدين كيقباد ، وأشرك معه أخويه في امره وهما : عز الدين كيكاوس وركن الدين قليج ارسلان .

وعاثت عساكر التتر في البلاد فسار علاء الدين كيقباد الى

---

(١) كذا، والمشهور: وان.

منكوفان صاحب التخت، واختلف أخواه من بعده، وغلب عز الدين كيكاوس واعتقل أخاه ركن الدين بقونية، وبعث في اثر أخيه علاء الدين من يستفسد له منكوفان فلم يحصل من ذلك على طائل. وهلك علاء الدين في طريقه، وكتب منكوفان بتشريك الملك بين عز الدين وركن الدين، والبلاد بينهما مقسومة فلعزّ الدين من سيواس الى تخوم القسطنطينية، ولركن الدين من سيواس الى أرزن الروم متصلًا من جهة الشرق ببلاد التتر. وأفرج عز الدين عن ركن الدين، واستقر في طاعة التتر. وسار بيكو في بلاد الروم قبل أن يرجع عز الدين فلقيه ارسلان دغمش من امراء عز الدين فهزمه بيكو الى قونية، فاجفل عنها عزالدين الى العلايا، وحاصرها بيكو فملكها على يد خطيبها. وخرج الى بيكو فأسلمت زوجته على يده ومنع التتر من دخولها إلّا وحداناً، وان لا يتعرضوا لاحد.

واستقرّ عز الدين وركن الدين في طاعة التتر ولهما اسم الملك، والحكم للشِحْنَة بيكو. ولما زحف هلاكو الى بغداد سنة ست وخمسين استنفر بيكو وعساكره فامتنع واعتذر بمن في طريقه من طوائف الاكراد الفراسيليّة، والبارِوقيّة فبعث اليه هلاكو العساكر، ومروا باذربيجان وقد أجفل اهلها وهم قوم من الاكراد فملكوها. وساروا مع بيكو الى هلاكو وحضروا معه فتح بغداد وما بعدها. ولما نزل هلاكو حلب استدعى عز

الدين وركن الدين فحضرا معه فتحها ، وحضر معهما وزيرهما معين الدين سليمان البرواناه واستحسنه هلاكو ، وتقدّم الى ركن الدين بأن يكون السفير اليه عنه فلم يزل على ذلك . ثم هلك بيكو مقدم التتر ببلاد الروم ، وولي مكانه صمقار من امراء المغل .

ثم اختلف الاميران عز الدين وغياث الدين سنة تسع وخمسين، واستولى عز الدين على اعمال ركن الدين فسار ومعه البرواناة الى هلاكو صريخاً فأمدّه بالعساكر ، وسار الى عز الدين فهزمهم واستمدّه ثانياً فأمدّه هلاكو ، وانهزم عز الدين فلحق بالقسطنطينيّة وأقام عند صاحبها لشكري ، واستولى ركن الدين قليج أرسلان على بلاد الروم ، وامتنع التركمان الذين بتلك الاعمال باطراف الاعمال والثغور والسواحل . وطلبوا الولاية من هلاكو فولّاهم وأعطاهم الله الملك فهم الملوك بها من يومئذ كما يأتي في اخبارهم ان شاء الله تعالى .

وأقام عز الدين بالقسطنطينية وأراد التوثب بصاحبها لشكري ووشى به أخواله من الروم فاعتقله لشكري في بعض قلاعه ، ثم هلك . ويقال انّ ملك الشمال منكوتمر صاحب التخت بصراي حدثت بينه وبين صاحب القسطنطينية فتنة فغزاه واكتسح بلاده، ومرّ بالقلعة التي بها عز الدين معتقلاً فاحتمله معه الى صراي ، وهلك عنده . ولحق ابنه مسعود بعد ذلك بابغا بن هلاكو فاكرمه وولاه على بعض القلاع ببلاد الروم . ثم إنّ معين الدين

سليمان البرواناة ارتاب بركن الدين فقتله غيلة سنة ست وستين، ونصب ابنه كنخسرو للملك، ولقبه غياث الدين، وكان متغلباً عليه مقيماً مع ذلك على طاعة التتر. وربما كان يستوحش منهم فيكاتب سلطان مصر بالدخول في طاعته، واطلع أبغا على كتابه بذلك الى الظاهر بيبرس فنكره.

وهلك صمغار الشحنة فبعث أبغا مكانه اميرين من أمراء المغل وهما تدوان وتوقر فتقدّما سنة خمس وسبعين الى بلاد الشام ونزلا بأبلستين ومعهما غياث الدين كنخسرو، وكافله البرواناة في العساكر.وسار الظاهر من دمشق فلقيهم بأبلستين وقد قعد البرواناة لما كان تواعد مع الظاهر عليه. وهزمهما الظاهر جميعاً وقتل الاميرين تدوان وتوقر في جماعة من التتر. ونجا البرواناة وسلطانه فلم يصب منهم أحد، واستراب السلطان بالبرواناة لذلك. وملك الظاهر قيسارية كرسي بلاد الروم وعاد الى مصر. وجاء أبغا ووقف على مكان الملحمة، ورأى مصارع قومه فصدّق الريبة بمالأة الظاهر والبرواناة وأصحابه فاكتسح البلاد وخربها، ورجع. ثم استدعي البرواناة الى معسكره فقتله وأقام مكانه في كفالة كنخسرو أخاه عز الدين محمداً. ولم يزل غياث الدين والياً على بلاد الروم، والشحنة من المغل حاكم في البلاد الى أن ولي تكرار بن هلاكو، وكان أخوه قنقرطاي مقيماً ببلاد الروم مع صمغار فبعث عنه، وامتنع من الوصول فأوعز الى غياث الدين

واعتقله بارزنكان وولى على بلاد الروم على الشحنة أولاكو من أمراء المغل ، وذلك سنه احدى وثمانين . ويقال انّ ارغو بن أبغا هو الذي ولى أولاكو شِحْنَةً ببلاد الروم بعد صمغار ، وانّ تدوان وتوقر انما بعث بهما أبغا لقتال الظاهر ولم يرسلها شحنة .

ثم أقام مسعود بن عزّ الدين كيكاوس في سلطانه ببلاد الروم والحكم لشحنة التتر ، وليس له من الملك إلا اسمه إلى أن افترق واضمحل أمره . وبقي أمراء المغل يتعاقبون في الشحنة ببلاد الروم ، وكان منهم أوّل المائة الثامنة الأمير علي وهو الذي قتل ملك الارمن هيثوش بن ليمون صاحب سيس ، واستعدى أخوه عليه بخربندا فأعداه وقتله كما مرّ في أخبار الارمن في دولة الترك . وكان منهم سنة عشرين وسبعمائة الامير ألبغا . ثم ولّى السلطان أبو سعيد على بلاد الروم دمرداش بن جوبان سنة ثلاث وعشرين واستفحل بها ملكه ، وجاهد الأرمن بسيس . واستمدّ الناصر محمد بن قلاون صاحب مصر عليهم فأمده بالعساكر وافتتحوا اياس عنوةً ورجعوا .

ثم نكب السلطان أبو سعيد نائبه جوبان بن بروان وقتله كما مرّ في أخبارهم . وبلغ الخبر الى دمرداش ابنه ببلاد الروم فاضطرب لذلك ، ولحق بمصر في عساكره وأمرائه فأقبل السلطان عليه وتلقاه بالتكرمة والايثار . وجاءت رسل أبي سعيد في اتباعه تطلب حكم الله تعالى فيه بسعيه في الفساد واثارة الفتنة ، على أن يفعل

مثل ذلك في قراسنقر النازع اليهم من امراء الشـام فقتلوه ، وقتل دمرداش بمصر وذهبا بما كسبا . وكان دمرداش لما هرب من بلاد الروم الى مصر ترك من امرائه أرتنا ، وكان يسمى النوير ، اسم أبناء الملوك فبعث الى أبي سعيد بطـاعته فولّاه على البلاد فملكها . ونزل سيواس واتخذها كرسي ملكه . ثم استبدّ حسن بن دمرداش بتوريز فبايع له ارتنا . ثم انتقض وكاتب الملك الناصر صاحب مصر ودخل في طاعته ، وبعث اليه بالولاية والخلع فجمع له حسن بن دمرداش وسار اليه بسيواس . وسار أرتنا للقائه بصحراء كسينوك وهزمه ، وأسر جماعة من أمرائه ، وذلك سنة أربـع وأربعين .

واستفحل ملك ارتنا من يومئـذ ، وعجز جوبان وحسن ابن دمرداش عن طلبه الى أن توفي سنة ثلاث وخمسين . وأمـا بنوه من بعـده فلا أدرى من ملك منهم ولا ترتيب ولايتهم ، إلّا أنه وقع في أخبار الترك ان السلطان أوعز سنة ست وستين الى نائب حلب أن يسير في العساكر لانجاد محمد بك بن أرتنا فمضوا وظفروا . وما زال ارتنا وبنوه مستبدّين ببلاد الروم وأعمالها. واقتطع لهم التركمان منها بلاد الارمن، سيس وما اليها ، فاستولى عليها بنو دلقادر على خلافه ، وزحفوا إليه ، وهي في أيديهم لهذا العهد . ولما خالف سماروس من أمراء الترك سنة اثنتين وخمسين ظاهره قراجا ابن دلقادر على خلافه ،وزحف اليه السلطان من مصر فافترقت

جموعه واتبعته العساكر فقتل .

وبعث السلطان سنة أربع وخمسين عسكراً في طلب قراجا فساروا الى البلستين وأجفل عنها نائبها فنهبوا أحياءه، ولحق هو بابن ارتنا بسيواس فقبض عليه وبعث به الى السلطان بمصر فقتله. واقتطع التركمان ناحية الشمال من أعمالهم الى القسطنطينية وأثخنوا في أمم النصرانية وراءهم، واستولوا على كثير من تلك الممالك وراء القسطنطينية، وأميرهم لهذا العهد في عداد الملوك الأعاظم ودولتهم ناشئة متجدّدة .

وكان صبياً بسيواس منذ أعوام الثمانين، وهو من أعقاب بني ارتنا فاستبدّ عليه قاضي البلد لما كان كافلا له بوصية أبيه. ثم قتل القاضي ذلك الصبيّ أعوام اثنتين وتسعين واستبدّ بذلك الملك. وكانت هناك أحياء التتر يناهزون ثلاثين ألفاً أو نحوها مقيمين بتلك النواحي. ملكهم دمرداش بن جوبان ومن قبله من أمراء المغل، فكانوا شيعة لبني ارتنا وعصابة لهم، وهم الذين استنجد بهم القاضي حين وجهت اليه عساكر مصر في طلب منطاش الثائر الذي فرّ، ثم لحق به، وسارت عساكر مصر في طلبه سنة تسع وثمانين؛ فاستنجد القاضي باحياء التتر هؤلاء، وجاؤا لانجاده. ورجعت عساكر مصر عنهم كما تقدّم ذلك كله في أخبار الترك، والحال على ذلك لهذا العهد، والله مصير الامور بحكمته وهو على كل شيء قدير .

ج ب ا

ابراهيم بن محمد بك بن ارتنا النوير عامل أبي سعيد على بلاد الروم .

الخبر عن الدولة المستجدة للتركمان في شمال بلاد الروم الى خليج القسطنطينية وما وراءه لبني عثمان واخوته

قد تقدم لنا في انساب العالم ذكر هؤلاء التركمان وانهم من ولد يافث بن نوح ، أي من توغرما بن كومر بن يافث ، كذا وقع في التوراة . وذكر الفيومى من علماء بني اسرائيل ونسابتهم أن توغرما هم التركمان اخوة الترك ، ومواطنهم فيما وجدناه من بحر طَبَرِسْتان ، ويسمى بحر الخَزَر الى جوفي القسطنطينية ، وشرقها الى ديار بكر . وبعد انقراض العرب والأرمن ملكوا نواحي الفرات من أوّله الى مصبه في دجلة ، وهم شعوب متفرّقون وأحياء مختلفون لا يحصرهم الضبط ولا يحويهم العدّ . وكان منهم ببلاد الروم جموع مستكثرة ، كان ملوكها يستكثرون بهم في حروبهم مع أعدائهم . وكان كبيرهم فيها لعهد المائة الرابعة جق ، وكانت أحياؤهم متوافرة وأعدادهم متكاثرة . ولما ملك سليمان ابن قطلمش قونية بعد أبيه وفتح انطاكية سنة سبع وسبعين من يد الروم ، طالبه مسلم بن قريش بما كان له على الروم فيها من الجزية ، فأنف من ذلك ، وحدثت بينهما الفتنة . وجمع قريش العرب

والتركمان مع أميرهم جق، وسار الى حرب سليمان بانطاكية فلما التقيا مال التركمان الى سليمان لعصبية الترك، وانهزم مسلم بن قريش وقتل.

وأقام أولئك التركمان ببلاد الروم أيام بني قطلمش موطنين بالجبال والسواحل. ولما ملك التتر ببلاد الروم وأبقوا على بني قطلمش ملكهم، وولوا ركن الدولة قليج ارسلان بعد أن غلب أخوه عز الدين كيكاوس وهرب الى القسطنطينية. وكان أمراء هؤلاء التركمان يومئذ محمد بك وأخاه الياس بك وصهره علي بك وقريبه سونج، والظاهر أنهم من بني جق فانتقضوا على ركن الدولة، وبعثوا الى هلاكو بطاعتهم وتقرير الأثر عليهم، وأن يبعث اليهم باللواء على العادة، وأن يبعث شحنة من التتر يختص بهم فاسعفهم بذلك وقلدهم وهم من يومئذ ملوك بها.

ثم أرسل هلاكو الى محمد بك الامير يستدعيه فامتنع من المسير اليه، واعتذر فأوعز هلاكو الى الشحنة الذي ببلاد الروم، والى السلطان قليج ارسلان بمحاربته فساروا اليه وحاربوه، ونزع عنه صهره علي بك. ووفد على هلاكو فقدمه مكان محمد صهره. ولقي محمد العساكر فانهزم وأبعد في المفرّ. ثم جاء الى قليج ارسلان مستأمناً فأمنه، وسار معه الى قونية فقتله واستقرّ صهره علي بك أميراً على التركمان، وفتحت عساكر التتر نواحي بلاد الروم الى اسطنبول. والظاهر أنّ بني عثمان ملوكهم لهذا العهد من أعقاب

علي بك أو أقاربه ، يشهد بذلك اتصال هذه الامارة فيهم مدّة هذه المائة سنة .

ولما اضمحل أمر التتر من بلاد الروم ، واستقرّ بنو أرتنا بسيواس وأعمالها غلب هؤلاء التركمان على ما وراء الدروب الى خليج القسطنطينية ، ونزل ملكهم مدينة بورصه من تلك الناحية ، وكان يسمى أورخان بن عثمان جق فاتخذها داراً لملكهم ، ولم يفارق الخيام الى القصور ، وإنما ينزل بخيامه في بسيطها وضواحيها وولي بعده ابنه مراد بك ، وتوغل في بلاد النصرانية وراء الخليج ، وافتتح بلادهم الى قريب من خليج البنادقة وجبال جنوة ، وصار أكثرهم ذمّة ورعايا . وعاث في بلاد الصقالبة بما لم يعهد لمن قبله ، واحاط بالقسطنطينية من جميع نواحيها حتى اعتقل ملكها من أعقاب لشكري . وطلب منه الذمّة وأعطاه الجزية ، ولم يزل على جهاد أمم النصرانية وراءه الى أن قتله الصقالبة في حروبه معهم سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، وولي ابنه أبو يزيد وهو ملكهم لهذا العهد .

وقد استفحل ملكهم واستجدّت بالعز دولتهم ، وكان قد غلب على قطعة من بلاد الروم ما بين سيواس وبلادهم من انطاكية والعلايا بجبال البحر الى قونية بنو قرمان من أمراء التركمان ، وهم الذين كانوا في حدود ارمينية ، وجدّهم هو الذي هزم هيشوش بن ليعون ملك سيس من الأرمن سنة عشرين وسبعمائة.

ثم كان بين بني عثمان جق وبين بني قرمان اتصال ومصاهرة، وكان ابن قرمان لهذا العهد صهر السلطان مراد بك على اخته فغلبه السلطان مراد بك على ما بيده، ودخل ابن قرمون صاحب العلايا في طاعته، بل والتركمان كلهم. وفتح سائر البلاد، ولم يبق له الا سيواس بلد بني أرتنا في استبداد القاضي الذي عليها [و]ما أدري ما الله صانع بعد ظهور هذا الملك تمر المتغلب على ملك المغل من بني جغطاي بن جنكزخان.

وملك ابن عثمان لهذا العهد مستفحل بتلك الناحية الشمالية ومتسع في اقطارها، ومرهوب عند أمم النصرانية هنالك، ودولته مستجدّة عزيزة على تلك الامم والاحياء والله غالب على أمره.

والى هنا انتهت أخبار الطبقة الثالثة من العرب ودولهم، وهم الامم التابعة للعرب بما تضمنه من الدول الاسلامية شرقاً وغرباً لهم ولمن تبعهم من العجم، فلنرجع الآن الى ذكر الطبقة الرابعة من العرب وهم المستعجمة أهل الجيل الناشئ بعد انقراض اللسان المضري ودروسه. ونذكر أخبارهم ثم نخرج الى الكتاب الثالث في أخبار البربر ودولهم فنفرغ بفراغها من الكتاب ان شاء الله تعالى، والله وليّ العون والتوفيق بمنه وكرمه.

فهارس "تاريخ" ابن خلدون

المجلد الخامس

وضعها

الاستاذ يوسف اسعد داغر

امين دار الكتب اللبنانية سابقاً

الاختصاصي بفن تنظيم المكتبات وعلم البيبليوغرافيا

١ - فهرس الموضوعات

مرتبة على الهجاء

ص

ع

٢- فهرس أعلام الرجال والنساء

ابـو

ار

اش

أم

ان

جن

س

سر

سم

ش

شه

ص

طن

عش

عم

ق

قم

كم

ل

مك

ن

و

ي

٣- فهرس الشعوب والقبائل والدول والأسر

ت

ج

خ

ق

ل

٤ـ فِهرِسُ البُلدانِ وَالأمكِنَةِ الجُغرافِيَّة

تل

ج

ح

خ

دم

ر

ز

سن

ش

ط

غ

ف

ك

كر

ل

م

ن

و

ي

٥ - فهرس الكتب الوارد ذكرها في تضاعيف الكتاب

٦- فِهرس لُغَة ابْن خَلدُون

ن

٧ ـ فهرس مواد المجلد الخامس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

فهارس مواد الكتاب

دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٢ شارع قصر النيل - القاهرة ج. م. ع.
تلفون: ٣٩٢٢١٦٨/ ٣٩٢٤٣٠١ - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص.ب.: ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقياً: كتامصر
FAX: (202) 3924657
ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN

دار الكتاب اللبناني

طباعة . نشر . توزيع

شارع مدام كوري ـ مقابل فندق بريستول
تلفون: ٧٣٥٧٣١ ـ ٧٣٥٧٣٢ ـ فاكسيملي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
برقياً: الكتاب ـ ص.ب: ١١/٨٣٣٠ ـ بيروت ـ لبنان

FAX: (9611) 351433

ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN

IBN KAHLDUN

Volume Ten

DAR AL - KITAB AL - MASRI
CAIRO

DAR AL - KITAB AL - LUBNANI
BEIRUT